

العشرون الكبار

الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

شروق
للنشر والتوزيع

العشرون الكبار

الطبعة الثانية

١٤٣٣هـ ـــ ٢٠١٢م

تطلب منشوراتنا

فى الكويت من : شركة السماحة ـ الكويت.

الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص. ب: ٦٦٥٢٠ بيان.

ت/٩٩٥٥٧٤٧١

فى مصـــــر من : مؤسسة شروق للنشر والتوزيع

المنصورة. شارع جيهان. أمام مستشفى الطوارئ. ت: ٠٥٠/٢٢٥٢٨٦٠

سلسلة (بيت الدعوة)

رقم السلسلة (٤) الرقم الفني (٤)

العشـرون الكبــار

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

الموضوع : الإسلام .. منهج حياة
اسم الكتاب : **العشرون الكبار**
المؤلف : **الشيخ د.جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين**

الصف والإخراج : **مركز بدور للثقافة والترجمة**

عدد الصفحات : **٣٣٦ صفحة = ٢١ ملزمة**
قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٩٢٨

الطبعة الثانية
١٤٣٣ هـ
٢٠١٢ م

طبعة مزيدة ومنقحة

شركة السماحة
للنشر والتوزيع - الكويت

الإهـداءُ نـثرًا

إلى وَالِدَتِي مُنيرَةَ الَّتي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

إلى وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِي الخيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَىٰ الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِي الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجلَّدَاتِ وكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَىٰ الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا، لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَىٰ الآخَرِينَ.

إلى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَىٰ فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تئِنَّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إلى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا - رَحِمَهَا اللهُ - بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أُمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وإِنِّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاسًا بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ - فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ - خَيْرًا يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي - رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَىٰ. وَأَسْأَلُ اللهَ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّىٰ بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لَا تُؤْذِي أَحَدًا وَلَا شَيْئًا، حَتَّىٰ الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ ، وَلَا يَسَعنِي ذِكْرُهُ فِي هَـٰذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إنْ شَاءَ اللهُ.

إلَى وَالِدَتِي أُهْدِي ثَوَابَ هَـٰذِهِ الرَّسَائِلِ ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلَادَتِي.

وَأَهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأَهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْنًا فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أَوْلادِي جَمِيعًا، ذُكُوراً وَإِنَاثًا.

وَأَهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلِّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَـٰذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَـٰذَا الْكِتَابُ أَلَّا يَنْسُونَا جَمِيعًا مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الشَّيْخُ الدُّكتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين

الإهْـــداءُ شِــعْـرًا

أُمَّـــــاهُ كُنْت مُنيـــرَةً وَمَنَـارَةً ... عُلْيَـا وَصَـرْحًـا ثَابِتَ الأَرْكَـانِ
قَـدْ كُنْت مَـدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُـوسَنَـا ... لِصَنَائِعِ الـمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ
قَـــدْ كُنْت لِلأَيْتَـامِ أُمًّـا بَــرَّةً ... وَالجَارِ وَالْـمِسْكِينِ أَرْأَفَ حَـانِ
أَرْضَعْـتِنَا الأَخْلاقَ شَـهْدًا سَلْسَلاً ... تَدْنُو ثِمَـارُ قُطُـوفِـهَا لِلْجَـانِي
عَلَّمْـتِنَا الصَّـبْرَ الجَمِيلَ خَلِيقَـةً ... وَالقَـوْلَ لِلحُـسْنَى وَكَفَّ لِسَانِ

* * *

أَبَتَـاهُ قَـدْ رَبَّيْـتَنِي وَأَحَطْتَنِي ... بِرِعَـايَةٍ فِـي غِــبْطَـةٍ وَأَمَـانِ
وَفَّـرْتَ أَسْـبَابَ السَّـعَادَةِ وَالهَنَا ... فَـجَـعَلْتَنِي أَسْـمُو عَلَى الأَقْـرَانِ
فَـجَـزَاكَ رَبُّ العَرْشِ خَيْـرَ جَزَائِهِ ... وَأُسْكِـنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَانِ

* * *

نَوَّرْتَ يَا بَدْرَ الدُّجَا سُـبُلَ العُـلا ... بِالفَـــضْــلِ لا فَـظٍّ وَلا مَنَّـانِ
كَمْ ذَا تُقَــابِلُ بِالسُّـرُورِ تَدَلُّلِي ... بِمَــحَــبَّـةٍ وَبِرَأْفَـةٍ وَحَنَــانِ
أَحْـبَـبْـتَنِـي قَـرَّبْتَنِي رَبَّيْـتَنِي ... بِالعِـزِّ فِي ثِقَـةٍ وَفِـي اطْمِـئْنَانِ

* * *

أَرَفِـيـقَـتِـي كُنْت الشُّـعَاعَ إِذَا دَجَـا ... لَيْلُ الحَـيَـاةِ بِـمُظْـلِـمِ الحِدْثَانِ
قَـدْ كُنْتِ خَيْـرَ شَـرِيكَـةٍ وَمُـعِـينَةٍ ... فِي البِـرِّ عِنْـدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ
الصَّـبْرُ فِـيكِ مَعَ الوَفَـاءِ سَجِيَّـةٌ ... بِتَـعَـاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

* * *

يَا حَـبَّـذَا **أَفْـلاذُ أَكْـبَـادٍ** بِهَـا ... كَـمُـلَ الـمُـرَادُ وَقَـرَّتِ العَـيْنَانِ
فَـاحْفَظْ **مُعَـاذًا** وَاحْفَظَنَّ **مُهَلْهِلاً** ... أَمَـدَ الزَّمَـانِ **وَعَـابِدَ الرَّحْـمَنِ**

لاَ زَالَ عَبْدُ **الله** فِي حِفْظٍ وَلاَ زَالُوا جَمِيعًا غُرَّةَ الفِتْيَانِ
وَلْتَحْظَ **عَائِشَةٌ وَفَاطِمَةٌ** بِمَا قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ
وَاحْفَظْ **هَيَا وَمُنِيرَةً** يَا رَبَّنَا مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

* * *

يَا رَبِّ لاَ زَالَ **الجَمِيعُ** بِنِعْمَةٍ وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المِعْيَانِ
صَلَّى الإِلهُ عَلَى النَبِيِّ مُحَمَّدٍ وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور
جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه، واقتفى أثره، واهتدى بهداه ، واستن بسنته إلى يوم الدين.

وبعد . . فهذه محاورات مع قادة وسادة الفكر الإسلامي ، ارتدت قدمًا إلىٰ نهايات القرون الخيرية الأولىٰ ، وامتدت حتىٰ مطالع الألفية الثالثة ، وبدايات القرن الخامس عشر الهجري ، أي حتىٰ زمننا المعاصر هذا .

فهي إذن (العشرون الحوارية) ولكن مع من؟

أقول : هي عشرون حوارية مع الكبار.

وأعني بالكبار سادة وقادة الأمة من كبار رجالات الفكر الإسلامي وعلماء الشريعة ، وبالطبع لم تستوعب هذه الحوارات كل ما يشار إليه بالبنان في مسيرة علوم الإسلام وفكره ، وإنما اخترنا أبعاضاً من ذلك ، علىٰ نية أن يكون لنا ـ بإذن الله تعالىٰ ـ عود آخر لاحقًا . .

وقد جاء هذا المجموع كما يلي :

أولاً : أئمة السنة والجماعة .

ثانيًا : شموع مضيئة من الأندلس .

ثالثًا : بين إمامي الحديث والرأي .

رابعًا : إمام المفسرين .

خامسًا : أئمة الحديث وحفاظه ورجالاته الكبار .

سادسًا : من قادة وسادة الدعوة المعاصرين .

سابعًا : من أعمدة الفقه والحديث المعاصرين .

منهجنا في هذا الموضوع :

انتهجنا في هذا المجموع منهج الحوار، لما فيه من طرافة وجدة تتمثل في :

١ ـ مشاركة القارئ في الترجمة من خلال ذلك الأسلوب الحواري، الذي يعتمد على التطارح والتشويق والإثارة، وتركيز الأسئلة والمفاهيم في محورية السؤال وتحديدات الإجابة .

٢ ـ طرافة العرض بالاعتماد على الحوار وأسلوب الاندهاش بعيداً عن السرد المحض والنصية الخبرية وما يتبعها من ملالة وسآمة .

٣ ـ إدخال روح العصر من خلال جمل التعليقات والإيماءات والإشارات المتضمنة نقد واقعنا الفكري المعاصر، والتنبيه على بعض مثالب معطيات العصر الحديث، واعوجاج التفكير فيه، وتهاوي الهمم تحت معول المغريات الكثيرة .

٤ ـ اختيار الحوارات بعناية ودقة قوامها :

أ ـ كشف أوجه عظمة ونبوغ هذه الكوكبة المتحاورة (بفتح الواو)، سواء في علمها أو مسيرتها أو مواقفها مع رجالات وأحداث عصرها . .

ب ـ إثارة قضايا ومسائل قديمة معاصرة معًا في مسيرة الأمة الدعوية والعلمية والحضارية عموماً بما تشمله جوانب سياسية واجتماعية وغيرها .

٥ـ التركيز في الحوارات على تلك الجوانب المتقاطعة مع ما تمر به الأمة من أزمات، وهذا بالطبع فيما يخص علماء الأمة الأولين من غير المحدثين .

حيث عمدنا إلى طرح تساؤلات وعقد مداخلات صريحة وغير صريحة للكشف عن جوانب الأزمة التي تمر بها أمة الإسلام المعاصرة، وسعينا لإدخال المتحاورين من الكبار في قلب أزمتنا وإطلاعهم على جوانب من واقعنا المعاصر، لاستنطاق آثارهم، والاسترشاد بفقههم وفكرهم الثاقب، وأدائهم الراقي في تنوير الحلول، وتذليل المخارج من هاتيك الأزمات المظلمات .

٦ ـ مخاطبة هؤلاء العلماء من واقع مصنفاتهم ومن خلال مترجميهم، واستنطاق آرائهم، واستجلاء توصياتهم أو أحكامهم بصدد واقعنا من خلال آلية الحوار، مع

الحرص على إسناد هذه الفتاوى والآراء إلى كتبهم نفسها أو من خلال المكتوب عنهم سواء من المصنفات المفردة أو خلال كتب التراجم العامة والخاصة .

٧ ـ تم اختيار هؤلاء الكبار على النحو التالي :

أ ـ اخترنا من أئمة أهل السنة والجماعة من كان لهم دور فاعل في مسيرة الفكر الإسلامي على المستوى العلمي والسياسي والاجتماعي، فاقتضى هذا عقد فصل خاص بهم شمل أشهرهم كالإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم، ثم كان الإمام محمد بن عبدالوهاب من المحدثين، وفي هذا تنبيه على دور العقيدة الصحيحة في ضبط مسيرة الإصلاح الدعوي، وفي نهضة الأمة من كبوتها وعثراتها .

ب ـ ثم ثنينا بشموع مضيئة من الأندلس، تنبيهًا على جلالة هذا الفكر المشرق علينا من غرب ديار الإسلام قدمًا، وإيماءً إلى بلاد الإسلام المحتلة والمغتصبة والتي لا تزال تئن وترزح تحت قيد الحقد اليهودي أو الصليبي، وعلى رأسها فلسطين، تاج الإسلام المغصوب!

جـ ـ ثم جاء بعد ذلك تعداد أئمة الحديث والرأي والتفسير، مذكرين طلاب العلم والدعاة إلى عظمة وبراعة سلف الأمة في مسيرتهم العلمية وفي إبداعهم الذي لا يزال وقادًا وهاجًا ناطقًا بفضيلتهم حتى الآن . . !

﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾(١) .

د ـ ثم كان الختام بمحاورات مع الكبار الشامخين في الفكر الدعوي المعاصر، لاستكمال الأهداف العامة والخاصة من هذا المجموع في تبصير شباب الدعوة ورجالاتها بمناهج سلفهم ومناقبهم ومواطن القوة عندهم، ليوازنوا بين متطلبات واقعهم الشخصية ومتطلبات أمتهم الدعوية؛ وليوازنوا بين حقوق الدعوة وواجباتها .

المؤلف

---

(١) الأنعام : ٩٠ .

أولاً: أئمة أهل السُّنَّة والجماعة

١ ـ أحمد بن حنبل .

٢ ـ ابن تيمية .

٣ ـ ابن قيم الجوزية .

٤ ـ محمد بن عبد الوهاب.



١ ـ أحمد بن حنبل
إمام أهل السُّنَّة والجماعة
(١٦٤ ـ ٢٤١هـ / ٧٨٠ ـ ٨٥٥م)

تلك صفحات بيضاء ناصعة في تاريخ أمتنا الإسلامية التي سودت بياضَها مكائدُ خارجيةُ، وأيادٍ خفيةٌ، وشقاقاتٌ داخليةٌ، عسانا نلقح بها الأذهان الكليلة، وندفع بها ظلمات التشاؤم والقهر الذي يحوطنا، ونبعث الهمة في نفوس ظامئة إلى القدوة، ومتعطشة إلى ريادة حقة تقودها نحو تخطي الصعاب؛ لدفع ما أَلَمَّ بها، ونيل ما يمكنها من عود مجدها.

فهذه ومضات ومقتطفات ولفتات من حياة : **إمام أهل السنة والجماعة، وإمام أهل الحديث، وإمام الفقه، وإمام الصبر، وإمام الزهد، وإمام الصدع بالحق** في وجوه حكام الجور الذين ينقادون إلىٰ بطانتهم ويرون الأحداث من عيونهم، حتىٰ انفصموا عن شعوبهم، وابتعدوا عن أمتهم، فتعمقت الفجوة، واتسعت الهوة، وصاروا في وادٍ سحيق نائين عن أمتهم وآمالها وطموحها.

وقد صنعتها في ثوب حوار حي، مع الإمام مستنطقًا كتبه علىٰ لسانه، ومستحكمًا مترجميه وتلامذته عن حياته، ومثيراً معه تلك القضايا والإشكالات التي تكاد تتطابق مع ما نمر به من صروف وخطوب؛ لنتبصر مخارج السلف من مآزق ما وقع فيه الخلف، ومحاولاً أن أنفث لوعات المصدورين، وآهات المتمزقين علىٰ أحوال أمتهم، من خلال تساؤلاتي وتعليقاتي.

وعموماً فهي محاولة لتجديد تراجم العلماء والكبراء من أمة الإسلام في ثوب جديد للتنبيه علىٰ محاسنهم ومحامدهم وأفكارهم وأحوالهم التي بها سادوا، وبها الأمة قادوا، عسانا أن نقتدي ونهتدي بهديهم، ونستن بسنتهم، ولن يصلح شأن هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، **فإلى الحوار، نقرأ ونسمع ونعي ونفهم..!!**

قالوا : حدثنا يا شيخنا عن إمام دار السلام، وشيخ الفقهاء والمحدثين في عصره أحمد بن حنبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ؟

قلتُ : هو الإمام الجليل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي الأصل، خرجت به أمه من مرو، التي كان بها أبوه، وهو عربي النسب من جهة أبيه وأمه؛ إذ ينتهيان إلىٰ قبيلة شيبان، وهي قبيلة ربعية عدنانية، تلتقي مع النبي ﷺ في نزار .

وُلِدَ ـ رحمه الله ـ سنة أربع وستين ومائة في ربيع الأول ببغداد، ولم يُرَبِّهِ أبوه؛ لأنه مات بعد انتقاله إلىٰ بغداد بقليل .

قالوا : فحدثنا عن أسرته ونشأته ؟

قلتُ : أما بالنسبة **لأسرته** فقد كان مقام الأسرة أولاً بخراسان، حيث كان جده واليًا علىٰ سرخس من ولاياتها، ثم كان أبوه قائداً من قواد المسلمين، أو جنديًا قارب منزلة القيادة، ولما انتقلت الأسرة إلىٰ بغداد قرب ميلاد الإمام أحمد، استمرت صلتها بالخلافة العباسية، وكان الذي يتولىٰ ذلك العمل عم الإمام أحمد، لأن والده قد مات .

والملاحظ أن أسرته كان فيها همة وجود، فجده كان واليًا للأمويين، ثم للعباسيين، وكان أبوه جواداً كريمًا، فتح داره بخراسان لوفود العرب، تنزل عليه فيضيفها ويكرم مثواها .

أما حديثي إليكم عن **نشأته** : فقد قام برعايته وتربيته أمه وعمه، وقد وجهته أمه إلىٰ طلب العلم منذ نشأته ، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ يدرس العربية والحديث، وآثار الصحابة والتابعين، وسيرة النبي ﷺ وصحابته والتابعين لهم بإحسان .

وظهرت عليه أمارات النجابة والتقىٰ، فكان الغلام التقي بين الغلمان، والشاب التقي كذلك بين الشباب، ثم صار الكهل الذي أبلىٰ البلاء الأكبر فيما بعد، واحتمل من المكاره ما ينوء بحمله غير أولي العزم من الأتقياء، وكان جاداً بين

الصبيان حيث يهزلون ويلهون؛ فقد أكسبه اليتم جدا وقوة احتمال ورغبة في العمل، وكان الآباء يلاحظون ذلك عليه، ويريدون أن يكون أبناؤهم على مثاله، حتى قال أحدهم: أنا أنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل، غلامٌ يتيم انظروا كيف هو؟! وجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته.

فإن قُلتم : يا شيخنا هذا عن نشأته، فما حديثك عن علمه ودراسته ؟

أقول : ما إن شبَّ الإمام أحمد عن الطوق، وقد اتجه إلى العلم، واختار علماً يتناسب مع التقوى التي نشأ عليها، فما اختار الفلسفة ولا الرياضة، بل اختار علم الدين، واختار من بين علوم الدين علم الحديث، الذي كان يحتاج إلى الانتقال من الأمصار إلى الأمصار، والحديث جزء من الفقه، حتى التقى في قلبه الفقه والحديث معاً، وابتدأ أول أمره إلى الفقه الجامع بين الرواية والدراية، وأخذ عن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، وقاضي الدولة الأكبر آنذاك، ولكنه مال إلى حديثه، ولم يَمِلْ إلى فقهه.

فسألني أحدهم قائلاً : يا شيخنا، فماذا عن رحلته في طلب الحديث الواردة في ثنايا كلامكم؟

فأجبته قائلاً : يا بني ابتدأ الإمام أحمد تلقيه الحديث ببغداد سنة ١٧٩هـ، أي من وقت أن بلغ الخامسة عشرة من عمره، ورحل إلى البصرة ثم الحجاز، وتوالت رحلاته إلى البصرة والكوفة والحجاز واليمن، وقد قالوا: إنه رحل إلى البصرة خمس مرات، ورحل إلى الحجاز خمس مرات، والتقى بالإمام الشافعي في المسجد الحرام، ثم التقى به بعد ذلك ببغداد، ونرى أنه كان كثير الحج، ولم يكن حجه لذات الحج فقط، بل كان يركب متن الصعاب في طلب الحديث، ويذهب إلى رواته أنَّى كانوا، وحيثما وُجِدوا.

والخلاصة أن الإمام أحمد - رحمه الله - طاف الأقاليم الإسلامية طالبًا للحديث، يستعذب في طلبه الآلام والصعاب، يحمل حقائب كتبه على ظهره حتى لقد رآه بعض عارفيه في إحدى رحلاته، وقد كثر ما رواه من الحديث، وحفظه

وكتبه، فقال له معترضاً مستنكراً: مرة إلى الكوفة، ومرة إلى البصرة!! إلى متى؟ فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مع المحبرة إلى المقبرة**».

قالوا: يا ابن الياسين، حدثنا عن شيوخه وتلامذته حديثاً موجزاً؟

قلتُ: كثرة رحلات الإمام أحمد إلى الأمصار تدل على أنه لم يسمع بعالم يمكن أن يرحل إليه ويأخذ العلم عنه إلا وذهب إليه، ومن هؤلاء: الإمام الشافعي، وعبدالرزاق صاحب المصنف، وأبو داود السجستاني، والتلميذ الأول للإمام أبي حنيفة؛ أبو يوسف، **وكما قالوا عنه**: «طلب أحمد الحديث من كل رجاله، وما سمع برجلٍ له علم بالحديث إلا ذهب إليه وروى عنه».

أما عن تلامذته ومن أخذ عنه: فإنا نقول: لم يتخذ الإمام أحمد مجلساً للتحدث والإفتاء إلا بعد أن بلغ الأربعين، وعلته في ذلك قوله: «إنه لا يحدث وأحد شيوخه حي»، ولقد سأله أحد معاصريه يوماً أن يملي عليه حديثاً رواه عن عبدالرزاق، فامتنع قائلاً: «إن عبدالرزاق حي».

ويذكر أنه كان له مجلسان: أحدهما: في منزله يحدث فيه خاصة تلاميذه وأولاده، **وثانيهما**: في المسجد يحضره العامة والتلاميذ، وذكر الذهبي أن وقت درسه بالمسجد كان بعد العصر، وعلى هذا فقد كثر تلامذة أحمد ومستمعيه ـ رحمه الله رحمةً واسعة.

قالوا: فهلا حدثتنا عن كتبه؟

قلتُ: للإمام أحمد المسند وهو أشهر كتبه وبه يُعْرَف، وله عدة كتب أخرى في التاريخ والتفسير والناسخ والمنسوخ، والرد على الزنادقة فيما ادَّعت من متشابه القرآن، والتفسير، وفضائل الصحابة، و«المناسك»، و«الزهد»، و«الأشربة»، و«المسائل»، و«العلل والرجال».

قلتُ: هلا حدثتنا يا إمام الصابرين، وقدوة الموحدين في أمة محمد الأمين ﷺ، عن مبتدأ المحنة، وفي أي عهد بدأت، وما كان سلاحك فيها؟

ابتدأت المحنة منذ أن ارتفعت أصوات المعتزلة في كل من بغداد والبصرة وأحاطوا بالخلفاء، وأوعزوا إليهم أن يحملوا الأمة على مقالاتهم، وكان أول متلبس ببدعتهم من الخلفاء المأمون، فجعلوا يطمعونه في حمل الناس على القول بخلق القرآن، فحملهم، ولما جاءه خبر امتحاني اغتاظ لذلك وحلف لئن وقعت عينه عليّ ليقطعني إرباً، فدعوت الله ألا يريني وجهه فتناولتني سياط القوم وأوجعتني وبلغت مني مبلغها، حتى جاءني رسول بالفرج أن المأمون مات، فحمدت الله وظننت أنه الفرج.

فقال لي: إنه صار مع أبي إسحاق المعتصم رجل يقال له: أحمد بن أبي داود، وقد أمر بإحضاركم إلى بغداد، فقدمت إليها في رمضان فحبسوني وكنت مقيداً، ثم تحولت إلى سجن العامة، فمكثت فيه نيفًا وثلاثين شهراً، وأتوني بعلماء الكلام؛ ليحاجوني، وبعثوا إليّ بالوعيد والتهديد؛ ليرهبوني، فما كنت إلا راكبًا مراكب الثبات والصبر، معتضداً بكتاب الله، ومتسلحاً بحديث رسول الله.

قلتُ: هل مهادنةُ الناسِ هي ما جرأ الحكام على فتنتهم؟

قال: إن المأمون لما أراد أن يحمل الناس على القول بأن القرآن مخلوق حمل إلى «الرقة»[1] سبعة من كبار العلماء، المشهورين بين عامة وخاصة الناس، فهادنوا المأمون، وأجابوه إلى القول بخلق القرآن، خشية الحبس فكانوا أول من ثلم هذه الثلمة[2]، وأول من أفسدوا، فلو أنهم صبروا لله وقاموا له بحقه لانقطع الأمر، ولحذر المأمون، ولكن لما أجابوا، وهادنوا وهم عين البلد، اجترأ على غيرهم[3]، ولذلك أقول وأردد: «**إذا أجاب العالم تقية، والجاهل بجهل، فمتى نتبين الحق؟!**»[4].

(١) مدينة أقام بها المأمون حيناً من الزمن على شاطئ الفرات في بغداد.
(٢) أي فتح هذا الباب من البلاء على المسلمين..!
(٣) ذكر محنة أحمد بن حنبل، ص٣٤، ٣٥.
(٤) السابق، ص٤٤.

قلت : يا إمام أهل السنة، كيف أدركت الإمامة في الديـن، مع مخالفتك لفقه السلاطين، لأن عصرنا يكاد لا يعلو فيه شيخ ولا يرفع له فيه منار إلا إذا وافق المتسلطين، وأدىٰ إليهم القرابين، في تثبيت دولتهم، وتعضيد أركانها، وأن يسوغ فعالهم، ويرد مقالهم، ويداهنهم، حتىٰ إن رأوا الباطل حقًا أحقه، وتلمس لذلك شبهات من موضوع الأحاديث وضعيفها، ومن فلتات النقول وشاذها، حتىٰ وصل الأمر ببعضهم إلىٰ إباحة الربا، وتحليل البغي والغناء، بل طلع علينا بعضهم بقوله بتحريم الاستشهاد ضد أعداء الله من اليهود، وأنهم حينما يفجرون أنفسهم في سبيل دينهم وأمتهم وصون أعراضهم ودفاعًا عن كرامتهم فإنهم انتحاريون.

قل لنا يا إمام المسلمين : كيف علوت وارتقيت ورفع الله لك علمًا في الخلائق وغدوت إمام أهل السنة بلا مدافع ولا منازع على أن الجميع كان ضدك، وعلى ضعف عدتك وعضدك؟! حدثنا ما الخبر؟، وعظ علماء الأمة والدعاة فيما يرفعهم في الدنيا ويوم الدين.

تدخل حنبل وعبدالله وقالا : نكفيك الإجابة بما عرفنا من حاله ؛ لأنه لايتحدث عن نفسه إلا نزرًا يسيرًا.

فقالا : أدركها بفضل الله منذ الصبا حيث التحف ملاءة الفتوة بما فيها من خشية لله في السر والعلن، وصبر عند البلاء، وترك ما يهوىٰ لما يخشىٰ، واصطحب الصوم والزهد، ولزم الدرس وطلب الحديث وطلاب العلم، وخوفه من الله أقض مضجعه وصار مذعورًا مرهوبًا من النار، وكان له حب ورحمة ورفق بعباد الله، وشجاعة تزول الجبال ولا تزول هي، فوالله لم يرد في عصره ذكر من هو أثبت منه قلبًا، يحب في الله ويكره فيه، ولم يمنعه خوف ولا مهابة أن يثبت عند إيمانه وأن يأخذ علىٰ يد الظالم بنهيه.

ولله ما قاله «**بشر بن الحارث**» لما امتحن أحمد بالسراء والضراء فاستعصم، أُدخل الكير فخرج ذهبة حمراء، ثم قال : «**لقد طار أحمد بحظها في الإسلام**».

ثم تدخل إبراهيم الحربي فقال : «**والله ما أعرف لأحد من التابعين على أحمد فرية، ولقد صحبته عشرين سنة صيفًا وشتاء، حرًا وبردًا، وليلاً ونهارًا، فما لقيته لقاة في يوم إلا وهو زائد عليها بالأمس**»(١).

أما العلماء الذين لم يتحصنوا بالكتاب والسنة فقد عرفتم من حالهم ما يكفي أفل نجمهم، وضاعت مكانتهم، وزلت براعتهم !!

قلت : يا أبا عبدالله، حدثني ثانيًا وثالثًا ما رأيك في مداراة العلماء للمتجبرين، ومجاراتهم لهم، وسكوتهم على باطلهم، واستجابتهم لكل ما يطلب إليهم، لقد صاروا صنائع لهم، بحجة أو بغير حجة، أليست هذه فتنًا للناس في دينهم، أليس ذلك تفريطًا وتنازلاً عن الأمانة المسندة إليهم؟ أليسوا هم أحق بالصبر على العسر أين قدوتهم؟

قال : نعم والله ما ضيع الدين إلا رؤساء وأحبار سوء ورهبانها، وهل فتن المسلمون في عصري إلا حفنة من علماء المعتزلة راموا الدنيا بالدين، أو قل راموا نصرة مذاهبهم، وحمل غيرهم على الانقياد لهم، على ما كانوا به من بدعة تقديم العقل على النقل، وتحكيم منطق أرسطو ومبادئ سقراط لتحكم على آي ربنا الخلاق!!

قلت : يا إمام الدين، ويا شيخ المسلمين، كيف صبرت على جلد تشيب له الولدان، ويقطع قوى البنيان، وأنت نحيل البدن، لست من ذوي السمن..؟! هل وجدت على الحق معينًا؟ وهل ملكت على الصبر سلطانًا مبينًا؟

قال : لقد اهتبت بداية فتنة السوط، حتى أخبرني فلان وكان شاطرًا أنه جُلد آلاف الجلدات في سبيل ـ شطارته ـ أي لصوصيته، وأوصاني بالصبر على الحق، فشحذني ذلك وقواني.

وجاء رجل إلى **محمد بن نوح** فسأله عني، ثم دنا مني وسلم عليّ بكلام شدد به عزمي، ثم قال : «**يا أحمد، أو يا هذا، ما عليك أن تقتل ها هنا، وتدخل الجنة هاهنا؟**».

(١) شيخ الأمة أحمد بن حنبل، لعبد العزيز الأهدل، ص٢٦٧ ومابعدها، ط. دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٢م.

ثم سلم وذهب، فجعلتُ أنظر في أثره حتىٰ غاب، فسألت عن أمره، فقيل لي: رجل من العرب من ربيعة، مسكنه البادية، متخل عن الدنيا، يعمل الصوف[١].

ثم إن خوفي علىٰ فتنة المسلمين هو الذي جلدني واسألوا حنبل ابن أخي وأخي عن قولتي لهم: «**إذا أجاب العالم تقية، والجاهل بجهل، فمتى نتبين الحق؟!**»[٢].

قلت: يا إمام أهل السنة والجماعة كيف كان الناس حال الفتنة، هل ارتدوا على أعقابهم، أم أجابوا اتقاءً لشرور أئمتهم وأولياء أمورهم ؟!

قال: «تلك فتنة كانت، فتن الله بها الناس، أعاذنا الله وإياكم من الفتن والعذاب، قد صار القوم إلىٰ الله - منهم من طلب دنيا - وقوم كانوا علىٰ طمع، ولم ينالوا ما أرادوا، وآخرون علىٰ التقية والعذاب، وآخرون علىٰ ديانة، فنسأل الله العافية والسلامة، والحمدلله الذي كشف ذلك عن هذه الأمة، إن الله ناصر دينه.. !!»[٣].

قلت: يا إمام السنة، كيف كان حالك في سجنك؟ هل جزعت وفزعت، ورجفت منه ودمعت؟ أم أعلنت توبتك عن الحق، وركبت سبيل المأمون والمعتصم، ورضيت بالعمالة لهم في الظلام؟

قال ابن أخيه حنبل: «ويحك يابن ياسين، أتراه مسجونًا في رام الله أم موقوفًا في غزة، حتىٰ يدل علىٰ عورات إخوانه من الإسلاميين، أم تراه قائدًا للأمن الوقائي سيفدي نفسه بتسليم المجاهدين، وإن جاوزوا المئات أو سيتصل بالأمريكان؛ ليفتحوا الخط الساخن مع شارون لحمايته مثلما فعل فلان وفلان، أو تراه ذليلاً ضليلاً يصفع فيركع، ويستوقع فيقع، ويغرىٰ بوعد فيبوء بتوقيع تلو التوقيع، وتنازل إثر تنازل حتىٰ يبيع مبدأه كما باعت عصبة قادتكم قدسها، مهرولين إلىٰ الاستسلام، ومتوسلين إلىٰ الخذلان!!

بل صبر أحمد صبر الرجال، في الحل والترحال، واقرأ سيرته عند أعدائه

---

(١) ذكر محنة أحمد، ص٤٠ .

(٢) السابق، ص٤٤ .

(٣) ذكر محنة أحمد، ص٣٩ بتصرف يسير .

ستعلم كم هي ناصعة، وكم مواقفه في الحق رائعة، لتقطع عنك المظان، في استسلام أئمة السنة والقرآن!!

قلت : يا شيخ أهل السنة كثر المثبطون في عصرنا، وأمطروننا بأوبلة من الأعذار، وسيل من الاعتذار، وبحر لجج من الشبهات والأقصوصات، والروايات ؛ لئلا يتجلدوا على المحن، ولكي يسوغوا لأنفسهم ولوج الفتن، ولا معين، ولا عاصم إلا الله، فهل وجدت على الحق معيناً؟

قال أحمد : نعم وجدت علىٰ قلتهم، وضيق سعتهم، وكذلك فإن لله جنوداً في كل ناحية، أبصر بهم من أبصر، وعمي عنهم من عمي! وما رأيت أحداً علىٰ حداثة سنه وقلة علمه، أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، وإني لأرجو أن يكون الله قد ختم له بخير.

قال لي ذات يوم وأنا معه خلوين (١) : «يا أبا عبدالله، الله الله الله، إنك لست مثلي، ولست مثلك، إن الله ابتلاني فأجبت فلا تقتاس بي، فإنك لست مثلي، أنت رجل يقتدىٰ بك، وقد مد هذا الخلق أعناقهم إليك لما يكون فيك، فاتق الله واثبت لأمر الله»(٢).

قلت : يا إمام المسلمين حدثنا عن أيام حبسك في السجن، وكيف عشتها، وكيف أفدت منها، عظنا فإنا صرنا إلىٰ زمن السجن فيه أقرب إلىٰ أحدنا من شراك نعله، ما إن يبغضك مخبر، أو أن يعلن سخطه عليك عامل النظافة في مراكز أمن الدولة، إلا وتصبح وراء القضبان، مشرداً مبعداً بحجة الإرهاب، وتحول إلىٰ محاكمة عسكرية فورية، ويحكم عليك فيها بما يمليه قاضي أمن الدولة أو القاضي العسكري الذي لا يعرف إلا الحديد على الدعاة المخلصين هكذا سننهم فينا، وفعالهم مع صالحينا..!!

قال : كان الله لكم، في كربكم، لقد سجنت لأقولَ بما لا أعتقد، كما أسلفت لك، أما أنتم فتسجنون بالظنة، وتعدمون بالشبهة ولا أدري ماذا يحيق بكم

(١) يعني : منفردين .

(٢) ذكر محنة أحمد، ص٤٠ .

في زمان فتنكم فيه هي الفتنة . . !!

أما عن سجني فقد كان غرفة من لبن، معروشة بجذوع النخيل، وليس كسجونكم سجون في سجون، وظلمات على ظلمات!! كنت أمارس عبادتي بكامل حريتي في السجن، فكنت أؤم الناس وأصلي بهم حيث أخلع قيدي حين الصلاة، وأعيده بعدها.

ولقد منَّ الله عليَّ، فكنت أقوم على وعظ المسجونين، وأعانني الله على تدريس كتب العلم من مثل كتاب الإرجاء وغيره على تلاميذ العلم من خارج السجن ومن داخله كما يحكي عني ابن أخي حنبل بن إسحاق . . !!فالحمد لله على معونته وإحسانه، وسبحان الله(١) .

ثم التفتُ إلى حنبل بن إسحاق بن حنبل وسألته :

قلت : حدثنا يا حنبل عن حكام عمك شيخ السنة هل يقاسون بحكامنا في تعذيبهم للإسلاميين ، وإذاقتهم العذاب المهين ؟!

قال حنبل : اسمع يا جاسم، إن حكام عصرنا قد تلبسوا بشبهة ، وقد اتبعوا غير طريق السنة، وقد أغرتهم فئة قدمت العقل على النقل، وقاست قول الحق بمنطق لا ينبت البقل . . !!

فهم في كل ما صنعوا مخطئون ومتأولون؛ لأنهم كانوا قائمين بشعائر الدين، وكانوا على الثغور مرابطين!!

نعم أخطؤوا في حق أهل السنة، وساموهم العذاب والمحنة، غير أن من جاء بعدهم فاؤوا عن غيهم، وثابوا إلى رشدهم.

قلت : أما نحن فقد غادرنا الثغور، وصالحنا اليهود..!!

قال حنبل : والله هذا شأن عجيب وخطب مريب، أن تذلوا لبني صهيون، وأن تُلاقوا منهم الذلة والهوان، وتصافحوا قادتهم!!يا ويل أمة محمد من هذا التردي والرضا بأن يكونوا أذنابًا، ويا حسرة الإسلام من هذا الباب!!

قلت : فما كان حال يهود عصركم، أكانوا أهل قوة ومنعة، أم أهل ذلة وتبعة؟!

(١) محنة أحمد بن حنبل، ص٤٢، ٤٣ .

وهل كادوا لكم، ودقوا عليكم نواقيس الخطر، واستعدوا عليكم جموع الخطر؟!

قال حنبل: إن شأن يهود عصرنا لا يذكر، ولا داعي لأن نذكره، إنهم في غيهم يعيشون، بعضهم على بعض يتناحرون في تأويلات توراتهم، ويختلفون على علمائهم ويسعون بفساد خفي لم تظهر له بادرة، ولم تخلج لهم به خاطرة، فالإسلام في منعة، والمسلمون هم قادة وسادة الدنيا!!

قلت: أما يهود عصرنا، فماذا عنهم؟ وكيف أنبيك نبأهم وأبثك أخبارهم؟ غير أني ألخص لك الحال في موجز من المقال فأقول: «إن اليهود يسومون المسلمين خسفاً، ويذبحونهم رجالاً ونساء، و شيوخاً وأطفالاً.

بداية من ١٩إبريل سنة ١٩٤٨م تشكلت جماعة الأرجون بقيادة مناحيم بيجن وبدأت تذبح في أمة الإسلام بفلسطين حتى لتصل ذبائحها إلى ثلاثمائة طفل وامرأة وشيخ في اليوم الواحد، وما خفي كان أعظم.

وفي سنة ١٩٦٧م ارتفعت أصوات الزعماء يقودهم المطربون، ويرفعون شعارات القومية والعروبة، وأدخلوا الإسلاميين السجون يلاقون فيها عذاب الهون، فمنوا بشر هزيمة، إذ انتصرت جيوش اليهود على قلتها، واحتلوا سيناء مصر، وجولان سوريا، وجنوب لبنان، والضفة الغربية من نهر الأردن، وتوسعت مساحة إسرائيل أربع مرات.

وفي سنة ١٩٨٢م كانت مجزرة المجازر في صبرا وشاتيلا، حيث ذبح اليهود آلافاً مؤلفة من رجال ونساء وأطفال فلسطين ولبنان.

وفي سنة ١٩٩٦م هاجموا بلدة قانا وأحدثوا بها من المجازر الكثير، وفي أيامنا هذه فحدث ولا حرج، فكم قتلوا من مقاوم وباسل وموحد يقول: «لا إله إلا الله».

قلت: يا عبدالله بن أحمد ما سر هيبة أبيك أحمد على فرط تواضعه، ولين جانبه، ورقة حاله، وزهده وفضله؟!

قال: كان أبي مهاباً من غير خوف، وفي موضع الإجلال والاحترام من غير

رهبة، وكانت الشرطة تهابه، وكان تلامذته يهابونه واسمع بعضهم يقول: «**كنا نهاب أن نرد أحمد في الشيء أو نحاجه في شيء من الأشياء**».

وقال آخر: «**دخلت على إسحاق بن إبراهيم، وفلان وفلان من السلاطين فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل**[1]، **صرت إليه أكلمه في شيء، فوقعت علي الرعدة حين رأيته من هيبته**».

وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام: «**جالست أبا يوسف، ومحمد بن الحسن، ويحيى ابن سعيد، وعبدالرحمن بن مهدي فما هبت أحدًا منهم، ما هبت أحمد بن حنبل**».

أما عن سر هيبة أبي فهي هبة من الله تعالىٰ، إذ الله يكسو حلة المهابة والجلالة من يشاء، فمن الناس من يؤتيه الله قوة نفس، وقوة وجدان، وإشعاعًا روحيًا، يجعلهم يؤثرون به في غيرهم، ويستولون علىٰ نفوس الناس لا بقوة السلطان ولكن بقوة الوجدان.

وهذه أحوال أحمد تنمي هيبته، وتعلي مكانته فقد كان - رحمه الله - قوامًا بأمر الله، جاداً لا مزاح ولا هزل، لا لغو في القول ولا تأثيم لا يتكلم مع صحبه إلا في العلم، يأبىٰ إلا أن يصمت دون مراء ولا لغو ولا مهاترة.

وما نفىٰ هذا عنه حسن العشرة، ورقة القول، وطلاقة الوجه، وكرم الخلق، وحياء الطبع، ومجافاة المكابرة.

ولله القائل: «**ما رأيت أحدًا في عصر أحمد ممن رأيت أجمع منه ديانة وصيانة وملكًا لنفسه وفقهًا، وأدب نفس، وكرم خلق، وثبات قلب، وكرم مجالسة، وبعدًا عن التهاون من أحمد بن حنبل**»[2].

قلت: يا إمام السنة لماذا لم تجادل أهل الأهواء والبدع، على كفاءتك واقتدارك؟

---

(١) انظر: أحمد بن حنبل (حياته ـ عصره ـ آراؤه الفقهية) لأبي زهرة، ط. دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص١٠٢، ١٠٣.

(٢) السابق، ص١٠٤.

قــال : إن نزاهة العـقل والدين تدفع بالعـاقل أن ينأىٰ عـنهـم؛ لأن احـتكاك العاقل بالمبتدع مفسدة، كما أن اختلاط الصحيح المعافىٰ بالمريض المزمن مفسدة.

ولي وجهـة أخرىٰ من سلفنا أنهـم - أي أصحاب النبي ﷺ - نأوا بعيـداً عن المبتدعة وضربوا عنهم صفحًا.

ولله ما قاله معاوية بن قرة : «الخصومات تحبط الأعمال والكلام الـرديء لا يدعو إلىٰ خير، تجنبوا أهل الجدال والكلام، وعليكم بالسنن وما كان عليه أهل العلم قبلكم، فإنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض مع أهل البدع، وإنما السلامة في ترك هذا، ولم نؤمر بالجدال والخصومات».

وقــال : «**إذا رأيتم من يحب الكلام فاحذروه**»(١).

قلت : يا إمام السنة والجماعة لقد كثر القيل والقال حول الإسلام وشريعته وكثر المتفيهقون، والمتعالمون والطاعنون على دين الله، والناشرون للشبهات، والقائمون على كشف الفتن ونشر الشهوات، أفتراك نتركهم حتى يستأسدوا، ونذرهم حتى يستنسروا، وقد قال القائل :

لاَ تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأَفْعَى وَتَتْرُكُهَا ... إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَأَتْبِعْ رَأْسَهَا الذَّنَبَا

وهذا الشافعي شيخك، وهذا أبوحنيفة قبلك جادلا المبتدعة، ولحنا عليهم بالحجة، وكشفا باطلهم، ماذا تقول وداعي الجدال أقوى من داعي الصمت في زمن العولمة، وعصر المحادثة على الإنترنت والهواتف الثابتة والمحمولة، وفي عصر الصحف والإذاعات المرئية والمسموعة؟!

قــال : يا بن ياسين تلك هي خطتي، وهذه نهجتي، وليس معنىٰ ذلك أني أحرم الجدال بالحق، أو أنقد الدفاع والانتصار للصواب، وإنما رأيت في حال من يدعوني للجدال أن الكف عنه خير، وأن الصمت معه أبلغ من الكلام، وإن رأيتم أنتم أن الداعي أشد، والبوح والصدع بالحجة أحق، فبوحوا بالصدق وقولوا،

---

(١) انظر السابق (ابن حنبل حياته وعصره - آراؤه وفقهه)، ص٩٩ .
(٢) العنكبوت : ٤٦ . (٣) الفرقان : ٥٢ .

وجادلوا واتبعوا ولا تبتدعوا وقدموا بين أيديكم كتاب الله : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (٢) ، ﴿ **وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾(٣) .

ولا تغفلوا عن قوله تعالىٰ : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (١) . ويكفيني أن لي سلفًا فيما أنا عليه ، وأن مالكًا وهو من هو إمام دار الهجرة ، كان علىٰ مثل ذلك .

وهذا هو شيخي الشافعي يطاول المبتدعة ويدحضهم للحق لا للغلب والزهو ، وكان قوي الجدل شديد الخصام ، فإن تبعت نهجته فلا تفنيد علىٰ طريقته .

قلت : يا إمام الحديث والمحدثين، لقد رفعك الله مكانًا عليًا ونصر بك الإسلام بفضل صبرك على الطواغيت والمبتدعة، وأخمد أعلام الظلام، وغدوت نبراسًا بك يُقتدى، وبعلمك يُحتذى، فهؤلاء تلامذتك اللاحقون بعدك طبقوا الآفاق علمًا وفضلاً، وأخص منهم بعد البخاري ومسلم وغيرهم من أعلام الأمة:

شيخ الإسلام الأول ابن تيمية الذكي التقي ، تقي الدين ، ولله هو ، وهو بالله ، وكم وكم أعز الله به دينه في عصره ضد التتار وأهل الصليب ، وحديثًا في ابتناء صحوة الإسلام علىٰ فقهه وفضله ، وإن لنا معه حديثًا مطولاً .

وهذا ابن القيم لله هو، شيخ الإسلام الثاني، والعالم الرباني صاحب الأفانين الزهدية في مدارج السالكين ، وفي الوابل الصيب ، وفي صاحب الطرائق الفريدة في الرد علىٰ المبتدعة والحلولية في نونيته ، وفي صواعقه المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة ، وفي كشف مكائد الشيطان .

وهذا شيخ الإسلام الثالث محمد بن عبدالوهاب يحصد غراسك وغراس تلامذتك فيفجر عيون التوحيد في أرض التوحيد ، ويهاجم القبوريين ، ويحارب الحشويين ، ويقيم أساس التوحيد المتين ، وكم نفع الله بكتبك وتلامذتك ورسائلك الأمة في عهود الظلام .

التفت إليّ الذهبي ، ورمقني بكتبه ابن الجوزي..

---

(١) النحل : ١٢٥ .

وقالوا : نكفيك الرد عن هذا السؤال، إذ الإمام أحمد أورع من أن يزيد في رده عليك عن قوله الحمد لله رب العالمين، أعوذ بالله من أن أكون ممن عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، ثم تناوبا الحديث إليَّ، فبادرني ابن الجوزي من كتابه مناقب أحمد بن حنبل.

وقال : لله أحمد بن حنبل، عالم رباني ذاع صيته واشتهر اسمه وطار في الآفاق ذكره منذ كان شابًا طلاّبًا للعلم، فضلاً عما ناله من الحظوة والشهرة بعدما فتن، وتوالىٰ علىٰ تعذيبه أربعة خلفاء، وهذه نقولات يا بن ياسين أبثها لمقول ومنقول تلامذته وأترابه.

قال أحمد بن سعيد الرازي : «ما رأيت أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله ﷺ، ولا أعلم بفقهه من أحمد بن حنبل».

قال شيخه الشافعي : «أنت أعلم ـ يا أحمد ـ بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتىٰ أذهب إليه كوفيًا كان أو مصريًا أو شاميًا».

وقال الشافعي أيضًا : « ثلاثة من عجائب الزمان، وعدد منهم. . . وصغير كلما قال شيئًا صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل».

وقال الشافعي أيضًا : «خرجت من بغداد وما خلفت بها أحدًا أورع، ولا أتقىٰ ولا أفقه من أحمد بن حنبل».

ولله ما قاله العالم اللوذعي، والإمام المطلبي، محمد بن إدريس الشافعي، علىٰ علو كعبه، وصعود رتبه، هذا حين كان أسود الشعر، فكيف لما ابيض شعره وطال عمره وانتسأ أجله في طلب العلم والزهد والعمل.

وهذا علي بن المديني شيخ البخاري ومعاصر أحمد يقول : «ليس فينا أحفظ من أبي عبدالله أحمد بن حنبل».

وقال : «أعرف أبا عبدالله منذ خمسين سنة، وهو يزداد خيرًا».

وقال معاصره القاسم بن سلام : «انتهىٰ العلم إلىٰ أربعة: أحمد

بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيىٰ بن معين، وأبي بكر بن أبي شيبة، وأحمد أفقههم فيه».

وقال أيضًا: «ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة منه».

وقال يحيى بن معين: «والله لا نقوىٰ علىٰ ما يقوىٰ عليه أحمد، ولا علىٰ طريقة أحمد».

ثم التفت إليّ الذهبي وقال: «عد إلىٰ سير أعلام النبلاء وعد إلىٰ المصنفات المفردة وغير المفردة تجد بها الكثير والكثير مما أعلىٰ الله به رتب أحمد ومكانته في العالمين، وحسبك قوله تعالىٰ: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ (١).

قلت: يا بن قيم الجوزية لقد أكثرت المقال عن أحمد، فهلا أجملت لنا أصول فقهه وأصول استنباطه، إذ لك في هذا اليد الطولى كما ينبئ كتابك أعلام الموقعين عن رب العالمين وغيره من كتبك؟

تبسم ابن قيم الجوزية، وتهيب وتحفز واستنطق لي كتبه..

وقال: لقد سألتني عن وضيح وشهير لولا ما اعترىٰ زمنكم من ذهول عن السلف، وتيه في مدنية إعلام الغرب، وتغريب الإعلام، ومطربي الشرق ورحلات الشمال، وحروب الجنوب، وبين شرق وغرب، وشمال وجنوب وغاب عنكم فقه سلفكم وعمكم زيف باطلكم!، أما عن سؤالك فأقول مستعينًا بالله ومصليًا علىٰ رسول الله: «**إن الأصول التي بنى عليها أحمد فتاويه خمسة:**

أولاها: النص:

فإذا وجد أحمد نصًا أفتىٰ بموجبه، فالقرآن كتاب الله يؤخذ بما فيه مقدمًا علىٰ غيره، والسنة مفسرة تفسيراً صحيحًا للقرآن الكريم، وظاهر القرآن يحمل علىٰ ما جاءت به السنة فهي مبينة وهي الحاكم والمفسر لما اشتمل عليه من فقه وأحكام.

الأصل الثاني: ما أفتى به الصحابة:

علىٰ شرط ألا يعلم مخالف له، فإذا وجد لبعضهم فتوىٰ، ولم يعرف مخالفًا

(١) السجدة: ٢٤.

لها لم يتعدها إلى غيرها، ولم يقل إن في ذلك إجماعًا، بل قوله من روعة في التعبير: «لا أعلم شيئًا يدفعه، ومن ذلك قبول شهادة العبد»، فقد روي هذا عن أنس، وروي عنه أنه قال: «لا أعلم أحداً رد شهادة العبد»، وعليه فإذا وجد الإمام أحمد هذا النوع عن الصحابة لم يُقدم عليه عملاً ولا رأيًا ولا قياسًا(١).

الأصل الثالث: عند اختلاف الصحابة يختار أقرب رأيهم إلى النص:

فهو لا يخرج عن أقوالهم فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف، ولم يجزم بقول.

قال إسحاق بن إبراهيم في مسائله: «قيل لأبي عبد الله: يكون الرجل في قومه فيسأل عن الشيء فيه اختلاف؟ قال: يفتي بما وافق الكتاب والسنة، وما لم يوافق الكتاب والسنة أمسك عنه»(٢).

الأصل الرابع: الأخذ بالحديث المرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه:

وهو الذي رجحه على القياس، وليس المراد بالضعيف عنده الباطل، ولا المنكر، ولا ما في روايته متهم، بحيث لا يسوغ الذهاب إليه ـ قال ابن القيم: «وهذا الأصل قد أخذ به كثير من العلماء، ونسبه إلى أبي حنيفة ومالك والشافعي»(٣).

الأصل الخامس: القياس:

إذا لم يكن عند الإمام أحمد في المسألة نص، ولا قول الصحابة أو واحد منهم، ولا أثر مرسل أو ضعيف ذهب إلى القياس فاستعمله للضرورة، وقد سأل أحمد الشافعي عن القياس، فقال: «إنما يصار إليه عند الضرورة».

قلت: يا إمام السنة ما أخص مميزات فقهكم، وكم به من خصائص، وجوامع وفرائد وامتيازات؟

لخص لي على الفور الإمام أبو زهرة الأمر فقال: هلا طالعت كتب المذهب،

(١) انظر أعلام الموقعين، لابن القيم ١/ ٢٢، ابن حنبل حياته وعصره، ص٢٣٧.
(٢، ٣) السابق نفسه.

قديمها أو حديثها، وإن كنت عنها في ذهول، أو بأعباء التتبع لها عنها مشغول، فاسمع يا بن ياسين.

وقال: إن فقه أحمد فقه خصيب قوي يتجلىٰ فيه عنصران كلاهما أمده بالقوة، حتىٰ كان واسع الرحاب في باب التعامل أكثر من غيره من ضروب الفقه.

أولهما: تجلي الفقه الأثري بقوة:

حيث يختار آراء الصحابة، وإذا كان لهم أكثر من رأي فإنه يختار دينها، ويكون عنده أحياناً في المسألة رأيان أو رأي واحد إذا كان هناك أثر ودليل، كما أن اجتهاده يشاكل اجتهاد الصحابة وسلوك مسالكهم إذا لم يكن ثم نص.

ثانيهما: سعته في مجال العقود:

حيث يتميز الفقه الحنبلي بأنه في باب التعامل إذا لم يكن نص ولا أثر ولا مقايسة لواحد منهما فإنه يترك الأمر علىٰ أصل الإباحة، ولذلك كان في العقود والشرط أوسع الفقه الإسلامي رحابًا وأخصبه جنابًا؛ لأنه جعل الشروط والعقود الأصل فيها الصحة، حتىٰ يقوم الدليل علىٰ البطلان، فهو لا يحتاج في صحتها إلىٰ دليل كما سلك جمهور فقهاء المسلمين.

قلت: حدثنا يا شيخ السنة والجماعة عن طلبك للعلم، ورحلتك إليه، وأهم من لاقيته وحملت عنه، وأعجبت به.

قال: قصرت نفسي أولاً علىٰ طلب الحديث في بغداد فعكفت ملازمًا شيوخها وآخذاً عن رواتها سبع سنين، وكنت ألزم العالم فآخذ عنه حتىٰ أتخرج عليه ثم أذهب لغيره، وقد ابتدأت رحلتي لطلب العلم في سنة ١٨٦هـ فرحلت إلىٰ البصرة، ثم الحجاز، ثم رحلت إلىٰ اليمن ذهبت إلىٰ عالم الحديث عبد الرزاق بن همام الصنعاني، واصطحبني إليها رفيقي في الطلب يحيىٰ بن معين، فضربت في الأرض قاصداً صنعاء. وقد نالني فيها من خشونة العيش، وانقطاع النفقة الكثير حتىٰ كنت أكري نفسي إلىٰ الحمالين لأجد ما أقتات به، ولقد رحلت قبل إلىٰ الحجاز

(١) انظر: ابن حنبل ص٢٧ ـ ٣٠.

خمس مرات أولاها سنة١٨٧هـ، وهناك التقيت الشافعي وأخذت عنه فقهه وأصوله وبيانه لناسخ القرآن ومنسوخه، وكنت قد وعدت الشافعي أن ألحق به إلى مصر غير أن خفة ذات اليد منعتني ولم أف بما وعدت لقلة ما به أعتد(١).

قلت: يا إمام المسلمين لقد أذهبت الكثير الكثير من عمرك في طلب الحديث، حتى لقد سألك عارفوك وها أنذا أسألك بسؤالهم «مرة إلى الكوفة، ومرة إلى البصرة، إلى متى؟! وأنت إمام المسلمين وقد بلغت هذا المبلغ في الشهرة والفضل والعلم؟!!

قال: أرد عليك بما رددت به عليهم، فأقول في إفصاح وإيضاح «مع المحبرة إلى المقبرة»، أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر، فأنا أسير مستعيناً بالله، قاصداً مرضاة الله يحدوني قول القائل: «**لا يزال الرجل عالمًا ما دام يطلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل..**».

والله لقد كنت حريصاً على طلب العلم في فجر الشباب فأخذت عن أئمة أهل الرأي من أمثال: أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، ثم التفت بعد إلى المحدثين فأخذت عنهم وعن أهل الفقه، ولقد كانت أمي تشجعني وتدفع بي إلى طلاب العلم، وكانت تدعوني للرفق بنفسي خوفًا عليّ، حتى ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ بثيابي، حتى يؤذن الناس أو يصبحوا(١).

قلت: يا إمام العلماء ويا زينة عصره، وأنموذج وقته ويا فريد زمنه، لله أنت، كيف كانت نهجتك في طلب العلم، حدثنا بم اتبعت وما لنفسك اشترعت، فقد ضاعت الهمم، وتوانت الغرائم عن طلاب العلم في عصرنا، فتثاقل الناس عن قراءة الحديث، وتشاغلوا عن دواوين السنة، وأصبحت الملاهي والمقاهي الدخانية والإنترنتية، والسينما والمسرح وما فيها من لغو وعبث وعري وسفور وتكشف هي قبلة الشباب، وهي متنزههم، وهي رحلتهم في كل إجازة أو في كل يوم مساءً أو صباحًا، ولقد حق فيهم قول إمام الأصول وقائد ذوي العقول شيخك الشافعي:

ألا أصبر على مرِّ الجفا من معلم ... فإن رسوب العلم في ثفراته
ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبِّر عليه أربعًا لوفاته

(١) السابق، ص٢٤، ٢٥، ٢٩.

قال : نهجتي في طلب العلم قامت على :

١ ـ **الإخلاص في الطلب:** فمن اعتمد الإخلاص وفقه الله وبارك طلبه، وييسر له ماعسر عليه من أمره، وصدق الله إذ يقول: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾(١).

٢ ـ **العناية بتدوين ما أسمع :** فلا يصح لعاقل أن يعتمد في سماعه للحديث على الحفظ فقط، إذ كان عصري هو عصر التدوين لعلوم الإسلام فما بالكم بعصركم، عصر الاتصالات والاختراعات والمدونات ـ وما عرفتني مكتفياً بأذني عن قلمي، ولا مستغنياً بعقلي عن قرطاسي، وإنما أودعها قلبي الواعي، وحفظي الصاغي، وكتابي الراعي.

ولقد كنت أحفظ الأحاديث كلها بطرائقها وإسنادها، غير أني ما حدثت قط إلا من كتاب، خشية أن يضل فهمي، ويزيغ عقلي، فَأُحَرِّف كلام رسول عن موضعه، وحتى لو سئلت عما أحفظ حفظًا مطلقًا نظرت في الكتاب وحدثت منه، ولله القائل في ذلك :

العِلْـمُ صَيْدٌ والكِتَابَـةُ قَيْــدُهُ ... قَيِّدْ صُيُودَكَ بالحِبَالِ الوَاثِقَـه

فَمِنَ الحَمَاقَةِ أنْ تَصيدَ غَزَالَـةً ... مِـنْ بينِ أُسْدٍ ثُمَّ تُتْرَكَ طَالِقَـه

٣ ـ **طلب العلم النافع :** إذ تركت علم الجدل والكلام، لما يورث من الظلمات والآثام، وتكفكفت عن خزعبلات وسفسطات طاليس وسقراط إلى حديث سيد الخلق، وحبيب الحق محمد ﷺ فهو خير لي وأبقى، ولطالما أنشدتُ لنفسي :

دينُ النبيِّ محمدٍ أخبـــارُ ... خـيرُ المطيـةِ للفتـى آثَـارُ

لا ترغبنَّ عـنِ الحديثِ وآلِـهِ ... فالعِلْـمُ لَيْلٌ والحديثُ نَهَارُ

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

(٢) كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٦٥، وعزاه إلى أبي نعيم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الألباني: «ضعيف»، في تخريجه لأحاديث كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله، ص ١٢٣، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٤ ـ العمل بما أعلم : فتلك هي خاتمة المطاف، وهذه غاية الغايات أن أطلب العلم لأعمل به وفي الأثر : «**من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يكن يعلم**»(٢).

والله سبحانه يقول في كثير من الآيات البينات : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ (١). ومرة يعدهم بألا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومرة يستثنيهم من الخسران : ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾(٢).

وفي الحديث : «**من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس، أدخله الله النار**»(٣)، أو كما قال النبي ﷺ.

ولئن رجعت إلىٰ المسند فستجده يفي ويغني في هذا الباب.

قلت : وماذا عن فقهك يا شيخ السنة، لقد سارت به الركبان وانتشرت مسائلك في سائر البلدان، ورفع لواء الفقه الحنبلي في الآفاق، وعم كتاب المغني المكاتب والمطابع والمرابع، والمقنع، وغيره.

بادرني **فقيه العصر، وعلامة مصر الشيخ الإمام محمد أبو زهرة** صاحب الروائع الفقهية والدقائق الاستنباطية، وكتب الأصول والقانون والتراجم التي أحيا الله بها ألوية العلم.

وقال : أنا أكفيك يا جاسم، هلا عدت إلىٰ كتابي ونهلت من عبابي، وعرفت فقه أحمد وموقعه بين الفقهاء سابقيه ولاحقيه ومعاصريه.

وأوجز لك البيان قائلاً : كان ـ أحمد ـ إماماً يقتدىٰ به، يرشد ويدعو إلىٰ ما يراه سبيلاً للهداية، فتكلم ولم يحض، وأبدىٰ رأيه ولم يجادل، وصبر علىٰ البلاء في رأيه ولم يناضل، فكان بذلك التقي المحتسب.

أما في الفقه والحديث فذلك مقامه، وما نصب نفسه له واتجهت مواهبه كلها له، اتجه إلىٰ الحديث ومعرفة آثار الصحابة وأخبارهم وفتاويهم وأقضيتهم، ومن

---

(١) مريم : ٩٦. (٢) العصر : ٣.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤) من حديث كعب بن مالك، وقال عنه : «حديث غريب»، وابن ماجه (٢٥٣) عن ابن عمر، وحسَّنه الألباني.

أقضية الرسول، وفتاوىٰ الصحابة وأقضيتهم اقتبس الفقه، وبذلك الطريق المستقيم اتجه إليه فكان فقهه مأثوراً أو قريبًا منه، ولما التقىٰ الشافعي في صدر حياته، تعلم منه ضوابط الفهم الصحيح للكتاب والمقابلة بين الأصول، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وبعبارة عامة «تعلم منه كيف يكون الاستنباط، وكيف يستخرج أحكام الفروع من مصادر الشرع الأولىٰ»[1] .

---

(١) انظر: ترجمة أحمد بن حنبل؛ للشيخ أبي زهرة م. س .

٢ ـ أَحْمَدُ ابْنُ تَيْمِيَّة .. شَيْخُ الإِسْلَامِ

(٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م)

رأيتني صائحاً هاتفاً :

قُلْتُ : يَا أَهْلَ الدَّوَاوِينِ، يَا سَدَنَةَ التَّارِيخِ، يَا حُمَاةَ الْآثَارِ وَالْأَخْبَارِ، يَا أَهْلَ الرِّوَايَةِ وَالدِّرَايَةِ، يَا مَعَاشِرَ الْأَقْدَمِينَ وَالْمُحْدَثِينَ مِنْ أَهْلِ التَّرَاجِمِ، هَلاَّ حَدَّثْتُمُونِي عَنْ نَشْأَةِ وَيَفَاعِ وَشَبَابِ هذَا الْحَبْرِ الرَّبَّانِيِّ، شَيْخِ الْإِسْلَامِ، وَشَيْخِ النَّهْضَةِ وَالْيَقَظَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا؟!

قَالَ الذَّهَبِيُّ : لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَاسْتَخْبَرْتَ عَنْ شَهِيرٍ نَحْرِيرٍ، أَصْمَعِيٍّ أَلْمَعِيٍّ، فَاسْمَعْ مِنِّي وَوَثِّقِ الْأَخْبَارَ عَنِّي.

اسْمُهُ : أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ الْحَرَّانِي ثُمَّ الدِّمَشْقِي، تَقِي الدِّين.

مَوْلِدُهُ : سَنَةَ إِحْدَىٰ وَسِتِّينَ وَسِتمائَةٍ فِي حَرَّانَ، ثُمَّ انْتَقَلَ بِهِ وَالِدُهُ إِلَىٰ دِمَشْقَ سَنَةَ سَبْعٍ وَسِتِّينَ وَسِتِّمائَةٍ بِسَبَبِ جُورِ التَّتَارِ وَتَوَسُّعِهِمْ.

قُلْتُ : يَا شَيْخَ التَّارِيخِ مَا فَضْلُهُ وَصِفَاتُهُ وَمَنَاقِبُهُ وَآيَاتُهُ.. ؟

قَالَ : هُوَ الْبَحْرُ اللُّجِّيُّ، وَالْجَوْهَرُ اللُّؤْلُؤِيُّ «وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُنَبِّهَ عَلَىٰ سِيرَتِهِ مِثْلِي، فَلَوْ حَلَفْتُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ لَحَلَفْتُ : أَنِّي مَا رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأىٰ مثل نفسه»(١).

---

(١) طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي ص٣٨٩، ٣٩٠، وسير أعلام النبلاء للذهبي، وقد أفرده بترجمة طويلة، وانظر للمُحدثين: شيخ الإسلام ابن تيمية للعلامة محمد كرد علي، ولمحات من حياة شيخ الإسلام للشيخ عبدالرحمن عبدالخالق، وحياة شيخ الإسلام ابن تيمية للعلامة محمد بهجت البيطار، ط المكتب الإسلامي.

وهو على **الإجمال** «فريد عصره، ووحيد دهره، علمًا ومعرفة وشجاعة وذكاء، وتنويراً إلهيًا، وكرمًا ونصحًا للأمة، وأمراً بالمعروف، ونهيًا عن المنكر».

قلت: هلا حدثتني عن طلبه للعلم صغيراً ويافعًا حتى يقتدي به جيل الهامبرجر والكولا، وجيل الحفلات الصاخبة، وجيل المحادثات الليلية والنهارية على الإنترنت، من صغارنا ويافعينا ممن فقدوا القدوة، وعدموا التوجيه، وانشغل عنهم آباؤهم بالأعمال الإضافية والأعمال الليلية فأفقروا عقولهم، وأثروا جيوبهم، فجنوا الحنظل والمآثم وعقهم أبناؤهم، وكفروا بتربيتهم.

قال الذهبي: أهذا في أجيال المسلمين، أم تتحدث عن أجيال عبدة العجل وسلالات القردة والخنازير وعباد الصليب، أم تتحدث عن الوثنيين ممن لا دين لهم ولا وجهة عندهم.

قلت: ليت شعري أيها الذهبي! هذا ما لم تؤرخه، وهذا ما لم تعرفه، ولعلك تحمد الله أن عصم قلمك عن تسجيل بلاءات عصرنا، ومصائب دهرنا وحينها لاحترقت ألمًا، ولاعتصرت دما، ولاستمالت ذهبيتك إلى حديد صدئ أو جذوع نخيل خاوية!!

قال: ويحك يا بن ياسين، لقد أثرت كامني، بما حدثتني، هلا أخبرتني عن حال عصرك، وعن موقع المسلمين من ذلك العصر أهم في صعد وقياد ومجد؟ أم في خسر؟!

قلت: إن الحديث يطول، ولي معك يا ذهبي مقام آخر نعرج فيه على حال عصرنا، وما حاق بنا، وكيف أننا تحت جسر الخسر، وفي ذنب العصر، ولكن حدثني عن ابن تيمية ومناقبه العلية، لله دره ودر عصركم.

قال: أما عن طلبه للعلم فقد سمع الحديث، وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب وخرج، ونظر في الرجال والطبقات، وحصل ما لم يحصله غيره، وبرع في تفسير القرآن، وغاص في معانيه بطبعه السيال إلىٰ مواقع الإشكال ميال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها، وبرع في الحديث وحفظه، فقل من يحفظ ما يحفظه من الحديث، معزواً إلىٰ أصوله وصحابته، مع شدة استحضاره له وقت إقامة الدليل.

وفاق ـ رحمه الله ـ الناس بمعرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوىٰ الصحابة والتابعين، بحيث إنه إذا أفتىٰ لم يلتزم بمذهب بل يقوم بما دليله عنده.

وأتقن العربية أصولاً وفروعًا، وتعليلاً واختلافًا، ونظر في العقليات، وعرف أقوال المتكلمين، ورد عليهم، ونبه على خطئهم، وتعلم الخط والحساب في المكتب[١]، وبرع في النحو وأقبل على التفسير إقبالاً كليًا حتى حاز فيه قصب السبق، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة، فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه.

قلت: لله درك أيها الذهبي، لقد أحسنت وأمعنت ذاك كان عن طلبه للعلم، فماذا عن أخلاقه وتعامله؟ أليس الخلق مقدمًا على العلم؟ أما ترى تشدق وزارات التعليم عندنا بالظاهر، واخترابها في الداخل حيث يتسمون بوزارة التربية والتعليم؟ وعلى تربيتها السلام حيث شاع عدم الاهتمام، وتعلم الطلاب في الصفوف كيف يتهجمون على مدرسيهم، وكيف يدخنون السجائر؟ وكيف يعلقون قلوب العذراوات؟ واسألوا المدارس الأجنبية في الكويت عن أنباء هذا وتوابعه في حفلات ما يدعى (بروم)، أو كيف أصبحت بعض المدارس وكورًا للمخدرات تباع وتشترى بها؟ أو كيف أصبحت مفرزة لتخريج المتسكعين؟ على أني لا أعمم هذا وإنما هذا واقع في بعض بلاد العرب والمسلمين فهل من نكير؟ وهل من نصير؟

قال الذهبي: أما عن أخلاقه فحدث عن الآداب والمعالي والمكارم بلا حرج ولا مرج، لقد نشأ شيخ الإسلام في تصون تام، وعفاف واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خلفًا صالحًا، بارًا بوالديه تقيًا ورعًا، عابدًا ناسكًا صوامًا قوامًا، ذاكرًا لله تعالى في كل أمر، وعلى كل حال، رجاعًا إلى الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، فارغًا من شهوات المأكل والملبس، والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدريسه.

وعمومًا: فقد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والأناة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الصدق والأمانة والعفة والصيانة، وحسن القصد، والإخلاص والابتهال

---

(١) وهو الكُتّاب ولا زال معروفاً في مصر وفي دول كثيرة يتعلم فيه الصبيان مبادئ القراءة والكتابة ويحفظون فيه القرآن، وقد كان بديلاً عن حضانات اليوم.

إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسك بالأمر، والدعاء إلى الله، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم(١) .

قلت :يا أبا حيان يا شيخ النحاة وأهل البيان، يا صاحب التفسير اللغوي البياني الذي سار في الآفاق «البحر المحيط» كيف وجدت ابن تيمية.

قال : لقد سألتني عن عظيم كريم مهاب أقول عنه ما سجلته الدفاتر عني، وتناقلته التراجِم مني «**ما رأت عيناي مثله**».

ثم قال على البديهة :

لما أتينا تقي الدين لاح لنا	**داع إلى الله فرداً ماله وزر**
على محياه سيما الألى صحبوا	**خير البرية نور دونه القمر**
حبر تسربل منه دهرنا حبراً	**بحر تقاذف من أمواجه الدرر**
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا	**مقام سيد تيم إذ عصت مضر**
وأظهر الحق إذ آثاره درست	**وأخمد الشر إذ طارت له شرر(٢)**
كنا نحدث عن حبر يجيء فها	**أنت الإمام الذي قد كان يُنتظر**

قلت - سائلاً - عنه الحافظ الزملكاني : ماذا رأيت في ابن تيمية من الفضل والمجد، أكان جديراً بما نال، وجريئاً فيما قال، وماذا عن فضله ونهجه؟!

قال : قد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب، والتقسيم والتبيين، وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير هذا الفن، وحكم أن لا أحد يعرفه مثله.

ثم قال :

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ترجمة شيخ الإسلام.
(٢) حياة شيخ الإسلام، ص١١ .

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر(١)

قلت : دفعني الفضول إلى السؤال عن زهد ابن تيمية وإيثاره؛ إذ خشيت أن يصيبه بعض ما أصاب علماءنا أو متعالمينا اليوم من إيثار للدنيا، ودفع للآخرة ومن سخاء بالأقوال، وشح في الأفعال، ومن أنفة عن الحق ، ومن دفع للسائلين، وشموخ عن المساكين، ونسيان أو تناسى للفقراء والبائسين !

فقال المؤرخون ومنهم ابن فضل الله العمري: يا ابن ياسين أَحْسِنْ الظن بسلفك، وادفع عنهم التهمة، فوالله ما كانوا كبعض علماء عصركم، من الباخلين بالمال أو الدافعين لأهل السؤال، أو الضانين بالبذل والنوال، وإنما كانوا أهل فضل وسخاء.

فهذا ابن تيمية يجيئه من المال في كل سنة ما لا يكاد يحصىٰ فينفقه جميعًا آلافًا ومئين لا يلمس منه درهمًا بيده، ولا ينفقه في حاجته، بل كان يعمد إلىٰ شيء من لباسه فيدفعه إلىٰ السائل، إذ حكي أنه دخل عليه إنسان فسلم، فتلمَّح ابن تيمية أن الرجل يحتاج إلىٰ ما يَعْتَمُّ به، فقطع علىٰ الفور عمامته واعتم بنصفها ودفع بالنصف الآخر للرجل ولم يهتم للحاضرين عنده.

وقالوا : كان ابن تيمية ماشيًا في الطريق فدعا له بعض الفقراء، وعرف الشيخ حاجته، ولم يكن ما يعطيه، فنزع ثوبًا علىٰ جلده ودفعه إليه.

وقال : بعه بما تيسر وأنفقه، واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من المال.

قلت : يا شيخ الإسلام ويا قدوة الأعلام، لله درك، ودفع الله عنك ما أضرك، ما قصتك مع سلاطين عصرك، وقد نما إلى سمعنا أنك عملت بفضل الله على دفع الفتنة عن سكان دمشق من عدو الله الطاغوت ملك الكرج، فما الخبر؟ إذ سامنا طواغيت العصر بالقهر والذل ولا مغيث إلا الله.

(١) المرجع السابق.

قال : بينما أنا في شؤون الدعوة منشغلاً، وبين الناس معلمًا، وإذ بخبر يصل إلي أن ملك الكرج أراد أن يفتك بسكان دمشق من المسلمين، ويسبي ذراريهم ونساءهم، وبذل في سبيل ذلك رشوة إلى السلطان غازان[١] من أموال طائلة على أن تمكنه منهم بالأبدان على الجهاد وبالدعوة والبيان، فانتدبت رجالاً من وجوه الناس وكبرائهم وذوي العقول والأحلام منهم، ثم اقتحمت مجلسه وأعانني الله عليه، واسأل تلميذي كمال الدين بن المنجا يخبرك الخبر!!

قلت : يا صاحب الكواكب الدرية[٢] ما خبر دخول ابن تيمية على سلطان دمشق غازان ؟

قال : حدث كمال الدين بن المنجا وقد كان حاضرًا، قال : «كنت حاضراً مع الشيخ في حضرة السلطان، فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل، ويرفع صوته على السلطان والسلطان مقبل عليه في ذلك، مصغ له، شاخص إليه.

قال شيخ الإسلام للترجمان : قل لغازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت : عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، وجُرت. . !!ثم خرج الشيخ معززاً مكرماً بعدما علم غازان من حاله وفضله ما كان سببًا لحقن دماء المسلمين، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [٣] .

قلت : يا شيخ الإسلام لقد علمنا أن ألسنة الأفاكين وأعين الواشين وآذان الناقلين قد سعت إلى الفتك بك، والإفك عليك والوشاية فيك، فكيف سلمت من كيدهم، وَلِمَ لَمْ تخف من شرورهم، وتسلِّم لهم بما أرادوا، كما يصنع بعض بل كثير ممن يُسَمَّوْنَ دعاة اليوم؟!

---

(١) وهو أول من أسلم من ملوك المغول .

(٢) هو كتاب لابن عبدالهادي ترجم فيه لابن تيمية وأحسن فيه .

(٣) حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ص١١، ١٢ للعلامة بهجت البيطار، ط . المكتب الإسلامي : دمشق .

قلت : كلمة أقولها وأرددها وأعمل بها تجيب عن شكاتك وهي «لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه»(١) ، ومن تمت أدواته وشاعت فتاويه وجد حساداً ووشاة وأفاكين بعدد الحصىٰ .

قلت : هل كنت تسعىٰ لملك أو إمارة ، أم هذا هو زعم الزاعمين المبطلين في كل عصر ، ومصر ، وحين ، حيث درجوا واعتادوا أن يلفقوا تهمة السعي لاغتصاب السلطة لمن يدعو إلىٰ إصلاحها ، أو لمن يطلب منها الالتزام بشرع ربها ويعقد في سبيل ذلك محاكم عسكرية ، ومحاكم أمن دولة عليا ، وتفرض حالة الطوارئ في البلاد . . . إلخ .

قال : نعم لقد وشوا بي إلىٰ السلطان الأعظم الملك الناصر لدين الله فأحضرت بين يديه ، وقال لي : أخبرت أنك قد أطاعك الناس ، وأن في نفسك أخذ الملك ! !

قلت : وأنا بفضل الله في طمأنينة، وفي راحة بال وسكينة: والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسًا!!

فوالله ما كان منه إلا أن ابتسم، ووقع في قلبه الخيبة، وقال: إنك والله لصادق ، وإن الذي وشىٰ بك إليّ لكاذب ، واستقر قلبه من المحبة ما لولاها لفتك بي منذ زمن طويل لكثرة ما يصله عليّ من الوشاة .

وقلت سائلاً عنه شيخ الفقهاء والمستنبطين ابن دقيق العيد، يا شيخ المستنبطين، ويا علم الشافعية المقدمين، جاءنا في التراجِم أنك جالست ابن تيمية، فماذا تقول عنه، وماذا استشعرت منه.

قال ابن دقيق : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد ، وقلت له : ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك ! ! وسألت قاضي القضاة ابن الحريري : يا قاضي العدل ، ويا مكين الفضل ، أنتم أهل القضاء ، وبقية الحكماء تحكمون بالعرف ، وتوطدون العدل وتقيمون الوزن بالقسط فقل لي بالله ما قولك في ابن تيمية وهل هو شيخ الإسلام كما يقولون؟ !

---

(١) حياة شيخ الإسلام ، ص١٤ .

قال : إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن هو؟!

وسألتُ ـ الحافظ المربي ـ عن ابن تيمية وموقعه في علوم الحديث من رواية ودراية.

فقال : ما رأيت مثله، ولا رأىٰ هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه(١).

قلت : يا شيخ الإسلام، يا نصير الإيمان عدا علينا أهل الكتاب من يهود ونصارى متهودين، فما حيلتك في دفع كيدهم، وماذا صنعت باستغاثة مسلمي قبرص بك، واستفتائهم لك، وهي لا تزال تئن بين مخالب اليونان النصارى المتعصبين، ونصفها الآخر تحت إمرة تركيا المسلمة، وقد اعترف الغرب بقبرص اليونان، ودحر وهجر وأبى الاعتراف بقبرص المسلمين في تركيا، ولا تزال المفاوضات قائمة، والمؤتمرات كامنة لتنصير قبرص وأخذ نصفها من يد المسلمين، وقد أعلن قبول انضمام قبرص اليونانية إلى الاتحاد الأوروبي دون قبرص الإسلامية؟!

قال : أنا لست أفهم ما تقول، هل هناك قبرص أخرىٰ لغير المسلمين، وأين ذهبت عزتهم وقوتهم وشوكتهم ومنعتهم؟ وإن ما علمته عن عصري أن قبرص إسلامية يوجد فيها جالية من النصارىٰ ناشطة في الاحتجاج لدينها وألوهية مسيحها وأنه ليس رسولاً، وإنما هو إله وقد جاءني كتاب من مسلمي قبرص يورد لي حجاج النصارىٰ هناك العقلية والسمعية.

فاقتضىٰ مني جواباً، أذكر فيه حججهم بنصها وألفاظها وأعيانها فصلاً فصلاً، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعًا وأصلاً وعقداً وحلاً في ستة فصول أسميتها: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»(٢).

قلت : يا شيخ الإسلام كثر المتعالمون في عصرنا، ودعوا إلى العلمنة، وانفصال الدين عن الدنيا، وانحساره في المساجد، وإقصائه عن الحياة العلمية

---

(١) حياة شيخ الإسلام ص١٠، ١١.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ط مصر ١٩٠٥م.

والاجتماعية بحجة الحضارة العقلية، والحجج الفكرية وأن معطيات العقل ونظريات العلم تخالف المنقول عن الله، فبماذا ترد على هؤلاء؟

قال : لقد ثارت هذه الشبهة في عصري وحمل لواءها أدعياء الفكر من المعتزلة عن هدىٰ الوحي، ومن مناطقة وغلاة قدموا أفلاطون علىٰ محمد، وقدموا الإيساغوجي علىٰ كتاب الله، والرأي الصحيح هو: «... **أن ما جاءت به الرسل هو الحق، وأن الأدلة العقلية الصريحة توافق ما جاءت به الرسل، وأن صريح المعقول لا يناقض المنقول، وإنما يدخل التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه، وما يدخل في العقل وليس منه** »[١] .

قلت : يا شيخ الإسلام، ما رأيك فيمن يتنطع بالقرآن ويتبجح بالقرآن في غير وعي بالواقع الكائن، مخرجًا هذا من الإسلام، ومتهمًا ذلك بالكفران، ويفرق الأمة ولا يجمعها، ويكدر النفوس ويشيعها.

قال : لعمري لهذا هو الجهل المبين، والإفك الأثيم أن نفرق الأمة ونقطع أوصالها بلا دليل، ثم صاغ الجواهر قائلاً: « اختلف المسلمون بعد نبيهم في أشياء ضلل فيها بعضهم بعضًا، وتبرأ بعضهم من بعض، إلا أن الإسلام يجمعهم فيعمهم، والذي نختاره ألاَّ نكفر أحداً من أهل القبلة»[٢] .

ثم إنه ما من هؤلاء ـ أي ما يظن به الابتداع ـ إلا من له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد علىٰ كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة، والدين ما لا يخفىٰ علىٰ من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بصدق وعدل وإنصاف[٣] .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٢٠٧ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٤/ ٥٠ ، ويقول الإمام الطحاوي : « ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله»، انظر: شرح الطحاوية ص٣٥٥ ط. المكتب الاسلامي.

(٣) المرجع السابق ٢/ ٥٢ .

وسألتُ حامل العلم القيم أعني به خليفة شيخ الإسلام ابن تيمية قلت : وماذا عن جهود ابن تيمية في دفع تعارض العقل والنقل في الرد على الفُسَّاد، والشُّذَّاذ من المتمنطقين والكلاميين؟

قال : قد كفانا شيخ الإسلام ابن تيمية هذا المقصد، يعني كتابه الذي وسمه «بيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح» فمزق فيه شملهم كل ممزق، وكشف أسرارهم، وهتك أشعارهم، فجزاه الله عن الإسلام وأهله أفضل الجزاء.

وجملة أمرهم - يعني هؤلاء المناطقة والكلاميين - أنهم في المسلمين كالزغل في النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس وقليل ما هم(١) .

قلت : يا إمام الدين، يا صاحب الصحوة والثورة للإسلام بين الأقدمين والمحدثين ما الفتوى التي أوردتك دهاليز السجون وفتحت عليك أبواب الظنون من أشباه العلماء والمتعصبين.

قال : إن لي من الفتاوى الكثير والكثير مما استبان لي فيه حكم الله فأفتيت بها، وقد يظنها بعض المتعصبين خروجًا على نهج السابقين، وخرقًا لإجماع المسلمين ولو أمعنوا النظر فيها، وتعرفوا أركانها وأدلتها لما قالوا ما قالوا.

أما الفتوى التي قلبت عليّ المبتدعة وأهل التقليد فهي فتوى شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، وقد أجبت بها من نحو عشرين سنة، فشنعوا عليّ بسبب ذلك، وراموا بها أن يوردوني المهالك واستصدروا مرسومًا من السلطان في شعبان سنة ٧٢٦هـ بسجني في القلعة وقد كان، وما إن سجنت حتى سعيت للكتابة فيها فمنعوني القلم والدواة والورق فكان حتفي في منعي، وكان مما كتبت في ذلك :

١ - **كتاب الاستغاثة** والمعروف بالرد على البكري وهو علي بن يعقوب البكري الشافعي المصري (٧٢٤هـ) وقد رددت فيه على مسألة الاستغاثة بالمخلوقين.

---

(١) حياة شيخ الإسلام ص١٢٥، ١٢٦ .

٢ - **كتاب الرد على الإخنائي** المسمىٰ بقاضي القضاة علم الدين بن شمس الدين (٧٣٢هـ) .

٣ - **كتاب «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة».**

قلت : وما قولك في الاستغاثة التي شاع ذكرها بين مبتدعة هذا الزمان؟

قال : خلاصة قولي فيها «إنه لا يجوز الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، ولو كانت الاستغاثة بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحياة لطلب من النبي ﷺ أن يقوم بالإمامة في الصلاة والإمارة في الغزو ، وإرسال البعوث وعقد الألوية ، والشعائر في الحرب ، فهذه الأمور كان مأموراً بها أمر إيجاب أو استحباب وكانت حقًا عليه للخلق انتهت بموته فلم يبق عليه منها شيء» .

قلت : يا شيخ الإسلام الثاني لقد لازمت شيخ الإسلام الأول ابن تيمية فحدثنا عن مسيرتك معه وعلاقتك به، وهل أنت له تابع، أم متفرد متميز، وفيم؟ وكيف؟ وماذا ...؟!

التفتَ إليَّ المترجمون من علماء التاريخ من القدماء والمحدثين، وانطلق منهم الأستاذ محمد مسلم الغيص في ترجمته لابن القيم .

وقال: إن ابن تيمية - قدس الله روحه - هو شيخ الإسلام بلا مدافع ولا منازع ، وهو عالم أوحد ، ومجتهد مطلق ، له ما ليس لغيره ، غير أني أقول إن دين الله لا يحتويه أحد ، وإن الإسلام أكبر من أن يجمعه مطلقًا فرد واحد حاشىٰ رسول الله ﷺ إذ كان قرآنًا يمشي بين الناس .

ويمكن إجمال المقارنة بينهما في الآتي :

١ - **أن ابن القيم يتميز عن شخصية شيخه ابن تيمية بـ** «الهدوء واللين بمنازلة خصومه من الفرق المنحرفة ، كالمعتزلة والقدرية والجبرية والجهمية وغلاة المتصوفة من دعاة الحلول والاتحاد ، والجامدين من فقهاء الدين المتعصبين لمذاهبهم» ، وتفسير هذا أن ابن تيمية نشأ في فترة كانت الحروب علىٰ أشدها بين المسلمين والتتار ، وقد خاض معظم هذه الحروب بنفسه مقاتلاً مجاهداً ، حاثًا المسلمين علىٰ قتال التتار .

٢ ـ **ثم إن ابن تيمية بطبيعته كان حاداً في طبعه** ثائراً بطبعه ثورة جسمية، قبل أن يكون ثائراً ثورة علمية، وقد استبان هذا في شدته وعنفه على المبتدعة، غضباً لله وثورة لدينه، بينما كان ابن القيم يجادل هؤلاء المبتدعة أشد الجدال ولكن بهدوء، وانظر كتبه تعبر عن ذلك أشد التعبير حيث كانت آراؤه متزنة في معارضته ومناقشته إذ يوازن بين الآراء ويختار منها ما يراه موافقًا للشرع، ويرد ما يخالف الشرع سواء في أبحاثه الصوفية والفقهية والكلامية(١) .

كما كان ابن القيم معتداً برأي شيخه في بعض القضايا غير أنه اعتداد عاقل متابع بالدليل غير مقلد، وكان لا يتحرج ـ رحمه الله ـ من قبول آراء شيخه مادام مقتنعاً بها، أما إن لم يقتنع بها فإنه يذكر رأيه مبيناً وجهة نظره، وهذا دليل على تفرد شخصيته وأمانته حين يبين وجهة نظره(٢) .

قلت : يا شيخ الإسلام ويا علم الأعلام لقد أفنيت وناظرت وحاججت وولجت في كل المعضلات، وأتيت بدقيق فهم وحسن معنى، وجوهر حكم، وحررت وخطت يمناك الكثير والكثير من ذلك، فما أصول فتياك؟ وما مصادرك ؟ وما معينك الغض الذي منه تنهل؟!

قال : أما أصولي التي عليها أصول وأجول وأحرر وأقول وأخط وأفوه فهي على الإجمال :

أولاً :القرآن الكريم فهو أصل الأصول وبه في كل حال أقول، قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾(٣) .

وقال سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾(٤) .

ثانيًا : السنة الصحيحة متواترها وآحادها .

ثالثاً : الإجماع : وهو ما ثبتت صحته وصحت روايته، مع العلم أنه لا توجد مسألة يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نص .

---

(١) ابن قيم الجوزية، ص١٣٦ .
(٢) السابق، ص١٣٨، ١٣٩ .
(٣) الكهف : ١ .
(٤) الأنعام : ٣٨ .

رابعًا : القياس : وهو عندي الصحيح دون الفاسد، وهو الذي جاءت به شريعة الله ورسوله وتعتبر النصوص هي الأساس الأول في ذلك[١] .

قلت : يا شيخ الإسلام وماذا عن صولاتك وجولاتك الفلسفية، وبطولاتك المنطقية، ومواقفك من المناطقة والفلاسفة الذين ازدهوا بعلمهم، وفخروا بمنطقهم؟

وهنا انتفض العلامة أبو الحسن الندوي ودفع إليَّ بكتابه عن ابن تيمية وصاح :

وقال: اسمع يا بن الياسين، هذا الجواب المبين : ولد ابن تيمية قبل وفاة علم المنطق، وحبر الفلسفة، نصير الدين الطوسي بعشر سنين وكان هو القائم على أعمال أرسطو وسقراط بعد فحول فلاسفة المشرق والمغرب مثل : الرازي والكندي والفارابي وابن سينا .

وكان غاية الرد عليهم هو فتاوىٰ من الفقهاء، لا يلتفت إليها؛ لأنها لم تعلل التحريم إلا بالكلام العام، فأتىٰ ابن تيمية علىٰ هذا التراث الفلسفي فحرره واستعرضه واهتضمه ومجه، وراح يفصل مواطن القوة والضعف، وراح يستبدل المعاني الفلسفية بالقيم القرآنية، ويثبت أن صحيحها مستوعب في الإسلام، وأن جلها سفه وأوهام، وذلك في محررات له ضخمة أهمها «**نقد المنطق**» أو «**الرد على المنطقيين**» ومباحث جليلة في كتابه «**درء تعارض العقل والنقل**»، مثبتًا أن المنطق لا يستفيد به الذكي ولا يعلو به البليد .

فقال مثلاً عن فلسفة الإلهيات اليونانية : «وأما معرفة الله تعالىٰ فحظهم منها منجوس جداً، وأما ملائكته وكتبه ورسله فلا يعرفون ذلك البتة، ولم يتكلموا فيه لا بنفي ولا بإثبات، وإنما تكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل»[٢] .

وقال أيضاً كاشفاً زيغهم وضلالهم وأنهم لا يملكون وسائل ومبادئ اكتساب علم الإلهيات : « بل قد صرح أساطين الفلسفة أن العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلىٰ اليقين،

---

(١) شيخ الإسلام أحمد تقي الدين ابن تيمية، للشيخ القطان، والشيخ الزين ص١٥٥، ١٥٦ ومابعدها، ط. ١، مكتبة السندس ١٩٨٦م.
(٢) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ص٥٧ .

إنما يتكلم فيها بالأحرىٰ والأخلق، فليس لهم فيها إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا»(١) .

وقال أيضًا : للمتفلسفة في الطبيعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الإلهيات فإنهم أجهل الناس بها وأبعدهم عن معرفة الحق فيها، وكلام أرسطو معلمهم فيها كثير الخطأ»(٢) .

قلت : يا شيخ الإسلام ما أشد ما لقيت من ظلمة عصرك ومن اضطهاد أشباه العلماء وطواغيت عصرك لك؟!

قال : أشد ما لقيت منهم ليس حبسي، ولا إقصائي ولا عدمي ولا إهانتي، وإنما منعي من الكتابة والمطالعة، حيث سجنوني في القلعة، ومنعوني من الكتابة والمطالعة، ولم يبقوا لي لا ورقًا ولا قلمًا، وكتبت عقيب ذلك بفحم، وكان إخراج الكتب من عندي من أعظم النقم، فرغبت إلىٰ الله ولجأت إلىٰ المناجاة حتىٰ أتاني اليقين، والحمد لله رب العالمين .

قلت : يا شيخ التوحيد والموحدين، ويا صاحب عقيدة السلف السابقين، لقد رماك أعداؤك بالتشبيه، ووسموك بالتجسيم، فهلا حدثتنا عن عقيدتك، وأزحت لنا تلك الشبهة.

قال : سلوا عن ذلك تلميذي الذهبي في ترجماته لي، وسلوا عن ذلك تلميذي ابن كثير، وابن عبدالهادي، ثم خذوا القول مجملاً ومفصلاً من شيخ الإسلام الثاني ابن قيم الجوزية، العالم الرباني، ثم عودوا إلىٰ كتبي وانظروا فتاواي في ذلك، وانظروا العقيدة الواسطية التي ناظرت عليها فحول الأشاعرة وأذناب المعتزلة وبقية المتصوفة والمبتدعة، فما باحوا ببنت شفة، ولا علقوا بكلمة، وتلك هي ناطقة بشواهد القرآن وشواهد الحديث .

قلت: يا شيخ الإسلام لقد رأيناك شديداً في الحق غير مبال بما يقع عليك

---

(١) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ص١٨٧ .

(٢) معارج الوصول ص١٨٦ .

من قهر وعدوان، وكأنما أنت رجل البطولة والشجاعة في ساحات العراك والجهاد في سبيل الله، وفي ساحات المقال والتلاسن والتحاجج، فلله أنت، ماذا تقول في شدتك وماتعليلها وما تحليلها عندك؟

قال : بداية كان النبي ﷺ وهو سيدنا وقدوتنا من أرفق الناس وأرحمهم ومن أشدهم عفواً ورحمة كما قال تعالىٰ : ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾(١)، غير أنه في الله كان يغضب ويحتد، ويتمعر وجهه لله سبحانه، وبهديه نقتدي، وعلىٰ نهجه نمضي، ويا لله في عصر نشأت أنا فيه!! عصر اقتتال المسلمين مع التتار، واقتتالهم مع بقايا الصليبيين، واقتتالهم مع طوائف الباطنية الخارجين عن الطاعة والشاقين عصاها.

ثم قام ابن كثير ناضحًا معين العلم عن ذلك من كتابه الفذ «البداية والنهاية» :

فقال : ولقد سئل ابن تيمية عن **قتال التتار** الذين زعموا الإسلام علىٰ عدوانهم **فقال** : «هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا علىٰ علي ومعاوية ورؤوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون علىٰ المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف».

وكان يقول : إذا رأيتموني في ذلك الجانب وعلىٰ رأسي مصحف فاقتلوني، فشجع الناس علىٰ قتال التتار، وقويت قلوبهم ونياتهم، ولله الحمد»(٢).

ثم تدخل ابن عبدالهادي بكتابه العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية،

وقال : لقد كان شيخنا ابن تيمية ثائراً بطبعه ثورة جسمية قبل أن يكون ثائراً ثورة علمية، ودونك يا بن ياسين صفحات التاريخ تحدثك عن مواقف البطولة والشجاعة التي وقفها ابن تيمية في **موقعة مرج الصفر بين المسلمين والتتار..**

قال لأحد الأمراء : يا فلان أوقفني موقف الموت.

---

(١) التوبة : ١٢٨.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ٢٣، ٢٤.

قال : فسقته إلىٰ مقابلة العدو ، وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم ، فرفع طرفه إلىٰ السماء (وأشخص بصره) ، وحرك شفتيه طويلاً ثم انبعث وأقدم علىٰ القتال[١] ، وقد شوهد هو وأخوه يصيحان في الناس يحرضانهم علىٰ القتال .

قلت : يا شيخ الإسلام ويا قامع البدعة وناصر السنة، ماذا تقول في ابن عربي وجماعته من أهل الحلول والاتحاد، الذين قالوا عن الله ـ تعالى :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا — نحن روحان حللنا بدنا
نحن مذ كنا على عهد الهوى — تضرب الأمثال للناس بنا
فإذا أبصرتني أبصرته — وإذا أبصرته أبصرتنا

وقول الآخر :

العبد رب والرب عبد — يا ليت شعري من المكلف؟!

وقول الثالث :

فأصبح قلبي قابلاً كل ملة — فكعبة قرآن ودير لنصراني

وقول السهروردي والحلاج، وطائفة المتصوفة المتفلسفة، الذين لا تزال لهم أذناب إلى اليوم ينعقون بما لا يعلمون، ويهرفون بما لا يعرفون.

قال : أما هؤلاء المبتدعة وأمثالهم ممن خالفوا السنة ، وركبوا البدعة فإنهم أصناف ، ولكل صنف حكم بعد تحرير مذهبه ، وتبصر رأيه ومعتقده ، وعد إلىٰ كتبي من مثل : الفرقان ، والاستقامة ، والفتاوىٰ ، والفتوىٰ الحموية ، ورسائلي ، ستجد جوابًا شافيًا ، ودليلاً علىٰ ضلالتهم كافيًا ، ومنهجًا بديلاً للسلف هاديًا .

أما عن سؤالك عن ابن عربي خاصة «فما تضمنه كتاب فصوص الحكم ، وما شاكله من الكلام ، فإنه كفر باطنًا وظاهراً ، وباطنه أقبح من ظاهره ، وهذا يسمىٰ مذهب أهل الوحدة ، وأهل الحلول ، وأهل الاتحاد»[٢] .

(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٢) مجموعة رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية ، ص ٤١ ، الطبعة الأولىٰ ، القاهرة .

قلت :يا شيخ الإسلام من توصي من تلامذتك الكثر وبماذا توصيه، ملاحظاً من وراءه من طلاب العلم في الأمة، فلقد أمتعتنا بكثير من الوصايا الحسان كما في وصيتك الجامعة في خيري الدنيا والآخرة، وكما توصي كثيراً في ثنايا تبيض صحائفك.

قال : سلوا تلميذي الأول الذي تبنيته وآخيته وهو مكمن علوم، وبوابة أفانين، وطبيب نفوس، إنه ابن قيم الجوزية .

فانتضى ابن قيم الجوزية سياق الكلام..

وقال : قال لي شيخ الإسلام رضي الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد «ولا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل الإسفنجة، فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك، صار مقراً للشبهات، أو كما قال»(١) .

قال ابن القيم أيضًا : « فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بهذه الوصية» .

قلت : لله درك يا شيخ الإسلام، وتقبل الله منك ورضي عنك، وأسكنك فراديس الجنان، وحشرك مع محمد وصحبه في رحبة عالي الجنان.

قلت : هل انكسفت شمس العلوم بموت شيخ الإسلام أم بقيت أقمار وكواكب تلامذته وكتبه وأتباعه وأحبابه.

قال (صاحب جلاء العينين) : لم يمت الشيخ بعلمه، ولا ارتحل بفضله، وإنما وُسِّد جسده التراب، وصعدت روحه إلىٰ عنان السحاب، وبقي علمه وفضله شاهداً عليه، وهذه كوكبة تلامذته الوضيئة تدل علىٰ فضله ومجده، ومنهم :

- **شيخ الإسلام الثاني** العالم الرباني شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية وهو اللاحق الأول به علماً وفضلاً .

---

(١) انظر : مفتاح دار السعادة ١/ ١٤٨ .

- **ومؤرخ الإسلام** الحافظ الذهبي صاحب سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام، وميزان الاعتدال.
- **وشيخ التفسير** عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري وقد انتهت إليه عمادة التفسير، وله أيضًا كتاب «البداية والنهاية».
- **ومنهم قاضي القضاة** شرف الدين أبو العباس أحمد بن الحسين «قاضي الجبل».
- **ومنهم** تلميذه ابن عبدالهادي.
- **ومنهم** زين الدين عمر الشهير بابن الوردي الشاعر الناثر الأديب النحوي، وله قصائد حسان منها في ابن تيمية:

هل فيهم صادع للحق مقوله ... أو خائض للوغى والحرب تستعر
رمى إلى نحو غازان مواجهة ... سهامه من دعاء عونه القدر
وشق في المرج والأسياف مصلتة ... طوائفاً كلها أو بعضها تتر
هذا وأعداؤه في الدار أشجعهم ... مثل النساء بظل الباب مستتر

ومن غيرها قوله:

تقي الدين ذو ورع وعلم ... حروق المعضلات به تخاط
توفي وهو مسجون فريد ... وليس له إلى الدنيا انبساط

٣ ـ ابن قيم الجوزية
شيخ الإسلام الثاني والعالم الرباني
(٦٩١ ـ ٧٥١هـ / ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م)

ما يزال الحديث موصولاً مع أئمة الهدى ومصابيح الدجى، العلماء الربانيين، بنور الدليل أناروا السبيل، وكشفوا عن الأباطيل وردوا المبتدعة ومن سار على طريقهم إلى حظيرة الإسلام الصحيح الصافي من مكدرات الفلاسفة الملحدين، ومحطتنا هذه مع شيخ الإسلام الثاني، والعالم الرباني، والتلميذ النجيب لشيخ الإسلام بن تيمية، وهو ابن قيم الجوزية ـ رحمة الله عليه.

قلت : يا شيخ الإسلام الثاني، هلا عرفتنا عليك وقربتنا بين يديك، فمثلك البدر لا يخفى عن العيون، غير أن العيون في زماننا قد رمدت، والقلوب قد سمدت، وقد شغلتنا وسائل الإعلام بنجوم الفن، وكواكب الغناء، وبسيدات الرقص، وفتيات الإعلان، وبمواقع الرجس على الإنترنت، وما خفي كان أعظم، ولله الأمر من قبل ومن بعد ؟!

فانتهض لي الشوكاني وقال : هل لك أن تطالع كتابي «البدر الطالع» ؛ لتدرك خبر ابن القيم، وتستخبر عنه كل قيم، وسابقه ابن العماد الحنبلي وقال : طالع «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، ففيه أنباء ابن القيم كلها، ثم قام إمام الحديث والرجال في مهابة وجلال، وهو ابن حجر العسقلاني البارع اللامع صاحب فتح الباري.

وقال : عد يا بن ياسين إلى كتابي «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» ستدرك فيه بغيتك وستحصل فيه طلبتك، واسمع مني خبر ابن القيم.

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن جرير الزرعي الدمشقي، ويكنىٰ بأبي عبدالله، ويلقب بشمس الدين، ويشتهر **بابن القيم**، أو **ابن قيم الجوزية**، **والجوزية** هي مدرسة بدمشق كان أبوه أبو بكر قيمًا عليها، أي ناظرًا أو مديراً بلغة مدارسكم.

ولد عام ٦٩١هـ ـ ١٢٩٢م، وتوفي ـ رحمه الله ـ بدمشق عام ٧٥١هـ، فقضىٰ جل حياته في النصف الأول من القرن الثامن الهجري[(١)] .

قلت : يا شيخ الإسلام الثاني، هلا حدثتنا عن عصرك ومصرك وأحوال المسلمين فيه، وهل عَزَّ الإسلام أو تدنىٰ؟ وهل سعد الصالح أو تعنىٰ؟ أخبرنا وبصرنا، فنحن في عصر ذل فيه المسلمون، وعز فيه اليهود والمتهودون، واجتمع علىٰ الإسلام رؤوس الكفر، وطعن الإسلام في خاصرته، فهذه فلسطين ذبيحة، وتلك كشمير جريحة، وهاك أفغانستان طريحة، وهناك الشيشان، وتلك تركستان، ولن أطيل ذكر الجروح وتفتيح القروح، حتىٰ لا أؤرق مضجعك، وأثير مواجعك بعصرك وعصرنا .

قال : لم يكن عصري بأحسن حالاً من عصركم، إلا في جوانب معدودة أهمها أن الشريعة كانت ظاهرة ضد أعدائه مشهورة، لا خذلان ولا بهتان ولا كيد ولا مكر في خفاء، كما الحال في عصركم، حيث كانت الشام تابعة لمصر التي يحكمها المماليك من سنة ٦٥٦هـ بعد سقوط بغداد علىٰ أيدي التتار في موقعة عين جالوت، بعدما سفكوا الدماء ونثروا الأشلاء ودمروا معقل الحضارة بغداد .

فانتدب الله السلطان قطز والتف حوله العلماء وعضده سلطانهم وكبيرهم العز بن عبد السلام، ونصرهم الله نصراً مبيناً علىٰ التتر الأشرار، وحينها استحق المماليك السلطنة؛ لأنهم دحروا بسيوفهم الكفر وأعوانه **ولله القائلين في قطز** :

غلب التتار على البلاد فجاءهم ... من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم ... ولكل شيء آفة من جنسه

غير أن المماليك ثاروا بعد قطز بعضهم علىٰ بعض وكثر التنافس بينهم، حتىٰ كانوا ما يتوحدون إلا عند عموم الخطر، مع ظهور البدع والخرافات، وانحراف الكثير من الفرق الإسلامية عن منهاج السلف، وتجاوزهم السنة، واندثار كثير من

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني ١/ ٢١ وما بعدها، ط . القاهرة، ١٩٦٦م .

معالم التوحيد، فشاعت زيارة القبور، والتوسل بها، وتعظيم الشيوخ، والتعصب للمذاهب، وشيوخ التقليد. . . إلى غير ذلك من الآفات الداخلية، التي عملت على إضعاف أمة الإسلام(١) .

قلت : وكيف؟ وما تلك الخلافات والشقاقات الداخلية بين المسلمين حينئذ، وأي الجبهات تهدد أمة الإسلام أهي جبهة المعادين لها من التتر وأهل الصليب أم من بدع المبتدعين وإفساد المفسدين من الأمة..؟!

قال : غشت الأمة ظلامة التتر الذين أبادوا العباد وأفسدوا في البلاد، واجتثوا البشر مسلمهم وكتابيهم ووثنيهم من الصين التي استولوا عليها، أو قل انطلقوا منها حتى أخربوا تركستان وأذربيجان، وتحولوا إلى الترك وأبادوهم حتى رهبهم كل أحد من أهل الشمال والجنوب، واسألوا مؤرخ الإنجليز جيبون لما قال: «إن أهل السويد لما سمعوا بنبأ التتار قبعوا في بيوتهم، وخافوا الخروج كعادتهم إلى الصيد في سواحل إنجلترا»(٢) .

ودع عنك هذا إنما المراد بيان كيف تحالف المسلمون أو من زعموا الإسلام معهم ضد المسلمين، حيث سعى ابن العلقمي على الانتقام من أهل السنة بدعوته للتتار إلى بغداد، فتآمر على الإسلام والمسلمين، ووالى أعداء الله، وسفك دماء عباد الله، وضيع خلافة الإسلام .

ثم يتوالى هذا المكر على الإسلام من أهل البدع المتعصبة بأفكارهم وكتاباتهم التي أعانني الله ووقفت لها مع شيخي ابن تيمية بالمرصاد، فاسألوا عن كتبي وكتبه .

ثم جاء طوفان المكر والعمالة من داخل بلاد المسلمين من العُبَيْدِيِّين في مصر حيث خافوا على ملكهم من خلافة الإسلام التي رفع لواءها جنود من السلاجقة

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني ٢/ ١٤٣، ط : القاهرة ١٣٤، النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي، ط دار الكتب ١٣٣٨ هـ .

(٢) منهج ابن القيم في التفسير، للدكتور محمد أحمد السنباطي ص٢٩، ط مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، القاهرة ١٩٧٣م .

الذين حمىٰ الله بهم الإسلام والمسلمين، فكاتبوا الفرنج ـ الصليبيين ـ علىٰ أن يهاجموا الشام وتكون قسمة بينهم، علىٰ أن يبيدوا إخوانهم المسلمين، ويدمروا خلافة الإسلام، وهذا قائد منهم هو ابن الزرقاني من الشيعة الإسماعيلية يكيد للمسلمين ويسعىٰ في تحقيق ذلك(١) .

أضف إلى ذلك الاستخفاف الذي حاق بالخلافة الإسلامية حتىٰ صارت كألعوبة الصبيان في أيدي الولاة، وصار الخليفة المنصَّب في مصر دميةً شكليةً منذ أن بويع الخليفة المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر، ولما مات قام أخوه الحاكم بأمر الله بهذا .

ولهذا أعم الله الأمة الإسلامية بالبلاء، فتتالت موجات المجاعة علىٰ مصر والشام والعراق وأرض الجزيرة، كما في سنة ٦٩٥هـ/ ٧١٨م حتىٰ أن الناس راحوا يأكلون الكلاب والخنازير والحمير لعدم وجود ما يأكلونه، وصدق الله: ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا** ﴾(٢) .

وناهيك عما أحدثه المبتدعون من خرق للتوحيد وابتداع في الدين حتىٰ صلىٰ الناس للقبور، وارتدوا علىٰ أعقابهم خائبين مشركين يسولون لهم الكيد بالأمراء والصالحين من العلماء، فهذا عالم يسجن وهذا يضطهد وهذا قاض يُقَال(٣)، وهكذا راحت الأمة تتخبط في جهالتها وتتيه في «حيص بيص» مالها عنه من محيص ولا نيص!!

قلت: يا بن قيم العلوم ويا قيمها هلا حدثتنا عن معارفك العلمية ومصادرك ومواردك، كيف حصلت العلوم؟، وكيف حذقتها؟

ومن أين لك تلك الفنون البارعة، وهذه الأفانين اليانعة التي أتحفتنا بها في زاد المعاد، وفي بدائع الفوائد؟

قال: لقد منحني الله منحاً لا أستطيع شكرها إلا بالله أعدد بعضها :

---

(١) السابق، ص٢٩، ٣٢ . (٢) الإسراء : ٥٩ .

(٣) يعزل عن منصبه .

١ - **بيئة علمية نشأت فيها** عملت على تنمية مواهبي وإشراق نبوغي، حيث كان والدي العالم العامل شرف الدين أبو بكر بن الشيخ الكبير أيوب بن سعد قيمًا على مدرسة الجوزية الحنبلية بما فيها من مجالس للعلم، ومحافل للدرس، ومطالعة ومدارسة وتفقه في كتاب الله وحديث رسول الله، ولذا فالأب راع قام على رعايتي فأحسن فلله هو.

٢ - **رزقت بشيوخ علم وعمل وفضل** فتخرجت عليهم وعلى رأسهم والدي الروحي ذلك الأصمعي الألمعي شيخ الإسلام الأوحد العالم الرباني ابن تيمية الحراني، فقد تلقيت عنه علمه واقتنعت به، وحملت لواء نشره، وجادلت عنه، ونصرت آراءه في الفقه، والفكر؛ لأني وجدته عالمًا عاملاً، يقول فيعمل، ويؤمر فيأتمر، ويوصي فيبدأ بنفسه، لا يقول الدرس ثم يناقضه، ولا يقوم واعظًا ثم يمضي محتقبًا للوزر مثل علماء السلطة الذين يقولون ما لا يعلمون، ويعملون بما لا يقولون، ويعظون وما يتعظون، واسألوا علماء عصركم، فأنتم بهم أدرى.

٣ - **مسقط رأسي «زرع» إحدى قرى «حران»** وهي بلدة علم وفضل سارت إليها الركبان، وماجت بحركة علمية متفجرة بمناقشات لا تهدأ من كل الاتجاهات الفلسفية والسلفية، وغيرها.

قلت: يا شيخ الإسلام، ماذا ترى فيما أحاط بنا من أعداء قادهم اليهود وتبعهم المتهودون، ووافقهم العملاء على ذلك، وأصبحنا بلا حول إلا بالله، ولا قوة إلا بدين الله، فما المخرج وما السبيل؟!

قال: اسمع يا بن ياسين إلى حديثي في كتاب الفوائد حيث بذلت فيه النصح لأمة الإسلام، وذكرت فيه المخرج من بحور الظلام إذ قلت تعليقًا على قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ (١).

قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم - أي الأمة - في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة.

(١) الأنفال: ٢٤.

- **أما في الدنيا** : فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد .
- **وأما في البرزخ** : فقد قال تعالىٰ : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ (آل عمران : ١٦٩) .
- **وأما في الآخرة** : فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم ، ولهذا قال ابن قتيبة : ﴿ **لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ يعني : الشهادة ، والآية تتناول هذا كله ، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب ، وكمال الحياة في الجنة ، والرسول داع إلىٰ الإيمان وإلىٰ الجنة ، فهو داع إلىٰ حياة تحيي الدنيا والآخرة ، والإنسان مضطر إلىٰ نوعين :

١ - **حياة بدنه** : التي بها يدرك النافع والضار ، ويؤثر ما ينفعه علىٰ مايضره ، ومتىٰ نقصت فيه من هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك .

٢ - **وحياة قلبه وروحه** : التي يميز بها الحق والباطل والغي والرشاد والهوىٰ ، والضلال ، فتفيد هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال(١) .

قلت : إذن هذه خلاصتك وهذه رؤيتك « أن مخرج الأمة من هذا الظلام هو الجهاد وإلا فهي بلا قيمة وبلا حياة » .

قال : نعم يا بن الياسين «إن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله وللرسول ، وإلا كانت حياة بهيمية مشتركة بينها وبين أرذل الحيوانات .

وقال مجاهد : ﴿ **لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ يعني للحق ، وقال قتادة : هو هذا القرآن فيه الحياة ، والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة ، وقال السدي : هو الإسلام أحياهم بعد موتهم ، وقال ابن إسحاق وعروة بن الزبير واللفظ له : ﴿ **لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم ، وقال الواحدي : والأكثرون علىٰ أن معنىٰ قوله : ﴿ **لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ هو الجهاد وهو اختيار أكثر أهل المعاني .

---

(١) الفوائد ، ص١١٥، ١١٦ ، تحقيق أحمد عرموش ، ط٢ ، دار النفائس ، ١٩٨٦م .

قال الفراء : «إذا دعاكم إلىٰ إحياء أمركم بجهاد عدوكم، يريد إنما يقوىٰ بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم، واجترأ عليهم»(١) .

قلت : يا إمام البلاغة والبيان، ويا صاحب القصائد الحسان في دحر المبتدعة أهل العدوان، حدثنا عن معارفك اللغوية، وضلاعتك البيانية، وإلمامك بلسان العرب، وهو مفتاح فهم دين الله إذ القرآن نزل بلسان عربي مبين؟

قال : هلا استمعت أو قرأت يا بن ياسين مقدمة كتابي (الفوائد المشوق إلىٰ علوم القرآن وعلم البيان)، فلئن نظرته بعيني عقلك، وأعملت فيه وفي مقدمته فكرك فلتعرفن في اللغة قدري، وفي البلاغة منزلتي، وفي علم الأدب مكانتي، واسمع قولي في مقدمته :

« وترقت همة اطلاعي إليها من كتب المتقدمين والمتأخرين، وهي كتاب البديع، لابن المعتز، وكتاب الحالي والعاطل، للحاتمي، وكتاب المحاضرة له أيضًا، وكتاب الصناعتين، للعسكري، وكتاب اللمع، للعجمي، وكتاب المثل السائر، لابن الأثير، وكتاب البديع لأسامة بن منقذ، وكتاب العمدة للزنجاني، وكتاب نظم القرآن له أيضًا، وكتاب نهاية التأميل في كشف أسرار التنزيل، لكمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الأنصاري، وكتاب التفريغ في علم البديع، لزكي الدين بن عبدالعظيم بن أبي الأصبع، وكل كتاب من هذه الكتب أخذ من كتب شتىٰ مع ما أضفت إليه من فوائد مستعذبة، وفرائد حسن المذاق مستغربة، نقلتها عن الأئمة الأعلام الأكابر، ونقلتها عنهم من ألسنتهم لا من بطون الدفاتر، وما أضفت إلىٰ ذلك مما تفضل الله به ومنح، من مهمل أبنته(٢) ، ومجمل فصلته وشارد قيدته، وحصلته » (٣) .

قلت معقبًا : لله دَرّك يا بن القيم فيما ذكرت من كتب للأكابر ودواوين

---

(١) المرجع السابق، ص١١٤ .

(٢) أبنته من أبان بمعنىٰ أظهر .

(٣) انظر الفوائد المشوق إلىٰ علوم القرآن وعلم البيان «المقدمة» .

البيان والبلاغة، ولله ما حصلت وما قيدت، وقد علمنا أن علوم اللغة هي آلة الآلات في فهم كتاب الله، وللوقوف على معناه، ولاستيضاح فحواه ومغزاه كما قال تعالىٰ: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ (١) .

وسألت الإمام قائلاً: يا شيخ البيان والتبيان، وشيخ السنة والبديع والمعاني، ما فوائد علوم البلاغة، وعلوم الفقه لفهم كتاب الله، أتراها من الأهمية بمكان، فيسعىٰ طلاب العلم إليها، وينهلوا من معينها، أم هي فضلة غير جديرة بالسعي وراءها، حسب صيحة العولمة، إذ صرنا إلىٰ زمن نسينا فيه لساننا العربي حتىٰ غلبت علينا العجمة، وشابت خطاباتنا اللوثة، وأصبحت اللغة العربية في المدارس العربية ثقلاً علىٰ الطلاب غير راغبين فيها، وغير ناظرين إليها ولا آبهين بها؟

أما في **المدارس الإنجليزية والأمريكية والفرنسية** التي في بلاد العرب فحدث ولا حرج، حيث يعلم الطفل قبل (لا إله إلا الله) يعلم ألفاظ الحب والعشق وتعظيم دول الغرب، والهتاف بأناشيدها صباحًا ومساء، جهاراً نهاراً بحجة تعلم لغتها!

لقد عرف منذ الروضة شكسبير، ونسي محمد بن عبدالله ﷺ.

يعرف سلفستر وزمرة الراقصات والراقصين ونسي أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً!

ولا حول ولا قوة إلا بالله علىٰ ضياع لغة الضاد بين لغات المستعجمين!!

قال: يا ويح شبابكم وأطفالكم، ويا خيبة أجيالكم، لقد انقطع نهرهم عن القرآن بانقطاع بلاغة العربان وعلوم البلاغة والبيان، لقد ضلوا حيثما ارتحلوا وحلوا لجهلهم بلسان القرآن ومنطق محمد ﷺ، ليت شعري من حالي وحال بني عصري حيث تعمقنا علوم اللغة والبيان وقد تعمقته أنا، وحصلته ليكمل بهذا الكتاب النفع ـ أي كتاب المشوق إلىٰ علوم القرآن ـ وإحياء لعلم البيان، المطلع علىٰ نكت نظم القرآن الذي عفت آثاره، وقَلَّتْ أنصاره، وتقاعدت الهمم عن تحصيله، وَضَعُفَتْ العزائم عن معرفة فروعه، فضلاً عن أصوله فما من علم من العلوم الإسلامية رمي بالهجر والنسيان ما رمي به علم البيان!!

(١) سورة ص: ٢٩.

ولو أداموا النظر فيه، والتلمح لمعانيه لاطلعوا من الكتاب العزيز على خفايا تهش لها القلوب، ودقائق تسفر لهم عن وجوه المطلوب، ومن لم يعرف هذا العلم، كان عن فهم معاني الكتاب العزيز بمعزل، ولم يقم ببعض حقوق المنزِّل والمُنَزَّل، ومن وقف على هذه الأصول التي أصلتها، والفصول التي فصلتها، ظهر له مصداق هذه الدعوى، وأخذ من التوصل إلى معرفة هذا العلم بالسيف الأقوى، وحسن عنده موقعه، وعظم في نفسه محله وموضعه، وخالطت قلبه بشاشة رونقه، وجلبت في عينه نضارة نظائره وحسن مونقه(١) .

قلت : يا إمام الناسكين، على طريقة سيد المرسلين، هل أتاك نبأ شبابنا، من فتية وفتيات، وأفعال لبعضهم مشينات ، فما قولك في الحب والعشق، وكيف السبيل إلى الجمع بين اللذات والمباحات ؟

قال : هلا قرأت يا بن ياسين كتابي «**روضة المحبين ونزهة المشتاقين**» ؛ لأنه جمع فأوعى، **وقد قلت في مقدمتي له :** «وهذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس فإنه يصلح عوناً على الدين وعلى الدنيا، ومرقاة للذة عاجلة، وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها، وصحيحها وفاسدها، وآفاتها وغوائلها وأسبابها وموانعها، وما يناسب ذلك من نكت تفسيرية، وأحاديث نبوية، ومسائل فقهية، وآثار سلفية، وشواهد شعرية، ووقائع كونية، ما يكون ممتعًا لقاريه، مروحًا للنظر فيه، وإن شئت وجدته واعظًا ناصحًا، وإن شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوة ووصل الحبيب مسامحًا»(٢) .

أما عن العشق فهو لذة منغصة ، وقد أكثر الناس فيه الكلام حتى قال البعض : إنه مرض وسواسي يجلبه المرء لنفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والشمائل . .

وقد اختلف العلماء في العشق هل هو اضطراري أو هو أمر اختياري؟

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص٨ .

(٢) روضة المحبين «المقدمة» .

وعندي أن فصل النزاع بين الفريقين أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية، داخلة تحت التكليف، فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختياري، فإذا أتى بالأسباب كان قريب المسبب عليها بغير اختياره كما قيل :

تولع بالحب حتى عشق فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق
تمنى الإقالة من ذنبه فلم يستطعها ولما يطق

وهذه بمنزلة السكر مع شرب الخمر، فإن تناول المسكر اختياري، وما تولد عنه من السكر اضطراري، فمتى كان السبب واقعاً باختياره، لم يكن معذوراً فيما تولد عنه بغير اختياره[1] .

(١) روضة المحبين، ص١٥٧، ١٥٨ .

٤ ـ محمد بن عبدالوهاب.. إمام الموحدين

(١٢٥٦ ـ ١٣٣٩ هـ / ١٨٤٠ ـ ١٩٢١ م)

تيممت نحو مئرز الإسلام، أَتَنَسَّمُ عَبِيرَ الإسلام في عصوره الأولى، وأستذكر الأماجد من أئمة الصدر الأول حيث المدينة قاعدة الخلافة ومركز النور، وحيث مكة قاعدة العبادة وقبلة العباد والزهاد.

ثم دارت الأيام، وتقلبت الدهور حتى استشرفت البدع مهبط الوحي، وحرم الإسلام فألمت الخرافات، وحلت الشبهات وعادت مكة والمدينة تتخبطان في دياجير البدع من تبرك ودعاء وتوسل بمن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضراً ولا موتًا ولا حياة ولانشوراً.

وشاء الله أن تبقى الأمور هكذا ردحًا من الزمن حتى قيض سبحانه مجدداً مصلحاً إمامًا همامًا نبيلاً لكشف تلك الشبهات، ودفع تلك الخرافات برائق العلوم، وكشف ناصع التوحيد في مهبط الوحي، ومئرز الإسلام بكتبه النيرات، وخطبه المباركات، وبدعوته وحركته المباركة التي أينعت فجراً جديداً للإسلام طالت أرومته واتصلت صباحته، وتمددت إلى يومنا هذا بحمد الله وفضله.

ومن ثم جاءت هذه الوقفات للتعرف إلى ذلكم الإمام الهمام شيخ موحدي عصره، وشيخ الإسلام الإمام الفذ محمد بن عبدالوهاب التميمي.

قلت: يا علماء التراجم ويا مؤرخي حركة الإصلاح هلا أنبأتموني بخبر ذلكم الإمام الهمام من مبتداه، حتى رفع لواء التوحيد عاليًا خافقًا في مهبط الوحي ومئرز الإسلام.

قالوا: لبيك يا بن ياسين فيما طلبت، ودونك تعريفًا بإمام الموحدين وتاريخًا لمولده ونشأته: **ولد الشيخ محمد بن عبدالوهاب** بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي سنة ١١١٥ هـ الموافق سنة ١٧٠٣م في بلدة «العيينة»، الواقعة شمال الرياض.

ونشأ الشيخ في حجر أبيه عبدالوهاب في تلك البلدة في زمن إمارة عبدالله ابن محمد بن حمد بن معمر، وكان سباقًا في عقله وفي جسمه، حاد المزاج، فقد استظهر القرآن قبل بلوغه العشر، وبلغ الاحتلام قبل إتمام الاثنتي عشرة سنة.

قال أبوه : رأيته أهلاً للصلاة بالجماعة، وزوجته في ذاك العام(١) .

قلت : فماذا عن نشأته وما تلك العوامل التي أثرت فيها، وهل أحد من آل بيته له اتصال بالعلم والعلماء أو من المتشاغلين بذلك؟

قالوا : نعم يا بن ياسين كان ابن عبدالوهاب حاد الذهن، ذكيًا، نبيهًا، فطنًا، فصيح اللفظ، سريع الحفظ، حفظ القرآن ولمَّا يبلغ العاشرة.

أما عن بيئته التي نشأ فيها فَهِي بيئة علمية دينية صالحة، فجده (سليمان بن علي) عالم من علماء نجد في عصره، انتهت إليه الفتيا في نجد، وألف منسكًا مشهوراً.

وأبوه (عبدالوهاب بن سليمان) من علماء بلده، تولى قضاء بلدتي «العيينة» ثم «حريملاء»، وعمه إبراهيم بن سليمان كان عالـمًا قديراً.

وقد تلقى الشيخ العلم في البداية على يد والده حيث درس عليه كتب الفقه الحنبلي، ثم أخذ يزيد في معلوماته بالقراءة الخاصة حيث أخذ يقرأ في كتب التفسير والحديث والأصول، وقد ساعده حبه للقراءة وشغفه بها أن يطلع على كل ما يقع في يده من كتب الدين ولما كانت كتب الحنابلة متداولة بين علماء نجد نتيجة لانتشار هذا المذهب في نجد كما سبق، فقد اهتم الشيخ بقراءتها، وخاصة قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، فاهتم الشيخ بقراءة كتبهم بعناية خاصة حتى أنه أخذ ينسخ الكثير منها.

وتوجد في المتحف البريطاني بلندن حتى الآن كتب لشيخ الإسلام ابن تيمية بخط الشيخ محمد بن عبدالوهاب، والمطلع على مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب يرى أثر ابن تيمية وابن القيم على كتاباته واضحًا، فقد اعتد الشيخ بأقوالهما، وتأثر بأفكارهما، واستنار بآرائهما، فكان لذلك أثره الكبير في تصحيح

---

(١) عقيدة السلف، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص١٥ .

عقيدته، وتوجيه حياته ومنهج دعوته، لذلك أكثر الشيخ من النقل عنهما في مؤلفاته بشكل ملحوظ.

يمكننا بعد ذلك أن نجمل العوامل التي أثرت في نشأة الشيخ نشأة دينية علمية في خمسة عوامل:

١ ـ **استعداده الشخصي**: وما اتصف به من الذكاء والفطنة وسرعة الحفظ وحبه للقراءة وكثرتها.

٢ ـ **أساتذته**: سواء كان قد تلقى عنهم العلم مباشرة أو تأثر بمؤلفاتهم كابن تيمية وابن القيم.

٣ ـ **أسرته العلمية**: حيث كان جده وأبوه وعمه من علماء بلده.

٤ ـ **ظروف مجتمعه** وما كان يعيش فيه من انحراف عن مبادئ الإسلام الصحيح في كثير من أموره دفع بالشيخ إلى التعمق في دراسة العلوم الإسلامية ليعرف حقيقة الأمر.

٥ ـ **رحلاته العلمية** وأثرها الواضح على اتجاهه العلمي الإصلاحي بعد ذلك(١).

قلت: فماذا عن طلبه للعلم، وتحصيله، وترحله في سبيل ذلك، لله ما حصل ولله ما ألم، ولله تلك المعارف النيرات، التي أورثت تغييرا للعالم من براثن شبهات التصوف والانحراف إلى آفاق السنة والكتاب.

قالوا: درس على والده الفقه الحنبلي والتفسير والحديث، وكان في صغره، مكبًا على كتب التفسير والحديث والعقائد، وكان يعتني بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم رحمهما الله، ويكثر من مطالعة كتبهما.

ثم غادر البلاد قاصداً حج بيت الله الحرام، وبعد أدائه الفريضة أمَّ وجهه شطر المدينة المنورة، وقصد المسجد النبوي، وزار إمام المرسلين ﷺ، وصحابته الأبرار المخلصين.

---

(١) عقيدة السلف، للشيخ محمد عبدالوهاب، ص٢٦.

رحلاته العلمية :

أما عن شيوخه ورحلاته إليهم فهذا بيان عن ترحاله وشيوخه [1] :

شيوخه بالمدينة المنورة :

وكان فيها إذ ذاك من العلماء العاملين، **الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف من آل سيف النجدي**، كان رأساً في بلده المجمعة .

فأخذ عنه الشيخ محمد بن عبدالوهاب كثيراً من العلم، وأحبه الشيخ عبدالله، وكان به حفيًا، وبذل جهداً كبيراً في تثقيفه وتعليمه . وكان من أكبر عوامل توثيق الروابط بينهما وتمكين المحبة توافق أفكاره ومبادئه مع تلميذه في عقيدة التوحيد، والتألم مما عليه أهل نجد وغيرهم من عقائد باطلة، وأعمال زائفة .

واستفاد الشيخ من مصاحبته فوائد عظيمة، وأجازه الشيخ عبدالله بالحديث المشهور والمسلسل بالأولية «الراحمون يرحمهم الرحمن» من طريقين :

أحدهما :من طريق ابن مفلح عن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وينتهي إلىٰ الإمام أحمد .

والثاني : من طريق عبدالرحمن بن رجب عن العلامة ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام، وينتهي أيضاً إلىٰ الإمام أحمد .

كما أجازه الشيخ بكل ما في ثبت الشيخ عبدالباقي الحنبلي شيخ شيوخ وقته، قراءة وعلماً وتعليماً، صحيح البخاري بسنده إلىٰ مؤلفه، وصحيح مسلم وشروح الصحيحين، وسنن الترمذي والنسائي، وأبي داود، وابن ماجه ومؤلفات الدارمي، بسنده المتصل إلىٰ المؤلف، ومسند الإمام الشافعي، وموطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، إلىٰ غير ذلك مما ثَبَتَ في ثَبْتِ الشيخ عبدالباقي .

ثم وصل الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف حبل الشيخ محمد، بحبل المحدث الشيخ محمد حياة السندي، وعرفه به وبما هو عليه من عقيدة صافية، وبما تجيش به نفسه من مقت الأعمال الشائعة في كل مكان من البدع، والشرك

(١) المرجع السابق، ص ١٥ .

الأكبر والأصغر، وأنه إنما خرج من نجد للرحلة في طلب العلم، وسعيًا إلىٰ الاستزادة من السلاح الديني القوي، الذي يعينه علىٰ ما هو مصمم عليه من القيام بالدعوة والجهاد في سبيل الله.

وممن أخذ عنهم الشيخ وانتفع بمصاحبته الشيخ علي أفندي الداغستاني، والشيخ إسماعيل العجلوني، والشيخ عبداللطيف العفالقي الإحسائي، والشيخ محمد العفالقي الإحسائي، وقد أجازه الشيخان الداغستاني والإحسائي بمثل ما أجازه الشيخ عبدالله بن إبراهيم بما في ثبت أبي المواهب، ثم توجه إلىٰ نجد، ثم البصرة، قاصدا الشام، ليستزيد من العلوم النافعة.

شيوخه بالبصرة :

أقام مدة بالبصرة، درس العلم فيها علىٰ جماعة من العلماء، فمنهم الشيخ محمد المجموعي، وقرأ الكثير من النحو واللغة والحديث، كما كتب كثيراً في تلك الإقامة من المباحث النافعة والكتب القيمة.

ونشر علمه النافع وآراءه القيمة حول موضوع البدع والخرافات، وإنزال التضرع والحاجات بسكان القبور من عظام نخرة، وأوصال ممزقة، وعزز كلامه بالآيات الساطعات، والبراهين الواضحات، فقابلوه بالتكذيب والأذىٰ، وأخرج من البلاد وقت الهاجرة وأنزلوا بعض الأذىٰ بشيخه المجموعي.

فقصد الزبير في وقت الصيف وشدة الرمضاء، وكان ماشيًا علىٰ رجليه، وكاد يهلك من شدة الظمأ، فساق الله إليه رجلاً من بلد الزبير يسمىٰ أبا حميدان، فرآه من أهل العلم والصلاح، فحمله علىٰ حماره، حتىٰ أوصله إلىٰ بلد الزبير، وتوجه إلىٰ الشام راجلاً لينهل من مناهل العلماء، ويتغذىٰ من الثقافات الدينية، مستزيداً.

عودته إلى نجد :

غير أنه قلت نفقته، فقفل راجعًا، فأتىٰ الإحساء، فنزل بها عند الشيخ عبدالله ابن عبداللطيف الشافعي، وقرأ عنده ما شاء الله أن يقرأ، ثم توجه إلىٰ حريملا، قرية من نجد، وذلك لأن والده الشيخ عبدالوهاب قد انتقل إليها.

ولما آب الشيخ من رحلته الطويلة وراء العلم والتحصيل، لازم أباه، واشتغل عليه في علم التفسير والحديث وغيرهما، وعكف على كتب الشيخين: شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم رحمهما الله، فزادته تلك الكتب القيمة، علمًا ونوراً وبصيرة، ونفخت فيه روح العزيمة، ورأى الشيخ بثاقب نظره ما بنجد وما بالأقطار التي رحل إليها من العقائد الضالة، والعادات الفاسدة، فصمم على القيام بالدعوة[(١)] .

قلت: يا قوم، هلا حدثتموني عن نجد وحالها وخبرها وكيف كانت رحلته الأولى إليها، وكيف أبصرها مرتعًا للقبوريين والمبتدعين؟!

قال: رأى نجداً كما يحدثنا المؤرخون السالفون لنجد، كابن بشر، وابن غنام، والآلوسي والمعاصرون كـ «حافظ وهبة» وغيره، مرتعًا للخرافات والعقائد الفاسدة التي تتنافى مع أصول الدين الصحيحة، فقد كان فيها كثير من القبور تنسب إلى بعض الصحابة، يحج الناس إليها ويطلبون منها حاجاتهم، ويستغيثون بها لدفع كروبهم.

فقد كانوا في الجبيلة، يؤمون قبر زيد بن الخطاب، يتضرعون لديه، ويسألونه حاجاتهم، وكذلك في الدرعية، كان قبر لبعض الصحابة كما يزعمون.

وأغرب من ذلك، توسلهم في بلد المنفوحة بفحل النخل، واعتقادهم أن من تؤمه من العوانس تتزوج، فكانت من تقصده تقول: «يا فحل الفحول، أريد زوجًا قبل الحول»، **وفي الدرعية**، كان غار يقصدونه، بزعم أنه كان ملجأ لإحدى بنات الأمير التي فرت هاربة من تعذيب بعض الطغاة، **وفي شعب غبيرا**، قبر ضرار بن الأزور، كانوا يأتون منه من الشرك والمنكر ما لعل مثله لا يتصور، **ورأى في الحجاز**، من تقديس قبور الصحابة وأهل البيت والرسول ﷺ ما لا يسوغ إلا مع رب الأرباب، **كما رأى في البصرة**، وسمع عن العراق والشام ومصر واليمن من الوثنية الجاهلية ما لا يستسيغه العقل، ولا يقره الشرع[(٢)]، **كما سمع عن العيدروس في «عدن» والزيلعي في اليمن** الشيء الكثير، رأى ما رأى، وسمع ما سمع، وتحقق.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق، ص١٩ .

ووازن تلك الأفعال المنكرة بميزان الوحيين كتاب الله المبين وسيرة الرسول الأمين ﷺ وأصحابه المتقين، فرأى الناس في بعد عن منهج الدين وروحه.

رآهم لم يعرفوا لماذا بعث الله الرسل؟ ولماذا بعث الله محمداً للناس كافة؟ ورأى أنهم لم يعرفوا حالة الجاهلية، وما كان فيها من الوثنية الممقوتة، رآهم غيروا وبدلوا أصول الدين وفروعه، إلا القليل، هذه حالتهم في دينهم وعبادتهم.

حالة نجد السياسية:

أما حالتهم السياسية، فكما جاء في كتاب «جزيرة العرب في القرن العشرين»، رأى أنه ليس هناك قانون ولا شريعة إلا ما قضت به أهواء الأمراء وعمالهم، وكانت نجد مقسمة إلى ولايات عديدة، يحكم كل واحدة منها أمير، لاتربطه وجاره أية رابطة.

ومن أهم هؤلاء الأمراء: بنو خالد في الإحساء، وآل معمر في العيينة، والأشراف في الحجاز، وعدا هؤلاء، أمراء لا يعبأ بذكرهم، وقد كان أولئك الأقوام في حروب دائمة، لا سيما مع البادية، وكان الأمير على قدم الاستعداد، عندما تسنح الفرص، ليعتدي على جيرانه إذا بدا من هؤلاء الجيران ضعف أو عدم استعداد. انتهى.

هكذا كانت حالة بلاد العرب عند إياب الشيخ من رحلته العلمية.

قلت: متى كان صدع الإمام بدعوته؟ ومن أين ابتدأها؟ وماذا كان وقعها على سامعيه؟!

قالوا: ابتدأ الشيخ ـ رحمه الله، دعوته لقومه في بلدة (حريملاء) حيث بيَّن لهم ألا يُدعى إلا الله، ولا يذبح ولا ينذر إلا له، وأن عقيدتهم في تلك القبور والأحجار والأشجار، من الاستغاثة بها، وصرف النذور إليها، واعتقاد النفع والضر منها، ضلال وزور، وبأنهم في حالة لا ترضي، فلابد من نبذ ذلك وعزز كلامه بآيات من كتاب الله المجيد وأقوال الرسول وأفعاله، وسيرة أصحابه.

فوقع بينه وبين الناس نزاع وجدال، حتى مع والده العالم الجليل؛ لأنه كان مغتراً بأقاويل المقلدين السالكين تلك الأفعال المنكرة في قوالب حب الصالحين[1]، فاستمر الشيخ يجاهد بلسانه وقلمه وإرشاده، وتبعه أناس من أهل تلك البلدة، حتى

---

(١) المرجع السابق، ص٢١.

انتقل أبوه عبدالوهاب إلىٰ جوار رب الأرباب سنة ١١٥٣هـ، والظاهر أن والده اقتنع بأقوال ابنه ومبادئه، كما اقتنع أخوه سليمان بعدما وقع بينه وبينه نزاع وردود.

وبعد وفاة والده،جاهر قومه بالدعوة والإنكار علىٰ عقائدهم الضالة، ودعا إلىٰ متابعة الرسول في الأقوال والأفعال، وكان في تلك البلدة قبيلتان، وكل يدعي الزعامة، وليس هناك من يحكم الجميع، ويأخذ حق الضعيف، ويردع السفيه، وكان لإحدىٰ القبيلتين، عبيد يأتون بكل منكر وفساد، ولا يحجمون عن التعدي علىٰ العباد، فصمم الشيخ علىٰ منعهم وردعهم، ولما أحس أولئك الأرقاء بما صمم عليه الشيخ، عزموا أن يفتكوا به خفية فتسوروا عليه من وراء الجدار. فشعر بهم بعض الناس، وصاحوا بهم وهربوا [1].

قلت: ومن ذا الذي وفاه بالخير وقبل دعوته وسانده وعاضده من الأمراء والنبلاء آنذاك؟

قالوا: سانده بادئ ذي بدء عثمان بن حمد بن معمر حيث تلقاه بكل إجلال وإكرام، ثم نكث عنه ونكب عليه لكيد الكائدين علىٰ ما يلي :

عندما غادر الشيخ (حريملا) إلىٰ (العيينة) مسقط رأسه، وموطن آبائه، وحاكمها إذ ذاك عثمان بن حمد بن معمر، فتلقاه بكل إجلال وإكرام، وبين الشيخ له دعوته الإصلاحية المباركة، القائمة علىٰ دعائم الكتاب والسنة المطهرة وشرح له معنىٰ التوحيد، وأن أعمال الناس اليوم وعقائدهم منافية للتوحيد.

وتلا عليه الآيات والأحاديث النبوية، ورجا له من الله «إن قام بنصر»لا إله إلا الله، أن ينصره الله ويعلي كلمته، وتكون له السيادة والزعامة علىٰ نجد وغيرها، وله السعادة الأبدية إن شاء الله.

فقبل عثمان، ورحب بما قال الشيخ، فعالن الشيخ بالدعوة إلىٰ الله، وإفراد العبادة لله، والتمسك بسنة رسول الله ﷺ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقطع الشيخ الأشجار المعظمة هناك، وهدم قبة زيد بن الخطاب، بمساعدة الأمير،

---

(١) المرجع السابق، ص٢١ .

وأقام الحد على امرأة اعترفت بالزنى مراراً، بعدما تأكد من صحة عقلها وكمال حواسها، فاشتهر أمر الشيخ، وذاع صيته في البلدان.

فبلغ خبره (سليمان بن محمد بن عريعر) حاكم الإحساء وبني خالد، فبعث هذا الجاهل الظالم إلى عثمان بن معمر كتاباً جاء به: إن المطوع الذي عندك، قد فعل ما فعل، وقال ما قال، فإذا وصلك كتابي فاقتله، فإن لم تقتله، قطعنا خراجك الذي عندنا في «الإحساء»، فعظم على عثمان الأمر، وكبر عليه مخالفة ابن عريعر، وغاب عن ذهنه عظمة رب العالمين، وكانت النتيجة من جراء ذلك الكتاب وضعف إيمان ابن معمر أن أمر بإخراج الشيخ من بلده، ولم يفد فيه وعظ الشيخ ونصحه، وأنه لابد للداعي والمصلح من أن يناله الأذى، ولابد أن تكون العاقبة للمتقين.

فخرج الشيخ ـ رحمه الله، يمشي على رجليه موكلاً به فارس يمشي من خلفه، وليس مع الشيخ إلا المروحة في أشد وقت الحر من الصيف، فهم الفارس بقتل الشيخ، وكان بإيعاز من ابن معمر، فارتعدت يده وكفى الله شره.

وكان الشيخ في مشيه لا يفتر عن ذكر الله، ويردد قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾(١) (٢).

قلت: إذا كان هذا عهده بالناكثين، فكيف تم أمره بالحكام المصلحين الصادقين؟ ومن أولاء؟ وكيف ابتدر الشيخ دعوته معهم؟ وكيف تواثقت العلائق وفتح الله به القلوب والنفوس؟!

قالوا: سألت يا بن ياسين عن المحز والأصل وعنيت نصير الدعوة ومُتقبِّلها، وشاهر سيفه في سبيلها، إنه الإمام الهمام محمد بن سعود حاكم الدرعية سنة ١١٥٨هـ وهذه حكايته معه: نزل الشيخ بالدرعية وقت العصر سنة ١١٥٨هـ ضيفًا على عبدالرحمن بن سويلم، وابن عمه أحمد بن سويلم، وخاف ابن سويلم على نفسه من الأمير محمد بن سعود؛ لأنه كان يعلم حالة الناس، وأنهم لا يقبلون ما أتى به هذا العالم الجليل، ولكن الشيخ الممتلئ إيمانًا وثقة بالله، سكن جأشه، وأفرغ عليه من العظات وملأه رجاءً وواعده بأنه لابد من أن يفرج الله وينصره نصراً مؤزراً، فعلم به

---

(١) الطلاق: ٢، ٣. (٢) المرجع السابق، ص ٢٣، ٢٢.

الخواص من أهل الدرعية، فزاروه خفية، فشرح لهم معاني التوحيد وما يدعو إليه.

وكان للأمير أخوان مشاري وثنيان، وزوجة كانت لبيبة عاقلة، فَبيَّن الأخوان ـ بعدما نهلا من مناهل الشيخ ـ لأخيهما الأمير، أن الشيخ محمداً نازل ضيفًا على ابن سويلم، وأن هذا الرجل غنيمة ساقه الله إليك، فاغتنم ما خصك الله به، ورغبوه في زيارة الشيخ، فامتثل وزار الشيخ، فدعاه الشيخ إلى التوحيد، وأن التوحيد هو ما بعثت من أجله الرسل، وتلا عليه آيات من الذكر الحكيم، فيها البيان ببطلان عبادة غير الله ولفت نظره إلى ما عليه أهل نجد من الشرك والجهل والفرقة، والاختلاف وسفك الدماء، ونهب العباد.

وبالجملة بين له ضعف دينهم ودنياهم، وجهلهم بشرائع الإسلام، ورجاه أن يكون إماماً يجتمع عليه المسلمون، ويكون له الملك والسيادة، ومن بعده في ذريته.

عند ذلك شرح الله صدر محمد بن سعود وأحبه، واقتنع بما دعاه إليه الشيخ، وبشر الأميرُ الشيخَ بالنصرة، وبالوقوف معه على من خالفه، وشرط الأمير على الشيخ شرطين:

الأول: أن لا يرجع الشيخ عنه إن نصرهم الله ومكنهم.

والثاني: ألاَّ يمنع الأمير من الخراج الذي ضربه على أهل الدرعية وقت الثمار.

فقال الشيخ: أما الأول: الدم بالدم، والهدم بالهدم.

وأما الثاني: فلعل الله يفتح عليك الفتوحات، وتنال من الغنائم ما يغنيك عن الخراج، فبايع الأمير الشيخ على الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله، والتمسك بسنة رسول الله ﷺ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الشعائر الدينية.

وبعد استقراره في الدرعية، أتى إليه من كان ينتسب إليه، ومعتنقًا مبادئ دعوته، من رؤساء المعامرة وغيرهم، وأخذت الوفود تأتي من كل حدب لما علموا أن الشيخ في دار منعة، عند ذلك، سمع عثمان بن معمر الذي أخرج الشيخ من بلده أن محمد بن سعود ـ رحمه الله ـ قد بايع الشيخ، وأنه ناصره وأهل الدرعية له مؤيدون، ومعه قائمون ومجاهدون، فندم عثمان على ما سلف منه في حق الشيخ، فأتى إليه ومعه ثلة من الرجال من رؤساء البلاد وأعيانها، واعتذر، وطلب منه

الرجوع، فعلق الشيخ الأمر على رضاء الأمير محمد بن سعود، فرفض الأمير السماح ورجع عثمان خائبًا، وشدت إلى الشيخ الرحال، وكثر الوافدون، ليرتووا من مناهله العذبة الصافية النقية من الخرافات والوثنية(١).

قلت: ثم ماذا، هل تواصل الأمر مع الإمامين: محمد بن عبدالوهاب إمام الدعوة والإيمان، ومحمد بن سعود إمام السيف والسنان؟!

قالوا: نعم، واصل الشيخ ليله ونهاره في نشر الدعوة والوعظ وكتابة الرسائل العلمية، مكتفيًا بهذه الوسيلة السلمية، والأمير «محمد بن سعود» يؤازره حسب مقدرته.

ولكن خصوم الدعوة كانوا يعملون على تأليف القلوب لمحاربة الدعوة بكل الوسائل، والاعتداء على الداخلين في الدعوة، فلم ير الشيخ محمد والأمير بدا من الاستعانة بالسيف بجانب الدعوة الدينية واستمرت الحروب الدينية سنين عديدة، وكان النصر حليف ابن سعود في أغلب المواقف، وكانت القرى تسقط واحدة تلو الأخرى بيده، ودخل البعض في الطاعة بالاختيار والرغبة، لما عرف حقيقة الأمر، وإن أردت معرفة عناد القوم وبغيهم وجورهم واعتداءهم، ونقض بعضهم للعهد مرة بعد مرة، فاقرأ «عنوان المجد» وإن زعماء الدعوة ما كانت خطتهم إلا الدفاع ورفع العقبات عن سبيل الدعوة الخالصة.

وبعد فتح الرياض(٢) واتساع ملكهم وانقياد كل صعب لهم، فوض الشيخ

(١) المرجع السابق، ص ٢٥، ٢٤.

(٢) تم فتح الرياض سنة ١١٨٧هـ: على يد الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود بعد أن خرج دهام بن دواس هاربًا من الرياض، وكان هروبه بعد أن اعتدى المرات العديدة على أئمة الدعوة ونقض العهد أكثر من مرة: وكانت العاقبة للمتقين وجند الله الموحدين، وكان الإمام محمد بن سعود قد توفي سنة ١١٧٩هـ وبويع على الإمامة ابنه عبدالعزيز وفي سنة ١٢١٥هـ جاء رجل من العراق، متنكرًا كدرويش وأظهر التنسك والطاعة وتعلم شيئًا من القرآن، فأكرمه عبدالعزيز وأعطاه وأخذ يتعلم أمور الدين ولكنه كان خبيثًا فوثب على الإمام من الصف الثالث والناس في السجود فطعنه بخنجر معه انتقامًا منه، وقضى الإمام نحبه من جراء ذلك وبويع سعود بن عبدالعزيز على الإمامة.

أمور الناس وأموال الغنائم إلىٰ عبدالعزيز بن محمد بن سعود الأمير، وتفرغ الشيخ للعلم وللعبادة وإلقاء الدروس.

وكان محمد وابنه عبدالعزيز لا يتصرفان في شيء إلا بعد أن يُعْلِما الشيخ، ليعلِّمهما الحكم الشرعي، ولا ينفذان حكمًا إلا عن أمره ورأيه، وما زال الشيخ علىٰ هذه الحالة الحسنة والسيرة الطيبة الظاهرة حتىٰ انتقل إلىٰ جوار ربه في ذي القعدة سنة ١٢٠٦هـ.

قلت **"يا أهل العلم والفضل يا علماء التوحيد حدثوني عن صفات ذلكم الشيخ العالم بالتوحيد، حامل لواء السنة وهادم صروح البدعة، كيف كان وعلى أي حال صال وجال ودعا ورجا في سبيل نشر علم التوحيد وكشف جوهر الإسلام النضيد؟!**

قالوا: كان الشيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ علمًا من الأعلام، ناصراً للسنة، وقامعًا للبدعة، خبيراً مطلعًا، إماماً في التفسير والحديث والفقه وأصوله، وعلوم الآلة كالنحو والصرف والبيان، عارفًا بأصول عقائد الإسلام وفروعها، كشافًا للمشكلات، حلالاً للمعضلات، فصيح اللسان، قوي الحجة، مقتدرا علىٰ إبراز الأدلة وواضح البراهين بأبلغ عبارة وأبينها، تلوح علىٰ محياه علامات الصلاح وحسن السيرة، وصفاء السريرة، يحب العباد ويغدق عليهم من كرمه ويصلهم ببره وإحسانه، ويخلص لله في النصح والإرشاد، كثير الاشتغال بالذكر والعبادة، قلما يفتر لسانه من ذكر الله.

وكان يعطي عطاء الواثق بربه، ويتحمل الدين الكثير لضيوفه ومن يسأله، وكان عليه أبهة العظمة، تنظره الناس بعين الإجلال والتعظيم مع كونه متصفًا بالتواضع واللين مع الغني والفقير، والشريف والوضيع.

وكان يخص طلبة العلم بالمحبة الشديدة، وينفق عليهم من ماله، ويرشدهم علىٰ حسب استعدادهم، وكان يجلس كل يوم، عدة مجالس ليلقي دروسه في مختلف العلوم، من توحيد، وتفسير، وحديث، وفقه، وأصول وسائر العلوم العربية.

وكان عالـماً بدقائق التفسير والحديث، وله الخبرة التامة في علله ورجاله، غير ملول ولا كسول من التقرير والتحرير، والتأليف والتدريس.

وكان صبوراً عاقلاً، حليماً، لا يستفزه الغضب إلا أن تنتهك حرمة الدين

أو تهان شعائر المسلمين، فحينئذ يناضل بسيفه ولسانه، معظمًا للعلماء، منوهًا بما لهم من الفضائل، آمراً بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، غير صبور على البدع، ينكر على فاعليها بلين ورفق، متجنباً الشدة والغضب والعنف، إلا أن تدعو إليه الحاجة.

قلت: فماذا عن أبناء الشيخ وتلامذته وصحبه من وارثي علمه وهل ترك شيئًا من التواليف؟

قالوا: أما عن تواليف الشيخ فهذا بيان عنها:

١ ـ كتاب التوحيد، وهو غني بالشهرة عن التعريف به.

٢ ـ كشف الشبهات.

٣ ـ مختصر السيرة النبوية.

٤ ـ مختصر الإنصاف والشرح الكبير في الفقه.

٥ ـ نصيحة المسلمين بأحاديث خاتم المرسلين.

٦ ـ كتاب الكبائر، آداب المشي إلى الصلاة.

٧ ـ أصول الإيمان.

٨ ـ مختصر زاد المعاد.

٩ ـ مختصر صحيح البخاري.

١٠ ـ مسائل الجاهلية.

١١ ـ استنباط من القرآن (يقع في جزءين)(١).

أما عن أولاده وتلامذته، فهذا بيان عاجل مختصر بهذا:

ذكر في «عنوان المجد» أن الشيخ ـ رحمه الله ـ قد أخذ عنه العلم عدة من العلماء الأجلاء، منهم أبناؤه الأربعة العلماء، والقضاة الفضلاء، الذين درسوا العلوم الشرعية والفنون الأدبية كما درسوا الفروع والأصول، وصارت لهم ملكة في المعقول والمنقول وأبناؤه هم: حسن، وعبدالله، وعلي، وإبراهيم.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩.

وقد كان لكل واحد منهم ـ قرب بيته ـ مدرسة، وعنده من طلاب العلوم من أهل الدرعية والغرباء العدد الكثير، بحيث قد يعده السامع أنه قد بولغ في العدد، ولا زال العلم في ذرية الشيخ وسيكون ـ إن شاء الله ـ باقيًا إلى أن تقوم الساعة، وآل الشيخ في هذا اليوم، هم القائمون في المملكة العربية السعودية بالوظائف الدينية، من الإفتاء، والتدريس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورئاسة المعاهد والكليات، وحل المشاكل، والدفاع عن حوزة الدين، ونصر شريعة سيد المرسلين فجزاهم الله أحسن الجزاء، ووفقنا وإياهم لما يحبه ويرضاه.

وأما التلامذة والطلاب الذين نهلوا من منهل الشيخ، وتخرجوا على يده، وصاروا قضاة ومفتين، فلا تحصيهم الأقلام، ولا بأس أن نذكر عدداً قليلاً فمنهم الشيخ العالم الجليل حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر والد مؤلف منحة القريب، والشيخ الزاهد الورع عبدالعزيز بن عبدالله الحصين الناصري، تولى القضاء إذ ذاك في ناحية الوشم(١).

ومن ذرية الشيخ : حسن ، وأشهر الموجودين من نسله في عصرنا الحاضر، **الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن**. رحمه الله ـ مفتي المملكة العربية السعودية في وقته، وإليه مرجع الهيئات الدينية، **وأخوه الشيخ عبداللطيف** رئيس المعاهد الدينية والكليات، **والشيخ عبدالملك** رئيس هيئات الأمر بالمعروف بمكة المكرمة حينذاك.

قلت : يا علماء التوحيد هلا أتحفتمونا ببعض من جواهر كلام الشيخ في العقيدة والتوحيد وروائع ونواصع عقيدة أهل السنة والجماعة من صريح القرآن وصحيح سنة رسولنا العدنان محمد ﷺ ؟

قالوا : دونك مقتطفات موجزات من روائع مقاله وجواهر فهمه وبيانه نقول من رسائله وعقائده.

---

(١) ومنهم أيضاً الشيخ الفاضل العالم العامل سعيد بن حجي، قاضي حوطة بني تميم، والعالم الجليل الشيخ عبدالرحمن بن نامي، تولى القضاء ببلد «العيينة» والإحساء، والشيخ المفضال أحمد بن راشد العريني، القاضي في ناحية «سدير» والشيخ عبدالعزيز أبو حسين، والشيخ حسن بن عيدان، وكان قاضياً في بلد حريملاء، والشيخ عبدالعزيز بن سويلم، وكان قاضياً في بلد «القصيم».

وها أنا أنقل لك. أيها القارئ الكريم ـ بعض ما كتبه الشيخ من رسائله التي ذكر فيها عقيدته وما هو عليه، فمن تلك الرسائل، ما كتبه لأهل القصيم:

قال ـ رحمه الله ـ بعد البسملة : أشهد الله ومن حضرني من الملائكة، وأشهدكم أني أعتقد ما اعتقده أهل السنة والجماعة، من الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر، خيره وشره.

ومن الإيمان بالله، الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، بل أعتقد أن الله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾(١) . فلا أنفي عنه، ما وصف به نفسه، ولا أحرف الكلم عن مواضعه، ولا ألحد في أسمائه وآياته، ولا أكيف ولا أمثل صفاته بصفات خلقه؛ لأنه تعالى لا سمي له ولا كفء، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه، فإنه سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثًا.

فنزه نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتمثيل، وعما نفاه عنه النافون، من أهل التحريف والتعطيل. فقال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ** ﴾(٢) .

فالفرقة الناجية، وسط في باب أفعاله تعالى، بين القدرية والجبرية، وهم وسط في باب وعيد الله، بين المرجئة والوعيدية، وهم وسط في باب الإيمان والدين، بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية، وهم وسط في باب أصحاب رسول الله ﷺ بين الروافض والخوارج .

وأعتقد أن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وأنه تكلم به حقيقة، وأنزله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، نبينا محمد ﷺ، **وأؤمن** بأن الله فعال لما يريد، ولا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج عن مشيئته وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد لأحد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور(٣) .

---

(١) الشورى: ١١ .   (٢) الصافات: ١٨٠، ١٨١ .

(٣) المرجع السابق، ص٣٤، ٣٥.

وأعتقد بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، وأؤمن بفتنة القبر ونعيمه، وبإعادة الأرواح إلى الأجساد، فيقوم الناس لرب العالمين، حفاة، عراة، غرلا، وتدنو منهم الشمس، وتنصب الموازين، وتوزن به أعمال العباد ﴿ **وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑧ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ** ﴾(١)، وتنشر الدواوين، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله.

وأؤمن بحوض نبينا محمد ﷺ بعرصة القيامة، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة، لم يظمأ بعدها أبداً.

وأؤمن بأن الصراط منصوب على شفير جهنم، يمر به الناس على قدر أعمالهم، **وأؤمن** بشفاعة النبي ﷺ، وأنه أول شافع، وأول مشفع، ولا ينكر شفاعة النبي إلا أهل البدع والضلال، ولكنها لا تكون إلا من بعد الإذن والرضا، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ** ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ** ﴾(٤).

وهو لا يرضى إلا التوحيد، ولا يأذن إلا لأهله، وأما المشركون، فليس لهم في الشفاعة نصيب كما قال تعالى: ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾(٥).

وأؤمن بأن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما ـ اليوم ـ موجودتان وأنهما لا يفنيان، وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة، كما يرون القمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته، وأؤمن بأن نبينا محمدا ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته، ويشهد بنبوته، وأفضل أمته أبو بكر الصديق، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم علي المرتضى، ثم بقية العشرة، ثم أهل الشجرة ـ أهل بيعة الرضوان ـ ثم سائر الصحابة ـ رضي الله عنهم.

(١) الأعراف: ٨، ٩. (٢) الأنبياء: ٢٨. (٣) البقرة: ٢٥٥.
(٤) النجم: ٢٦. (٥) المدثر: ٤٨.

وأتولى أصحاب رسول الله ﷺ ، وأذكر محاسنهم، وأستغفر لهم، وأكف عن مساوئهم، وأسكت عما شجر بينهم . **وأعتقد فضلهم**، عملا بقوله تعالىٰ : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾(١) .

وأترضى عن أمهات المؤمنين ، المطهرات من كل سوء، وأقر بكرامات الأولياء، إلا أنهم لا يستحقون من حق الله شيئًا، ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار، إلا من شهد له الرسول ﷺ، ولكني أرجو للمحسن، وأخاف على المسيء، ولا أكفر أحداً من المسلمين بذنبه، ولا أخرجه من دائرة الإسلام، وأرىٰ الجهاد ماضيًا مع كل إمام، براً كان أو فاجراً، وصلاة الجماعة خلفهم جائزة .

والجهاد ماض، منذ بعث الله محمداً ﷺ إلىٰ أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل .

وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين ، برهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية الله، ومن ولي الخلافة، واجتمع عليه الناس، ورضوا به، أو غلبهم بسيفه، حتىٰ صار خليفة، وجبت طاعته، وحرم الخروج عليه، وأرىٰ هجر أهل البدع ومباينتهم، حتىٰ يتوبوا، وأحكم عليهم بالظاهر، وأَكِلُ سرائرهم إلىٰ الله، وأعتقد أن كل محدثة في الدين بدعة(٢) .

وأعتقد أن الإيمان ، قول باللسان، وعمل بالأركان، واعتقاد بالجنان، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وهو بضع وسبعون شعبة أعلاها، شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، وأرىٰ وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، علىٰ ما توجبه الشريعة المحمدية الطاهرة . **فهذه عقيدة وجيزة**، حررتها وأنا مشتغل البال، لتطلعوا علىٰ ما عندي، والله علىٰ ما نقول وكيل .

قلت : فماذا عن رسائل الشيخ في الآفاق، لنشر دعوة التوحيد ونصرتها، اقتداء بأسلافه العلماء الكبراء مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية وغيرهما ؟

---

(١) الحشر : ١٠ .   (٢) المرجع السابق، ص ٣٦،٣٧ .

قالوا: نعم هناك رسائل تترى خطها الشيخ للإفصاح عن جوهر عقيدته التوحيدية، ولدحض البدعة وإقامة لواء السنة، ونذكر منها: «من رسالته إلى السويدي من علماء العراق، جوابًا لما سأله عما يقول الناس فيه»، قال بعد البسملة:

من محمد بن عبدالوهاب إلى الأخ في الله عبدالرحمن بن عبدالله..

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته: أما بعد..

فقد وصل إلي كتابك وسر الخاطر، جعلك الله من أئمته المتقين، ومن الدعاة إلى دين سيد المرسلين، وأخبرك أني - ولله الحمد - متبع لست مبتدعًا، عقيدتي وديني، الذي أدين الله به: هو مذهب أهل السنة والجماعة، الذي عليه أئمة المسلمين، مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة، ولكني بينت للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين وغيرهم وعن إشراكهم فيما يُعبد الله به، من الذبح، والنذر، والتوكل، والسجود، وغير ذلك، مما هو حق الله، الذي لا يشركه فيه أحد لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة.

ومن رسالته إلى أهل المغرب:

بعد أن ساق آيات وأحاديث على وجوب اتباع السنة وترك البدع والمحدثات، وإخبار النبي ﷺ أن أمته تأخذ مأخذ القرون قبلها «شبراً بشبر وذراعًا بذراع» ولابد أن تفترق كالأمم السالفة، وأن الناجية من كان على مثل ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

قال: إذا عُرف هذا، فمعلوم، ما عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها، الإشراك بالله والتوجه إلى الموتى، وسؤالهم النصر على الأعداء، وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، التي لا يقدر عليها إلا رب السماوات، وكذلك التقرب إليهم بالنذور، وذبح القربان، والاستغاثة بهم في كشف الشدائد، وجلب الفوائد، إلى غير ذلك من أنواع العبادة، التي لا تصلح إلا لله[1].

(١) المرجع السابق، ص٣٩.

قلت : هل وصلت دعوة الشيخ خارج نجد..؟

وماذا كان موقف العلماء والنبلاء منها؟!

قالوا : نعم لقد عمت دعوة الشيخ الآفاق بعد وفاته وعمت أصداؤها البلدان المجاورة إبان حياته، تبدأ من العيينة وحريملاء والدرعية والعارض، وهي المراكز الأولية لدعوة الشيخ، ولكن من حين أن ظهرت بوادر الحياة في هذه النواحي وسع الشيخ نطاق دعوته وكتب رسائل تبليغية إلى علماء البلاد النائية وأمرائها وقضاتها، وحرضهم على قبول دعوته ولكن قليل من لبى هذه الدعوة في بدايتها، وأما الأكثرون فقد استهزؤوا وسخروا، فمنهم من رماه بالجهل، ومنهم من زعم أنه ساحر، واتهموه باتهامات وافتروا عليه افتراءات كان الشيخ منزهًا عنها(١) .

ومن أبرز الملبين للدعوة والمؤيدين لها عالم صنعاء المجتهد الأمير محمد بن إسماعيل (المتوفى سنة ١١٨٢هـ)، ولما بلغته دعوة الشيخ أنشأ قصيدة بليغة تلقاها العلماء بالقبول ومطلعها :

سلامي على نجد ومن حل في نجد وإن كان تسليمي من البعد لايجدي

وفي هذه القصيدة مدح للشيخ وثناء عليه، وذم للبدع ورد شديد على عقيدة وحدة الوجود وأمور أخرى نافعة جداً.

وكان من أعظم أسباب فرح الأمير محمد بن إسماعيل أنه كان يظن نفسه منفرداً في هذا الميدان، كما يظهر من شعره هذا :

لقد سرني ما جاءني من طريقه وكنت أرى هذي الطريقة لي وحدي

وقد فرح الشيخ بقصيدة الأمير اليمني، وتشجع بها وأشار إليها في بعض رسائله، ومما قال الأمير الصنعاني أيضاً :

وحطم أوثانًا وأوجد دولة من العرب بعد الضيم والأسر والجهد
فأكرم بها من دعوة أحمدية فضائلها جلت من الحصر والعد
قلاها عداة الحق من كل أمة وكادوا لها كيداً عظيمًا بلا حد

---

(١) المرجع السابق، ص٤٧ .

وحاربها منهم جيوش كثيرة ... وأبدت من العدوان ما لم تكن تبدي
فأكرم رب الناس بالنصر حزبه ... فولت جيوش البغي بالخزي والطرد
وذي سنة الجبار في كل من بغوا ... على حزبه يمنون بالقصم والرد

قلت: كيف كان وقع وفاة شيخ الموحدين ابن عبدالوهاب، وماذا قيل فيه من الرثاء؟ فلله مثواه ومأواه طاب حيًا، وطاب ميتًا!

قال: قيل فيه الكثير والكثير من روائع الأبيات، ودافق القصائد، وبديع القوافي، ومما قاله تلميذه ابن غنام في ذلك:

لقد كسفت شمس المعارف والهدى ... فسالت دماء في الخدود وأدمع
إمام أصيب الناس طرا بفقده ... وطاف بهم خطب من البين موجع
وأظلم أرجاء البلاد لموته ... وحل بهم كرب من الحزن مفظع
شهاب هوى من أفقه وسمائه ... ونجم ثوى في الترب واراه بلقع
وكوكب سعد مستنير سناؤه ... وبدر له في منزل اليمن مطلع
وصبح تبدى للأنام ضياؤه ... فداجي الدياجي بعده متقشع

إلى أن قال:

لقد وجد الإسلام يوم فراقه ... مصابًا خشينا بعده يتصدع
وطاش ذوو الإسلام والفضل والنهى ... وكادت له الأرواح تترى وتتبع
وطارت قلوب المسلمين بموته ... وظنوا به أن القيامة تقرع
فضجوا جميعًا بالبكاء تأسفا ... وكادت قلوب بعده تتفجع
وفاضت عيون واستهلت مدامع ... يخالطها مزج من الدم مهيع
بكته ذوو الحاجات يوم فراقه ... وأهل الهدى والحق والدين أجمع(١)

(١) المرجع السابق، ص٥٣ .

ثانياً

شموع مضيئة من الأندلس

٥ ـ القاضي عياض .

٦ ـ ابن حزم الأندلسي .

٧ ـ ابن العربي.. الإمام الهُمام .

٥ ـ القاضي عياض .. صاحب التواليف الحسنة

(٤٧٦ ـ ٥٤٤ هـ / ١٠٨٣ ـ ١١٤٩ م)

وقفت والدمع يفور في عيني على جنة الأرض، على فردوسها المفقود، على الأندلس الحزين، فاستنشقت نسيمها، وتطيبت بعطرها، واهتاجت علي الذكريات الخالدات التليدات، فبكيت، وما يغني البكاء ولا النحيب.

ثم إني ذكرت تلك العصور الناديات العاليات عصور المجد والعز الإسلامي، عصور ما كانت أوربا تأتي فئاماً، زرافات ووحداناً؛ ليتعلموا في معاهد المسلمين، ويلتمسوا منهم الفضل والفكر، ويلتمسون خيوط الحضارة.

ذكرت قصور الحمراء، ذكرت جمال الفنون والنقوش، ذكرت قومي من نكسوا الصلبان، وتلو القرآن، وعمروا الحدائق والجنان، غير أنه مضئ بالمجد قوم آخرون..!

ذكرت طارق بن زياد، وعبد الرحمن الداخل، والغافقي والمهديين، والموحدين، وذكرت ابن حزم، والإلبيري، والقاضي عياض، هأنذا أوقف بين يديه أحاوره وأنا أحاول أن أتلمس عصره وفكره وعلمه، وأوازن بينه وبين عصرنا.

هتفتُ بين الرياض، عن القاضي عياض، صاحب التواليف الحسنة، وكل منقبة حسنة، يا أهل أندلس، خبروني أعلموني، ماذا عن القاضي عياض، من ذا يحدثني عن مناقبه؟، ومراكبه، ومحاسنه، وآثاره، وأخباره؟ وهو الفقيه المتقن، والأديب المبدع، والخطيب المصقع، فاهتبت لما حل بي، وما طرق عليَّ.

وإذ بغلام في الحسن آية، ذي فضل ومجد وعلم ودراية، يهتف : أيها القادم بروحك من شرق الجزيرة، يا من يشتم منك عبيق الحرمين، مهد الإسلام، يا بن الكويت، يا بن ياسين هلم إليَّ أيها المشرقي لأحدثك عن أخبار والدي!!

فعجبت وقلت : من ذا يهتف بي، من ذا يدعوني من المنادي، في هذا الوادي؟!

فقال : أنا أبو عبدالله محمد بن القاضي عياض.

أنا ابن من قالوا عنه: «لولا عياض لما ذكر المغرب».

أنا ابن صاحب أشهر مكتوب عن رسول الأنام، أعني كتاب «الشفا»!

قلت: نعم عرفناك، ومن مناقب وآثار أبيك أبصرناك، حل بكم المجد، وزانتكم فضائل الشرق والغرب!!

حق لك يا بني الفخار، حق لك الاعتلاء والإزهار، حق لك المجد المجيد، والذكر الحميد، وصدق الله إذ يقول سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾(١).

ثم تزلفت إليه على وجل، وكلمته في غير خجل، أن ائذن لنا أن ننهل فيوضًا من المعارف عن أبيك، واسمح لنا بتلك المداخلات، وهذه المحاورات، طبت وطاب مثواك.

قال: لبيك أيها المشرقي، لقد سألتَ مُجيبًا، وطلبتَ يسيرًا، فامدد يديك لتنهل، وهات ما عندك في عجل.

قلت: خبرنا عن نسبك التليد، ووالدك المجيد، قاضي الإسلام القاضي العياض؟

قال: أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن محمد بن عبدالله بن موسى بن عياض اليحصبي، استقر أجدادنا - في القديم - بالأندلس وكان لهم استقرار بالقيروان قال عنهم عبدالله بن حكم:

وكانت لهم بالقيروان مآثر عليها لمحض الحق أوضح برهان

وكان والد جد أبي «رجلاً خيراً صالحا من أهل القرآن، حج إحدى عشرة حجة، وغزا مع ابن أبي عامر (المنصور) غزوات كثيرة، ثم كان مولد أبي في النصف من شعبان ٤٧٦هـ».

فنشأ على عفة وصيانة، مرضي الخلال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفًا بالنبل والفهم والحذق، طالبًا للعلم، حريصًا عليه، مجتهداً فيه، معظمًا عند شيوخ

(١) الطور: ٢١.

أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إلىٰ مجالستهم، إلىٰ أن برع في زمانه، وساد جملة أقرانه، وبلغ من التفنن في فنون العلم ما هو معلوم، فكان من حفاظ كتاب الله تعالىٰ، لا يترك التلاوة له علىٰ كل حالة، مع القراءة الحسنة المُستعذبة، والصوت الجهير(١) .

قلت : يا بن قاضي سبتة وعالمها، في أي العلوم نبغ أبوك، لله دره، ورزقه ما أقره ؟!

قال : أما عن أبي فقد كان رحمه الله :

- **ذا حظ وفير من تفسير القرآن** ، والقيام علىٰ معانيه وإعرابه وشواهده وأحكامه وجميع أنواع علومه .
- **وكان من أئمة وقته في الحديث** وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه، وجميع أنواع علومه .
- **فقيهًا حافظًا لمسائل المختصر والمدونة،** قائمًا عليها ، حاذقًا بتخريج الحديث من مفهومها، بصيراً بالفتيا والأحكام والنوازل .
- **نحويًا ريانًا من الأدب شاعرًا مجيدًا،** مليح القلم من أكتب أهل زمانه، خطيبًا فصيحًا .
- **مشاركًا في جميع العلوم** ، عالمًا بأخبار الصالحين وسيرهم، وأخبار الملوك وتنقل الأيام وأيام العرب وسيرها وحروبها، ومقاتل فرسانها(٢) .

قلت : كيف كانت خلائق والدك ذي الفضل والدين والعلم، نريد معرفة خلائقه وشيمه، وهو أحد رجالات الأندلس المسلمة، والتي استمالت إلى إسبانيا ذات الأخلاق الغربية، والمطامع الاستعمارية تصد كل يوم المسلمين عن الهجرة إليها صدودًا، وتحتال لأخذ جزيرة ليلى، وتنزل جنودها وتسن سلاحها ضد مغرب المسلمين!! إنها أوربا المصالح، أوربا المكائد، أوربا ميكافيلي، أوربا الألوان !!

---

(١) التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبدالله تحقيق د. محمد بن شريفه، ط٢ . . وزارة الأوقاف المغربية، المغرب ١٩٨٢م .

(٢) المرجع السابق، ص٤، ٥ .

قال: واعجبًا لهاتيك الأخبار، ووا أسفا على تلكم الأحوال، هل بارت الأندلس؟ وهل فيها الإسلام قد انتكس، وأي إسبانيا هذه التي عنها تتحدثون؟ وأين الأماجد والصناديد المسلمون؟ أين قرطبة العلوم والفنون؟!!

ماذا تقول يا بن ياسين؟!!

قلت: لا عليك يا أبا عبدالله، لقد حاقت بنا الخطوب، وأحاطت بنا الفرقة وغشيتنا الذنوب، فضاعت الممالك، وعلانا كل هالك، ونكست المآذن وانقطع الأذان، ودقت الأجراس وارتفعت الصلبان! واسأل عن الأندلس نونية «ابن الراوندي» فهي خير شاهد.

ثم قلت: حدثني عن خلائق أبيك، فلست في مقام اجترار الأحزان، أو سرد حوادث الزمان.

قال: كان أبي رحمه الله «عذب الكلام، مليح المنطق، نبيل النادرة، حلو الدعابة، لين الجانب، صبوراً حليمًا، موطأ الأكناف، جميل العشرة، حسن الأخلاق، بسامًا يكره الإطراء والإفراط في التصنع منه وله، منصفًا من نفسه، منصفًا لأهل العلم، مسهلاً لهم الطرائق، مبادراً لقضاء الحوائج، جواداً سمحًا من أكرم أهل زمانه، كثير الصدقة والمواساة، عاملاً مجتهداً، صوامًا يقوم ثلث الليل الأخير لجزء من القرآن، متدينًا متورعًا، متواضعًا متشرعًا، كثير المطالعة، لا يفارق كتبه، كثير البحث عن العلم(١).

قلت: لله ما أطيب سيرة والدك، وما أرفعها، هلا حدثتنا يا أبا عبدالله عن مراتب والدك التي صعدها وإجازاته التي حازها، وطرفًا ممن أجازوه في العلم، وتخرج عليهم من علماء وكبراء وفضلاء أهل عصره ومصره.

قال: أجاز أبي من كبراء عصره أبو علي الجياني، وأبو الحسن شريح، والقاضي ابن شبرين وغيرهم من أعلام غرب الأندلس، وأجازه أبو القاسم بن الأنقر، وأبو زيد بن منتيل وغيرهم من أعلام شرق الأندلس.

---

(١) المرجع السابق، ص٥ .

وأجازه من كبراء الكبراء أبو عبدالله المازري وأبو بكر الطرطوشي، وأبوعبدالله بن الحطاب وغيرهم من أهل إفريقية، ومصر والحجاز، وانتهى أشياخه الذين ضم إلى فهرسته إلى قرابة مائة شيخ.

وأجلسه أهل بلده للمناظرة عليه في المدونة وهو ابن اثنين وثلاثين عامًا أو نحوها، ثم أجلس بعدها للشورى.

قلت: يا بن قاضي غرناطة .. هلا حدثتنا عن تولي أبيك القضاء، وكيف كانت سيرته فيه، هل غض الطرف عن جرائم الكبراء، أو هل سولت له نفسه قبول رشوة السفهاء كما فاجأتنا الأنباء أخيرًا عن بعض قضاة آخر الأزمان الذين يعيشون بالباطل، ويحكمون بغير العدل، ويجودون في غير الجود، ويضعون الندى موضع السيف بالعلا، أو كان هو ممن يحكمون بهوى الملوك فيسعون بسعاتهم وينطقون بإشاراتهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب الفساد، أو كان هو ممن يحكمون بغير شرعة الله وينحازون عنها إلى شرعة المتفرنسين من أتباع فولتير، ومن محبي الإنجليزي شكسبير، أو كان ممن يحكم بالعصبية ويقود رعيته بقيم المعلقات السبع؟

قال: بعد أن تمتم وحوقل وسبح واستغفر . .

ثكلتك أمك يا بن ياسين . . وهل أمثال من أشرت إليهم يسمون قضاة؟ وهل يعقل أن يعقد لأحدهم ذمة قضاء؟ إذن والله ضاعت الحقوق، وسفهت الأحلام، وحل الخبال والوبال بالأنام، تالله ما ظننتني أسمع بمثل ذلك أو قريبًا من ذلك في ديار يُتلى فيها الأذان خمس مرات «الله أكبر، الله أكبر . .».

أما أبي قاضي غرناطة، طيب الله ثراه، ورفع قدره وأعلاه، وغفر له ذنوبه وخطاياه ما كان والله قريبًا أو رتيبًا أو يداني أمثال أولئك الأسافل الذين أشرت لهم حاشا، وكلا، وهيهات!! هيهات، في المحيا والممات، وفي النوائب والملمات أن يقرع له سن باطل، أو أن تذكره حلق المجاهل.

ثم هو - رحمه الله - **ولي القضاء** عام خمسة عشر وخمس مائة لثلاث بقين من صفر، فسار فيها حسن السيرة محمود الطريقة، مشكور الخلة، أقام جميع الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها.

ثم نقل إلى غرناطة ووصل إليه الكتاب بذلك في أول يوم من صفر سنة إحدىٰ وثلاثين وخمسمائة فنهض إليها وتقلد خطة قضائها علىٰ المعتاد من شيمه(١) .

ثم أومأ إليَّ وقال: يا بن ياسين لقد حضرتني قصيصة يرويها الأناس هنا كابراً عن كابر في حب الناس لأبي وسيرته بينهم بالعدل، وإكرامهم له بالأدب والفضل .

قلت : لله درك يا بن قاضي العلم، ومقيم العدل هات ما عندك، فكلي آذان صاغية!!

قال : جاء في كتاب «أزهار الرياض» فيما حكاه عبدالرحمن بن القصير قال : «لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة خرج الناس للقائه وبرزوا تبريزاً ما رأيت لأمير مؤمر مثله، وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركاباً نيفاً علىٰ مئتي راكب ومن سواد العامة ما لا يحصىٰ كثرة»(٢) .

(١) المرجع السابق، ص١٠، ١١ .
(٢) أزهار الرياض ٣/ ١١، والمرجع السابق، ص١١ ، هامش رقم ٥٥ .

٦ ـ ابن حزم الأندلسي .. معجزة الأندلس
الفقيه .. المؤرخ .. الأصولي .. النظار .. الشاعر
(٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م)

إذا ذكرت الأندلس ذكر ابن حزم الأندلسي العالم الفقيه والمحدث النبيه، الذي دحض أباطيل أهل الكتاب وبين زيفهم وجهلهم، وكذلك الفرق المنحرفة المغالية واقرؤوا إن شئتم «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل»، نعم إنه ابن حزم، أصل ثابت، وفرع باسق.

قلت : يا مؤرخي فردوس الإسلام السليب، يا دهاقنة علماء الأندلس الخصيب، حدثوني عن تنسب ونسبة أعظم علمائكم مكانة ومجداً، وأصلاً ومحتداً عن عالم الفقه، والأصول، والتاريخ، والأديان، والأخلاق، والأدب عن ابن حزم، الحازم، الذي حزم العلوم في رأسه، وضبطها في قراطيسه.

فانتهض لي زمرة من علماء الشرق والغرب منهم الحميدي صاحب «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس»، والضبي صاحب «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس»، وغيرهما من علماء المشرق كابن كثير، وابن خلكان، وياقوت الحموي، وابن عماد الحنبلي، وابن حجر العسقلاني[١] .

قالوا : هو أبو محمد علي بن أحمد، كان والده «أبو عمر أحمد بن سعيد» أول من ظهر على مسرح التاريخ من هذه الأسرة في الأندلس[٢] ، ومن ثنايا حديث ابن حزم عن والده، ومما أورده المؤرخون، عن طريقة إدارته للأمور وأسلوبه السياسي أيام وزر لابن أبي عامر، واعتزازه بنفسه، وعلمه وأدبه وبلاغته، نستطيع أن نضع والد ابن حزم في مكانة رفيعة، تؤهله لكي يبني لهذه الأسرة مجداً يعجب له ابن حيان[٣] .

(١) وقد اعتمدنا عليه أساساً في ترجمة ابن حزم، وذكر أوجه من حياته إضافة لغيره.
(٢) المرجع السابق، ٥٢، ٥٥ .
(٣) ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، د. عبدالحليم عويس، ص٥٢، ٥٥، ط١، دار الاعتصام القاهرة، د.ن.

الحياة وأهوالها تصطنع ابن حزم..!!

قلت : لله ما أوفاك يا فقيه الأندلس وأديبها وقطب رمي العلوم فيها، هلا حدثتنا عن وفائك، لزوجتك الأولىٰ نُعْم، إذْعز الوفاء في زماننا هذا فنجد للأحياء من الزوجات، فضلا عن الأموات منهن، رحمها الله رحمة واسعة، ويغفر الله لأزواج عصرنا، من يتركون زوجاتهم الزهراوات ويذهبون لتتبع اللمامات، ولاحول ولا قوة إلا بالله . .

قال : يا بن ياسين لقد أهجت مشاعري، وذكرتني بعهدٍ كله فيض وإنعام، عهد تولىٰ وانقضىٰ وإليك بعض ما كتبت في ذلك (١) :

النكبات العائلية والسياسية :

نكبات ونوازل تصيب ابن حزم ..

لـمَّا تولىٰ محمد المهدي الخلافة، مبتدئًا عصر الطوائف النكد، ثم تولىٰ هشام المؤيد، فانهال علىٰ بيت ابن حزم بالنكبات والاعتداء والاعتقال والتغريب والإغرام الفادح، وقد أضيف إلىٰ هذه النوازل المجتمعة أولىٰ كوارث ابن حزم العائلية وهي **وفاة أخيه أبي بكر** ـ الذي لم نعرف له أخًا غيره ـ في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة سنة إحدىٰ وأربع مائة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة .

ثم كانت النازلة العائلية الثانية ـ قاصمة الظهر ـ **هي وفاة والده الوزير أحمد ابن سعيد** بتأثير النكبات التي حلت به وببيته، وذلك في ذي القعدة سنة ٤٠٢هـ ـ فاتصلت حال ابن حزم بعده بالنكبات .

وخلال العام التالي (٤٠٣هـ) حلت بابن حزم النازلة العائلية الثالثة إذ ماتت زوجته الأولى، التي يقول عنها : لقد كنت أشد الناس كلفًا، وأعظمهم حبًا بجارية لي، وكانت فيما خلا اسمها «نعم»، وكانت أمنية المتمني، وغاية الحسن خَلْقًا وخُلُقا، وموافقه لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومر النهار . وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسني

(١) ابن حزم الأندلسي، ص٦٤ .

حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دون السن، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني، وقلة إسعادها على ذلك، فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليَّ مسارعًا طائعًا وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها، ولا أنست بسواها، ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله، وحرم ما كان بعده».

ابن حزم، في رحاب طلب العلم:

قلت: فماذا عن طلب ابن حزم للعلوم وماذا عن شيوخه وأساتذته، وقد عرفنا أنهم كثر كثر.

شيوخ ابن حزم ومعلموه:

قال المترجمون: تخرج ابن حزم على يد شيوخ كثيرين في الفقه والمنطق والأصول والحديث، فقد كان أول سماع ابن حزم قبل الأربع مائة بقليل، في سنة (٣٩٩هـ) على شيخه الكبير أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور[١].

وقد سمع على كثير من غير ابن الجسور منهم: القاضي يونس بن عبد الله وأبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري (٤١٠هـ) وقد قرأ عليه الحديث، وأبو بكر بن أحمد القاضي، وأبو محمد بن بنوس القاضي، وأبو سعيد الفتى الجعفري، وقرأ عليه الأدب والشعر، وأبو عمر أحمد بن الحسين، ويحيى بن مسعود ابن وجه الجنة، ويوسف بن عبد الله القاضي، ومحمد بن سعيد، وعبد الله بن ربيع التميمي، وعبد الله بن محمد بن عثمان، وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد، وعبد الله بن يوسف بن نامي، وقرأ الفقه على أبي عبد الله بن دحون، كما قرأ على «علي بن سعيد العبدري» من أهل جزيرة ميورقة، وممن سمع منهم الوزير أبو عبده حسان بن مالك اللغوي، ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الكنساني من أهل مالقة، وقد أخذ المنطق على محمد بن الحسن المحجي المعروف

(١) طوق الحمامة، ص٦٦ ـ ٦٨.

بابن الكتاني، وأحمد بن محمد بن عبدالوارث، ومن شيوخه البارزين مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار، وعنه أخذ بعض الآراء الفقهية، وربما أخذ اتجاهه إلى القول بالظاهر.

ومن أساتذته في التاريخ «علم الخبر» والده أحمد بن سعيد، الذي كان يقص عليه أحداث الدولة العامرية، والقاضي أبو الوليد عبدالله بن يوسف بن القرضي، وابن الدلائي «العذري».

وممن قرأ عليهم الحديث أحمد بن القاسم بن أصبغ، وأحمد بن عمر بن أنس، وأحمد بن محمد بن عبدالله المغربي الطلمنكي، وأبو عمر الفقيه المحدث، وابن دراج القسطلي، ومن شيوخه المعروفين أبو علي الحسين بن علي الفاسي، وهو من طبقة ابن عبدالبر، وابن حيان، وابن شهيد، ومن الذين هم من طبقة ابن حزم، ويغلب أن يكونوا من أصدقائه ومعاصريه الذين أخذ منهم وأعطاهم، ومن شيوخه عبدالرحمن بن عبدالله بن خالد الهمزاني الوهراني.

ابن حزم يتقلب في وظائف الدولة، وهواه لبني أمية:

قلت: فماذا عن تلكم الوظائف التي تقلب فيها ابن حزم في حياته العملية؟ وقد سمعنا أنه وزر للمرتضى ببلنسية وكان مستشارا له، وصادق بعض الحكام فيها فما خبر تقلباته في مناصب الدولة العليا..؟!

الصعاب تصنع الرجال:

قالوا: نعم دارت رحى الأيام بابن حزم، واعتركته الليالي، وضرسته بأنياب ووطأته بمنسمٍ، وإليك طرقاً من تلك المهمات، تدل الوقائع التاريخية(١) على أن ابن حزم ظل يعمل لانبعاث الدولة الأموية خلال عصر الفتنة، ولم يكن ذهابه للمرية إلا تعبيراً عن هذه النزعة، إذا كان «خيران العامري» يظهر ميلاً لبني أمية في أول أمره.

---

(١) ابن حزم، ص ٦٩ ـ ٧١.

كذلك فقد ظهرت جدية ابن حزم في العمل على انبعاث الدولة الأموية حين ترك مكانه الهادئ عند خير أهل وجيران بحصن القصر في مقاطعة «إشبيلية» ورحل إلى «بلنسية» عندما علم بظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد بها.

ولاء ابن حزم لبني أمية :

لما تمكن ابن حزم من العودة إلى قرطبة سنة ٤٠٩هـ في عهد القاسم بن حمود لم يكن ذلك إلا تحيناً لفرصة يتمكن فيها من العمل لخدمة بني أمية.

ويرى بعض المؤرخين أنه وزر «للمرتضى» ببلنسية لكن من الموثوق به أنه اشترك معه في حرب غرناطة ووقع بأيدي أعدائه فقط.

وكانت بلنسية في ذلك الوقت في حكم رجلين من الصقالبة، تربطهما بابن حزم صلة قوية، هما مظفر ومبارك العامريان، كانا يحكمانها معًا، وقد استطاعا أن يجعلا منها مدينة من المدن العامرة المرموقة، وهذان الرجلان هما اللذان يعتبرهما ابن حزم الآية المثلى في الوفاء الذي يكاد ينعدم في الأرض، وأرجح أنهما كانا يشعران بأنهما حاكمان مؤقتان، وأنهما لن يقفا كثيراً في وجه أي خليفة قادم، وبالتالي وجد الحزب الأموي فرصته في بلنسية ليرشح منها المرتضى للخلافة.

وقد تمكن «خيران العامري» بغدره ولؤمه من القضاء على محاولة قيام الخلافة الأموية في بلنسية بعد أن خذل صاحبها وجيوشه ومساعدة ابن حزم على أبواب غرناطة أمام زاوي ابن زيري زعيم البربر، ونحن نرجح أن ابن حزم كان مستشاراً كبيراً للمرتضى، ولا نرى أنه وصل إلى منصب الوزارة.

ابن حزم وزيرا :

وفي قرطبة تولى ابن حزم وزارته المشهورة لصديقه الخليفة عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر (الخامس) أبي المطرف المستظهر بالله الذي بويع له بالخلافة بقرطبة في رمضان سنة ٤١٤هـ بعد ذهاب دولة بني حمود وانقراضها من قرطبة، ولم تدم وزارته تلك أكثر من سبعة وأربعين يومًا، إذ ثار

علىٰ المستظهر ابن عمه المستكفي في طائفة من أراذل العوام، فقتله لثلاث بقين من ذي القعدة من السنة نفسها، وبعد ذلك بعدة سنوات عاد ابن حزم إلىٰ الوزارة أيام هشام بن المعتد بالله بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر الذي تولىٰ بين سنتي ٤١٨هـ ـ ٤٢٤هـ.

زهد ابن حزم في المناصب :

ومع ذلك فلم تستطع هذه الفترات الوجيزة أن تعطينا صورة عن مدىٰ أسلوب ابن حزم في الوزارة ـ لم تمكنه ـ فيما نعتقد ـ من أن يبرز شخصيته وكفايته، أو يحقق طموحه السياسي، ويوطد لأسرته في الوزارة أو لبني أمية في الحكم.

«ولم يعرف أن ابن حزم تقلد منصبا آخر لا قضائيًا ولا علميًا ولا وزاريا بعد ذلك، فقد طلق المناصب الدنيوية وانصرف إلىٰ محاولة التربع علىٰ عرش العلم، أو قل: إنه عرف أن طبيعته النفسية والخلقية لا تتحمل طرق الوصول إليها وأعبائها، كما أن هذه المناصب قد فقدت احترامها، وبالتالي فلم يمش ابن حزم في طريقها، ورأىٰ أنه خلق لطريق آخر، فنبذ هذه الطريقة وأقبل علىٰ قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن».

قلت: يابن حزم، يا إمام العزم، هلا حدثتنا عن تلك النكبات وهذه البليات التي حطت رحالها ببابك لزمن بعيد، هل أخرت طلابك للعمل أم عطلت عندك آلة الفهم؟! أم قد تجاوزتها، وتساميت عليها، وارتقيت فوقها، وأنت رجل الجلد والحزم؟!

ابن حزم يتحدث عن السجون والمعتقلات :

قال: يابن ياسين هلا أعدت قراءة كتابي «التقريب لحد المنطق» وما ذكرته فيه، حيث قصصت عما تسأل عنه حديثًا يكفي ويشفي وهو اعتقالي في سجون الملقب بالمستكفي واسمع ما أقول (١) :

---

(١) ابن حزم ص٧٤، ٧٥ .

العلم ينجي ابن حزم من السجن :

وأحدثك في ذلك بما نرجو أن ينتفع به قارئه إن شاء الله، وذلك أنني كنت معتقلاً في يد الملقب المستكفي محمد بن عبدالرحمن بن عبيد الله بن الناصر في مطبق، وكنت لا آمن قتله؛ لأنه كان سلطانًا جائرًا ظالمًا عاديًا، قليل الدين كثير الجهل غير مأمون ولا مثبت، وكان ذنبنا عنده هو صحبتنا للمستظهر ، وكان العيارون قد أعانوا هذا الخاسر على المستظهر فقتله، واستولى على الأمر، واعتقلنا حيث ذكرنا، وكنت مفكراً في مسألة عويصة من كليات الجمل التي تقع تحتها معان عظيمة كثر فيها الشغب قديمًا وحديثًا في أحكام الديانة، وهي متصرفة الفروع في جميع أبواب الفقه، فطالت فكرتي فيها أيامًا وليالي، إلى أن لاح لي وجه البيان فيها، وصح لي وحق لي الحق يقينا في حكمها وانبلج، وأنا في الحال الذي وصفت.

فبالله الذي لا إله إلا هو الخالق الأول مدبر الأمور كلها أقسم بالذي لا يجوز القسم بسواه، لقد كان سروري يومئذ وأنا في تلك الحال بظفري بالحق فيما كنت مشغول البال به، وإشراف الصواب لي، أشد من سروري بإطلاقي مما كنت فيه، وما ألفنا كتابنا هذا وكثيراً مما ألفنا إلا ونحن مغربون مبعدون عن الوطن والأهل والولد، مخافون مع ذلك في أنفسنا ظلمًا وعدوانًا.

ابن حزم في الميزان :

قلت : لله أنت يا بن حزم طبت حيًا وميتًا، وعالمًا صيتًا، وفتى دينًا، وأديبًا مصقعًا، ونسابًا بارعًا ، وفقيهًا مجادلاً، وأصوليًا ظاهرًا، وشاعرًا رقيقًا رهيفًا، ومجادلاً عنيداً صليبًا، لقد اختلف الناس فيك في عصرك فقالوا، وقالوا، فهلا أنبأتموني أيها الدارسون عن اجتماع الأحزاب ضد أو مع ابن حزم ولم؟ وكيف؟ ومتى؟

فانتهض إليَّ **فضيلة الدكتور عبدالحليم عويس** من خلال دراسته الجادة عن ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، وحدثني بما هو أهله من المنهجية والروح العلمية والبراعة في الدرس والجد في البحث.

وقال : إليك ما طلبت يابن الكويت الشقيقة ، وإليك نبأ القسم الأول :

ابن حزم وعداواته :

قد انقسم معاصرو ابن حزم، بالنسبة لموقفهم إلىٰ أقسام ثلاثة :[١] قسم أساء إليه بدافع الخلاف المذهبي، ولجرأة ابن حزم علىٰ الأئمة، ولافتقاده سياسة العلم، فلم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض، بل كان يصك برأيه معارضه صك الجندل، ويرميه به رمية تشبه انشقاق الخردل، حتىٰ نفَّر منه القلوب وتوقع به الندوب، فمال هؤلاء عليه، يشنعون، ويكفرون ويحذرون السلاطين والعوام من آرائه، حتىٰ أقصوه إلىٰ قرطبة، وأحرقوا كتبه، وكان جمهرة صغار الفقهاء والمتعصبون المالكيون، والعامة، هم هذا الصنف.

وقد برز في عدائه لابن حزم من هذا الصنف : الفقيه المالكي القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، وأصله من باجة الأندلس، وكان قد رحل إلىٰ الحجاز والعراق، ولقي العلماء، وجال بها مدة ثلاثة عشر عاما، فلما عاد، من رحلته، وجد لابن حزم الغلبة علىٰ مالكية الأندلس حيث عجز الأخيرون عن مقارعة ابن حزم، وكان كما يقول المؤرخون : قد عاد من رحلته بعلم جم وسمع الكثير، وبرع في الحديث والفقه والأصول والنظر، فاستعداه المالكية علىٰ ابن حزم، فقدم إليه في جزيرة ميورقة حيث ناصره العامة وصغار الفقهاء علىٰ ابن حزم حتىٰ أخرجوه منها.

ومع أن بعضاً من المؤرخين قد غمزوا الباجي في أخلاقه، إذ ولي قضاء أماكن تصغر عن قدره، وداخل الرؤساء حتىٰ كثرت فيه القالة، وقصدهم بشعره يرجو جوائزهم، بل غمزوه في دينه، حيث قال بأن النبي ﷺ ليس أميًا، وأنه كتب بيديه يوم صلح الحديبية، إلا أن ابن حزم لم يبخسه حقه، ولم تجعله الخصومة يسفل، بل قال فيه : «لو لم يكن لهؤلاء ـ أي المالكية ـ بعد القاضي عبدالوهاب إلا الباجي لكفاهم»، وقد نال ابن حزم من هذا الفريق كل الأذىٰ، وعاش مطارداً، قلقًا.

قلت : فماذا عن القسم الثاني من معاديه وناقديه؟ هل مالوا عليه جملة كأصحاب القسم الأول أو تلطفوا وأوجفوا؟ أو ماذا ؟

---

(١) المرجع السابق، ص٧٧، ٧٨ .

ابن حزم وخصومه من العلماء :

قال : أما القسم الثاني فهو قسم اختلف مع ابن حزم في الرأي، ونقد ابن حزم، لكنه ظل محايداً، وحافظ على مستوىً أخلاقي يليق بالعلماء، ومن هذا الصنف كان العلامة الحافظ (أبو بكر يوسف بن عبدالبر بن عاصم النمري القرطبي) أحد الأعلام، وصاحب التصانيف الكثيرة(١) ، وكان لابن عبدالبر نقد للظاهرية وقد رد على ابن حزم رداً شديداً في رأيه الذي يذهب فيه إلى أن تارك الصلاة عمداً لا يجوز له قضاؤها فائتة، ومع ذلك فقد أثنى عليه ابن حزم في رسالته في فضائل الأندلس، واعتبره من مفاخرها العالية.

خلاف ابن حزم مع ابن حيان :

ومن هذا القسم المحايد كذلك ـ ابن حيان، الذي قوَّم ابن حزم بطريقة أقرب ما تكون إلى العدل، وقد عزا ابن حيان ـ على الرغم من بعض تحامله على ابن حزم ـ ما أصاب ابن حزم من الفقهاء إلى أنه «من الحسد الذي لا دواء له؛ لأن أزهد الناس في العالم أهله».

ويعقب **الدكتور محمود علي مكي**، على رأي ابن حيان في ابن حزم فيقول: «ولسنا نعلم أحداً عرف كيف يغوص على حقيقة ابن حزم وقيمة جهده وماله وماعليه كما فعل ابن حيان»، والحقيقة أن ابن حيان لم يخل من حسد على ابن حزم، كما أنه ذو طبيعة هجاءة، لكنه حاول الحفاظ على أخلاق العلماء، في خلافه مع ابن حزم، وتلك كانت الميزة التي كان يسعى إليها ابن حزم في علاقته بمعاصريه.

قلت : يا لله..!!

ابن حزم وأصدقاؤه وأهل مودته

قلت : وماذا عن القسم الثالث، من الرفقاء معاصري ابن حزم؟

قال : والقسم الثالث من هذه الأقسام هم أصدقاء ابن حزم، الذين ربطهم

(١) المرجع السابق، ص٧٩، ٨٠.

به علاقة صداقة خاصة، لم يدخل فيها الجدل الفكري، ولا إبراز الخلاف في الرأي، ومن هؤلاء صاحبه أبو عبدالله محمد بن يحيىٰ بن محمد بن الحسين التميمي، المعروف بابن الطبني، الذي أورد ابن حزم خلاصة جيدة لعلاقته به في كتابه الطوق(١) وكيف كانا يتهاديان الود شعراً، وقد رثاه ابن حزم بقصيدة منها (٢) :

لئن سترتك بطون اللحود ... فوجدي بعدك لا يستتر

قصدت ديارك قصد المشوق ... وللدهر فينا كرور ومر

فألفيتها منك قفراً خلاء ... فأسكبت عيني عليك العبر

ومن هؤلاء : أبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد، صاحب التوابع والزوابع، وأحد أعلام الأندلس في الأدب والشعر وقد وزرا معًا للمستظهر، وعملا معاً في خدمة المعتد بالله، وفي مرض ابن شهيد الذي مات فيه أرسل إلىٰ ابن حزم قصيدة يتوج بها هذه العلاقة منها :

كأني وقد حان ارتحالي لم أفز ... قديمًا من الدنيا بلمحة بارق

فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي ... يداً في ملماتي وعند مضايقي

عليك سلام الله إني مفارق ... وحسبك زاداً من حبيبٍ مفارقِ

ومن الأصدقاء الذين اعترف ابن حزم بإخلاصهم وذبهم عنه أشد الذب : القاضي أبو المطرف عبدالرحمن بن أحمد بن بشر، وأبو عبدالله محمد بن علي بن عبدالرؤوف الحكم، وأبو العاص حكم بن سعيد، ويونس بن عبدالله بن مغيث وأبو جعفر أحمد بن عباس، وأبو العباس أحمد بن رشيق صاحب ميورقة، وقد عاصر ابن حزم مفكرون وأدباء كثيرون، لكن لم تكن له بهم علاقة؛ وربما كانت الأحوال المضطربة، وتقلب الناس في الفتن، وابتعاد ابن حزم عن بحارها وطبيعة ابن حزم الواضحة، بعض أسباب ذلك.

---

(١) طوق الحمامة.

(٢) المرجع السابق، ص٨٠، ٨١ .

ابن حزم ، سيكلوجي وسيسولوجي عصره الأوحد :

قلت : أيها الإمام الهمام، يا شيخ علماء الظاهرية والإسلام، لله أنت في عصرك، ولله فضلك في مصرك الأندلس الخصيب، لا أجد أحداً أهلاً للسؤال إلا إياك عن خلائقك وشيمك، فهلا تفضلت وأخبرتني ودفعت لنا بحقيقة تلك السمات التي تَلَبَسَتْ بك وتلبست بها، وأنت السيكولوجي الكبير في زمانك ولله كتاباك الطوق ومداوة النفوس.

قال : يابن ياسين أحسنت السؤال ، فإليك الجواب وهاك حديثا صراحا عن شمائلي وصفاتي واسمع حديثي إليك من طوق الحمامة :(١) أبرز أخلاق ابن حزم صفتان تتفرع عنهما كل سلوكياته ، ما قبله الناس ، وما لم يقبلوه وهما : وفاؤه وتدينه . وهو يقول لنا عن وفائه : «ولقد منحني الله - عز وجل - من الوفاء لكل من يمت إلي بلقية واحدة ، ولمن يتذمم مني ولو بمحادثة ساعة حظا ، أنا له شاكر وحامد ، ومنه مستمد ومستزيد ، وما شيء أثقل عليَّ من الغدر ، ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في إضرار من بيني وبينه أقل ذمام ، وإن عظمت جريرته وكثرت إلى ذنوبه ، ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت» .

تفسير حدة ابن حزم، وشدته في الحق :

قلت : إذن فماذا عن تلك الشدة التي لازمتك، وعرفت بها، وهيجت بها عليك خصومك، حتى بلغوا من إيذائك كل مبلغ..؟

رأي ابن حيان في ابن حزم :

قال : اسمع ما قاله عني الأقران والنقاد والأضداد ، فالحق ما شهدت به الأعداء وإليك بحديث ابن حيان عن تلك الصفة (٢)، وما ذكره ابن حيان عن ابن حزم من جهله «بسياسة العلم» لحدة فيه ، وشدة عارضته في الرد على الخصوم ، وعدم الاعتماد على التلميح والتعريض والأناة في التوجيه .

---

(١) طوق الحمامة ص٨١، ٨٢ .

(٢) المرجع السابق، ص٨٢، ٨٣ .

إنما يرجع[١] إلىٰ فيض عاطفي أصيل احتبسه التدين في نفسه، هذا إلىٰ ماقاله هو عن علة الطحال التي أصيب بها، وأنها كانت سبب ضجره وضيق خلقه وقلة صبره ونزقه، وربما كانت ألوان الظلم التي لحقت به هي التي أنضبت معين اللين والرقة في نفسه.

ومع ذلك فابن حيان يكاد يفسر لنا سبب حدة ابن حزم حين يقول عنه: إنه كان يحمل علمه هذا ويجادل من خالفه فيه علىٰ استرسال في طباعه، وبذل بأسراره واستناد إلىٰ العهد الذي أخذه الله علىٰ العلماء من عباده: ﴿ **لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَاتَكْتُمُونَهُ** ﴾[٢].

فحدة ابن حزم إنما هي نوع من الصراحة والوضوح والشجاعة والجرأة وعدم المداراة والصدق الكامل، والتدين الذي لا يخشىٰ معه صاحبه إلا رضا الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ويبدو أن هذه الأخلاق كلها قد صاغت ابن حزم، فأصبح بها ابن حزم غريبًا بين أهله، جاهلاً بسياسة العلم.

والحق أن ما ورد في رسالته الرائعة «مداواة النفوس» يعتبر مرآة تشف عن أخلاق ابن حزم، وقد لا تكون أخلاقه صورة كاملة لكل ما ورد فيها إلا أنها تجلي لنا أعماق إنسان لم يفهمه عصره، عصر الفتنة والطوائف!!

ابن حزم، بين المنهج النصي، والمذهب الظاهري:

قلت: يا سادة المحققين ماذا عن مذهب ابن حزم الفقهي؟ ولم خالف أهل الأندلس وسلك شرعته على أنه تقلب في المذهب المالكي، ثم تلاه إلى المذهب الشافعي، ثم رسخ قدمه وحط رحله في تأصيل وتوطيد وتعضيد المذهب الظاهري، فماذا عن قصته مع ذلك المذهب؟ ولماذا رجح عنده دون غيره من المذاهب؟!

---

(١) هذا رأي الأستاذ الدكتور عبدالحليم عويس في كتابه ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، وقد ارتضينا هذا الرأي علىٰ الإجمال.
(٢) آل عمران: ١٨٧.

ابن حزم ومذهبه الظاهري :

قالوا : لقد اختار ابن حزم الظاهرية بتأثير ظروف فكرية وتاريخية أوجبت لديه ذلك، ففي هذا العصر الذي ساد فيه الانحلال والفوضىٰ الأخلاقية والاجتماعية أصبح الفقهاء أكبر عضد لأمراء الطوائف في تبرير طغيانهم وظلمهم وانحرافهم، ابتزازا لأموالهم، وسعيًا وراء المناصب عندهم، وقد ذكر الأستاذ (عنان) أنهم كانوا يأكلون علىٰ كل مائدة، ويتقلبون في خدمة كل قصر، وقد أفسحت طبيعة عصر الطوائف لهم مجال الاستغلال والدس، واحتضنهم الأمراء الطغاة، وأغدقوا عليهم العطاء(١) .

أسباب ظاهرية ابن حزم :

لقد كانت ظاهرية ابن حزم هي رد الفعل لهذه الوصولية التي سادت عصر الطوائف، وكان ابن حزم أصلحَ من تظهرُ علىٰ يديه حركة رد الفعل في شكل ثابت قوي؛ إذ كان رجلاً عالـمًا عاملاً بعلمه، واسع الاطلاع، يطلب العلم لله، ويضع دينه فوق كل مصلحة .

ونحن نعتقد أنه مما يضاف إلىٰ هذا العامل أن «الفقه» من مصادره الأساسية وفي إطار دوره الاجتماعي والاقتصادي الإيجابي، كان ميدانًا لجأ إليه ابن حزم، ليصلح من خلاله ما فشل في عمله من خلال السياسة .

لقد سبر ابن حزم غور المجتمع الأندلسي بكل طبقاته، وشهد من المهازل التي تجري علىٰ مسرح السياسة باسم الشريعة، ما جعله يقتنع بأن هذه الموبقات والمفاسد والانحرافات إنما وقعت في غيبة الشريعة الإسلامية، وفي تجاوز دلالاتها الصريحة، وتأويلها باسم القياس والاستحسان والتعليل . .

ومن هنا دخل إلىٰ باب الفقه ليصلح به الراعي والرعية، واختار المذهب الظاهري؛ لأنه المذهب الذي يوجب الاجتهاد ويمنع التلاعب بالنصوص، ويحقق له غرضه من أقرب طريق .

(١) طوق الحمامة ص٨٧ ـ ٨٩ .

قلت : يابن حزم العلوم، يابن الظاهرية المنهجي ماذا عن تعريف الظاهر عندك؟ وماذا عن موقفك منه؟! ودفاعاتك عنه؟

قال : اسمع يابن ياسين قولي الفصل في كتابي« الفِصَل» : «واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا سر تحته، كله برهان لا مسامحة فيه، واتهموا كل من يدعو إلىٰ أن يتبع بلا برهان، وكل من ادعىٰ للديانة سراً وباطناً فهي دعاوىٰ ومخارق، واعلموا أن رسول الله لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها، ولا كان عنده عليه الصلاة والسلام سر ولا رمز ولا باطن(١) .

وفي هذا المعنى يقول شعراً منه :

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت ... أقوالهم، وأقاويل العدى محن
فقلت هل عيبهم لي غير أني لا ... أقول بالرأي! إذ في رأيهم أفن
وأنني مولع بالنص لست إلى ... سواه أنحو.. ولا في نصره أهن
لا أنثني نحو آراء يقال بها ... في الدين بل حسبي القرآن والسنن

ويقول :

أنائم أنت عن كتب الحديث وما ... أتى عن المصطفى فيها من الدين
لمسلم والبخاري اللذين هما ... شدا عرا الدين في رأي وتبيين
أولى برأي وتعظيم ومحمدة ... من كل قول أتى من رأي سحنون

ابن حزم ونقده للقياس :

وقد أتيح لابن حزم أن يقرأ الفقه المالكي، وغيره من المذاهب، وأن يتمعن في الأحكام التشريعية التي جاءت بها أو دونها، وقد رأىٰ أن من أسباب الخلاف الشديد بينها، أن القياس وما إليه من الاستحسان قد أصبح مركباً ذلولاً استطاع به جماعة من الفقهاء أن يوائموا بين أحكامهم وفتاويهم وبين مقتضيات الحياة الفاسدة التي أطرحت فيها مبادئ الخلق والضمير إطراحاً، ومسخت فيها كل أصول الدين وآدابه مسخاً .

(١) طوق الحمامة ص٩٠، ٩١ .

معالم منهج ابن حزم :

قلت : يا أساتذة الجامعات، يا أصحاب النظريات، حدثوني عن معالم المنهج الظاهري لدى ابن حزم في مجال البحث الديني، وما تلك الأسس المنهجية التي اتخذها منطلقًا في فهمه واستنباطه، وفي كتابته وإفتائه، وفي رده على الخصوم وفي دحض حججهم، وتفنيد آرائهم.

قالوا : إليك ما سألت يابن ياسين . .[1] :

١ ـ الالتزام بالنص قرآنـاً أو سنة ثابتـة في حدود المعنى الظاهر بحكم دلالة اللغة الواضحة ، كما بينا سلفًا .

٢ ـ الاعتراف بإجماع الصحابة ومن يجيء بعدهم ، كمصدر للتشريع ، ورفض القياس والاستحسان وسد الذرائع وغيرها . ويضاف إلى الإجماع مصدر يسمى الدليل ، وهو أمر مولد من النص أو الإجماع وليس حملاً عليهما .

٣ ـ إيراد حجج الخصوم ، واعتبار التجني على الخصوم والتقول عليهم بما لم يقولوا جريمةً في البحث الديني .

٤ ـ المساواة بين الصحابة وقد يؤخذ كلام بعضهم ويترك كلام البعض ، وأما مااختلف فيه الصحابة فليس قول بعضهم أولى من قول بعض ، «ومن جاء بعدهم أولى بذلك ، والشريعة وحدها هي المتقيد بها» .

٥ ـ النظر إلى أئمة المذاهب نظرة متساوية ؛ لأنه لا معنى للتعصب لمالك دون الشافعي ، أو غيره .

٦ ـ رفض التقليد «ويكفي أن القائلين به مقرون على أنفسهم بأنه لا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد بلا برهان» .

٧ ـ الاهتمام بالمصادر الكثيرة ، لكنه يكتفي بذكر أصحابها في مجال الاستشهاد بآرائهم أو مخالفتها ، مثل : البخاري ، ومسلم ، وأبي داود ، والنسائي ، ومالك ، وأحمد ، والبزار ، والحاكم ، وغيرهم . وكثرة المطالعة لكل الآراء .

---

(١) طوق الحمامة ٩٢ ـ ٩٤ .

٨ ـ لا حجة في الكثرة «فإذا خالف واحد من العلماء جماعة فلا حجة في الكثرة؛ لأن الله تعالىٰ يقول: وقد ذكر أهل الفضل: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

٩ ـ العبرة في الأمور بالفعل، فإذا روي عن صحابي حديث عن النبي ﷺ، ثم روي عن ذلك الصحابي فعل خلافه، فيؤخذ فعله ويترك ما روي عنه.

١٠ ـ رفض التعليل فالشريعة تعبدية، والمعقول منها نص الله علىٰ معقوليته.

١١ ـ وطريقته أن يبدأ المسألة ثم يقول: قال أبو محمد ـ وهي كنيته ـ أو قال «علي» وهو اسمه، ثم يذكر فقهه، ثم يستدل عليه بآية أو حديث بسنده إلىٰ النبي ﷺ، من طرقه المختلفة. وقد يستدل بالإجماع الذي هو عنده إجماع كل عصر إذا لم يتقدم قبله في تلك المسألة خلاف، وهو يعني بالعلماء: «المجتهدون الذين حفظت عنهم الفتيا من الصحابة والتابعين وتابعيهم وعلماء الأمصار، وأئمة الحديث، ومن تبعهم . . .» ثم يذكر في المسألة مع فقهه: فقه الصحابة، والتابعين، ومن تبعهم إلىٰ فقه الأئمة.

١٢ ـ وبعد إيراد كل هذا بسنده إلىٰ قائليه يأتي دور التحليل والنقد فيصحح ويضيف، ويعدل، ويجرح، ويقبل، ويرفض، ويقارن بين فقيه وفقيه غيره، ويناقش الأدلة والحجج بلغة علمية أدبية عرف بها علماء الأندلس.

١٣ ـ احتفاؤه بغرائب الفقه، وفي المحلي من غرائب فقه الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم عجائب، يستنبط منها مدىٰ السعة والشمول والتطور والمرونة في التشريع الإسلامي.

موقف ابن حزم من اللغة:

قلت: وما موقفه من اللغة العربية وأهميتها وضرورة الإلمام بها؟ هل سعى لتهميشها في سبيل تلك اللغات الدخيلات علينا كخبرائنا ووزرائنا الذين عجموا أطفالنا وأفسدوا ذوقهم اللغوي، فما عادوا يقيمون لفظًا ولا ينشئون مبنى ولايفهمون معنى، أم ماذا كان موقفه من تلك اللغة العربية الشريفة؟ وما موقفه من نحو اللغة العربية؟ هل يدعو لإلغائه؟، أو يدعو لإحيائه؟ ويوجبه !!

قالوا : لقد وضع ابن حزم اللغة في المكان الرئيس من شروط البحث، فإنه أيضًا يقرر لنا أنه تثقف ثقافة لغوية كافية، وأنه ينصح الذين لا يريدون التخصص الدقيق في اللغة، أن يقرؤوا بعض أمهات الكتب اللغوية التي يبرز لنا، دراسته لها في صورة مقارنة بينها، وهو ينصحهم بألا يتعمقوا في اللغة والنحو إلىٰ أكثر من بعض هذه الكتب؛ لأن المزيد من التعمق النحوي الذي يجنح إلىٰ الافتراضات والتقديرات والتأويلات «أو ما يسمىٰ بالعوامل والعلل، فهي كلها فاسدة». لا تتفق مع منهجه الظاهري، وبالتالي فلا جدوىٰ منها، ويقول ابن حزم في ذلك : لا منفعة للتزيد علىٰ المقدار الذي ذكرنا إلا لمن أراد أن يجعله، أي النحو ـ معاشًا فهذا وجه فاضل ؛ لأنه باب من العلم علىٰ كل حال «وأما الغرض من هذا العلم فالمخاطبة، وما بالمرء حاجة إليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط».

أي أن النحو لا يجوز أن يكون ترفًا فكريًا، وإنما هو وظيفة اجتماعية وتربوية «فيقضي من علم النحو كل ما يتصرف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة، ويقتضي من اللغة المستعمل الكثير التصرف».

وقد توافرت لابن حزم آراء في بعض القضايا الأساسية في اللغة، ومن هذه الآراء : ما يراه ابن حزم في نشوء اللغات، فقد تبنىٰ الرأي القائل بأن اللغات «توقيفية»، وليست «اصطلاحية» ، أي أن الله وقف آدم عليها كلها، وقد أخذ ذلك من قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾(١) .

رأي ابن حزم في نشأة اللغة :

ومع أنه ظاهري إلا أنه افترض للغات نشأة واحدة، حين قال : «ولعلها كانت حينئذ لغة واحدة مترادفة الأسماء علىٰ المسميات، ثم صارت لغات كثيرة، إذ توزعها بنوه بعد ذلك، وهذا هو الأظهر عندنا والأقرب».

ومما هو جدير بالذكر أن ابن حزم يسجل لنا ملاحظاته الخاصة في هذا المضمار

---

(١) البقرة : ٣١ .

وما يطرأ على الكلمة من تغير نتيجة الاستعمال وتغير الظروف الجغرافية ولوكها بألسنة العامة : ومن الآراء الجديدة لابن حزم عدم تفضيله لغة على لغة ؛ لأن اللغة تابعة لأهلها في تقدمهم وتخلفهم، وهو يسخر من «جالينوس» الذي يفضل اللغة اليونانية، على سائر اللغات، ويجعل ما عدا اليونانية أصواتًا تشبه نباح الكلب أو نقيق الضفادع .

فقد قال ابن حزم حول هذه الدعوى : «هذا جهل شديد ؛ لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق» .

ومن آرائه اللغوية ما يرجحه من أن اللغات السامية المعروفة كالعربية والعبرانية والسريانية والآرامية ذات صفات مشتركة وصلات قوية وأنها تنتمي إلى أرومة واحدة .

وقد كانت هذه النظرة إلى اللغات من حيث كونها مجموعات نظرة رائدة سبق بها ابن حزم علماء أوربا بحوالي قرنين من الزمان، مع موضوعيته في النظر إلى اللغات، وهو المتعصب لعروبته وإسلامه .

آراء ابن حزم في الشعر :

قلت : فما موقع ابن حزم من الشعر والشعراء، وما رأيه في مباح الشعر وساقطه مثل بعض قصائد فاتح القناني نزار قباني، أو شعر أولئك السريانيين الذين أحبطوا الوزن، وقتلوا القافية، وازدروا التفعيلة، وكفروا عروض الخليل وتولوا عن الشعر إلى ما زعموه قصيدة النثر ذات الرمزية الغنوصية، والكلمات اللاهوتية التي تبشر بالمسيحية وتنذر بضياع الإسلام ولغته وقيمه، واسألوا تلك الزمرة، من أمثال أدونيس وغيره، وانظروا أوراقهم وأهدافهم، ومن وراءهم.

قالوا : هذا موقف ابن حزم من الشعر وهو ذلك الشاعر الفذ، والأديب الخطير، ومن خلال المنهج الظاهري التربوي الملتزم كان لابن حزم في الشعر موقف محدد، فهو يحبذ الشعر الذي فيه الحكمة والخير مما ينبه النفس وينشطها ويدعو المرء إلى صالح القول والعمل .

وذلك كشعر حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وصالح بن عبدالقدوس، ونحو ذلك(١)، وهو يحذر من أربعة أضرب من الشعر هي: الغزل والتصعلك والغربة والهجاء، ثم صنفان من الشعر لا ينهى عنهما نهيًا تامًا، ولا يحض عليهما، بل هما عنده من المباح المكروه، وهما المدح والرثاء، وما يراه ابن حزم من الإكثار في اللغة يراه أيضا في الشعر : فإن الإكثار من رواية الشعر هو كسب غير محمود؛ لأنه من طريق الباطل والفضول لا من طريق الحق والفضائل، والذي يخيل إليَّ أن ابن حزم قد فرض على الشعر قيودًا قاسية، وأسرف كثيرا في ظاهريته الفقهية عندما أخضع الشعر لهذه القيود القاسية، ولئن كان «الالتزام الديني» للشعر مذهبًا قال به كثيرون، وسبق به ابن حزم، فإن أحدًا قبل ابن حزم لم يخضع فن الشعر لمقاييس الفقه بهذه الدرجة، فبعضه عنده حرام وبعضه مكروه، وبعضه مندوب، وبعضه مباح.

لكن ابن حزم مع هذا كله يراه البعض أهم شعراء الأندلس الذين عاشوا في فترة انهيار الخلافة «إلا أنه قد عاقه عن بلوغ الغاية في شعره كثرة علمه وفقهه وأسلوبه المتلون بأساليب الفقهاء وثقافته العقلية والدينية».

ومن الأمثلة التي تبرز فيها المؤثرات المذكورة في شعره قوله :

دع عنك نقض مودتي متعمدا ... واعقد حبال وصالنا يا ظالم
ولترجعن أردته أو لم ترد ... كرها كما قال الفقيه العالم

وقوله :

كذب المدعي هوى اثنين حتمًا ... مثلما في الأصول أكذب ماني

وقوله :

فآثرت أن يبقى وداد وينمحى ... مداد فإن الفرع للأصل تابع

وقوله :

أبدا في اختلاج الشكوك ... بظن كقطع وقطع كظن

---

(١) طوق الحمامة ص١٠٠، ١٠١ .

بديع شعر ابن حزم :

قلت : فماذا عن شعر ابن حزم ؟ وما قول النقاد فيه؟

وهلا تخصونا ببعض من أبياته ؟

قالوا : إن أبرز قصائد ابن حزم التاريخية هي قصيدته الميمية التي أنشأها عندما اطلع على القصيدة التي أرسلها نقفور الملقب بملك الأرض المتوفى سنة ٣٥٢هـ ـ إلى الخليفة المطيع بالله ، ليسب فيها الإسلام والمسلمين ويتوعد فيها بأنه سيملك بلاد المسلمين إلى الحرمين الشريفين .

يقول ابن كثير : إنني لم يبلغني عن أحد من أهل ذلك العصر أنه رد على نقفور جوابه ، إما لأنها لم تشتهر ، وإما لأنه أقل من أن يردوا خطابه .

والحقيقة أن أبا بكر محمد بن علي القفال الشاشي ، رد عليها قبل ابن حزم ، إذ كان من جملة من غزا الروم من أهل خراسان وما وراء النهر ، فلما وردت قصيدة نقفور تصدى أبو بكر الشاشي للرد عليها في حينها .

ويقول ابن كثير : لقد انتحى للجواب عنها بعد ذلك أبو محمد بن حزم الظاهري فأفاد وأجاد ، وأجاب عن كل فصل باطل بالصواب والسداد .

ثم أورد ابن كثير القصيدة النقفورية، وأولها :

من الملك الطهر المسيحي مالك ... إلى خلف الأملاك من آل هاشم

إلى الملك الفضل المطيع أخي العلا ... ومن يرثي للمعضلات العظائم

وهي تقع في تسعة وستين بيتًا، وتنتهي بقول من استأجره نقفور :

فعيسى علا فوق السموات عرشه ... يفوز الذي والاه يوم التخاصم

وصاحبكم بالترب أودى به الثرى ... فصار رفاتًا بين تلك الرمائم

تناولتم أصحابه بعد موته.. ... بسب وقذف وانتهاك المحارم

أما قصيدة ابن حزم، فقد كانت على نفس الوزن والقافية، وقد وقعت في ١٠٧ أبيات واستهلها بقوله :

من المحتمي بالله رب العوالم ودين رسول الله من آل هاشم

محمد الهادي إلى الله بالتقى وبالرشد والإسلام أفضل قائم

وفي القصيدة يستعرض ابن حزم البلاد التي أخذها الإسلام من النصرانية، كمصر والمغرب والأندلس وفلسطين وغيرها، وبعضاً من سير الخلفاء الذين استولوا عليها، وسير بني حمدان وكافور، ثم يستعرض قوة المسلمين في بغداد ودمشق وخراسان وسجستان وكرمان وفارس والسوس وأصبهان والبصرة والكوفة ومكة واليمن، وهي قوة كفيلة بإذلال الكفر وأهله.

ثم يرد ابن حزم على افتراءات النصارى على المسيح، وزعمهم أنه ابن الله، ويبين حقيقة الدعوة المحمدية، والمعجزات التي ظهرت على يد النبي عليه الصلاة والسلام، ويختم القصيدة، التي تشبه أن تكون ملحمة تاريخية ـ بقوله :

لنا كل علم من قديم ومحدث وأنتم حمير داميات المحازم

أثبتم بشعر بارد متخاذل ضعيف معاني النظم جم البلاعم

فدونكما كالعقد فيه زمرد ودر وياقوت بإحكام حاكم

وهكذا نجد تنوع أشكال التعبير عند ابن حزم عن الحقائق التاريخية نثراً، وشعراً .

قلت : فماذا عن مؤلفات ابن حزم كم تعدادها ؟ وهل هي أبعاض تحصرها اليدان عداً أم هي تترى تعجم العقول عن حصرها وهو الإمام الأديب الشاعر الفقيه الأصولي.

مصنفات ابن حزم الأندلسي :

قالوا : كثرت مؤلفات ابن حزم (١) :

ثمة إجماع بين المؤرخين على أن ابن حزم من أكثر أهل الإسلام تصنيفًا، ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية تلميذ ابن حزم صاعد، وابنه الفضل أبو رافع ـ فيما

(١) طوق الحمامة ص١١٠ .

يرويه الأول عن الثاني من أنه أخبره أن أباه ابن حزم، قد بلغت مؤلفاته في الفقه والحديث والأصول والملل والنحل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

ويعلق صاعد على هذا الخبر الذي استقاه من أبي رافع بقوله: «وهذا شيء ما علمناه من أحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر بن جرير الطبري فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفا».

ويذكر الحميدي أن ابن حزم كان: «متفننا في علوم جمة، وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم».

أما ابن حيان معاصر ابن حزم فيذكر أنه كمل من مؤلفات ابن حزم في فنون العلم «وقر بعير لم يتجاوز أكثرها عتبة بابه لزهد الفقهاء فيها حتى أحرقت بعضها بإشبيلية ومزقت علانية».

ويتحدث ابن حزم عن مصنفاته. كعادته في اهتمامه بسيرته الذاتية. فيقول: «ولنا فيما تحققنا به تآليف جمة، منها ما قد تم، ومنها ما شارف التمام، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله على باقيه».

قلت: فماذا عن موقع ابن حزم في علم مقارنة الأديان هل بلغ فيه رتبة عالية، ومكانة سامية تليق به، وهل كان كما قيل رائد هذا العلم في مغرب الإسلام أو ماذا؟!

أعظم كتب ابن حزم (الفِصَل في الملل والأهواء والنحل) :

قالوا: إن خير جواب هو ما قاله علماء الغرب في ذلك، فدونك من قول حذاقهم مشاهد تشهد بضلاعة وبراعة ابن حزم، ثم ظهر بعد ذلك كتاب ابن حزم (الفصل في الملل والأهواء والنحل) فكان منعطفًا جديداً، أبرز (مقارنة الأديان) كعلم له طريقته في البحث، من استقصاء وتتبع وتحقيق ومقارنة، كما أن له موضوعاته المحددة، وإلى ابن حزم يرجع فضل الأسبقية، في طريقة التبويب، والاستنباط، وانتظام التفكير، وسعة الاطلاع، وشمول النظرة، يقول تلميذ ابن

حزم الحميدي تعليقاً على رسالة ابن حزم «كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارىٰ» : «وهذا مما سبق به»(١) .

وينقل «**الضبي**» العبارة نفسها ؛ لأنه اعتمد علىٰ الحميدي في ترجمته لابن حزم، كما أن ابن خلكان يذكر المعنىٰ نفسه بأسلوبه، فيقول : «وهذا معنىً لم يسبق إليه»، فهؤلاء بعض المترجمين الأول لابن حزم اعترفوا له بالسبق في هذا الميدان، أما المحدثون، ومن بينهم المستشرقون، فقد اعترفوا بمكانة ابن حزم الرائدة في هذا المجال .

ويذكر «بلانثيا» أن كتاب «الفصل» هو أشهر ما ألف ابن حزم في مادة التاريخ وأعظمه قيمة، وأنه تاريخ نقدي للأديان والفرق والمذاهب حافل بما فيه من مادة وأفكار يعرض لشتىٰ مذاهب الذهن البشرىٰ في موضوع الدين بدءاً من الإلحاد المطلب الذي عليه السوفسطائيون، إلىٰ واقع العوام الذين يصدقون كل شيء، ويؤمنون بالخرافات في جهل ولا يشكون في شيء» .

ويقول بلانثيا : «إنه نتيجة لذلك صار كتاب ابن حزم تاريخاً لعلم الكلام في الإسلام مع اتجاه واضح لبيان فضائله، وإن لم ينقصه بين الحين والحين ذلك الطابع الموضوعي المتجرد عن هوىٰ صاحبه» .

آراء المستشرقين في ابن حزم :

ويقول الدكتور «فيليب حتى» عن كتاب الفصل : «أما أنفس كتب ابن حزم الباقية إلىٰ الآن وأفيدها فهو كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، الذي يؤهل مؤلفه لاحتلال مركز الأولية بين العلماء الذين عنوا بدرس الأديان علىٰ سبيل النقد والمعارضة، وفي هذا الكتاب لفت ابن حزم الأنظار إلىٰ بعض المشاكل في قصص التوراة والتي لم يتنبه لها فكر أحد من العلماء حتىٰ ظهور مدرسة نقد التوراة العلمي في القرن السادس عشر .

ويقول بروكلمان عن الفصل : «إنه مؤلف ديني تاريخي عظيم، وهو كتاب لم يسبق إلىٰ مثله في الأدب العالمي» .

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦ .

ويقول المستشرق (جب) : « إن ابن حزم كُرم في الغرب باعتباره مؤسسًا لعلم مقارنة الأديان » .

ويقول المستشرق الفريد جيوم : «إن باحثًا مثابرًا كابن حزم القرطبي قد استطاع أن يحشد قواه ليؤلف أول موسوعة دينية أوربية ، وليكتب أول دراسة على مستوىً عالٍ من النقد والترابط حول العهدين القديم والجديد» .

فهذه أيضًا - بعض آراء المحدثين، في سبق ابن حزم إلى هذا الميدان، وهو وإن لم يكن سبقًا زمنيًا إلى تناول الموضوع، فهو سبق في منهج البحث، وفي إقامة بنيان هذا العلم على أساس من الدراسة المقارنة النقدية، وليس على مجرد السرد الوصفي، أو الهجوم المسبق، دون الرجوع إلى المصادر الأصلية لكل نحلة من النحل أو مذهب من المذاهب، وهذا هو السبق الحقيقي الذي نراه لابن حزم.

٧ ـ ابن العربي.. الإمام الهُمام

(٤٨٦ ـ ٤٥٣ هـ / ١٠٧٦ ـ ١١٤٨م)

اسمه : محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري.

ولد في : أشبيلية سنة ٤٦٨هـ .

محطتنا هذه مع علم من أعلام العلم والفضل، إنه ابن العربي الفقيه الأندلسي، إحدى حلقات الوصل بين الأندلس وبين المشرق، وإحدى عجائب الأندلس فضلاً ونبلاً وعلمًا..

وقفتُ متهيبًا أمام ذلك الجهبذ النحرير والعلامة الخطير، صاحب مشكلات الفكر والتفسير، ذلك الأندلسي العلم، عالي الفطن والهمم، فاستأذنت، وسلمت، وسألت زمرة الحضور قائلاً : صبح الله تلك الوجوه اللآلئ، بكل خير وبر ومكارم المعالي، **وتمثلت قول القائل :**

وحي الله فتيانا سماحا كسو عطفي من فخر ثيابا
ملائكة إذا حفوك يوما أحبك كل من تلقى وهابا

ثم قلت :هلا عرفتمونا يا ذوي الوجوه السماح بذلكم الشيخ المهيب، والعلامة الأريب، والألمعي الأديب ابن العربي :

فانتشط منهم فتىً عليه سيما الوقار، ومكن لشيخه كل إعظام وإكبار . .

وقال مبتدأ الحديث : يابن الياسين لابد أن تفرق بين من تسأل عنه (ابن العربي) وهو المحلىٰ بالألف واللام، ومن العلم والآداب بالتمام، وبين ذلك المدعو (ابن عربي) وهو المنكور فعلا والنكرة اسمًا، فهو صاحب الاتحاد والحلول ووحدة الأديان وهو الهاذي بما لا درىٰ، والقائل إثمًا مفترىٰ.

أما صاحبنا فهو ذلك الإمام الهمام محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري، ولد في إشبيلية ـ لما كانت كبرىٰ عواصم الأندلس ـ في

يوم الخميس ٢٢ من شهر شعبان سنة ٤٦٨هـ من بيت عظيم كريم يعد ثاني بيت في الفضل والمجد بعد بيت ملكها المعتمد بن عباد.

وكان أبوه عبدالله بن محمد العربي من وجوه علماء الدولة وكبار أعيانها، كما كان خاله أبو القاسم الحسن بن أبي حفص الهوزني في مكانة رفيعة من المجتمع الأندلسي(١).

قلت: هلا حدثتني عن مجمل رحلته إلى مصر في ذلك الوقت وفي هذا العصر، كم من العلماء لاقى؟

قال: هذا موجز بخبره يابن ياسين: توجه ابن العربي وأبوه قاصدين ديار مصر التي كان طريقهم عليها أيضًا عند انتهاء الرحلة، وكان الحكم في مصر عند وصولهما إليها آخر سنة ٤٨٥هـ للمستنصر أبي تميم معد حفيد الحاكم، وكان علماء أهل السنة قليلي الظهور، حتىٰ أن ابن العربي كان يذهب إلىٰ القرافة الصغرىٰ قريبًا من قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعي ليلقىٰ فيها شيخه مسند مصر القاضي أبا الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد الخلعي الموصلي الأصل المصري المولد الشافعي (٤٠٥ ـ ٤٩٢) ولهذا العالم ترجمة في حرف العين من «وفيات الأعيان» وفي «طبقات الشافعية» لابن السبكي (٣ : ٢٩٦) وفي «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي (٣ : ٣٩٨) وممن لقيهم في مصر وأخذ عنهم أبو الحسن بن شرف، ومهدي الوراق، وأبو الحسن بن داود الفارسي.

قلت: وماذا عن أخطار رحلته إلى مصر، حيث سمعنا أنه قد تحطمت سفينتهم وعظمت مصيبتهم فماذا عن ذلك الحدث الجلل..؟!

قال: نعم رحل ابن العربي وأهله قاصدين أرض الكنانة للنهل من علمها، والعب من فضلها ونيلها، فهاج البحر عليهم وكاد الماء يفنيهم، غير أن الله سلم.

وهذا وصف بارع لذلك الحدث الجلل بقلم ابن العربي نفسه، حيث يقول في كتابه قانون التأويل: «وقد سبق في علم الله أن يعظم علينا البحر بزواله، ويغرقنا في هوله، فخرجنا من البحر، خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل،

(١) مقدمة العواصم من القواصم لابن العربي، تحقيق العلامة: محب الدين الخطيب، لجنة الشباب المسلم، د.ت.

إلىٰ بيـوت بني كـعب بن سليم ـ ونـحن من السـغـب (أي : العطش)، علىٰ عطب (أي : الهلاك)، ومن العرىٰ في أقبح زي، وقد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها (أي : الجِلْد)، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها، فاحتزمناها أزرا، واشتملناها لفعًا تمجنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار، فعطف أميرهم علينا، فأوينا إليه فآوانا، وأطعمنا الله علىٰ يديه وسقانا وأكرم مثوانا، وكسانا بأمر حقير ضعيف، وفن من العلم ظريف، وشرحه أنَّا لما وقفنا علىٰ بابه، ألفيناه يدير أعواد الشاه(١)، فعل السامد اللاه، فدنوت منه في تلك الأطمار، وسمح لي حراسه إذ كنت من الصغر في حد يسمح فيه للأغمار، فقلت للبيادقة : الأمير أعلم من صاحبه، فلمحوني شزراً، وعظمت في عيونهم بعد أن كنت نزراً، وتقدم إلىٰ الأمير من نقل إليه الكلام، فاستدناني، فدنوت منه، وسألني : هل لي بما هم فيه بصر؟

فقلت : «لي فيه بعض نظر، سيبدو لك ويظهر، حرك تلك القطعة».

ففعل، وعارضه صاحبه، فأمرته أن يحرك أخرىٰ، وما زالت الحركات بينهم تترىٰ، حتىٰ هزمهم الأمير، وانقطع التدبير، فقالوا : ما أنت بصغير، وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الأمير منشداً :

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه ... وفي الهجر، فهو الدهر يرجو ويتقى

فقال : لعن الله أبا الطيب، أو يشك الرب؟!

قلت له في الحال : ليس كما ظن صاحبك أيها الأمير، إنما أراد بالرب هنا الصاحب، يقول : فالشاعر يقصد أن ألذ الهوىٰ ما كان المحب فيه من الوصال، وبلوغ الغرض من الآمال علىٰ ريب، فهو في وقته كله علىٰ رجاء لما يؤمله، وتقاة لما يقطع به، كما قال :

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا ... فأيـن حـلاوات الرسائل والكتب

ثم يقول ابن العربي : وأخذنا نضيف إلىٰ ذلك من الأغراض، في طرفي الإبرام والانتقاض، ما حرك منهم إلىٰ جهتي داعي الانتهاض، وأقبلوا

(١) أي يلعب الشطرنج .

يتعجبون مني، ويسألونني كم سني؟ ويكشفونني عني، فبقرت لهم حديثي، وذكرت لهم نجيثي[١]، وأعلمت الأمير بأن أبي معي، فاستدعاه، وقمنا الثلاثة إلىٰ مثواه. فخلع علينا خلعه، وأسبل علينا أدمعه، وجاء كل خوان، بأفنان الألوان.

فانظر إلىٰ هذا العلم الذي هو إلىٰ الجهل أقرب، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب، كيف أنقذانا من العطب[٢]، وهذا الذي يرشدكم ـ إن غفلتم ـ إلىٰ الطلب وسرنا، حتىٰ انتهينا إلىٰ ديار مصر.

ꗳ : وماذا عن رحلته إلى بيت المقدس، هل علم الآن بحاله، وعلم بعدو اليهود على أهليه وافترائهم على ذويه، وكسرهم لبني الإسلام واستخفافهم بالأمة أجمع، بل إن قادتها لإسرائيل تذعن وتخضع؟

هل أتاه خبر الأقصى الحزين، المدنس على طهره من اليهود الملاعين؟!

قال المقري صاحب نفح الطيب : هدئ يابن ياسين من روعك، قد كان بيت المقدس حينها في عز عزيز، وفي مثل الذهب الإبريز، لا تسمع فيها لليهود همسًا ولاأذىٰ، ولم يقض الغرب بكونه لإسرائيل مهدًا ولحدًا، ولم يتآمر عليه عملاء العرب ممن باعوا دينهم وجمدوا إسلامهم تضرعًا للغرب وذلاً.

قلت له : هات يلعن الله كل متآمر على الأقصى وكل عاتٍ.

قال المقري : واصل ابن العربي رحلته مع أبيه إلىٰ بيت المقدس وكان فيها أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الفهري ت ٥٢٠هـ من كبار علماء المالكية الأندلسيين وقد خرج كابن العربي لتحصيل علوم الشرق، فالتقيا هناك، في بيت المقدس، فلقيه فيها ابن العربي واستفاد منه كثيراً قبل مجيء الطرطوشي إلىٰ الإسكندرية.

ويقول ابن العربي : تذاكرت بالمسجد الأقصىٰ مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي حديث أبي ثعلبة المرفوع: «**إن من ورائكم أيامًا للعامل فيها أجر خمسين منكم**»، فقالوا: «منهم؟». فقال: «**بل منكم**» (أي: من الصحابة)

---

(١) نجيثي: أي سري وما أخفيه.

(٢) يقصد أن ما كان يتمتع به من علم وإن كان يسيراً قد أنجاهم من الهلاك، وفتح قلب الأمير لهم.

لأنكم تجدون على الخير أعوانا، وهم لا يجدون عليه أعوانا»(١) .

وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام، وعضدوا الدين، وأقاموا المنار، واقتحموا الأمصار، وحموا البيضة، ومهدوا الملة، وقد قال ﷺ : «**لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه**»(٢) .

فتراجعنا القول، وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح وخلاصته : إن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام، وهو أيضا انتهاؤه، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف، وباع نفسه في الدعاء إليه، كان له من الأجر أضعاف ماكان لمن كان متمكنًا منه معاناً عليه بكثرة الدعاة إلى الله . . . إلخ .

وفي بيت المقدس أيضًا لقي ابن الكازروني وقال عنه : «إنه كان يأوي إلى المسجد الأقصى، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى (أي في بيت لحم) فيسمع من الطور، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئًا دون قراءته إلا الإصغاء إليه» .

وتوغل ابن العربي في ربوع فلسطين وشرق الأردن، ونقل صاحب نفح الطيب(٣)، **قوله** : شاهدت المائدة بطور زيتا(٤) مراراً، وأكلت عليها ليلاً ونهاراً، وذكرت الله سبحانه فيها سراً وجهاراً، وكانت صخرة صلوداً لا تؤثر فيها المعاول، وكان الناس يقولون : مسخت صخرة، والذي عندي أنها صخرة في الأصل وقطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء، وكل ما حولها حجارة مثلها، وكان ماحولها محفوفاً بقصور، نحتت في ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) عن أبي ثعلبة الخشني، وقال الترمذي : «حسن غريب» .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) انظر : نفح الطيب ١/ ٣٤٠ .

(٤) طور زَيْتَا هو : جبل يقع شرقي المسجد الأقصى، وفيه قرية تعرف باسم الطور .

ومجالسها منها مقطوعة فيها، وقد كنت أخلو فيها كثيرا للدرس . . . إلخ .

قلت : حدثنا يابن العربي، عن لقياك لحجة الإسلام الغزالي، كيف كان حاله، وفيما دار بينكما الحديث؟

قال : والله إن في الغزالي لعجبًا، إنه جهبذ الشرق، أحيا الله به العلوم بإحيائه، ونبغ للفقهاء بزهده نابغة زهد وفضل، وجمع الله به بين الزهد والفقه والحكمة والعلم، ولقد لقيته في بغداد يحضر له أربع مئة عمامة من أكابر الناس، وحضرت دروسه وأخذت عنه ضمن جملة الناس .

ثم اتصلت به ولازمته بعدها، ثم لقيته بعدها متزهداً يجوب الصحراء معرضًا عن الدنيا وذويها ودار بيننا حديث أثبته في بعض كتبي .

وإنما قصده ابن العربي مستمتعًا في رحابه، وطالبًا للعلم في جَنَابِهْ، ومجتمعًا مع شيوخ الفضل والمجد من أمثال الطرطوشي وغيره كابن الكازروني .

فالتفتُ إلى المقري، وإلى ابن العماد الحنبلي..

وقلت : هلا حدثتماني عن لقيا ابن العربي بالغزالي وما دار فيها من حديث، إذ التقى علمان، وتقابل فرقدان، هما في العلم فرسا رهان، أخبراني وأعلماني.

قال المقري (١) عن (قانون التأويل) لابن العربي قال : «ورد علينا دانشمند ـ يعني الغزالي ـ فنزل برباط ابن سعد بإزاء المدرسة النظامية معرضًا عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشينا إليه، وعرضنا أمنيتنا عليه، وقلت له : أنت ضالتنا التي كنا ننشد، وإمامنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة . . . إلخ» .

ثم قال ابن العماد الحنبلي (٢) : قال : وذكر الشيخ علاء الدين علي بن الصيرفي في كتابه زاد السالكين : أن القاضي أبا بكر بن العربي قال : «رأيت الغزالي في البرية وبيده عكازة وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة، وقد كنت

---

(١) نفح الطيب، ٣/ ٩١ .

(٢) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ١٣/ ٤ .

رأيته في بغداد يحضر درسه أربع مئة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم، فدنوت منه فسلمت عليه وقلت له : يا إمام، أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا؟ فنظر إلىٰ شزرا وقال : لما طلع بدر السعادة في فلك الإرادة (أو قال : في سماء الإرادة) وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول :

تركت هوى ليلى وسعدي بمنزل ... وعدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بي الأشواق : مهلا فهذه ... منازل من تهوى، رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا دقيقا، فلم أجد ... لغزلي نساجا، فكسرت مغزلي

قلت : يا بن المقري، هلا حدثتنا أنت ومترجمو ومؤرخو علماء الأندلس عن مكانة ابن العربي في الأندلس الخصيب، كيف لقيه الناس بعد عودته من المشرق، وبعد حوزته لعلم المشارقة وأدبهم ومناهجهم؟

قال المؤرخون (١) : اسمع يابن ياسين ذاك الخبر المبين :

لما وصل ابن العربي إلىٰ وطنه إشبيلية كان الحكم فيها لا يزال ليوسف بن تاشفين، واستمر علىٰ ذلك إلىٰ أن مات سنة ٥٠٠، فاستقبل العلماء ورجال الثقافة والأدب في إشبيلية وما جاورها من عواصم الأندلس هذا الغائب القادم بعلوم المشرق استقبالاً لا نظير له، وقصده طلاب العلم وأذكياء الأندلس من كل حدب وصوب، وتحول منزله إلىٰ جامعة، وعقدت له حلقات الدرس في الجوامع .

وكان ممن أخذ عنه وتلقى عليه طائفة من كبار علماء الإسلام منهم: قاضي المغرب وحافظه القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي مؤلف (الشفا) و(مشارق الأنوار)، وابنه القاضي محمد بن عياض، والحافظ المؤرخ أبو القاسم خلف ابن عبدالملك بن بشكوال، والإمام الزاهد العابد أبو عبدالله محمد بن أحمد بن مجاهد الإشبيلي، وأبو جعفر بن الباذش .

(١) في جملتهم .

قلت : وماذا عن توليه القضاء، وسيرته بين الناس بالعدل والفضل وشهادات العلماء فيه؟!

قال مترجموه: وكان لا يباح للعالم في الأندلس أن يفتي إلا إذا استظهر (الموطأ) والمدونة أو عشرة آلاف حديث، وفي هذا الدور كان ابن العربي قد بلغ القمة في مكانته العلمية بما ظهر من مؤلفاته العظيمة، وما انتشر في ربوع الأندلس والمغرب من تلاميذه ومريديه، فدعي في رجب سنة ٥٢٨هـ لتولي القضاء في إشبيلية، وقد اجتمعت كلمة الذين تحدثوا عنه كالقاضي عياض، وابن بشكوال، وابن سعيد، وجميع مؤرخي الأندلس على أنه كان مثال العدل والاستقامة وحسن القيام بأمر القضاء.

قال القاضي عياض : فنفع الله به أهل إشبيلية لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهقة، مع الرفق بالمساكين، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستمر في هذه المدة على إلقاء دروسه مع القيام بأمر القضاء ومواصلة التأليف، إلا أن وقته أصبح ضيقًا حتى اضطر تلميذه الإمام الزاهد العابد أبو عبدالله الإشبيلي إلى أن ينقطع عن درسه، فقيل له في ذلك، فقال : «كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان».

قلت : أما إنه لا يخلو الأسد من حاسد، ولا تنصرف عن الجواهر عين حاقد، ولله القائل :

إن الأُسُودَ تراها ذا مُحَسَّدةً ولن ترى لِلئامِ النَّاسِ حُسَّاداً

فماذا عن حاسديه ومبغضيه، وماذا عن تلك البلايا والرزايا التي حاكوها حوله كما يحوك العلمانيون أشركة السوء ويملؤون الدنيا زعيقًا وضجيجًا حول الإسلاميين، حقداً وحسداً من أنفسهم...؟!

قال مترجموه : إن المكانة التي وصل إليها ابن العربي في العلم وعزته وسيادته على القلوب، قبل ولايته القضاء ـ كانت مثار الحسد له من العلماء الرسميين الذين يتاجرون بقشور العلم ليبنوا بها دنياهم، فلما ازدادت مكانته رفعة بالقضاء، مضى فيه مجاهداً في سبيل العدل والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلها من سبيل الله، يجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن

المعاشرة، ولين الكنف، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود، فازداد غيظ حاسديه، واشتد ضغن صغار النفوس عليه، ولا سيما أهل الجور والظلم والغصب ومن كان شديد الأحكام عليهم والأخذ منهم للمظلومين، منضماً إليهم أهل المجون والفسقة الذين تناولهم ابن العربي بطريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وماكان أكثر أهل المجون يومئذ في إشبيلية، إلا أن أعداءه ومبغضي طريقته أثاروا العامة عليه بأساليبهم الخبيثة حتىٰ نابه بداره في أحد الأيام مثل الذي ناب أمير المؤمنين عثمان بن عفان لما تألب البغاة عليه وهاجموه في داره.

ولا شك أن هذه الحادثة وقعت له في آخر ولايته للقضاء، وقد أشار إليها في كتابه هذا «العواصم من القواصم» الذي ألفه في سنة ٥٣٦هـ، فهي إذن وقعت بعد سنة ٥٣٠هـ وقبل سنة ٥٣٦ هـ، وقد قال في كتابه هذا يصفها: «ولقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتىٰ لم يك في الأرض منكر، واشتد الخطب، علىٰ أهل الغصب، وعظم علىٰ الفسقة الكرب، فتألبوا وألبوا وثاروا إليَّ، فاستسلمت لأمر الله وأمرت كل من حولي ألا يدفعوا عن داري، وخرجت علىٰ السطوح بنفسي فعاثوا عليَّ، ولولا ما سبق من حسن المقدار، لكنت قتيل الدار، **وكان الذي حملني على ذلك ثلاثة أمور**:

أحدها: وصاية النبي ﷺ (أي بالكف عن القتل في الفتنة).

الثاني: الاقتداء بعثمان.

والثالث: سوء الأحدوثة التي فر منها رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي»(١).

فنكب ابن العربي في هذه الثورة ونهبت كتبه كلها، وانصرف أو صرف عن القضاء، وتحول مؤقتاً إلىٰ قرطبة، وكان له فيها تلاميذ ومريدون، فازداد بهذه الرحلة تلاميذه، وكان من حكمة الله في هذه النازلة أن تفرغ ابن العربي للعلم، وواصل إكمال مؤلفاته الكبيرة.

---

(١) يشير إلىٰ ما كان من ابن سلول عند عودة النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق، وقول ابن سلول: «إذا رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»، فلمَّا أراد عمر أن يقتله نهاه النبي ﷺ عن ذلك وقال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».

قلت : **فماذا عن إنتاج ابن العربي العلمي والأدبي بعد رحلاته وتوليه منصب القضاء واعتلائه بساط الفتيا، والتدريس..؟ وهو لعمري نتاج وفير غزير لايزال شاهداً على علو كعبه في العلوم وتبحره في مختلف الفنون فلله دره حيًا وميتًا.**

قالوا : صدقت يابن الياسين إن روائع إنتاج ابن العربي لا تزال شاهدة بفضله وعظمته، وسعة اطلاعه وإلمامه بالعلوم واستحقاقه لمنصب القضاء والفتيا، وهاك طرفًا منها :

١ ـ أنوار الفجر في تفسير القرآن. وقد ألفه في عشرين سنة وبلغ ثمانين ألف ورقة أي (مائة ألف وستين ألف صفحة) وكان في تسعين مجلداً.

٢ ـ قانون التأويل في تفسير القرآن، كتاب كبير، كان موجوداً ومنتشراً إلىٰ القرن الحادي عشر الهجري ونقل عنه المقري في نفح الطيب، ونقلنا عنه شيئًا منه في هذه الترجمة.

٣ ـ أحكام القرآن. كتاب نفيس طبعه سلطان المغرب مولاي عبدالحفيظ في إحدىٰ المطابع المصرية.

٤ ـ الناسخ والمنسوخ في القرآن.

٥ ـ كتاب المشكلين، مشكل الكتاب ومشكل السنة.

٦ ـ كتاب النيرين، في الصحيحين.

٧ ـ القبس، في شرح موطأ مالك بن أنس. وهو من أواخر مؤلفاته ذكر فيه تفسيره (أنوار الفجر).

٨ ـ ترتيب المسالك، في شرح موطأ مالك.

٩ ـ عارضة الأحوذي، في شرح الترمذي، وهو من أول مؤلفاته.

١٠ ـ شرح حديث جابر في الشفاعة.

١١ ـ حديث الإفك.

١٢ ـ العواصم من القواصم.

١٣ ـ شرح حديث أم زرع.

١٤ ـ الكلام علىٰ مشكل حديث السبحات والحجاب.

وفي خلال اشتغال ابن العربي بالتدريس والتأليف في العشر الأواخر من سني حياته، كان يتردد عليه الأدباء، ويساجلهم الأدب والشعر بقريحة وقَّادة، وبيان جزل، ولا يتسع هذا المقام لوصف مقامه الأدبي، ونكتفي بإيراد المثل الآتي لهذه الناحية :

دخل عليه الأديب ابن صارة الشنتريني وبين يدي القاضي أبي بكر نار علاها رماد، فقال لابن صارة : قل في هذه، فقال :

شابت نَوَاصي النَّارِ بعد سَوَادِها وَتَسَتَّرَتْ عَنَّا بِثَوْبِ رَمَادِ

ثم قال لابن العربي : أجز، فقال ابن العربي :

شابت كما شبنا وزال شبابنا فكأنما كنا على ميعاد

قلت : يا علماء الأندلس، أين ذلكم الوصف الجامع والقول النهائي اللامع في وصف علامة الجزيرة الخضراء، وإحقائه في شيمه ومناقبه العليا، أريد حاصل القول، وجوهر الحكم على فضله وأدبه..؟!

فانتهض إلي وصَّافُ أَدَبِ أدباء الأندلس الوزير أبو نصر الفتح بن خاقان القيسي في كتابه «المطامح» فباح في غير لجج، وانتهض كأنما استبدت به الحجج.

وقال : اسمع يابن الياسين هذا الوصف المبين عن شيخ الأندلس وعلاَّمتها ابن العربي «علم الأعلام، الطاهر الأثواب، الباهر الألباب، الذي أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وانتجع الفرع من الأصل، وغدا في يد الإسلام أمضى من النصل، سقى الله به الأندلس بعدما أجدبت من المعارف ومد عليها منه الظل الوارف، فكساها رونق نبله، وسقاها ريق وبله، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدراً في فلكها، وصدراً في مجلس ملكها، واصطفاه معتمد بني عباد، اصطفاء المأمون لابن أبي داود، وولاه الولايات الشريفة، وبوأه المراتب المنيفة، فلما أقفرت حمص من ملكهم، وخلت وألقتهم منها وتخلت، رحل به إلى المشرق، وحل فيه محل الخائف الفر، فجال في أكنافه، وأجال قداح الرجاء في استقبال العز واستئنافه، فلم يسترد ذاهباً، ولم يجد كمعتمده باذلا له وواهباً.

فعاد إلىٰ الرواية والسماع، وما استفاد من إجالة تلك الأطماع، وأبو بكر إذ ذاك في ثرىٰ الذكاء قضيبٌ ما دوَّح، وفي روض الشباب زهر ما صوَّح، فألزمه مجالس العلم رائحًا وغاديًا، ولازمه سائقًا إليها وحاديًا، حتىٰ استقرت به مجالسه، واطردت له مقايسه، فجد في طلبه، واستجد به أبوه منخرق أربه. ثم أدركه جمامه، ووارته هناك رجامه، وبقي أبو بكر منفرداً، وللطلب متجرداً.

حتىٰ أصبح في العلم وحيداً، ولم تجد عنه الرياسة محيداً، فكر إلىٰ الأندلس فحلها والنفوس إليه متطلعة، ولأنبائه متسمعة، فناهيك من حظوة لقىٰ، ومن عزة سقىٰ، ومن رفعة سما إليها ورقىٰ، وحسبك من مفاخر قلدها، ومن محاسن أنس أنبتها فيها وخلدها».

قلت: وماذا عن تواليف ابن العربي ممن شاع انتشاره، وذاع صيته، واتسع فضله، وعم نفعه الآفاق، وساد بين العباد، وغطت بفضله البلاد؟

قال مترجموه: إن له من الفضل الكثير الوفير يكفي كتابه أحكام القرآن ذاك الكتاب النفيس الأوحد، وإنما نشير في مقامنا هذا إلىٰ كتابه الأعظم الذي وأد الله به البدعة ورفع به رأس السنة ألا هو كتاب «العواصم من القواصم» في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ حيث أشار فيه إلىٰ:

١ ـ عدول الصحابة وكونهم وارثو علم النبي ﷺ فرضي الله عنهم.

٢ ـ خطأ ادعاء ارتداد الصحابة أو نكوثهم بعد وفاة النبي وتفنيد ما وضع عليهم ودحض تأويلات الأحداث التي وقعت بعد وفاته بما يسيء إليهم.

قلت: وماذا عن أهم عواصمه التي كسرت قواصم ما ادعى به المدعون على أصحاب رسول الله ﷺ؟

فانتهض لي ذاك الشيخ المعظم، خادم السنة وباذل نفسه وملسه وقلمه للدفاع عنها أعني به العلامة الشامي المصري معًا **محب الدين الخطيب** صاحب تحقيق الكتاب:

وقال: لله درك يابن الياسين، دونك إشارات عجلىٰ تناسب المقام عن عواصم وقواصم الكتاب، فارعني سمعك، وأحد بصرك، وأعمل بصيرتك ودونك هي موجزة كلقائط الدر:

- (عاصمة) تدارك الله الإسلام والأنام بأبي بكر .
- رباطة جأش أبي بكر في اليوم الرهيب : وداعه النبي ﷺ، خطبته بالمسجد .
- وصف إجمالي لدعاة الفتنة الذين قاموا علىٰ عثمان .
- (قاصمة) : المظالم والمناكير التي ادعوها علىٰ عثمان .
- (عاصمة) : موقف عثمان من عبدالله بن مسعود .
- موقفه في سقيفة بني ساعدة .
- خلافة الصديق واستخلاف عمر .
- موقفه من مانعي الزكاة .
- تنظيمه جيش الخلافة، وحسن اختياره القواد والعمال .
- حديث «لانورث ما تركنا صدقة» .
- حديث «لا يدفن نبي إلا حيث يموت» .
- استخلاف عمر .
- جعل عمر الأمر شورىٰ في اختيار الخليفة بعده .
- خلافة عثمان ودعاة الفتنة .
- سجايا عثمان وصفاته الممتازة ومكانته العالية في الإسلام .
- حديث : «إن عمر شهيد وعثمان شهيد وله الجنة علىٰ بلوىٰ تصيبه» .
- (قاصمة) : اجتماع أصحاب الجمل بمكة وخروجهم إلىٰ البصرة .
- خرافة «الحوأب» وشهادة الزور .
- (عاصمة) : مجيء أصحاب الجمل إلىٰ البصرة لتأليف الكلمة، والتوصل بذلك إلىٰ إقامة الحد علىٰ قتلة عثمان .
- (قاصمة) حرب صفين، ودعوىٰ الفريقين، وما اخترع في ذلك من أكاذيب .
- (عاصمة) : موقف علي من قتلة عثمان، لو حاكم أولياء عثمان قتلته عند علي عقب البيعة له لحكم لهم، ولكن هل كان في الإمكان تنفيذ الحكم عليهم .
- (عاصمة) : كتب التاريخ الإسلامي ألفت بعد بني أمية فشوهها الهوىٰ .

- (قاصمة) : احتجاج الشيعة بحديث غدير خم ودعاء «وال من والاه» .
- افتراء الشيعة علىٰ أبي بكر وعمر وعثمان وعبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهم .
- تفسيقهم أهل الشام وتكفيرهم لهم .
- (نكتة) : للولايات والعزلات معان وحقائق لا يعرفها كثير من الناس .
- وحدة الأمة الإسلامية والتفريق بينها .
- (قاصمة) : اجتماع العرب بالإسلام ، وافتراق المسلمين بعد النبي ﷺ .
- ظهور الأحزاب البكرية والعمرية والعثمانية والعلوية والعباسية .
- (عاصمة) : تحذير المسلمين من أهواء المفسرين والمؤرخين وأهل الآداب .
- ابن قتيبة بريء من كتاب (الإمامة والسياسة) .
- تشيع المسعودي وميل المبرد للخوارج ، واعتدال ثعلب .
- احتجاج مالك بقضاء عبدالملك بن مروان ، والتعريف بإمامته وفقهه .
- الأئمة الذين رووا عن عبدالملك ، وإقرار ابن عمر له بالسمع والطاعة .
- ما نسب إلىٰ الأمويين أهون من قول المأمون بخلق القرآن ، وسماح العباسيين بقراءة كتب الجاحظ في المساجد مع ما فيها من مناكير .
- (عاصمة) : علي لم يعهد إلىٰ الحسن ، لكن البيعة للحسن منعقدة .
- حكاية الصلح بين الحسن ومعاوية كما يرويها البخاري .
- بيعة الحسن لمعاوية ، وانعقاد الخلافة لمعاوية بذلك .
- (قاصمة التحكيم) : وأن الصحيح فيها ما رواه الدارقطني وخليفة بن خياط ؛ العراقيون جاؤوا بأبي موسىٰ ؛ لأنه كان ناصحًا بالدعوة إلىٰ السلم .

٧ ـ ابن العربي.. الإمام الهُمام

(٤٥٣ ـ ٤٨٦ هـ / ١٠٧٦ ـ ١١٤٨م)

اسمه : محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري.

ولد في : أشبيلية سنة ٤٦٨هـ .

محطتنا هذه مع علم من أعلام العلم والفضل، إنه ابن العربي الفقيه الأندلسي، إحدى حلقات الوصل بين الأندلس وبين المشرق، وإحدى عجائب الأندلس فضلاً ونبلاً وعلماً..

وقفتُ متهيبًا أمام ذلك الجهبذ النحرير والعلامة الخطير ، صاحب مشكلات الفكر والتفسير ، ذلك الأندلسي العلم ، عالي الفطن والهمم ، فاستأذنت ، وسلمت ، وسألت زمرة الحضور قائلاً : صبح الله تلك الوجوه اللآلئ ، بكل خير وبر ومكارم المعالي ، **وتمثلت قول القائل :**

وحي الله فتيانا سماحا　　كسو عطفي من فخر ثيابا

ملائكة إذا حفوك يوما　　أحبك كل من تلقى وهابا

ثم قلت :هلا عرفتمونا يا ذوي الوجوه السماح بذلكم الشيخ المهيب، والعلامة الأريب، والألمعي الأديب ابن العربي :

فانتشط منهم فتىٰ عليه سيما الوقار ، ومكن لشيخه كل إعظام وإكبار . .

وقال مبتدأ الحديث : يابن الياسين لابد أن تفرق بين من تسأل عنه (ابن العربي) وهو المحلىٰ بالألف واللام ، ومن العلم والآداب بالتمام ، وبين ذلك المدعو (ابن عربي) وهو المنكور فعلا والنكرة اسمًا ، فهو صاحب الاتحاد والحلول ووحدة الأديان وهو الهاذي بما لا درىٰ ، والقائل إثمًا مفترىٰ .

أما صاحبنا فهو ذلك الإمام الهمام محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري ، ولد في إشبيلية ـ لما كانت كبرىٰ عواصم الأندلس ـ في

يوم الخميس ٢٢ من شهر شعبان سنة ٤٦٨هـ من بيت عظيم كريم يعد ثاني بيت في الفضل والمجد بعد بيت ملكها المعتمد بن عباد.

وكان أبوه عبدالله بن محمد العربي من وجوه علماء الدولة وكبار أعيانها، كما كان خاله أبو القاسم الحسن بن أبي حفص الهوزني في مكانة رفيعة من المجتمع الأندلسي(١).

قلت: هلا حدثتني عن مجمل رحلته إلى مصر في ذلك الوقت وفي هذا العصر، كم من العلماء لاقى؟

قال: هذا موجز بخبره يابن ياسين: توجه ابن العربي وأبوه قاصدين ديار مصر التي كان طريقهم عليها أيضًا عند انتهاء الرحلة، وكان الحكم في مصر عند وصولهما إليها آخر سنة ٤٨٥ هـ للمستنصر أبي تميم معد حفيد الحاكم، وكان علماء أهل السنة قليلي الظهور، حتىٰ أن ابن العربي كان يذهب إلىٰ القرافة الصغرىٰ قريبًا من قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعي ليلقىٰ فيها شيخه مسند مصر القاضي أبا الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد الخلعي الموصلي الأصل المصري المولد الشافعي (٤٠٥ ـ ٤٩٢) ولهذا العالم ترجمة في حرف العين من «وفيات الأعيان» وفي «طبقات الشافعية» لابن السبكي (٣ : ٢٩٦) وفي «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي (٣ : ٣٩٨) وممن لقيهم في مصر وأخذ عنهم أبو الحسن بن شرف، ومهدي الوراق، وأبو الحسن بن داود الفارسي.

قلت: وماذا عن أخطار رحلته إلى مصر، حيث سمعنا أنه قد تحطمت سفينتهم وعظمت مصيبتهم فماذا عن ذلك الحدث الجلل..؟!

قال: نعم رحل ابن العربي وأهله قاصدين أرض الكنانة للنهل من علمها، والعب من فضلها ونيلها، فهاج البحر عليهم وكاد الماء يفنيهم، غير أن الله سلم.

وهذا وصف بارع لذلك الحدث الجلل بقلم ابن العربي نفسه، حيث يقول في كتابه قانون التأويل: «وقد سبق في علم الله أن يعظم علينا البحر بزواله، ويغرقنا في هوله، فخرجنا من البحر، خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل،

(١) مقدمة العواصم من القواصم لابن العربي، تحقيق العلامة: محب الدين الخطيب، لجنة الشباب المسلم، د.ت.

إلىٰ بيوت بني كعب بن سليم ـ ونحن من السغب (أي : العطش)، علىٰ عطب (أي : الهلاك)، ومن العرىٰ في أقبح زي، وقد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها (أي : الجِلْد)، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها، فاحتزمناها أزرا، واشتملناها لفعًا تمجنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار، فعطف أميرهم علينا، فأوينا إليه فآوانا، وأطعمنا الله علىٰ يديه وسقانا وأكرم مثوانا، وكسانا بأمر حقير ضعيف، وفن من العلم ظريف، وشرحه أنَّا لما وقفنا علىٰ بابه، ألفيناه يدير أعواد الشاه[1]، فعل السامد اللاه، فدنوت منه في تلك الأطمار، وسمح لي حراسه إذ كنت من الصغر في حد يسمح فيه للأغمار، فقلت للبيادقة : الأمير أعلم من صاحبه، فلمحوني شزراً، وعظمت في عيونهم بعد أن كنت نزراً، وتقدم إلىٰ الأمير من نقل إليه الكلام، فاستدناني، فدنوت منه، وسألني : هل لي بما هم فيه بصر؟

فقلت : «لي فيه بعض نظر، سيبدو لك ويظهر، حرك تلك القطعة».

ففعل، وعارضه صاحبه، فأمرته أن يحرك أخرىٰ، وما زالت الحركات بينهم تترىٰ، حتىٰ هزمهم الأمير، وانقطع التدبير، فقالوا : ما أنت بصغير، وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الأمير منشداً :

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه وفي الهجر، فهو الدهر يرجو ويتقى

فقال : لعن الله أبا الطيب، أو يشك الرب؟!

قلت له في الحال : ليس كما ظن صاحبك أيها الأمير، إنما أراد بالرب هنا الصاحب، يقول : فالشاعر يقصد أن ألذ الهوىٰ ما كان المحب فيه من الوصال، وبلوغ الغرض من الآمال علىٰ ريب، فهو في وقته كله علىٰ رجاء لما يؤمله، وتقاة لما يقطع به، كما قال :

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب

ثم يقول ابن العربي : وأخذنا نضيف إلىٰ ذلك من الأغراض، في طرفي الإبرام والانتقاض، ما حرك منهم إلىٰ جهتي داعي الانتهاض، وأقبلوا

---

(١) أي يلعب الشطرنج .

يتعجبون مني، ويسألونني كم سني؟ ويكشفونني عني، فبقرت لهم حديثي، وذكرت لهم نجيثي(١)، وأعلمت الأمير بأن أبي معي، فاستدعاه، وقمنا الثلاثة إلىٰ مثواه. فخلع علينا خلعه، وأسبل علينا أدمعه، وجاء كل خوان، بأفنان الألوان.

فانظر إلىٰ هذا العلم الذي هو إلىٰ الجهل أقرب، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب، كيف أنقذانا من العطب(٢)، وهذا الذي يرشدكم ـ إن غفلتم ـ إلىٰ الطلب وسرنا، حتىٰ انتهينا إلىٰ ديار مصر.

ꕤ : وماذا عن رحلته إلى بيت المقدس، هل علم الآن بحاله، وعلم بعدو اليهود على أهليه وافترائهم على ذويه، وكسرهم لبني الإسلام واستخفافهم بالأمة أجمع، بل إن قادتها لإسرائيل تذعن وتخضع؟

هل أتاه خبر الأقصى الحزين، المدنس على طهره من اليهود الملاعين؟!

قال المقري صاحب نفح الطيب : هدئ يابن ياسين من روعك، قد كان بيت المقدس حينها في عز عزيز، وفي مثل الذهب الإبريز، لا تسمع فيها لليهود همسًا ولاأذىٰ، ولم يقض الغرب بكونه لإسرائيل مهدًا ولحدًا، ولم يتآمر عليه عملاء العرب ممن باعوا دينهم وجمدوا إسلامهم تضرعًا للغرب وذلاً.

قلت له : هات يلعن الله كل متآمر على الأقصى وكل عاتٍ.

قال المقري : واصل ابن العربي رحلته مع أبيه إلىٰ بيت المقدس وكان فيها أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الفهري ت ٥٢٠هـ من كبار علماء المالكية الأندلسيين وقد خرج كابن العربي لتحصيل علوم الشرق، فالتقيا هناك، في بيت المقدس، فلقيه فيها ابن العربي واستفاد منه كثيراً قبل مجيء الطرطوشي إلىٰ الإسكندرية.

ويقول ابن العربي : تذاكرت بالمسجد الأقصىٰ مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي حديث أبي ثعلبة المرفوع: «**إن من ورائكم أيامًا للعامل فيها أجر خمسين منكم**»، فقالوا: «منهم؟». فقال: «**بل منكم**» (أي: من الصحابة)

---

(١) نجيثي: أي سري وما أخفيه.

(٢) يقصد أن ما كان يتمتع به من علم وإن كان يسيراً قد أنجاهم من الهلاك، وفتح قلب الأمير لهم.

لأنكم تجدون على الخير أعوانا، وهم لا يجدون عليه أعوانا»(١) .

وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام، وعضدوا الدين، وأقاموا المنار، واقتحموا الأمصار، وحموا البيضة، ومهدوا الملة، وقد قال ﷺ : «**لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه**»(٢) .

فتراجعنا القول، وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح وخلاصته : إن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام، وهو أيضا انتهاؤه، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف، وباع نفسه في الدعاء إليه، كان له من الأجر أضعاف ماكان لمن كان متمكنًا منه معاناً عليه بكثرة الدعاة إلى الله . . . إلخ .

وفي بيت المقدس أيضًا لقي ابن الكازروني وقال عنه : «إنه كان يأوي إلى المسجد الأقصى، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى (أي في بيت لحم) فيسمع من الطور، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئًا دون قراءته إلا الإصغاء إليه» .

وتوغل ابن العربي في ربوع فلسطين وشرق الأردن، ونقل صاحب نفح الطيب(٣)، **قوله** : شاهدت المائدة بطور زيتا(٤) مراراً، وأكلت عليها ليلاً ونهاراً، وذكرت الله سبحانه فيها سراً وجهاراً، وكانت صخرة صلوداً لا تؤثر فيها المعاول، وكان الناس يقولون : مسخت صخرة، والذي عندي أنها صخرة في الأصل وقطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء، وكل ما حولها حجارة مثلها، وكان ماحولها محفوفاً بقصور، نحتت في ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) عن أبي ثعلبة الخشني، وقال الترمذي : «حسن غريب» .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) انظر : نفح الطيب ١/ ٣٤٠ .

(٤) طور زَيْتَا هو : جبل يقع شرقي المسجد الأقصى، وفيه قرية تعرف باسم الطور .

ومجالسها منها مقطوعة فيها، وقد كنت أخلو فيها كثيرا للدرس. . . إلخ.

قلت: حدثنا يابن العربي، عن لقياك لحجة الإسلام الغزالي، كيف كان حاله، وفيما دار بينكما الحديث؟

قال: والله إن في الغزالي لعجبًا، إنه جهبذ الشرق، أحيا الله به العلوم بإحيائه، ونبغ للفقهاء بزهده نابغة زهد وفضل، وجمع الله به بين الزهد والفقه والحكمة والعلم، ولقد لقيته في بغداد يحضر له أربع مئة عمامة من أكابر الناس، وحضرت دروسه وأخذت عنه ضمن جملة الناس.

ثم اتصلت به ولازمته بعدها، ثم لقيته بعدها متزهداً يجوب الصحراء معرضًا عن الدنيا وذويها ودار بيننا حديث أثبته في بعض كتبي.

وإنما قصده ابن العربي مستمتعًا في رحابه، وطالبًا للعلم في جَنَابِهْ، ومجتمعًا مع شيوخ الفضل والمجد من أمثال الطرطوشي وغيره كابن الكازروني.

فالتفتُ إلى المقري، وإلى ابن العماد الحنبلي..

وقلت: هلا حدثتماني عن لقيا ابن العربي بالغزالي وما دار فيها من حديث، إذ التقى علمان، وتقابل فرقدان، هما في العلم فرسا رهان، أخبراني وأعلماني.

قال المقري (١) عن (قانون التأويل) لابن العربي قال: «ورد علينا دانشمند ـ يعني الغزالي ـ فنزل برباط ابن سعد بإزاء المدرسة النظامية معرضًا عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشينا إليه، وعرضنا أمنيتنا عليه، وقلت له: أنت ضالتنا التي كنا ننشد، وإمامنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة. . . إلخ».

ثم قال ابن العماد الحنبلي (٢): قال: وذكر الشيخ علاء الدين علي بن الصيرفي في كتابه زاد السالكين: أن القاضي أبا بكر بن العربي قال: «رأيت الغزالي في البرية وبيده عكازة وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة، وقد كنت

---

(١) نفح الطيب، ٣/ ٩١.
(٢) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ١٣/ ٤.

رأيته في بغداد يحضر درسه أربع مئة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم، فدنوت منه فسلمت عليه وقلت له: يا إمام، أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا؟ فنظر إلىٰ شزرا وقال: لما طلع بدر السعادة في فلك الإرادة (أو قال: في سماء الإرادة) وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول:

تركت هوى ليلى وسعدي بمنزل — وعدت إلى تصحيح أول منزل

ونادت بي الأشواق: مهلا فهذه — منازل من تهوى، رويدك فانزل

غزلت لهم غزلا دقيقا، فلم أجد — لغزلي نساجا، فكسرت مغزلي

قلت: يا بن المقري، هلا حدثتنا أنت ومترجمو ومؤرخو علماء الأندلس عن مكانة ابن العربي في الأندلس الخصيب، كيف لقيه الناس بعد عودته من المشرق، وبعد حوزته لعلم المشارقة وأدبهم ومناهجهم؟

قال المؤرخون (١): اسمع يابن ياسين ذاك الخبر المبين:

لما وصل ابن العربي إلىٰ وطنه إشبيلية كان الحكم فيها لا يزال ليوسف بن تاشفين، واستمر علىٰ ذلك إلىٰ أن مات سنة ٥٠٠، فاستقبل العلماء ورجال الثقافة والأدب في إشبيلية وما جاورها من عواصم الأندلس هذا الغائب القادم بعلوم المشرق استقبالاً لا نظير له، وقصده طلاب العلم وأذكياء الأندلس من كل حدب وصوب، وتحول منزله إلىٰ جامعة، وعقدت له حلقات الدرس في الجوامع.

وكان ممن أخذ عنه وتلقى عليه طائفة من كبار علماء الإسلام منهم: قاضي المغرب وحافظه القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي مؤلف (الشفا) و(مشارق الأنوار)، وابنه القاضي محمد بن عياض، والحافظ المؤرخ أبو القاسم خلف ابن عبدالملك بن بشكوال، والإمام الزاهد العابد أبو عبدالله محمد بن أحمد بن مجاهد الإشبيلي، وأبو جعفر بن الباذش.

---

(١) في جملتهم.

قلت : وماذا عن توليه القضاء، وسيرته بين الناس بالعدل والفضل وشهادات العلماء فيه؟!

قال مترجموه: وكان لا يباح للعالم في الأندلس أن يفتي إلا إذا استظهر (الموطأ) والمدونة أو عشرة آلاف حديث، وفي هذا الدور كان ابن العربي قد بلغ القمة في مكانته العلمية بما ظهر من مؤلفاته العظيمة، وما انتشر في ربوع الأندلس والمغرب من تلاميذه ومريديه، فدعي في رجب سنة ٥٢٨هـ لتولي القضاء في إشبيلية، وقد اجتمعت كلمة الذين تحدثوا عنه كالقاضي عياض، وابن بشكوال، وابن سعيد، وجميع مؤرخي الأندلس على أنه كان مثال العدل والاستقامة وحسن القيام بأمر القضاء.

قال القاضي عياض : فنفع الله به أهل إشبيلية لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهقة، مع الرفق بالمساكين، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستمر في هذه المدة على إلقاء دروسه مع القيام بأمر القضاء ومواصلة التأليف، إلا أن وقته أصبح ضيقًا حتى اضطر تلميذه الإمام الزاهد العابد أبو عبدالله الإشبيلي إلى أن ينقطع عن درسه، فقيل له في ذلك، فقال : «كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان».

قلت : أما إنه لا يخلو الأسد من حاسد، ولا تنصرف عن الجواهر عين حاقد، ولله القائل :

إن الأُسُودَ تراها ذا مُحَسَّدةً ... ولـن تـرى لِلئـامِ النَّـاسِ حُسَّاداً

فماذا عن حاسديه ومبغضيه، وماذا عن تلك البلايا والرزايا التي حاكوها حوله كما يحوك العلمانيون أشركة السوء ويملؤون الدنيا زعيقًا وضجيجًا حول الإسلاميين، حقداً وحسداً من أنفسهم...؟!

قال مترجموه : إن المكانة التي وصل إليها ابن العربي في العلم وعزته وسيادته على القلوب، قبل ولايته القضاء ـ كانت مثار الحسد له من العلماء الرسميين الذين يتاجرون بقشور العلم ليبنوا بها دنياهم، فلما ازدادت مكانته رفعة بالقضاء، مضى فيه مجاهداً في سبيل العدل والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلها من سبيل الله، يجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن

المعاشرة، ولين الكنف، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود، فازداد غيظ حاسديه، واشتد ضغن صغار النفوس عليه، ولا سيما أهل الجور والظلم والغصب ومن كان شديد الأحكام عليهم والأخذ منهم للمظلومين، منضماً إليهم أهل المجون والفسقة الذين تناولهم ابن العربي بطريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وماكان أكثر أهل المجون يومئذ في إشبيلية، إلا أن أعداءه ومبغضي طريقته أثاروا العامة عليه بأساليبهم الخبيثة حتىٰ نابه بداره في أحد الأيام مثل الذي ناب أمير المؤمنين عثمان بن عفان لما تألب البغاة عليه وهاجموه في داره.

ولا شك أن هذه الحادثة وقعت له في آخر ولايته للقضاء، وقد أشار إليها في كتابه هذا «العواصم من القواصم» الذي ألفه في سنة ٥٣٦هـ، فهي إذن وقعت بعد سنة ٥٣٠هـ وقبل سنة ٥٣٦ هـ، وقد قال في كتابه هذا يصفها: «ولقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتىٰ لم يك في الأرض منكر، واشتد الخطب، علىٰ أهل الغصب، وعظم علىٰ الفسقة الكرب، فتألبوا وألبوا وثاروا إليَّ، فاستسلمت لأمر الله وأمرت كل من حولي ألا يدفعوا عن داري، وخرجت علىٰ السطوح بنفسي فعاثوا عليَّ، ولولا ما سبق من حسن المقدار، لكنت قتيل الدار، **وكان الذي حملني على ذلك ثلاثة أمور**:

أحدها: وصاية النبي ﷺ (أي بالكف عن القتل في الفتنة).

الثاني: الاقتداء بعثمان.

والثالث: سوء الأحدوثة التي فر منها رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي»(١).

فنكب ابن العربي في هذه الثورة ونهبت كتبه كلها، وانصرف أو صرف عن القضاء، وتحول مؤقتاً إلىٰ قرطبة، وكان له فيها تلاميذ ومريدون، فازداد بهذه الرحلة تلاميذه، وكان من حكمة الله في هذه النازلة أن تفرغ ابن العربي للعلم، وواصل إكمال مؤلفاته الكبيرة.

---

(١) يشير إلىٰ ما كان من ابن سلول عند عودة النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق، وقول ابن سلول: «إذا رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»، فلمَّا أراد عمر أن يقتله نهاه النبي ﷺ عن ذلك وقال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».

قلت : **فماذا عن إنتاج ابن العربي العلمي والأدبي بعد رحلاته وتوليه منصب القضاء واعتلائه بساط الفتيا، والتدريس..؟ وهو لعمري نتاج وفير غزير لايزال شاهداً على علو كعبه في العلوم وتبحره في مختلف الفنون فلله دره حيًا وميتًا.**

قالوا : صدقت يابن الياسين إن روائع إنتاج ابن العربي لا تزال شاهدة بفضله وعظمته، وسعة اطلاعه وإلمامه بالعلوم واستحقاقه لمنصب القضاء والفتيا، وهاك طرفًا منها :

١ ـ أنوار الفجر في تفسير القرآن. وقد ألفه في عشرين سنة وبلغ ثمانين ألف ورقة أي (مائة ألف وستين ألف صفحة) وكان في تسعين مجلداً.

٢ ـ قانون التأويل في تفسير القرآن، كتاب كبير، كان موجوداً ومنتشراً إلىٰ القرن الحادي عشر الهجري ونقل عنه المقري في نفح الطيب، ونقلنا عنه شيئًا منه في هذه الترجمة.

٣ ـ أحكام القرآن. كتاب نفيس طبعه سلطان المغرب مولاي عبدالحفيظ في إحدىٰ المطابع المصرية.

٤ ـ الناسخ والمنسوخ في القرآن.

٥ ـ كتاب المشكلين، مشكل الكتاب ومشكل السنة.

٦ ـ كتاب النيرين، في الصحيحين.

٧ ـ القبس، في شرح موطأ مالك بن أنس. وهو من أواخر مؤلفاته ذكر فيه تفسيره (أنوار الفجر).

٨ ـ ترتيب المسالك، في شرح موطأ مالك.

٩ ـ عارضة الأحوذي، في شرح الترمذي، وهو من أول مؤلفاته.

١٠ ـ شرح حديث جابر في الشفاعة.

١١ ـ حديث الإفك.

١٢ ـ العواصم من القواصم.

١٣ ـ شرح حديث أم زرع.

١٤ ـ الكلام علىٰ مشكل حديث السبحات والحجاب.

وفي خلال اشتغال ابن العربي بالتدريس والتأليف في العشر الأواخر من سني حياته، كان يتردد عليه الأدباء، ويساجلهم الأدب والشعر بقريحة وقَّادة، وبيان جزل، ولا يتسع هذا المقام لوصف مقامه الأدبي، ونكتفي بإيراد المثل الآتي لهذه الناحية :

دخل عليه الأديب ابن صارة الشنتريني وبين يدي القاضي أبي بكر نار علاها رماد، فقال لابن صارة : قل في هذه، فقال :

شابت نَوَاصي النَّارِ بعد سَوَادِها وَتَسَتَّرَتْ عَنَّا بِثَوْبِ رَمَادِ

ثم قال لابن العربي : أجز، فقال ابن العربي :

شابت كما شبنا وزال شبابنا فكأنما كنا على ميعاد

قلت : يا علماء الأندلس، أين ذلكم الوصف الجامع والقول النهائي اللامع في وصف علامة الجزيرة الخضراء، وإحقائه في شيمه ومناقبه العليا، أريد حاصل القول، وجوهر الحكم على فضله وأدبه..؟!

فانتهض إلي وصَّافُ أَدَبِ أدباء الأندلس الوزير أبو نصر الفتح بن خاقان القيسي في كتابه «المطامح» فباح في غير لجج، وانتهض كأنما استبدت به الحجج.

وقال : اسمع يابن الياسين هذا الوصف المبين عن شيخ الأندلس وعلاَّمتها ابن العربي «علم الأعلام، الطاهر الأثواب، الباهر الألباب، الذي أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وانتجع الفرع من الأصل، وغدا في يد الإسلام أمضى من النصل، سقى الله به الأندلس بعدما أجدبت من المعارف ومد عليها منه الظل الوارف، فكساها رونق نبله، وسقاها ريق وبله، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدراً في فلكها، وصدراً في مجلس ملكها، واصطفاه معتمد بني عباد، اصطفاء المأمون لابن أبي داود، وولاه الولايات الشريفة، وبوأه المراتب المنيفة، فلما أقفرت حمص من ملكهم، وخلت وألقتهم منها وتخلت، رحل به إلى المشرق، وحل فيه محل الخائف الفر، فجال في أكنافه، وأجال قداح الرجاء في استقبال العز واستئنافه، فلم يسترد ذاهباً، ولم يجد كمعتمده باذلا له وواهباً.

فعاد إلىٰ الرواية والسماع، وما استفاد من إجالة تلك الأطماع، وأبو بكر إذ ذاك في ثرىٰ الذكاء قضيبٌ ما دوَّح، وفي روض الشباب زهر ما صوَّح، فألزمه مجالس العلم رائحًا وغاديًا، ولازمه سائقًا إليها وحاديًا، حتىٰ استقرت به مجالسه، واطردت له مقايسه، فجد في طلبه، واستجد به أبوه منخرق أربه. ثم أدركه جمامه، وو ارته هناك رجامه، وبقي أبو بكر منفرداً، وللطلب متجرداً.

حتىٰ أصبح في العلم وحيداً، ولم تجد عنه الرياسة محيداً، فكر إلىٰ الأندلس فحلها والنفوس إليه متطلعة، ولأنبائه متسمعة، فناهيك من حظوة لقىٰ، ومن عزة سقىٰ، ومن رفعة سما إليها ورقىٰ، وحسبك من مفاخر قلدها، ومن محاسن أنس أنبتها فيها وخلدها».

قلت: وماذا عن تواليف ابن العربي ممن شاع انتشاره، وذاع صيته، واتسع فضله، وعم نفعه الآفاق، وساد بين العباد، وغطت بفضله البلاد؟

قال مترجموه: إن له من الفضل الكثير الوفير يكفي كتابه أحكام القرآن ذاك الكتاب النفيس الأوحد، وإنما نشير في مقامنا هذا إلىٰ كتابه الأعظم الذي وأد الله به البدعة ورفع به رأس السنة ألا هو كتاب «العواصم من القواصم» في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ حيث أشار فيه إلىٰ:

١ ـ عدول الصحابة وكونهم وارثو علم النبي ﷺ فرضي الله عنهم.

٢ ـ خطأ ادعاء ارتداد الصحابة أو نكوثهم بعد وفاة النبي وتفنيد ما وضع عليهم ودحض تأويلات الأحداث التي وقعت بعد وفاته بما يسيء إليهم.

قلت: وماذا عن أهم عواصمه التي كسرت قواصم ما ادعى به المدعون على أصحاب رسول الله ﷺ؟

فانتهض لي ذاك الشيخ المعظم، خادم السنة وباذل نفسه وملسه وقلمه للدفاع عنها أعني به العلامة الشامي المصري معًا **محب الدين الخطيب** صاحب تحقيق الكتاب:

وقال: لله درك يابن الياسين، دونك إشارات عجلىٰ تناسب المقام عن عواصم وقواصم الكتاب، فارعني سمعك، وأحد بصرك، وأعمل بصيرتك ودونك هي موجزة كلقائط الدر:

- (عاصمة) تدارك الله الإسلام والأنام بأبي بكر .
- رباطة جأش أبي بكر في اليوم الرهيب : وداعه النبي ﷺ، خطبته بالمسجد .
- وصف إجمالي لدعاة الفتنة الذين قاموا على عثمان .
- (قاصمة) : المظالم والمناكير التي ادعوها على عثمان .
- (عاصمة) : موقف عثمان من عبدالله بن مسعود .
- موقفه في سقيفة بني ساعدة .
- خلافة الصديق واستخلاف عمر .
- موقفه من مانعي الزكاة .
- تنظيمه جيش الخلافة، وحسن اختياره القواد والعمال .
- حديث «لانورث ما تركنا صدقة» .
- حديث «لا يدفن نبي إلا حيث يموت» .
- استخلاف عمر .
- جعل عمر الأمر شورى في اختيار الخليفة بعده .
- خلافة عثمان ودعاة الفتنة .
- سجايا عثمان وصفاته الممتازة ومكانته العالية في الإسلام .
- حديث : «إن عمر شهيد وعثمان شهيد وله الجنة على بلوى تصيبه» .
- (قاصمة) : اجتماع أصحاب الجمل بمكة وخروجهم إلى البصرة .
- خرافة «الحوأب» وشهادة الزور .
- (عاصمة) : مجيء أصحاب الجمل إلى البصرة لتأليف الكلمة، والتوصل بذلك إلى إقامة الحد على قتلة عثمان .
- (قاصمة) حرب صفين، ودعوى الفريقين، وما اخترع في ذلك من أكاذيب .
- (عاصمة) : موقف علي من قتلة عثمان، لو حاكم أولياء عثمان قتلته عند علي عقب البيعة له لحكم لهم، ولكن هل كان في الإمكان تنفيذ الحكم عليهم .
- (عاصمة) : كتب التاريخ الإسلامي ألفت بعد بني أمية فشوهها الهوى .

- (قاصمة) : احتجاج الشيعة بحديث غدير خم ودعاء «وال من والاه» .
- افتراء الشيعة على أبي بكر وعمر وعثمان وعبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهم .
- تفسيقهم أهل الشام وتكفيرهم لهم .
- (نكتة) : للولايات والعزلات معان وحقائق لا يعرفها كثير من الناس .
- وحدة الأمة الإسلامية والتفريق بينها .
- (قاصمة) : اجتماع العرب بالإسلام ، وافتراق المسلمين بعد النبي ﷺ .
- ظهور الأحزاب البكرية والعمرية والعثمانية والعلوية والعباسية .
- (عاصمة) : تحذير المسلمين من أهواء المفسرين والمؤرخين وأهل الآداب .
- ابن قتيبة بريء من كتاب (الإمامة والسياسة) .
- تشيع المسعودي وميل المبرد للخوارج ، واعتدال ثعلب .
- احتجاج مالك بقضاء عبدالملك بن مروان ، والتعريف بإمامته وفقهه .
- الأئمة الذين رووا عن عبدالملك ، وإقرار ابن عمر له بالسمع والطاعة .
- ما نسب إلى الأمويين أهون من قول المأمون بخلق القرآن ، وسماح العباسيين بقراءة كتب الجاحظ في المساجد مع ما فيها من مناكير .
- (عاصمة) : علي لم يعهد إلى الحسن ، لكن البيعة للحسن منعقدة .
- حكاية الصلح بين الحسن ومعاوية كما يرويها البخاري .
- بيعة الحسن لمعاوية ، وانعقاد الخلافة لمعاوية بذلك .
- (قاصمة التحكيم) : وأن الصحيح فيها ما رواه الدارقطني وخليفة بن خياط ؛ العراقيون جاؤوا بأبي موسى ؛ لأنه كان ناصحًا بالدعوة إلى السلم .

ثالثاً

بين إمامي الحديث والرأي

٨ ـ الإمام مالك بن أنس .

٩ ـ الإمام أبو حنيفة النعمان .

٨ ـ الإمام مالك بن أنس
إمام دار الهجرة
(٩٣ ـ ١٧٩ هـ / ٧١٢ ـ ٧٩٥ م)

محطتنا هذه تعد أعظم محطة في تاريخ العلم، فهي مع قبلة العلم في زمانه، ومقصد الطلاب والعلماء على السواء، إنه الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة وصاحب الموطأ، من قيل في حقه :«لا يُفتى ومالك في المدينة»..

لكنني كعادتي يممت وجهي شطر المترجمين سائلاً إياهم عن نبإ هذا العالم الرباني، وصاحب المذهب الثاني.

وقلت : لله دركم يا معشر المترجمين، ويا مدوني سجلات الفخار في تاريخ أمة الإسلام، حدثوني وأخبروني من هذا الذي جاءت الآثار في ذكره، وانتشر بين الخلق فضله، ومن يروى في فضله ومناقبه الكثير، ولكن أهمها ما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :«يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة»(١).

قالوا : لله أنت يا بن ياسين أما علمت أنه قبلة العلم، وطنب السنة، وجامع العلوم، إنه الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، صاحب أول ديوان في السنة النبوية وهو كتاب الموطأ، وهو الذي سطع نجمه واشتهر ذكره وساد فضله، أما سمعت ما قاله الإمام الشافعي : « **إذا ذكر العلماء فمالك النجم**».

قلت : خبروني يا معاشر المترجمين، هل هناك علاقة نسب أو قرابة بين مالك بن أنس والصحابي الجليل أنس بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؟

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٢)، وأحمد (٢/ ٢٩٩)، وابن حبان (٢٣٠٨)، والحاكم (١/ ٩١)، والبيهقي (١/ ٣٨٦)، كلهم من حديث سفيان بن عيينة، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورجاله ثقات، إلا أن ابن جريج وأبا الزبير مدلسان، وقد عنعنا، وأعله أحمد بالوقف، وقد حسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

قـالوا : مالـك بن أنس بن مالك بن أبي عـامر الأصبحي، وأمـه العالية بنت شريك الأزدية، وبـهذا فالإمـام مالك أصله من اليـمن، وليس من أهل المدينة، وربما ظن البـعض أن الإمـام مـالـك يرجع نسبـه إلىٰ الصحـابي الجليل أنس بن مـالك بن النضر، والاختلاف واضح من الاسم، فلينتبه إليه وليتفطن له .

وقـد نزل جد الإمام مـالك المدينة المنورة ـ علىٰ سـاكنها أفضل الصـلاة والسـلام ـ عندما جاءها متظلمًا مـن بعض ولاة اليمن ، فاتخـذها مستقراً ومقـامًا، وقد أصـهر إلىٰ بني تيم بن مرة القرشيين، ثم عاقدهم علىٰ أن يكون ولاؤه لهم، ونصرته عليهم، وكان جد الإمام مالك من كبار التابعين، حيث روىٰ عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عُبيد الله، وأم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنهم أجمعين .

ورُوي عن مـالك ـ جـد الإمام مـالك ـ ابنه أنس ونافع المكـنىٰ بأبي سهـيل شيـخ ابن أبي شهـاب الزهري، وهو كمـا قال الحـافظ ابن حجـر في الفتح : أبو سهـيل نافع ابن أنس بن أبي عـامر شيخ إسـماعيل بن جعـفر، وهو من صغـار شيـوخ الزهري، بحيث أدركه تلامذة الزهري، وقد تأخر أبو سهيل في الوفاة عن الزهري(١) .

قلت : هلا زدتموني عن مولده وعن طلبه للعلم وسعيه لتحصيله.

قـالوا : إليك خبره ومخبره في طلب العلم، وحسبك مـا اشتهـر به أنه شيخ الإسلام حـجة الأمة إمام دار الهـجرة، أبو عبد اللـه مالك بن أنس بن مالك الحميري ثم الأصبـحي المـدني حليف بني تيم من قـريش فـهم حلفـاء عثـمـان أخي طلحـة بن عبيدالله أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وأمه هي عـالية بنت شـريك الأزدية، وأعـمامـه هـم : أبو سـهل نافع وأويس والربيع والنضر أولاد أبي عامر .

وُلِدَ مـالك علىٰ الأصـح في سنة ٩٣هـ عـام مـوت أنس بن مـالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خادم رسول الله ﷺ .

---

(١) الفتح ٤/ ٨٠ .

أما عن طلبه للعلم فقد طلب الإمام مالك العلم وهو حدث لم يتجاوز بضع عشرة سنة من عمره، وتأهل للفتيا، وجلس للإفادة وله إحدىٰ وعشرون سنة، وقصده طلبة العلم، وحدث عنه جماعة وهو شاب في صدر الشباب.

قلت: فماذا عن مكانه ومقامه ورتبته؟

قالوا: أما كفاك قول الشافعي عنه: إنه النجم. ثم اسمع ماذا قيل عنه.

قال ابن عيينة: «مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه».

وعن ابن عيينة أيضًا قال: «كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحًا، ولا يحدث إلا عن ثقة، ما أرىٰ المدينة إلا ستخرب بعد موته ـ يعني من العلم ـ».

روي عن وهيب ـ وكان من أبصر الناس بالحديث والرجال ـ أنه لما قدم المدينة قال: «فلم أر أحداً إلا يعرف وينكر إلا مالكًا ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري».

ورُوي عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم، فلا يجدون عالـمًا أعلم من عالم المدينة**»(١).

ويروىٰ عن ابن عيينة قال: «كنت أقول: هو سعيد بن المسيب حتىٰ قلت: كان في زمانه سليمان بن يسار، وسالم بن عبد الله وغيرهما، ثم أصبحت اليوم أقول: إنه مالك لم يبق له نظير بالمدينة».

قلت: فماذا عن مكانته في المدينة وموقعه منها وهو الإمام الهمام الحجة؟

قالوا: لم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكًا في العلم والفقه والجلالة والحفظ، فقد كان بها بعد الصحابة مثل سعيد بن المسيب، والفقهاء السبعة، فلما تفانوا اشتهر ذكر مالك بها، وابن أبي ذئب، وعبد العزيز بن الماجشون، وسليمان بن بلال، وفليح بن سليمان وأقرانهم، فكان مالك هو المقدم فيهم علىٰ الإطلاق، والذي تضرب إليه آباط الإبل من الآفاق ـ رحمه الله تعالىٰ.

(١) قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٣٤): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبد الله بن محمد بن عقيل وهو ضعيف عند الأكثرين»، وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٦) بإسناد مرسل فيه: سعيد بن أبي هند لم يسمع من أبي موسىٰ.

قال أبو عبد الله الحاكم: ما ضُرِبت أكباد الإبل من النواحي إلىٰ أحد من علماء المدينة دون مالك، واعترفوا له، وروت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنًا كالليث عالم أهل مصر والمغرب، والأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم، والثوري وهو المقدم بالكوفة، وشعبة عالم أهل البصرة، إلىٰ أن قال: وحمل عنه قبلهم يحيىٰ بن سعيد الأنصاري حين ولاه أبو جعفر قضاء القضاة فسأل مالكًا أن يكتب له مئة حديث حين خرج إلىٰ العراق، ومن قبل كان ابن جريج حمل عنه.

قلت: فماذا عن كتابه الخالد وسفره الماجد «الموطأ» هلا أعلمتموني بقصته؟

قالوا: قال أبو مصعب: سمعت مالكًا يقول: دخلت علىٰ أبي جعفر أمير المؤمنين، وقد نزل علىٰ فرش له، وإذا علىٰ بساطه دابتان ما تروثان ولا تبولان، وجاء صبي يخرج ثم يرجع فقال لي: أتدري من هذا؟ قلت: لا، قال: هذا ابني وإنما يفزع من هيبتك، ثم ساءلني عن أشياء منها حلال ومنها حرام ثم قال لي: أنت والله أعقل الناس وأعلم الناس، قلت: لا والله يا أمير المؤمنين قال: بلىٰ ولكنك تكتم.

ثم قال: والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولأبعثن به إلىٰ الآفاق فلأحملنهم عليه، فقال مالك: «لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن أصحاب رسول ﷺ تفرقوا في الأمصار وإن تفعل تكن فتنة»!!

ثم كان كتاب «الموطأ» الذي اشتهر في حياة مالك، وعنه نهل المحدثون من بعده.

قلت: حدثوني عن شيء من مواقف وطرائف الإمام مالك، فوالله لهو كما قلتم النجم، وهو قبلة أهل السنة، وإمام دار الهجرة...

قالوا: دونك أطرافًا مما سألت، واسمع ما حكاه قتيبة قال: كنا إذا دخلنا علىٰ مالك خرج إلينا مزينًا مكحلاً مطيبًا قد لبس من أحسن ثيابه وتصدر الحلقة ودعا بالمراوح، فأعطىٰ لكل منا مروحة(١).

وعن محمد بن عمر قال: كان مالك يأتي المسجد فيشهد الصلوات والجمعة والجنائز، ويعود المرضىٰ، ويجلس في المسجد فيجتمع إليه أصحابه.

---

(١) وهي تلك التي يستروحون بها أي يطلبون بها الهواء.

وكان يجلس في منزله على ضجاع له ونمارق مطروحة في منزله يمنة ويسرة لمن يأتيه من قريش والأنصار والناس، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم.

قال: وكان رجلاً مهيبًا نبيلاً، ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط ولا رفع الصوت، وكان الغرباء يسألونه عن الحديث فلا يجيب في الحديث إلا بعد الحديث، وربما أذن لبعضهم أن يقرأ عليه، وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له: حبيب يقرأ للجماعة ولا ينظر أحد في كتابه ولا يستفهم هيبة لمالك وإجلالاً له، وكان حبيب إذا قرأ فأخطأ فتح عليه مالك، وكان ذلك قليلاً.

قال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: «ما أكثر أحد قط فأفلح».

وقيل لمالك: لم لا تأخذ عن عمرو بن دينار؟، قال: «أتيته فوجدته يأخذون عنه قيامًا، فأجللت حديث رسول الله ﷺ أن آخذه قائمًا».

قلت: هلا حدثتموني عن لمامة من عقيدته، وقد شاع في أواخر وقته بدع ومحدثات من القول على يد المعتزلة وغيرهم.

قالوا: اسمع طرفًا من عقيدته السنية العلية، عن ابن وهب قال: سمعت مالكًا يقول لرجل سأله عن القدر: نعم قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**﴾ (١).

وقال جعفر بن عبد الله: كنا عند مالك فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾(٢)، كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرضاء، ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: «الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة»، وأمر به فأخرج.

---

(١) السجدة: ١٢.

(٢) طه: ٥.

وفي رواية أخرىٰ قال : ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال له كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه.

قلت : لله أنتم هلا أتحفتموننى بطرف من درر قوله وما أكثرها!

قالوا : إن كل كلام مالك لدرر هلا عدت لسيرته وقرأت طرفًا من أخباره في طبقات المالكية أو غيرهم وعمومًا فهذا طرف منها :

- قال مالك : «العلم ينقص ولا يزيد، ولم يزل العلم ينقص بعد الأنبياء والكتب».
- وقال : «أعلم أنه فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل ما يسمع».
- وقال : «ما تعلمت العلم إلا لنفسي، وما تعلمت ليحتاج الناس إليَّ، وكذلك كان الناس».
- وقال : «ليس هذا الجدل من الدين بشيء».
- وقال : «لا يؤخذ العلم عن أربعة : سفيه يعلن السفه وإن كان أروىٰ الناس، وصاحب بدعة يدعو إلىٰ هواه، ومن يكذب في حديث الناس، وإن كنت لاأتهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به».

قلت : يا علماء الطبقات، لقد علمنا أن مالكًا هو إمام العلم وإمام الصبر فهلا أخبرتمونا عن محنته، وعن صبره وفضله.

قالوا : لله ما سألت لقد نكأت الجرح، وأهجت المشاعر، واسترجعت الماضي الذي واراه الثرىٰ، وما دمت سألت متعلماً فاسمع من ذلك، تعرض الإمام مالك لمحنة وبلاء بسبب حسد ووشاية بينه وبين والي المدينة جعفر بن سليمان.

ويروىٰ أنه ضرب بالسياط حتىٰ أثر ذلك علىٰ يده، **فيقول إبراهيم بن حماد:** «إنه كان ينظر إلىٰ مالك إذا أقيم من مجلسه حمل يده بالأخرىٰ».

ويقول الواقدي : لما ولي جعفر بن سليمان المدينة سعوا بمالك إليه وكثروا عليه عنده وقالوا : «لا يرىٰ أيمان بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذ بحديث رواه عن ثابت بن الأحنف في طلاق المكره أنه لا يجوز عنده».

قال : فغضب جعفر فدعا بمالك فاحتج عليه بما رفع إليه عنه، فأمر بتجريده

وضربه بالسياط، وجذبت يده حتى كادت أن تنخلع من كتفه وارتُكِبَ منه أمْرٌ عظيمٌ، فوالله ما زال مالك بعد في رفعة وعلو، وهذه ثمرة المحنة المحمودة أنها ترفع العبد عند المؤمنين، وبكل حال فهي بما كسبت أيدينا ويعفو الله عن كثير، قال النبي ﷺ: «**من يُرد الله به خيراً يصب منه**»(١)، وقال الله تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ**﴾(٢).

وأنزل الله تعالى في وقعة أحد قوله: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾(٤).

فالمؤمن إذا امتحن صبر واتعظ واستغفر، ولم يتشاغل بذم من انتقم منه، فالله حكم مقسط، ثم يحمد الله على سلامة دينه، ويعلم أن عقوبة الدنيا أهون وخير له.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) محمد: ٣١. (٣) آل عمران: ١٦٥. (٤) الشورى: ٣٠.

٩ ـ الإمام أبو حنيفة النعمان
إمام القياسيين
(٨٠ ـ ١٥٠ هـ / ٦٩٩ ـ ٧٦٧ م)

أبو حنيفة النعمان علم من أعلام الفقه ..

قال فيه الإمام الشافعي : « ما طلب أحد الفقه إلا كان عيالاً على أبي حنيفة».

وذلك لأنه صاحب أول مدرسة للفقه، ولقد بقيت أصوات الثناء تتجاوب في الأجيال، تعطر سيرة ذلك الفقيه العظيم، وقد كان الثناء على علمه وشخصه من رجال كثيرين تخالفت مناحي تفكيرهم، واتفقوا جميعًا على تقديره، ولنذكر لك بعضًا قليلاً من عبارات العلماء الذين عاصروه، أو قاربوه أو جاؤوا بعده.

لقد قال فيه معاصره الفضيل بن عياض الذي اشتهر بالورع : « كان أبو حنيفة رجلاً فقيهًا، معروفًا بالفقه، واسع المال، معروفًا بالأفضال على كل من يطيف به، صبوراً على تعلم العلم بالليل والنهار، حسن السمت، كثير الصمت، قليل الكلام حتى ترد مسألة في حلال أو حرام، فكان يحسن أين يدل على الحق، هيَّابًا من مال السلطان»(١).

وقال جعفر بن الربيع : « أقمت على أبي حنيفة خمس سنين، فما رأيت أطول صمتاً منه، فإذا سئل عن شيء من الفقه تفتح، وسال كالوادي وسمعت له دويا وجهارة بالكلام »(٢) .

وقال مليح بن وكيع : «كان ـ والله ـ أبو حنيفة عظيم الأمانة، وكان ـ والله ـ في قلبه جليلاً عظيمًا، وكان يؤثر رضا ربه على كل شيء، ولو أخذته السيوف في الله لاحتمل، رحمه الله، ورضي الله عنه رضا الأبرار، فقد كان منهم».

---

(١) تاريخ بغداد ج١٣، ص ٣٤٠ .

(٢) الكتاب المذكور، ص ٣٤٠ .

ولقد وصفه معاصره الورع التقي **عبد الله بن المبارك** بأنه «مخ العلم»(١).

وقال فيه المحدث **ابن جريج** في مطلع حياته: «سيكون له في العلم شأن عجيب»، وقال بعد أن كبر وذكر عنده: «إنه الفقيه. إنه الفقيه».

ناشدتُ سادة التراجم، وأئمة العلم والبحث الفقهي عن مآل ونسب إمام ذاك الزمان أبي حنيفة النعمان، وهل يضيره ذلك النسب أو يعلوه، وهل العلماء ينسبون إلى الآباء أم إلى عملهم وفضلهم فهو خير انتساب لهم؟

فانتهض لي حاذق من حذاق الفقهاء المحدثين، ومترجم واعٍ من المختصين بتراجم فقهاء المسلمين، أعني ذلك الفقيه الألمعي والأزهري اللوذعي، و**القاهري المصري الإمام الشيخ محمد أبو زهرة**.

وقال: طيب الله مساءلتك لقد طلبت معلومًا، واستفتيت خبيراً، ولعمري فإني في مقامي هذا أبتدر بما ابتدر به الموفق المكي في مناقب أبي حنيفة، ولقد قال في هذا المقام: اعلم أن التقوىٰ أعلىٰ الأنساب، وأقوىٰ أسباب الثواب، قال الله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ (٢)، ولذا عدّ رسول الله ﷺ سلمان الفارسي رضي الله عنه من أهل البيت فقال: «**سلمان منا آل البيت**»(٣).

ونفىٰ الله النسب عن ولد نوح عليه السلام، فقال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ** ﴾ (٤).

وعليه فنقول: «ولد أبو حنيفة، بالكوفة سنة ٨٠ من الهجرة النبوية علىٰ رواية الأكثرين التىٰ يكاد يجمع عليها المؤرخون، وهناك رواية أخرىٰ تقول: إنه ولد سنة ٦١ هـ، ولكن لا مؤيد لهذه الرواية، وهي لا تتفق مع نهاية حياته؛ إذ إن المتفق

(١) الخيرات الحسان، ص ٢٣. (٢) الحجرات: ١٣.

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٩٨)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢١٢) (٦٠٤٠)، عن عمرو بن عوف المزني، وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبي: «سنده ضعيف»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٣٠): «رواه الطبراني وفيه كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسَّن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات».

(٤) هود: ٤٦.

عليه أنه لم يمت قبل سنة ١٥٠هـ، والأكثرون على أنه مات بعد أن أنزل المنصور به المحنة، وعلى رواية أنه ولد سنة ٦١ يكون إنزال المحنة به لتولي القضاء وهو في سن التسعين، ومن كان في هذه السن لا يعرض عليه ذلك العمل الخطير، ولو عرض عليه لكانت أدنى الحجج إلى طرف لسانه هي تلك الشيخوخة الفانية، ولكن لم يذكر في أي خبر أو رواية أنه اعتذر بهذا الاعتذار، فلا تستقيم إذن هذه الرواية مع هذه النهاية التي يذكرها المؤرخون له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١).

قلت: فماذا عن نشأته، والبيئة التى أحاطت به، وما ذلك الذي دفعه للعلم، وألجأه إلى لزومه، وروم نجومه ؟

قال: اسمع يا بن ياسين، عن حياة إمام القائسين : نشأ أبو حنيفة بالكوفة، وتربى بها، وعاش أكثر حياته فيها، متعلمًا ومجادلاً ومعلمًا، ولم يتبين من المصادر التي تحت أيدينا حياة أبيه، وما كان يتولاه من الأعمال، وحاله، ولكن قد يستنبط منها ما يشير إشارة موجزة إلى بعض أحواله، فقد يستفاد منها: أنه كان من أهل اليسار، وأنه كان من التجار، وأنه كان مسلمًا حسن الإسلام، فقد جاء في أكثر الكتب التى ترجمت لحياة أبي حنيفة أن أباه الْتَقَى علي بن أبي طالب صغيراً، وأن جده أهدى إليه مقداراً من الفالوذج في عيد النيروز، وذلك الخبر يومئ من بعد إلى أن أسرته كانت في بحبوحة الغنى، ولها ثروة مكنتها من أن تهدي إلى الخليفة حلوى ما كان يأكلها إلا أهل اليسار.

ولقد رُوي أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعا لثابت ـ عندما رآه ـ بالبركة فيه وفي ذريته، ويؤخذ من هذا أنه كان مسلمًا وقت هذه الدعوة، وقد صرحت كتب التاريخ بأن ثابتًا ولد على الإسلام.

وعلى ذلك يكون أبو حنيفة قد نشأ أول نشأته في بيت إسلامي خالص، وذلك ما يقرره العلماء جميعًا، إلا من لا يُؤبه لشذوذهم، ولا يلتفت لكلامهم.

أما عن بيئته . . فلقد كانت الكوفة، وهي مولده، إحدى مدن العراق العظيمة، بل ثاني مصريه العظيمين في ذلك الوقت، وفي العراق الملل والنحل والأهواء، وقد كان موطنًا لمدنيات قديمة، كان السريان قد انتشروا فيه، وأنشؤوا لهم

(١) الإمام أبو حنيفة ـ فقهه وآراؤه، للشيخ محمد أبي زهرة، عن المقدمة، ط. دار الفكر، القاهرة.

مدارس به قبل الإسلام، وكانوا يدرسون فيها فلسفة اليونان، وحكمة الفرس، وكان في العراق قبل الإسلام مذاهب نصرانية تتجادل في العقائد، وكان العراق بعد الإسلام مزيجًا من أجناس مختلفة، وكان فيه اضطراب وفتن، وفيه آراء تتضارب في السياسة وأصول العقائد، ففيه الشيعة، وفي باديته الخوارج، وفيه المعتزلة، وفيه تابعون مجتهدون حملوا علم من لقوا من الصحابة، فكان فيه علم الدين سائغًا موردًا، وفيه من النحل المتنازعة، والآراء المتضاربة.

فتفتحت عين أبي حنيفة فرأىٰ هذه الأجناس، وأشع عقله، فانكشفت له هذه الآراء، ويظهر أنه في ميعة الصبا، أو في بواكيره، ابتدأ يجادل مع المجادلين، ونازل بعض أصحاب هذه الأهواء بما توحي به السليقة المستقيمة.

قال: وأما عن سبب طلبه للعلم وجدِّه فيه فيروى عن أبي حنيفة أنه قال :

«مررت يومًا علىٰ الشعبي، وهو جالس فدعاني، فقال لي: «إلىٰ من تختلف؟»».

فقلت: «أختلف إلىٰ السوق».

فقال: «لم أعن الاختلاف إلىٰ السوق، عنيت الاختلاف إلىٰ العلماء».

فقلت له: «أنا قليل الاختلاف إليهم».

فقال لي: «لا تغفل، وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء، فإني أرىٰ فيك يقظة وحركة».

قال: «فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلىٰ السوق، وأخذت في العلم، فنفعني الله بقوله»(١) .

قلت: وما أثر تلك البيئة العلمية التى تنشأ بها أبو حنيفة على فكره وعلمه، وهل كان فيهًا من أول الزمان أم... كان متعلمًا ثم... عدل عن الكلام للفقه ؟

قال: هناك روايات ثلاث تذكر في هذا المقام ذكرها المكي في مناقبه والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وغيرهما:

(١) مناقب أبي حنيفة المكي ١/ ٥٩ .

أولها : تبين عن طلب علوم عصره وتثقفه بها ثم انصرافه إلىٰ الفقه (لفضله ومكانته) .

ثانيها :أنه انشغل بعلوم عصره ثم تدبرها ففضل الفقه عليها ؛ لأن لأهل الفقهاء ما ليس للمتكلمين من السير والصلاح .

ثالثها :في هذا المعنىٰ أيضًا .

وإليك نص الرواية الأولى كما حدث بها صاحبه أبو يوسف... وقد رويت من عدة طرق : إحداها عن أبي يوسف صاحبه، أنه سئل : كيف وفقت إلى الفقه ؟ فقال : أخبرك :

أما التوفيق فكان من الله، وله الحمد كما هو أهله ومستحقه : إني لما أردت تعلم العلم جعلت العلوم كلها أمامي، فقرأت فنًا فنًا منها ؛ وتفكرت عاقبته، وموضع نفعه، فقلت : آخذ في الكلام، ثم نظرت فإذا عاقبته عاقبة سوء، ونفعه قليل، وإذا كمل الإنسان فيه واحتيج إليه، لا يستطيع أن يتكلم جهاراً ورمي بكل سوء، ويقال: صاحب هوىٰ، ثم تتبعت أمر الأدب والنحو، فإذا عاقبة أمره أن أجلس مع صبي أعلمه النحو والأدب، ثم تتبعت أمر الشعر، فوجدت عاقبة أمره المدح والهجاء، وقول الهجر والكذب وتمزيق الدين، ثم تفكرت في أمر القراءات، فقلت إذا بلغت الغاية منها اجتمع إلىٰ أحداث يقرؤون عليَّ، والكلام في القرآن ومعانيه صعب، فقلت أطلب الحديث، فقلت إذا جمعت منه الكثير أحتاج إلىٰ عمر طويل، حتىٰ يحتاج الناس إليَّ، وإذا احتيج إليَّ لا يجتمع إلا الأحداث، ولعلهم يرمونني بالكذب وسوء الحفظ، فيلزمني ذلك إلىٰ يوم الدين، ثم قلبت الفقه، فكلما قلبته وأدرته لم يزدد إلا جلالة، ولم أجد فيه عيبًا، ورأيت أن الجلوس يكون مع العلماء والفقهاء والشيوخ والبصراء والتخلق بأخلاقهم، ورأيت أنه لا يستقيم أداء الفرائض وإقامة الدين والتعبد إلا بمعرفته، وطلب الدنيا والآخرة إلا به، ومن أراد أن يطلب به الدنيا طلب به أمراً جسيمًا، وصار إلىٰ رفعة منها، ومن أراد العبادة والتخلي لم يستطع أحد أن يقول : «تعبد بغير علم، وقيل: إنه فقه، وعمل بعلم» .

قلت: هلا حدثتمونا عن جرأة أبي حنيفة في الحق، وقوة بديهته. هل كان هو، حاشاه، خانعًا، قانعًا بمركبه الفاره، وتقبيل الناس أياديه، واستسلامهم له وقيامهم بحضرته.

قالوا : ما عرف أبو حنيفة إلا نضاحًا بالحق ، صداحًا بما علم وأيقن ، مفصاحًا لما صح عليه الإفتاء في الحق ، وتلك حادثة نسوقها في شجاعته في الحق والتي أغضبت منه المنصور خليفة بني العباس . . .

لقد جاء في كتب المناقب وفي تاريخ بغداد «أن ابن أبي ليلى قد نظر في أمر امرأة مجنونة قالت لرجل : يابن الزانيين ، فأقام عليها الحد في المسجد ، قائمة وحدَّها حدَّين ، حداً لقذف أبيه ، وحداً لقذف أمه ، فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال : أخطأ فيها في ستة مواضع : أقام الحد في المسجد ، ولا تقام الحدود في المساجد ، وضربها قائمة ، والنساء يضربن قعوداً ، وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً ، ولو أن رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد ، وجمع بين حدين ، ولا يجمع بين حدين ، حتى يخف أحدهما ، والمجنونة ليس عليها حد ، وحد لأبويه وهما غائبان ولم يحضرا فيدعيا ، فبلغ ذلك ابن أبي ليلى فدخل على الأمير ، فشكاه إليه ، وحجر على أبي حنيفة ، وقال : لا يفت ، فلم يفت أيامًا ، حتى قدم رسول من قبل ولي العهد ، فأمر أن يعرض مسائل على أبي حنيفة حتى يفتي فيها ، فأبى أبو حنيفة ، وقال : أنا محجور عليَّ ، فذهب الرسول إلى الأمير ، فقال الأمير : قد أذنت له فقعد فأفتى »(١) .

قلت : لله در أبي حنيفة الإمام المفضال المفهام النظار... لقد علمنا أنه تأبى القضاء وامتنع عنه، ورفض عطاء المنصور وتحاشى منه، ولم يداهن، ولم يداخل ويزايد على ما شاع وذاع بين جلة غير قلة من علماء عصرنا عصر القصور في الطاعة والقصور في المسكن فماذا عن مواقفه تلك، التى تزيده فضلاً وعظمًا ومجداً وسؤدداً ؟

قالوا : دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة ليتولى القضاء فامتنع ، فطلب إليه أن يرجع إليه القضاة فيما يشكل عليهم ، ليفتيهم فامتنع ، فأنزل به العذاب بالضرب والحبس أو الحبس وحده على اختلاف الروايات ، هذه هي خلاصة القصة .

قلت : فماذا عن قوله في الناس والاجتماع وعلاقة العالم بالمجتمع الذي يعيش فيه ؟

---

(١) المناقب لابن البزازي ١ / ١٦٦ ، وتاريخ بغداد ، ١٣ / ٣٥٦ .

قال : كانت آراؤه آراء عالم خبير بأحوال النفوس دارس لها متعمق في دراستها؟ فاحص لأحوالها . . . وتلك هي وصيته التي ودع بها تلميذه يوسف بن خالد السمتي :

« اعلم أنك متىٰ أسأت عِشْرة الناس صاروا لك أعداء ، ولو كانوا لك أمهات وآباء ، وأنك متىٰ أحسنت عشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهات وآباء ، كأني وقد دخلت البصرة ، وأقبلت علىٰ المخالفة بها ، ورفعت نفسك عليهم ، وتطاولت بعلمك لديهم ، وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم ، وهجرتهم وهجروك وشتمتهم وشتموك ، وضللتهم وضللوك وبدعوك ، واتصل ذلك الشين بنا وبك ، واحتجت إلىٰ الهروب والانتقال عنهم ، وليس هذا برأي ، إنه ليس بعاقل من لم يدار من ليس له من مداراته بد ، حتىٰ يجعل له الله مخرجًا . إذا دخلت البصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك ، فانزل علىٰ كل رجل منزلته ، وأكرم أهل الشرف ، وعظم أهل العلم ، ووقر الشيوخ ، ولاطف الأحداث ، وتقرب من العامة ودار الفجار ، واصحب الأخيار ، ولا تتهاون بسلطان ، ولا تحقرن أحداً . ولا تقصرن في مروءتك ، ولا تخرجن سرك إلىٰ أحد ، ولا تثق بصحبة أحد ، حتىٰ تمتحنه ، ولا تخادن خسيسًا ، ولا وضيعًا ، ولا تألفن ما ينكر عليك في ظاهره ، وإياك والانبساط إلىٰ السفهاء ، وعليك بالمداراة والصبر والاحتمال وحسن الخلق وسعة الصدر ، واستجد ثياب كسوتك ، واستفره دابتك ، وأكثر من استعمال الطيب ، وابذل طعامك ، فإنه ما ساد بخيل قط ، ولتكن لك بطانة تعرفك أخبار الناس ، فمتىٰ عرفت فساداً بادرت إلىٰ صلاح ، ومتىٰ عرفت بصلاح ازددت فيه رغبة وعناية ، واعمل في زيارة من يزورك ومن لا يزورك ، والإحسان إلىٰ من يحسن إليك أو يسيء ، وخذ العفو وأمر بالمعروف ، وتغافل عما لا يعنيك ، واترك كل ما يؤذيك ، وبادر في إقامة الحقوق ، ومن مرض من إخوانك فعده» .

قلت : فهلا حدثتنا يا شيخ الفقه لدى المحدثين عن شيخ الرأي في السابقين. ماذا عن أصوله وأدلته التي بنى عليها آراءه ؟

قال : إليك هذه يا بن ياسين . .

الأدلة الفقهية عند أبي حنيفة سبعة : الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة، والإجماع، والقياس، والاستحسان، والعرف.

ومثل ذلك جاء في الانتقاء لابن عبد البر(١)، وجاء في مناقب أبي حنيفة المكي ما نصه : « كلام أبي حنيفة أخذ بالثقة وفرار من القبح، والنظر في معاملات الناس، وما استقاموا عليه، وصلح عليه أمورهم، يمضي الأمور على القياس، فإذا قبح القياس يمضيها في الاستحسان مادام يمضي له، فإذا لم يمض له رجع إلى ما يتعامل المسلمون به، وكان يوصل الحديث المعروف الذي قد أجمع عليه، ثم يقيس عليه ما دام القياس سائغًا، ثم يرجع إلى الاستحسان، أيهما كان أوفق رجع إليه». قال سهل : « هذا علم أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ علم العامة»(٢) .

قلت : لله در الإمام أبي حنيفة، ما أعظمه عالمًا، وما أصدقه تاجرًا، وما أخلصه عابداً ورعًا... كيف أدرك هذه الفنون الثلاثة، وكيف جامع بينها ونظم منثورها (بحيث إنه كان التاجر الفقيه العابد)، أو قل: العابد الفقيه التاجر؟

قال : بعض الفروع الفقهية التي تكشف عن تفكير أبي حنيفة التاجر : كان أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ تاجراً ذا خبرة بالصفق في الأسواق، وقد قسم وقته بين التجارة، والفقه، والعبادة قسمة عادلة، فهو في الليل المتهجد العابد، وفي صحوة النهار التاجر الذي يتولى العقود كاسبًا رابحًا، حتى إذا صلى الغداة عكف على العلم دارسًا ومذاكرًا، مفرعًا الفروع، أو مؤصلاً الأصول، وهو في فقه المال، متأثر بفكره التجاري، يفكر في العقود الإسلامية المتصلة بالتجارة تفكير التاجر الذي تمرس بها، وعرف عرفها، واستبان معاملات الناس فيها، وواءم مواءمة الخبير بين نصوص الشريعة من كتاب وسنة، وبين ما عليه الناس من تعامل.

وإنك لتلمح ذلك في أمرين :

أحدهما : عظم عنايته بالاستحسان حتى لقد عد فيه الخبير الذي لا يلحق به

---

(١) الانتقاء، ص ١٤٣ .

(٢) المناقب ١/ ٨٢ .

أحد من أصحابه، فقد روي كما نقلنا عن محمد بن الحسن أنه قال: «كان أبو حنيفة يناظر أصحابه في المقاييس، فينتصفون منه، ويعارضونه، حتى إذا قال أستحسن لم يلحقه أحد منهم، لكثرة ما يورد في الاستحسان من مسائل، فيذعنون جميعًا ويسلمون له»(١).

وليس الأخذ بالاستحسان وإحكام التخريج به، والاستنباط عن طريقه، إلا لإدراكه لمصالح الناس، وعلمه بطرق تعاملاتهم، ومعرفة ما يقره الشارع الإسلامي وقدرته على استخراج العلل الخفية، والأوصاف المناسبة وبناء الأحكام عليها، ورد الأقيسة الظاهرة، بتلك الأقيسة الخفية التى تؤثر في اطراد الأحكام، وقد تخفى على غير الفقيه الذي يستبطن الأمور.

قلت: إذا كان حال أبي حنيفة تاجرًا مع كونه فقيهًا ترى هل أثرت تجارته في فقهه للعقود؟ هل انحاز في تفصيل أحكام العقود من البيوع؟ وهل راح يفصل أحكام العقود في المرابحة والتولية والإشراك والسلم كأنما يفصل ثوبًا مما كان يبيعه وهو خبير الثياب؟

قال: لقد حذق أبو حنيفة أحكام العقود حذقًا كافيًا لأنه كان ممارسًا لها، رائدًا في سوقها خبيراً بالتجارة وعقودها وأصنافها، وملامسًا لمصالح الناس وحاجاتهم.

وإليك تلك الأصول الأربعة التى تَقَيَّد أبو حنيفة وأصحابه تفريعهم في أحكام العقود وهي:

الأصل الأول: العلم بالبدل علماً تنتفي معه الجهالة التى تفضي إلى النزاع، ولذا لابد من معرفة الثمن الأصلي في المرابحة والتولية والإشراك، وأن الربح معلومٌ في المرابحة، ولابد من معرفة رأس المال والمسلم به في السلم؛ لأن الجهل بهذه الأمور قد يؤدي إلى النزاع، وأساس العقود في الشريعة العلم التام بالإبدال،

(١) مناقب أبي حنيفة للموفق الملكي، جـ١ / ١٧٩.

حتىٰ لا تكون ذريعة إلىٰ التخاصم، وكلمة يُعلم بها العقد تمنع خصومات في المستقبل تنقطع بتركها المودة بين الناس، وتضطرب شؤونهم، وتحير القضاء في الفصل بينهم فكان من الحتم اللازم العلم التام سداً لذرائع الخصام.

الأصل الثاني: تجنب الربا، وشبهة الربا، وهذا أصل عام في كل البيوعات في الإسلام، فإن الربا بسائر أنواعه أبغض التصرفات في العقود في فقه الإسلام السديد، فقد نهىٰ القرآن والسنة عنه، ولقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... **من أكل درهمًا من ربا فهو مثل ثلاثة وثلاثين زنية، ومن نبت لحمه من سحت فالنارُ أولى به**»(١).

ولقد شدد أبو حنيفة في منع الربا، وأكد علىٰ منع الربا بين المسلم والحربي في دار الحرب(٢)، وإذا كان الربا في هذه المنزلة من التحريم، فكل عقد اشتمل علىٰ ربا، أو فيه شبهة الربا لا يحل، ويفسد سداً للذرائع ومحافظة علىٰ الأموال أن تؤكل بالباطل، ولأن أساس العقود المالية التساوي في نظر العاقدين ونظر الشارع الإسلامي، والربا في نظره زيادة باطلة لا يقرها، ولا يحترم القضاة العقود التي اشتملت عليها.

الأصل الثالث: أن العرف له حكمه في هذه العقود، حيث لا يكون نص، فما يقره العرف يؤخذ به وما لا يقره العرف يترك، فمثلاً عند ذكر الثمن الأول في المرابحة تصح إضافة ما جرىٰ العرف بإضافته إلىٰ الثمن، ولا تصح إضافة ما لم يجر العرف بإضافته، فأجرة الصباغ والخياط الثياب تجوز إضافتها لجريان العرف بهذه الإضافة.

ويقول في ذلك الكاساني: لا بأس بأن يلحق برأس المال أجرة القصَّار

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٩٤٤)، والصغير (٢٢٤) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١١٧): «رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه سعيد بن رحمة، وهو ضعيف».

(٢) المبسوط للسرخسي، جـ١٢/ ١١.

والصبَّاغ والغسَّال والفتَّال والخيَّاط والسمسار والكرَّاء، ويباع مرابحة وتولية على الكل، للعرف؛ لأن العادة فيما بين التجار أنهم يلحقون هذه المؤن برأس المال، ويعدونها منه، وعرف المسلمين وعادتهم حجة مطلقة، فعن عبدالله بن مسعود قال: «**إن الله عز وجل نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد... فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن**»(١) .

إلا أنه لا يقول عند البيع : اشتريته بكذا، ولكن يقول : قال : عليَّ بكذا؛ لأن الأول كذب، والثاني صدق، وأما أجرة الراعي والبيطار، وما أنفق على نفسه، فلا يلحق برأس المال، ويباع مرابحة وتولية على الثمن الأول الواجب بالعقد الأول لا غير؛ لأن العادة ما جرت بين التجار بإلحاق هذه المؤن برأس المال، والتعويل في هذا الباب على العادة(٢) .

الأصل الرابع: أن الأصل في هذه العقود التجارية الأمانة، فلئن كانت الأمانة أصلاً في كل عقد من العقود الإسلامية؛ لأنها رأس الفضائل في معاملات الإنسان مع الإنسان، هي في المرابحة والتولية وأخواتها أصلها الفقهي؛ لأن المشتري ائتمن البائع في إخباره عن الثمن الأول من غير بينة ولا يمين، فتجب صيانتها عن الخيانة، والتهمة.

ويقول في ذلك الكاساني: « التحرز عن ذلك كله واجب ما أمكن » .

قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾(٣) .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ١١٢)، (٨٥٨٣)، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٧، ١٧٨): «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون»، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٣٦٠٠): «إسناده صحيح».

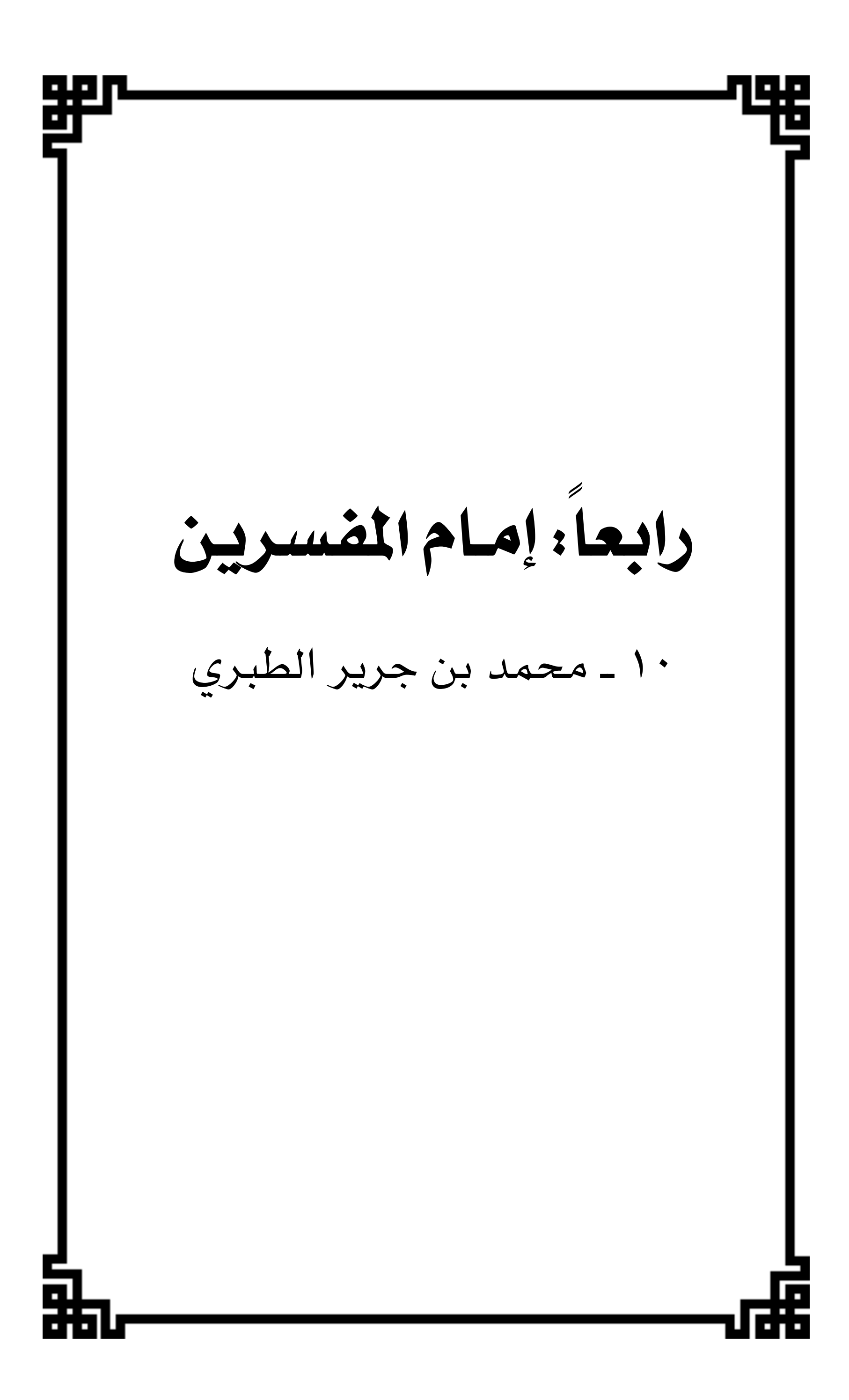
(٢) انظر : ملخصًا من البدائع ، جـ ٥ / ٢٢٣ .

(٣) الأنفال : ٢٧ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **من غشنا فليس منا** »[١] .

هذه أصول ثابتة في كل الفروع التي أثرت عن أبي حنيفة في هذه العقود التجارية، وهى تتفق مع نزعته الدينية، وتتفق مع خبرته في الأسواق، وتتفق كذلك مع أصوله العامة.

(١) أخرجه مسلم (١٠١)، وأحمد (٢/ ٤١٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .



رابعاً: إمام المفسرين

١٠ ـ محمد بن جرير الطبري

١٠ ـ محمد بن جرير الطبري
إمام المُفسرين

(٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ / ٨٣٩ ـ ٩٢٣ م)

نحن الآن مع علم من أعلام التفسير، وَمَنْ فضله على أهل العلم وفير، إنه شيخ المفسرين، وقبلة القاصدين، ذلك الموسوعة التي كانت تمشي على قدمين، صاحب تفسير «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، وصاحب «تاريخ الأمم والملوك»، إنه محمد بن جرير الطبري.

توجهت إليه وقلت : يا إمام المفسرين، وشيخ الكاشفين، وتاج العارفين بكتاب الله (تأويلاً وأحكامًا وترتيلاً) هلا حدثتنا عن نسبك ونفسك.

قال : يا بن ياسين، إنما الناس بأعمالهم وليسوا بأنسابهم، أما قرأت قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾[(١)] . أما جاءك حديث رسول الله ﷺ الذي في الصحيح، ذو القول الوضيح أنه : «**ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»[(٢)] .

أما عرفت أن يوم القيامة ينادي منادٍ من قِبَلِ الله سبحانه : «**فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي**»[(٣)]، وأن نسب الله هو صلاح الأعمال وسلامة الأقوال .

قلت : لله أنت يا شيخ المفسرين فضلاً وعلمًا ومجداً وتواضعًا، غير أني

---

(١) المؤمنون : ١٠١ .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٣٦٤٣)، والترمذي (٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٥١١)، والصغير (٦٤٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٨٤) : «رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه طلحة بن عمرو وهو متروك»، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٧٦٣) : «ضعيف جداً» .

أستسمحك عذرًا، وأسألك تفضلاً أن تخبرنا بنسبك، وتعرفنا بنفسك فنحن بني الألفية الثالثة نَسْتَمْلِحُ هذا، ونقول: فلان ابن فلان بن ذاك وذا..؟!!

فرأيته ببصيرتي تلمظ ، وأطرق مليًا ثم قال :

يا بن ياسين جاءني سائل يسأل عن نسبي ، فلم أزد على قولي «اسمي محمد بن جرير ، ثم إني رددت عليه ببيت من الشعر تمثلته لرؤبة بن العجاج ، يقول فيه :

قد رفع العجاج ذكري فادعني باسمي إذ الأنساب طالت يكفني(١)

ثم إني لملمت أوراقي ، وقصدت المؤرخين كالسبكي في طبقات الشافعية ، وابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» .

وقلت : يا أهل التواريخ، يا أصحاب التراجم أفيدوني، ونبئوني عن خبر إمام المفسرين وشيخ العارفين بكتاب الله، فقد أعيتني المحادثة، عن أن أظفر منه بسبب وثيق لنسبه العريق، زاده الله تواضعًا، ورفع قدره في الأولين والآخرين.

فصاح بي ابن خلكان..

وقال : هو يا بن ياسين : محمد بن جرير بن يزيد ، وفي يزيد اختلف العلماء :

أ - فقال بعضهم : هو يزيد بن كثير بن غالب .

ب - وقال الآخرون : هو يزيد بن خالد ، وهو ما ارتجح لدي(٢) .

وُلِدَ الطبري أواخر عام أربع وعشرين ومئتين ، وقيل غير ذلك في قرية «آمل» من بلاد طبرستان ، ومعنى **طبر** : آلة تشبه الفأس ، **وستان** معناها : مدينة أو أرض(٣) .

ثم إني التفت إلى ياقوت الحموي

فساءلته : هلا حدثتني عن نبوغ الطبري وتميزه في طلاب العلم.

---

(١) الإمام الطبري ، إعداد : عبدالله بن عبدالعزيز آل شاكر ، بإشراف مناع القطان ، ط الأولى ، جامعة الإمام ، الرياض .

(٢ ، ٣) السابق نفسه ، وانظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٣٣٢ مطبعة دار السعادة ، القاهرة . د . ت .

فقال: إنما سمات النبوغ من منح الله لبعض عبيده، وممن أدرك تلك السمات شيخ المفسرين ابن جرير؛ إذ إنه حفظ القرآن كله عن ظهر قلب وهو لم يتجاوز العشر سنين، بل كان ابن سبع سنين فحسب، حتى أنه أم الناس وهو ابن ثمان سنين، وكتب الحديث وهو ابن عشر سنين.

وإليك يا بن ياسين بتلك اللمحة عنه، وهي أن الله امتن على والده برؤيا كريمة رآها لابنه؛ إذ يجلس ابنه بين يدي رسول الله ﷺ ومعه مخلاة مملوءة بالحجارة وهو يرمي بين يدي رسول الله، ثم قصها على المُعبِّر العارف بالرؤيا فأخبروه أن ابنه يرجى منه أن يكون عالـمًا مدافعًا عن سنة رسول الله ﷺ(١).

قلت: يا ياقوت العلوم، هلا حدثتنا عن رحلات الطبري في طلب العلم، وترحاله وتسياره في البلدان، إذ سمعنا بسعيه إليها وتنقله بينها لا لدرك المتع واللذات، ولكن لتحصيل فوائد العلم والسنن، والله الله في بعض أهل عصرنا، ورحلاتهم المكوكية من شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها يجوبونها لدرك المتع واللذات.

قال: بماذا تهذي يا بن ياسين، أيرحل إلى طلب المتع واللذات، في غير ما أحل الله من الطيبات، أهذا واقع في بلاد الإسلام؟! أهذا كائن من بني الإيمان؟! لعمري لا أصدق مقولتك وأظنك تهذي بما لا تدري وبما لا تحصي!!

ثم مضى قائلا غير صاغٍ ولا مبالٍ من عظم هول وخطب ما أقول.

فقال: دع هذا الجنون، وأقصي مقالات صناديد المجون، واسمع إلى صادق الخبر ورائع الذكر عن شيخ المفسرين لا أولئك المتمتعين، وصاحب المذهب الفقهي العلي لا أصحاب كل غيّ!

لقد ترحل ابن جرير في طلب العلم، فأخذ علم الحديث عن الإمام محمد بن حميد الرازي، حيث درس عليه أكثر من ألف حديث وحدث، عن نفسه قائلاً: «سمعت من أبي كريب ـ أحد شيوخه ـ نحواً من مئة ألف حديث»، ثم ترحل إلى بغداد للأخذ عن شيخ السنة والجماعة بها أحمد بن حنبل، غير أن أحمد أدركته المنية

(١) معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١٨/ ٤٩، ٥٠، ط الأولى، دار المأمون.

والطبري قاصداً ديارها، وترحل إلىٰ البصرة فسمع الكثير من علمائها، وترحل إلىٰ الكوفة فسمع من علمائها وخاصة من أبي كريب، وترحل إلىٰ مصر فتلقىٰ فيها العلم عن سليمان بن داود الخيري الشافعي، المشهور بأبي محمد الأزدي، فأخذ عنه مذهب الشافعي، وأخذ رواية القرآن عن يونس بن عبدالأعلىٰ الصدفي حيث قراءة ورش، وترحل إلىٰ الشام طالبًا العلم فيها وهكذا دواليك طلبًا للعلم»(١).

قلت: حدثني يا ياقوت العلم عن نبوغه في طلبه العلم، أكان هو حفاظًا وجماعًا لها على غير دراية؟ وماذا عن درجة وعيه ودرايته وإلمامه وفطانته بما جمع على مذهب القائل:

لَيْس بِعِلْمٍ ما حَوَى الْقِمَطْرُ ... ما العِلْمُ إلا ما وَعَاهُ الصَّدْرُ

قال (ياقوت): قال عن نفسه مرة:

جاءني يوما رجل فسألني عن شيء من العَرُوضِ، ولم أكن نشطت له قبل ذلك، فقلت له: إذا جاء الغد فتعال إليَّ.

وطلبت من صديقٍ لي العَرُوضَ للخليل بن أحمد فجاء به فنظرت فيه ليلتي، فأمسيت غير عروضي وأصبحت عَروضيا. ا. هـ.

علم كامل أعيىٰ فحول الأدباء تعلمه، وأسهر كثيراً من طلابه حتىٰ يدركوه، استطاع الطبري - بعون الله - أن يلم به وأن يستوفي أطرافه كلها في ليلة واحدة، وقصة تعلم الأصمعي للعروض مع ذكائه وفطنته معروفة.

والضد يظهر حسنه الضد:

وأما علم الفقه فقد تلقىٰ مبادئه وبخاصة فقه أهل العراق (الحنفية) علىٰ أبي مقاتل في بلدة الري، ثم لَمَّا كتب الله له لقاء علماء الفقه وبخاصة علماء فقه الشافعية تروىٰ فيه، وتعمق في أصول الفقه وفروعه، ولم يقتصر علىٰ مذهب دون آخر، بل درس فقه الإسلام جميعه إلا أنه كان في أول أمره يقلد مذهب الشافعي، ولعل أقرب صورة توضح لنا هذه الظاهرة؛ ظاهرة معرفته بالفقه الإسلامي، كتابه اختلاف الفقهاء.

---

(١) الإمام الطبري، ص١٨، ومعجم الأدباء ١٨/ ١٦، ١٧.

ثم الْتَفَتُّ إلى إمام الشافعية ومترجمهم السبكي.

وقلت : هلا حدثتنا وفقهتنا عن ورد ذلكم الإمام الرشيد شيخ المفسرين لكتاب الله، أكان هو من جامعي العلم ومفرطي الأخلاق، أكان مثل بعض طلابنا في مدارسنا الحديثة الذين لا يعلمون ما يدرسون، ولا يعون ما يحفظون، ولا يتأدبون بما يعرفون، وإنما يتشدقون تشدق وزرائنا وخبرائنا بوزارتهم أنها وزارة تربية وتعليم، والله ما وقفنا على خيط من خيوط التربية إلا ما ندر، ولاعرفنا من الإبداع في العلم إلا قدر صحة خبر طيران النوق، وإدراك بيض الأنوق، على ما يقول الحريري في مقاماته؟!

قال : لقد تربىٰ إمامنا في بيت زهد وورع ، وحفظ كتاب الله صغيراً ، وحفظه ربه ، فإن من عباد الله الصالحين من يصنعه الله علىٰ عينه ليكونوا للعباد نبراس هدي ومنار طريق يهدي إلىٰ الحق والفضيلة .

عاش الطبري عمره مستمسكًا بدينه ، عاملاً بشريعته عاملاً لها ، يجعل من كتاب الله وكلام رسوله ﷺ أنيساً له في وحشته ، وكان حسنَ القراءةِ ؛ ولـمَّا سمعه أبو بكر بن مجاهد التفت إلىٰ أبي علي الطومالي فقال له : يا أبا عليٍ ، ما ظننت أن الله خلق بشراً يحسن أن يقرأ هذه القراءة .

ووصفه كثير من تلاميذه ومن خير رجاله بأنه كان زاهداً عازفًا عن الدنيا ، مترفعاً عن التماسها ، خاشعا أمينا تقيا ما سمعه أحد حلف بالله ، وقد عاش حياته عزبًا عفيفًا حصوراً لا يعرف النساء ، العلم همه ، وطلبه غايته ، ولذلك أثمر تلك البركات الحسان(١) .

ثم إني قصدت باب مؤرخ الإسلام الذهبي في خشوع.

وقلت : يا إمام المؤرخين، هلا حدثتنا عن شجاعة وجرأة شيخ المفسرين، هل كان ـ حاشاه ـ خنوعًا خضوعًا هيبًا، كأصحاب الهيبة والخيبة والذلة من سدنة الدنيا وصناديد جمع المال؟

---

(١) الإمام الطبري ص٢٩ .

نظر إليَّ الذهبي نظر شذر مذر..

وقال : ويحك يا بن ياسين، ألا قطع الله لسان الأعادي في كل عصر سوء كعصركم أو كل مصر وناد، لقد جاوزت الخطوط الحمر والبيض، وخلطت بين عصرك، ومجد أمتك التليد، اسمع عن الطبري وشجاعته وجرأته وعلم من وراءك ومن قدامك، الذي يبحث عن الحقيقة يجتليها، والذي يكرس جهوده في سبيل الحق وإعلاء رايته لا يمكن بحال أن نراه في يوم من الأيام يماري أو يداري، ومن أبرز سمات العلماء الذين على مستوىٰ علمه، الغضب والغيرة والثورة عندما تنتهك لله حرمة، وابن جرير ـ عليه من الله الرحمة والرضوان ـ كان هذا دأبه وتلك سيرته؛ أخلص لله عمله فنظر إلىٰ الدنيا مستهيناً بها، وهذا ما يدفعه إلىٰ أن يكون جريئًا شجاعًا لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد كان يناله من الحساد والعامة أذيً كثير، ولكن هيهات فلن يثنيه ذلك عن قول الحق ولو كان دونه خرط القتاد.

طُلب إليه أن يتولىٰ القضاء فرفض ذلك؛ لأنه يعرف من حاله الصراحة فآثر التأليف وخدمة العلم علىٰ ذلك، ومما يحفظه لنا التاريخ من جرأته مع لطافته وبلاغته وعدم التفاته لأبناء الدنيا ما رواه عثمان الدينوري قال: حضرت مجلس الطبري وحضر الفضل بن جعفر بن الفرات ابن الوزير وقد سبقه رجل، فقال الطبري للرجل: ألا تقرأ؟ فأشار إلىٰ ابن الوزير، فقال له الطبري: إذا كانت النوبة لك فلا تكترث بدجلة ولا الفرات.

وقال الذهبي في تذكرته نقلاً عن أبي محمد الفرغاني :

كان أبو جعفر لا تأخذه في الله لومة لائم مع عظيم ما يؤذىٰ، فأما أهل العلم والدين فغير منكرين علمه وزهده ورفضه للدنيا[١].

ثم إني قصدتُ ياقوت الحموي، في علو جنابه وعلم تصانيفه وأنافة بابه..

وقلت : يا ياقوت العلماء، ويا مقدم الأدباء، هلا حدثتنا عن سعة وشمول ثقافة الطبري شيخ المفسرين ؟ هل كان هو من العالمين بجانب والغافلين عن

---

(١) الإمام الطبري ص٣٢ .

جوانب؟! هل كان كبني عصرنا يجهلون أكثر مما يعلمون، ويفتون بأكثر مما يعلمون، وهم في كل وادٍ وبادٍ يهيمون هيام الشعراء، في مدارج البلاء؟

فرد عليَّ قائلاً : لست أعقب على إسهابك أيها الياسيني يا بن ألفية الفضائيات والإعلام، فضائيات الجهل إلا عن الرقص والغناء، وإعلام اللا إبداع إلا في السفاهة والضياع، اسمع خبر مقولي، وعِ الكلام خير وعي.

إذا ذكر الطبري فإن اسـمه يقترن بعلم الحديث والفقه والتفسير والتاريخ، ولكنه لا يقتصر على هذا فقط، بل إنه كما سبق ذكره في أول الحديث عنه كان يمثل بثقافته الواسعة دائرة معارف القرن الثالث الهجري، ولم تكن هذه الخصوصية للطبري وحده، بل إن علماء الإسلام السابقين كان الرجل منهم فقيهاً ولا يمنعه ذلك أن يكون فلكيًا ماهراً، وقد يكون محدثًا، ومع هذا نراه معدوداً من جملة الرياضيين البارزين وهلم جرا.

أما صاحبنا فيكفي في هذا المجال أن نذكر ما قاله عنه ياقوت في معجمه:
كان أبو جعفر كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالماً بالعبادات جامعاً للعلوم.

وقد تحدث تلاميذه ومؤرخوه بأنه كان عالـمًا بالفلسفة، وقد أخذ كتاب فردوس الحكمة لعلي بن زيد الطبري عن صاحبه مشافهة، وهو كتاب جليل في فنه يقع في ستة مجلدات، وكذلك كان عالماً بالمنطق والجدل وهذا يظهر في تحليله لمذهب خصومه والرد عليهم، ومع هذا فقد كان عنده علم من الطب والجبر وعلوم الرياضيات(١).

ثم إني التفتُ إلى ذوي العلم والفضل والمجد والذخر أعني آل شاكر محمود وأحمد، أهل الأدب والبلاغة والبيان وسألتهما :

قائلا : يا أهل الأدب والفقه والفضل، يا معالم الحضارة في عصرنا، يا أيها

(١) الإمام الطبري ص٣٦ .

العدويان الحسنيان الشريفان، هلا أخبرتماني عن خصائص تفسير إمام وشيخ المفسرين الطبري، والذي طفقتما في تحقيق وتدقيق بعض أجزائه، كيف كانت نهجته وما علامات وإمارات منهجه؟!

قالا : اسمع يابن ياسين، أما عن منهج الطبري فكان يقوم على :

الاعتماد على التفسير بالمأثور، وتجنب التفسير بالرأي، فجمع الطبري في تفسيره بين الحسنيين :

الأولى : أنه تجنب التفسير بالرأي المجرد ، الذي يدفع صاحبه إلى القول بما يمليه عليه هواه واتجاهاته المنحرفة .

ففي الوقت الذي كانت الصوفية تعتمد في تفسيرها على الوجدان، وتحاول أن تطوع مفاهيم كتاب الله على هواها، وأن تحرف اللغة أو ترمي بها عرض الحائط إذا لم توافق مدلولاتهم وتسير على مطالبهم في تفسيرهم .

وفي الوقت الذي كانت الباطنية تحرف معاني كتاب الله ليوافق باطلهم كان ابن جرير يقول في معرض الحديث عن التفسير بالرأي المجرد : «ولا يجوز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه، وإن أصاب الحق فيه - مخطئ فيما كان فعله بقيله فيه برأيه؛ لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق، وإنما هي إصابة خارص وظان، والقائل في دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم» .

وقد أورد أحاديث كثيرة كلها تذم التفسير بالرأي المجرد الذي مصدره العقول الضيقة المدارك مهما كانت مهارتها إن لم تعتمد على المنقول، وما أعظم تحرج الصديق من التقول على كتاب الله بدون علم وذلك في قوله : «أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن ما لا أعلم» .

وعليه فقد تجنب الطبري التفسير بالرأي المجرد فقط، أو الرأي المدفوع ببدعة مضلة، أو مطمع سياسي، أو تعصب مذهبي(١) .

ثانيًا : كان من منهجه الإكثار من الحديث النبوي؛ إذ المطلع على تفسير

---

(١) الإمام الطبري ص٥٩

الطبري يجد نفسه في روضة من رياض جنة حديث المصطفىٰ ﷺ، يأخذ معاني كتاب الله من هدي الرسول ﷺ وتفسيره، ولا غرابة فهو الذي حفظ ووعىٰ الحديث، وأخذه من علماء السنن وكنوزها زد علىٰ ذلك ما دبجه يُراعُ ذلك العالم من تصنيف بديع وترتيب منسق.

وتفسير ابن جرير جمع فيه بين الرواية والدراية والتفسير بالمأثور وبالاجتهاد، ومن هنا يحق لنا أن نطلق عليه أنه كنز من كنوز السنن بما جمع فيه من الأحاديث النبوية المفسرة لمعاني كتاب الله جل وعلا.

عنايته باللغة والإعراب والقراءات والاستشهاد بالشعر العربي:

أ ـ عنايته باللغة والإعراب:

كثيراً ما يورد الطبري ـ رحمه الله ـ أقوال النحويين في تخريج بعض التراكيب القرآنية، وكثيراً ما يجعل التخريج النحوي الراجح توجيهاً للقراءة ويورد كثيراً من الإعرابات، ويقارن بينها، ويعلل لكل معنىٰ منها، ثم يختار ما يراه راجحًا، ولا غرابة فهو في هذا الفن إمام شهد له فحول اللغة والنحو بالسبق والإجادة، والبحوث اللغوية والنحوية الموجودة في تفسيره ثروة علمية ضخمة للباحثين.

قال في تأويل قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾(١)، قوله: ﴿ **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ وجهان من التأويل، ثم استعرض الوجهين مستدلاً بالتخريج النحوي علىٰ المعنىٰ، فقال: أحدهما أن يكون ﴿**فَتَكُونَا**﴾ في نية العطف علىٰ قوله: ﴿**وَلَا تَقْرَبَا**﴾ فيكون تأويله حينئذ ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾ ولا تكونا من الظالمين، كما قال امرؤ القيس:

فقلتُ لـهُ صَوِّبْ ولا تَجْهَدَنَّـهُ ... فَيُذْرِكَ مِنْ أخْرَى القَطَاةِ فتزْلَقِ

فجزم امرؤ القيس «فيذرك» بما جزم به لا «تجهدنه» كأنه كرر النهي، والآية كذلك.

وقال في الوجه الآخر: إن جملة ﴿ **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ بمعنىٰ جواب النهي

---

(١) البقرة: ٣٥.

فيكون تأويله حينئذ «ولا تقربا هذه الشجرة فإنكما إن قربتماها كنتما من الظالمين» (والصحيح هو الأول؛ إذ يترتب على التفسير الثاني محذور وهو إضمار أن، وهذا لم يروه جميع أهل اللغة).

ومن أبحاثة اللغوية قوله في تصريف كلمة «شطن» : والشطون البعد، فكأن الشيطان على هذا التأويل فيعال من شطن. قال أمية : أيما شاطن عصاه عكاة، ولو كان فعلان من شاط يشيط لقال : أيما شائط، ولكنه قال : أيما شاطن؛ لأنه من شطن يشطن فهو شاطن(١) .

ب ـ القراءات :

للطبري في القراءات مجال واسع وباع طويل، فهو ذو قراءة مستقلة (أو يكاد أن يكون كذلك) وله في هذا المنوال مؤلفات جيدة منها كتابه (القراءات وتنزيل القرآن) وقد بلغ ثمانية عشر مجلداً فتراه يورد القراءات ويوازن بينها، وقد يورد بعضها ويرجح البعض الآخر، وهو في هذا جد خبير.

قال عند تأويل قول الله تعالى : و﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾(٢) : والقراء مختلفون في قراءة «ملك يوم الدين» فبعضهم يقول «ملك يوم الدين» وبعضهم يقول : ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، ثم بدأ ـ رحمه الله ـ يوجه القراءتين ويبين معناهما وما دلا عليه فقال : ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب، أن المَلكَ من المُلْك مشتق، وأن المالك من المِلْك مأخوذ، فمعنى ملك يوم الدين أن لله الملك يوم الدين خالصاً دون جميع خلقه .

وقال ـ رحمه الله ـ كلامًا كثيرًا حول هذا المعنى، ثم أورد معنى تأويل القراءة الثانية وهي ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ فقال رواية عن ابن عباس أن معناها : (لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً كملكهم في الدنيا .

ثم رجح وعلل فقال : وأولى التأويلين بالآية وأصح القراءتين عندي التأويل

---

(١) انظر : ص ٦٦ ، ٦٧ . (٢) الفاتحة : ٤ .

الأول وهي قراءة من قرأ «مَلِكِ يوم الدين» بمعنى المُلْك ؛ لأن في الإقرار له بالانفراد بالملك إيجاباً لانفراده بالملِك ؛ إذ كان معلوماً أن لا ملك إلا وهو مالك وقد يكون المالك لا مالكًا(١) .

جـ ـ الاستشهاد بالشعر العربي :

نزل القرآن بلغة العرب وهم ضمنوا أشعارهم ذخيرة لغتهم ؛ لذا كان من الضروري أن يرجع الطبري إلى أشعار العرب كما كان يفعل ترجمان القرآن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢)، فقد نسب إليه سعيد بن جبير أنه ماكان يفسر آية إلا ويستشهد ببيت من شعر العرب .

والطبري له بلغة العرب وأشعارهم علم لا يستهان به ، فهو من أملى على ابن سراج المصري شعر الطرماح بن حكيم ، وكان لأشعار العرب حافظًا ، وللغتهم متقنًا كيف لا ، وهما من أهم الأشياء لفهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وقد ظهر ذلك جليًا في تفسير الطبري فضمن تفسيره من أشعار العرب الكثير والكثير والأمثلة على ذلك متعددة وسأكتفي بذكر البعض منها .

قال ـ رحمه الله ـ في تأويل قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾(٣) ، والصيب الفيعل من قولك : صاب المطر يصوب صوبا ، إذا انحدر ونزل ، كما قال الشاعر :

فَلَسْتُ لإنْسِيٍّ وَلَكِن لِمَلأكٍ ... تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ (٤)

وقال علقمة بن عبدة :

كَأَنَّهُمْ صَابتْ عَليهمْ سَحَابَةٌ ... صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبيبُ

(١) الإمام الطبري ، لعبد الله بن عبد العزيز آل شاكر ، ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٢) يقصد عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما .
(٣) البقرة : ١٩ .
(٤) هذا البيت يقال : إنه لسيبويه ، ويقال : إنه لرجل من عبد القيس يمدح النعمان ، وحكى السيرافي أنه لأبي وجزة السعدي يمدح عبد الله بن الزبير .

فَـلا بَيْنِـي وَبَيْـنَ مغمَّـرٍ سَقيتَ رَوَايَا المُزْنِ حِينَ تُصَوّبُ(١)

وقال في تأويل قوله تعالى : ﴿ **وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** ﴾(٢) : قال ابن عباس : «لخلطنا عليهم ما يخلطون»، ثم عقبه بقوله، ومن ذلك ما قاله العجاج :

لَمَّا لَبَسْنَ الحقَّ بالتَّجَنِّي غَنَيْنَ واسْتَبْدَلْنَ زَيْدًا مِنِّي

يعني بقوله : لبسن : أي خلطن(٣) .

ثم سألت ياقوت العلماء قائلا : وماذا عن عقيدة ومذهب الطبري في التوحيد وخاصة الأسماء والصفات، هل كان متأولاً، أو نافيًا، أو مثبتًا منزهًا على ما جاء عن سلفنا الكرام رحمهم الله ؟

قال : ترجيحه لمذهب السلف في الصفات، جعله سلفي المعتقد وله مع أهل الزيغ صولات وجولات سلف ذكر بعضها فيما سبق من ترجمته.

ولابد لكل ساطع بالحق من أن يجد في الطريق بعض العقبات، ولكن ذلك لايثني أولي العزم والتصميم، وما موقفه ممن تتطاول على سب الصحابة، وكذلك موقفه من أهل الجدل إلا شاهداً على صحة معتقده وسلفيته، ولقد أثبت لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وخالف المعتزلة في جميع ما خالفوا فيه الجماعة، خالفهم في قولهم بقدرة العبد، خالفهم في قولهم بإبطال رؤية الله يوم القيامة، وخالفهم في قولهم بخلق القرآن، وخالفهم كذلك بل وهجم عليهم فيما نفوا عن الله من الأسماء والصفات(٤) .

---

(١) يعني حين تنحدر وهو في الأصل «صَيْيوب» ولكن الواو لما سبقتها ياء ساكنة، صيرتا جميعًا ياء مشددة، كما قيل : سيد من ساد يسود، وجيد من جاد يجود، وكذلك تفعل العرب بالواو إذا كانت متحركة وقبلها ياء ساكنة، تصيرها جميعًا ياءً مشددة.

(٢) الأنعام : ٩ .

(٣) الإمام الطبري، لعبد الله بن عبدالعزيز آل شاكر، ص ٧٠ .

(٤) المرجع السابق، ص٧٣ .

خامساً : أئمة الحديث وحفاظه ورجالاته الكبار

١١ ـ البخاري .. إمام المحدثين.

١٢ ـ مسلم بن الحجاج النيسابوري .

١٣ ـ الإمام الترمذي.

١٤ ـ الإمام النسائي.

١٥ ـ الإمام أبو داود .

١١ ـ محمد بن إسماعيل البخاري
إمامُ المُحدثين

(١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ / ٨١٠ ـ ٨٧٠ م)

مقدمة ومنهج :

هذه معالجة منهجية لسيرة الإمام البخاري، تقصدت وضعها على منهج محاورة، بيني وبين مترجمي الإمام، وعلماء الحديث، وبعض شراح البخاري، لما لذلك من طرافة وجدة ، هادفين إلى :

- تبصير طلاب العلم بهذه الجوانب المضيئة من سيرة هذا العلم الشامخ والرمز البارز في تاريخ علم الحديث، بل في عموم حضارة الإسلام أجمع .
- وقد اعتمدنا في هذه الترجمة على بعض الكتب المفردة وغير المفردة ـ وما أكثرها ـ في ترجمة الإمام والتعريف به وبفضله وقدمنا الاعتماد على بعضها كمرجع رئيس مثل سيرة الإمام البخاري للعلامة الشيخ عبدالسلام المباركفوري ترجمة د. عبد العليم البشتوي ط. الرياض، وعلى مقدمة الفتح (هدي الساري) لابن حجر العسقلاني ط السلفية، إضافة إلى سير أعلام النبلاء للذهبي، وتاريخ بغداد، وغيرها .

١ ـ شجرة البخاري جذورا، وغصونا ومنبتا :

قلت: أيها المترجمون والعلماء العارفون، وافاكم الظفر، وعلاكم النصر، وحملتكم مراكب الفخر والمجد، إذ تسألون فتخبرون عن خير أخيار علماء أمة الإسلام بعد صدرها الأول، عن إمام الراوين، وسيد المدافعين عن رسول رب العالمين وعن سنته، إنه الرائد في هذا المضمار، إنه القائد بلا شك ولا امتراء، إنه أمير المؤمنين في علم الحديث بلا مدافع ولا مبالغ ولا أدنى ريبة..! ومن شك فعلى نفسه،

وليأتنا بأثارة من علم إن كان من الصادقين، حدثوني وأخبروا الدنيا من ورائي شرقًا وغربًا، مللاً ونحلاً عن ذلكم الأوحد المفرد في علمه وحفظه وفهمه عن إمام الصحيح محمد بن إسماعيل البخاري.

قالوا : يا بن ياسين لقد سألت عن البحر الزاخر والشرف الفاخر، وكل ما نقوله يتقاصر أمامه، فلندع ما نعجم عن قوله، ولنقل ما نقدر عليه، هو الإمام وما أدراك ما الإمام؟!! محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة وكفى(١) .

نسب البخاري وسيرته :

قلت : عرفنا بإجماع العلماء أنه الأعجمي الذي ساد كثيرًا من أقرانه العرب علمًا وفضلاً ومجداً بديانته ومعرفته ومؤلفه الأجل «الجامع الصحيح» فكيف أسلم جده المغيرة وماذا عن ذويه وأهليه ؟

قالوا : قد أسلم أبو جده «المغيرة» على يدي «يمان الجعفي» حاكم بخارى واستوطن بخارى، وكان العرف السائد أن الإنسان إذا أسلم على يدي رجل نسب إلى قبيلته، وكانت تسمى هذه النسبة نسبة الولاء في الإسلام، ولم يكن المغيرة بمعزل من هذا العرف العام؛ ولذلك نسب هو وكل من ولد له من بعده حتى الإمام البخاري «جعفيًا».

قال الحافظ ابن حجر : «فنسب إليه (الجعفي) نسبة ولاء عملاً بمذهب من يرى أن من أسلم على يدي شخص كان له ولاؤه، وإنما قيل له: «الجعفي» لذلك(١). لم ينسب بيت الإمام البخاري إلى الرق أبداً، فلا نتحمل مشقة نفي ذلك كما تحملها معاصرنا شمس العلماء النعماني عندما كان يؤلف «سيرة النعمان» فسود عدة صفحات لأجل هذا الغرض».

كذلك لم نجد أي اختلاف في سلسلة نسب البخاري حتى نلجأ إلى التكلفات

---

(١) سيرة الإمام البخاري، للعلامة الشيخ عبدالسلام المباركفوري ص٥٥،٥٦ ، ترجمة: د. عبدالعليم البشتوي. ط: دار عالم الفوائد، الرياض ١٤٢٢هـ. ومقدمة الفتح ص٤٧٧ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/ ٦ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٢/ ٣٩٢ .

الباردة الركيكة في تأويلها ونضطر إلىٰ التخمينات البعيدة لتحبير كلمات لا طائل تحتها، نعم لقد كتب بعض المؤرخين أن اسم جده كان «الأحنف» بدلاً من «بردزبه».

قلت: هلا عرفتمونا ببعض من خبر أبيه، وقد سمعنا أنه كان من ذوي العلم والفضل، وقد انعكس هذا على ابنه الذي ساد أباه وساد ذويه مجداً وفضلاً، وهو أحق بمن قال:

لا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ بِي شَرُفُوا ... بِنَفْسِي أَفْخَرُ لا بِجُدُودِي

قالوا: والد الإمام البخاري هو «إسماعيل» وكنيته «أبو الحسن» كان من كبار المحدثين، من تلاميذ وأصحاب الإمام مالك، ولكننا مع الأسف لم نعرف له حتىٰ الآن أي مصنف.

لقد روى الأحاديث عن: حماد بن زيد، والإمام مالك، وأبي معاوية، وغيرهم من علماء عصره، لقي عبدالله بن المبارك واستفاد منه.

ومن تلامذته من أهل العراق: أحمد بن حفص، ونصر بن الحسين وغيرهما.

ومن جملة الفضائل والمزايا التي اتصف بها الإمام البخاري أنه كان هو وأبوه من المحدثين ومن أصحاب الفضل، ولم يحصل هذا الفضل في المسلمين إلا لأناس معدودين مختارين.

قلت: ماذا عن تلك البقعة المباركة المدعوة بخارى التي إليها ينتسب البخاري، ومتى فتحها المسلمون، وأين هي الآن، وهل خرج منها عظماء غير الإمام البخاري، وكفى بها البخاري ؟!

فتح بخارى في عهد بني أمية:

قالوا: قد اختلف المؤرخون في تاريخ فتح بخارىٰ واستيلاء المسلمين عليها، وقد ذكر الحموي في معجم البلدان عدة أقوال(١):

فقيل: إنها فتحت بيد سعيد بن عثمان ابن الخليفة الثالث في سنة ٥٥هـ في خلافة معاوية، وكان حاكم خراسان من قبل معاوية.

---

(١) سيرة الإمام البخاري لعبد السلام المباركفوري، ص٦٥ ـ ٦٧.

وقيل: فتحها قتيبة بن مسلم أيام إمارة الحجاج سنة ٨٨هـ أو سنة ٩٠هـ، وقد ذكر هذا القول العلامة ابن الأثير في تاريخه الكامل، وعلىٰ كل حال اتفق المؤرخون علىٰ أن المسلمين فتحوها في خلافة بني أمية.

وقد ذكر ياقوت الحموي حديثًا طويلاً من طريق حذيفة بن اليمان الصحابي في فضل بخارىٰ، ولأجل هذا الحديث تمنىٰ الصحابي أن يكون هو الذي فتح بخارىٰ، ونسب هذا الحديث إلىٰ الرسول ﷺ بسند طويل، إلا أنه من الصعب ثبوت هذا الحديث، فلقد ولد محمد بن إسماعيل، الذي كان من المقدر له أن يلقب بـ« **إمام المحدثين** » و« **أمير المؤمنين في الحديث** »، و« **سيد الفقهاء** »، والذي كانت الأقدار قد رشحته لتجديد السنة النبوية وإحيائها، في هذه المدينة بخارىٰ في ١٣ من شهر عيد الفطر سنة ١٩٤هـ بعد صلاة الجمعة فكأنه قد طلع كهلال العيد.

قال الجامي ما معناه بالعربية: السكة التي ضربت في البطحاء ويثرب قد انتهىٰ ضربها في بخارىٰ، وذكر البخاري أنه وجد تاريخ ميلاده مكتوبًا بخط والده، وقد أنجبت أرض بخارىٰ كثيراً من أهل الفضل والكمال غير الإمام البخاري، منهم: أبو علي ابن سينا، الذي لقب بالمعلم الثاني في الفلسفة اليونانية والمنطق والطب، وقد بلغ مرتبة الوزارة، وتوفي سنة ٤٢٨هـ.

قلت : ماذا عن نشأة البخاري العلمية، وماذا عن نبوغه في الطب؟!

البخاري مدرس منذ صغره :

قالوا : بعدما عرفنا أحوال أبوي الإمام البخاري ولو بإيجاز نستطيع أن نتوسم طريقة تربيتهما للإمام البخاري وتعليمه.

وقد ذكر الإمام القسطلاني قولاً جامعًا لأحد المحدثين إذ قال : « فقد ربي في حجر العلم حتىٰ ربا وارتضع ثدي الفضل ، فكان فطامه علىٰ هذا اللبا»(١) .

(١) سيرة الإمام البخاري لعبدالسلام المباركفوري ص٦٩ ـ ٧١ .

لقد توفي والده إسماعيل وكان البخاري صغيراً فعادت كفالته إلىٰ أمه، ولـما بلغ سن التمييز مال قلبه إلىٰ حفظ الأحاديث وتحقيقها والعلوم الإسلامية، وكيف لا وقد ورثه من والده العظيم.

قال محمد بن أبي حاتم الوراق: «سمعت البخاري يقول: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكُتَّاب».

قلت: وكم أتى عليكم إذ ذاك؟

فقال: عشر سنين أو أقل ومن هذه السن المبكرة بدأ يشترك في حلقات المدرسين، وقد حدث في بداية طلبه أن العلامة الداخلي، وكان من كبار المحدثين في بخارىٰ في ذلك العصر، وكانت له حلقات رائعة مشهورة ـ كان يدرس ذات مرة حسب عادته، وكان البخاري أيضًا يسمع، فقال الداخلي في إسناد حديث: «سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم».

فقال البخاري: «إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم»، وكان يريد أن ينبهه علىٰ خطئه في هذا السند، ولكن الداخلي دهش لما سمع هذا الصوت وانتهره، ولكن البخاري قال بكل هدوء: «ارجع إلىٰ الأصل إن كان عندك».

فدخل الداخلي وراجع الأصل فاعترف بصحة قول البخاري وانتبه لخطئه، إلا أنه أجل تصحيح السند، وتركه من باب الإنصاف، أو بإرادة الاختبار، وجعل تصحيحه إلىٰ الإمام البخاري، فعندما خرج قال له: «كيف هو يا غلام» فأجاب البخاري مرتجلاً هو هكذا «الزبير، وهو ابن عدي ـ عن إبراهيم» فأخذ القلم وأصلح كتابه، وقال: صدقت، قال: فقال له إنسان: «ابن كم كنت حين رددت عليه؟» قال: «ابن إحدىٰ عشرة سنة».

وكما أن البخاري ألهم حفظ الأحاديث منذ العاشرة من عمره، ومازالت هذه الرغبة تنمو وتزداد فيه، كذلك وكان حريصًا علىٰ تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها، ومعرفة علل الحديث والاطلاع علىٰ أحوال رواة الحديث ومعرفة عدالتهم وضبطهم وأمانتهم وصدقهم ومعيشتهم ومسكنهم ومولدهم ووفياتهم وفيما بينهم، ومقارنة الأسانيد بعضها ببعض، ومعرفة اتصالها وانقطاعها، وقد بلغ بالفنون

الحديثية إلىٰ أسمىٰ مكانتها، وتميز باستنباط المسائل من الأحاديث وجمعها ومقارنتها بالآيات القرآنية.

وخلاصة القول: أن البخاري كان مغرماً بهذه الأمور كلها منذ البداية، ومع مرور الأيام وانقضاء الليل والنهار كانت هذه الأفكار ترسخ في قلبه وتتقوىٰ.

قلت: فماذا عن رحلات البخاري ضربًا في الأرض في طلب العلم، فالرحلة في طلب الحديث كانت من سمات علماء هذا العصر؟

وقد قال أبو العالية من أئمة التابعين: «كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم».

وهذا إبراهيم ابن أدهم يقول: «إن الله يرفع البلاء من هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث»[1].

رحلة البخاري وما لاقاه من أهوال في طلب العلم:

قالوا: صدقت يا بن ياسين، لقد عقد الإمام البخاري عزمه علىٰ الرحلة في طلب الحديث، وكان العالم الإسلامي قد أصبح مترامي الأطراف وكانت رقعة البلاد الإسلامية قد توسعت بكثرة الفتوحات، وكان أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم وأتباع أتباعهم قد تفرقوا وانتشروا في البلدان المختلفة المتباعدة، وكان حملة الأحاديث ينشرون فيوضهم في البلدان والأمصار المتباينة، ولا شك أن بلاد الحرمين لها ميزة خاصة؛ لأنها المركز الأصلي ومهبط الوحي، ولكن مع ذلك كان عدد كبير من الصحابة والتابعين قد نزلوا وأقاموا في بلاد أخرىٰ، فكان من اللازم علىٰ رجل رزق حب العلوم الإسلامية منذ نعومة أظفاره، ونشأ وترعرع مولعًا بها، شغوفًا بحبها أن يستعد لرحلة طويلة غير محدودة، ولا ريب أن مثل هذا العمل يحتاج إلىٰ عزم قوي وهمة عالية وعقل متفتح وقلب واسع، ولقد وهب الله تعالىٰ الإمام البخاري كل هذه الأوصاف والميزات.

---

(١) سيرة الإمام البخاري، سيد الفقهاء وإمام المحدثين، تأليف عبدالسلام المباركفوري ص٨٢، ٨٧ـ٩١، ٩٤، ٩٨ـ١٠١.

لقد كان الإمام البخاري ـ الذي أعطي الحظ الأوفر من سعة العقل والقلب، وعلو الهمة، والعزم الشامخ ـ لا يفتر عزمه بالجوع بعد الجوع، وكان يربط على أقدامه الخرق والرقاع، ويقطع مسافات شاسعة ماشياً على قدميه، عند انعدام المركوب، وتتجعد جبهته على المصائب الشديدة والمحن القاسية، ولم تخمد جذوة الشوق في قلبه ولو اضطر على الاكتفاء بالحشائش وأوراق الشجر، ولم تنطفئ تلك الشعلة التي تتوقد في القلب من الحنين إلى العلم ولو بعد آلاف من المتاعب والمحن، ولم يسترح ويتلذذ من كل هذه المشقات والصعاب، وكان يضحي بكل ما أعطي من غال ونفيس في هذا السبيل، ولا يبخل حتى بحياته من أجل هذا العمل الجليل.

كل هذه الصفات هي التي جعلت الإمام البخاري يرتفع إلى طبقة كبار الأئمة الذين كانوا قد سبقوه في الزمان، ومن هنا يظهر معنى قوله: «نحن الآخرون السابقون».

- **أما خراسان ونواحيها** من مرو وبلخ وهراة، ونيسابور والري وجبال خراسان، فكلها من الأمكنة التي كان يرتادها الإمام البخاري منذ زمان قديم.
- **وأما بخارى وما جاورها** من سمرقند وطشقند وغيرهما فهي موطنه.
- **أخذ في مرو** من علي بن حسين بن شقيق، وعبدان، ومحمد بن مقاتل وأقرانهم.
- **وفي بلخ** من مكي بن إبراهيم، ويحيى بن بشر، ومحمد بن أبان، وحسن بن شجاع، ويحيى بن موسى، وقتيبة، ومعاصريهم، وقد روى عنهم روايات كثيرة.
- **وفي هراة** أخذ من أحمد بن أبي الوليد الحنفي.
- وفي **نيسابور** من يحيى بن يحيى، وبشر بن الحكم، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن رافع وأقرانهم.
- **وفي الري** من إبراهيم بن موسى.
- **وفي واسط** من حسان بن حسان، وحسان بن عبدالله، وسعيد بن عبدالله وأقرانهم.

وبعد هذا التفصيل قال المحدث الإمام الحاكم: «لقد رحل البخاري إلى هذه البلاد المذكورة في طلب العلم، وأقام في كل مدينة على شيوخها، قال: وإنما سميت من كل ناحية جماعة من المتقدمين ليستدل به على عالي إسناده».

وقال الخطيب البغدادي : «رحل البخاري إلىٰ محدثي الأمصار وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق كلها والحجاز والشام ومصر وورد بغداد دفعات» .

شيوخ البخاري ومن أخذ عنهم :

وقال جعفر بن محمد القطان : سمعت الإمام البخاري يقول : «كتبت عن ألف شيخ من العلماء وزيادة، وليس عندي حديث إلا أذكر إسناده» .

وذكر المؤرخون أن هذه الزيادة بلغت ثمانين شيخاً .

وحسبما ذكره العلامة الكرماني : يوجد منهم في الصحيح مئتان وتسعة وثمانون شيخاً، الطبقة الأولىٰ منهم من أئمة التابعين، ولكن ينبغي لنا أن نذكر أن البخاري كان يقول : «إنه أخذ فقط عن أولئك الشيوخ الذين كانوا يقولون بزيادة الإيمان ونقصانه، ويعتبرون الأعمال جزءاً من الإيمان كما، هو مذهب الصحابة وعلماء التابعين» .

وأما تاج الدين السبكي فإنه ينفي في الطبقات الكبرىٰ رحلته إلىٰ الجزيرة ويرىٰ أن البخاري إنما يروي عن شيوخ الجزيرة بواسطة، إلا أن قوله هذا يخالف ما وصل إليه تحقيق الإمام النووي والحافظ ابن حجر : لم يزل البخاري يأخذ من شيوخ بلده إلىٰ أن بلغ السادسة عشرة من عمره، ولما فرغ من الأخذ عنهم توجه نحو الحجاز منبع العلوم الإسلامية، وموطن الرسول ﷺ، ومهبط الوحي، ومنزل جبريل ومسكن أصحاب رسول الله ﷺ، ومركز الإسلام .

روىٰ ابن أبي حاتم الوراق كاتب البخاري أنه كان يقول : «فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء يعني أصحاب الرأي»، قال : «ثم خرجت مع أمي وأخي إلىٰ الحج»، وتبين من رواية الوراق هذه أن الإمام البخاري خرج في الرحلة الأولىٰ سنة ٢١٠هـ . وكان ابتداء سماعه سنة ٢٠٤ أو ٢٠٥هـ، وفي هذه الأيام القليلة كان الإمام البخاري قد أحرز فضلاً وكمالاً في بلده بحيث اندهش الناس . وبلغ موضعاً من الثقة والاعتماد لدىٰ أهل الكمال ما لم يبلغه كبار الأئمة طيلة حياتهم .

البخاري وطلبه للحج والعلم :

وفي سنة ٢١٠هـ حينما كان في السادسة عشرة من عمره خرج للحج مع أمه، ووصل مكة المكرمة، وكان معه أخوه أحمد، فلما فرغ من الحج رجعت أمه وأخوه إلى بلادهم، وبقي الإمام البخاري في مكة، فتحمل فراق أمه وأخيه متلهفاً إلى العلوم الإسلامية وبدأ يحضر مجالس الشيوخ في مكة.

وكان بين الأئمة الذين كانت تمتاز مجالسهم آنذاك في مكة المكرمة، ويعتبرون أئمة يرجع إليهم في هذا الشأن الإمام أبو الوليد أحمد بن محمد الأزرقي، وعبد الله ابن يزيد، وإسماعيل بن سالم الصائغ، وأبو بكر عبد الله بن الزبير، والعلامة الحميدي، وهناك شيوخ آخرون كان البخاري قد استفاد منهم في مكة المكرمة، ولكن لا تسع هذه العجالة لذكرهم جميعاً.

وبعد مكة توجه الإمام البخاري إلى المدينة حيث كان الناس يرتحلون إليها من أنحاء العالم، ويتعلمون العلوم النبوية كما أشير إليه في حديث: «**يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل... إلخ**»، ووصل المدينة في سنة ٢١٢هـ وكان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره، وكان من الأئمة المشهورين فيها آنذاك إبراهيم بن المنذر، ومطرف بن عبدالله، وإبراهيم بن حمزة، وأبو ثابت محمد بن عبيد الله، وعبدالعزيز بن عبدالله الأويسي، وأقرانهم، ولا يتسع لنا المجال هنا أن نحصي جميع شيوخه في المدينة.

وفي هذه الرحلة رتب مسودة كتابه «التاريخ الكبير» في الليالي المقمرة. وقد اتفق المؤرخون على أن إقامته في الحجاز (مكة والمدينة والطائف وجدة) ست سنوات، ولكن الواقع أن هذه المدة لم تكن متوالية أي أنه لم يقم هذه المدة كلها في رحلة واحدة.

البخاري (أخلاقه وعلائقه) :

قلت : فماذا عن أخلاقه وعاداته، وفضله وورعه ونفقته على طلبة العلم؟

قال : لقد ورث الإمام البخاري ثروة كبيرة من أبيه العلامة إسماعيل، ولم

يكن إسماعيل في تجارته كسائر الناس من التجار الذين قد لا يتورعون عن بعض الأمور، أو يقع من عمالهم وأعوانهم شيء من التساهل والخطأ فيقعون في أمور يلزم اجتنابها والحذر منها.

ولكن إسماعيل كان حذراً في تجارته محتاطًا في كسبه، فقد كان بعيداً كل البعد من جميع مواضع الشبهات، وقد قال ذلك لأبي حفص، وكان من أخص تلامذته، عند وفاته: «لا أعلم من مالي درهمًا من حرام، ولا درهما من شبهة»(١).

وتعجب أبو حفص من هذا القول الذي يدل علىٰ أن إسماعيل كان مبالغًا في الاحتياط واتقاء الشبهات، وفي الوقت نفسه كان يريد أن يوضح لوارثه الذي كانت الأقدار تهيئه ليكون إمام الدنيا ويلقب بإمام المحدثين ألاَّ يقع في قلبه أدنىٰ شك فيجتنبه أو يتنازل عنه، بل يستفيد منه في احتياجاته؛ لأنه طاهر وطيب من كل وجه.

أخلاق البخاري:

وذكر محمد بن أبي حاتم أنه كان يعطي هذا المال مضاربة، وهي نوع من أنواع التجارة، لكي يتفرغ لخدمة العلم النبوي، وكان الله سبحانه وتعالىٰ قد أغناه من كل جهة.

رحمة البخاري وعفوه:

وكان سمحًا رحيمًا قد أعطي حظًا وافراً، قال محمد بن أبي حاتم: «وكان لأبي عبدالله غريم قطع عليه مالاً كثيراً فبلغه أنه قدم «آمل» ونحن عنده بـ«فربر»، وقلنا له: «ينبغي أن تَعْبُرَ إليه وتأخذ مالك»، فقال: «ليس لنا أن نروعه».

ثم بلغ غريمه مكانه بـ«فربر» فخرج إلىٰ خوارزم فقلنا: «ينبغي أن تقول لأبي سلمة الكشاني عامل آمل ليكتب إلىٰ خوارزم في أخذه»، فقال: «إن أخذت منهم كتاباً طمعوا مني في كتاب ولست أبيع ديني بدنياي».

---

(١) سيرة الإمام البخاري لعبدالسلام المباركفوري، ص١٢٥ ـ ١٢٧.

ورعه وغايته من التجارة :

وكان يهدف الإمام البخاري من تجارته هذه (أي المضاربة) أن ينفع خلق الله، فكان يساعد طلبة العلم والشيوخ والمحدثين، وكان ينفق من دخله خمس مئة درهم على الفقراء، والمساكين، وطلبة العلم، وأصحاب الحديث كل شهر، فكان يعين طلبة العلم، ويشجعهم على الانهماك في طلب العلوم النبوية، ويحسن إلى أهل العلم كثيرا، ولم يكن يعرف الترف والبذخ في حياته في المأكل والمشرب.

كان قلبه مليئًا من مخافة الله تعالى ، جياشًا بعواطف الرحمة والعدل فكأنها أوصاف طبيعية فيه.

قال عبدالله بن محمد الصارفي:«كنت عند محمد بن إسماعيل في منزله فجاءته جاريته وأرادت دخول المنزل فعثرت على محبرة بين يديه، فقال لها: كيف تمشين؟ قالت: إذا لم يكن طريق، كيف أمشي؟ فبسط يديه، وقال: اذهبي فقد أعتقتك. قيل له: يا أبا عبدالله، أغضبتك؟ قال: إن كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما فعلت».

فكان بدل أن ينبه الجارية على ما فعلت أراد أن ينبه نفسه، «وذات مرة حملت إليه بضاعة أنفذها إليه أبو حفص أحد أخص تلامذة أبيه، فاجتمع بعض التجار إليه بالعشية وطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم.

فقال لهم:انصرفوا الليلة، فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف درهم، فردهم وقال: إني نويت البارحة أن أدفعها إلى الأولين، فدفعها إليهم وقال: «لا أحب أن أنقض نيتي».

فكان ـ رحمه الله ـ يريد أن يعود نفسه على الإيثار والبعد عن الجشع في حب المال الذي يعد من الصفات القبيحة.

قال عمر بن حفص الأشقر: «كنا مع محمد بن إسماعيل بالبصرة نكتب الحديث، ففقدناه أياماً فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان، وقد نفد ما عنده، ولم يبق معه شيء فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم، حتى اشترينا له ثوباً وكسوناه، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث»، فلم يرض الإمام البخاري لنفسه أن يعرض حاجته على

أحد، وحقًا : إن الغنىٰ غنىٰ النفس، وليس غنىٰ المال .

شدة حرصه على تحري الحلال من الحرام :

وكان يقول : «ما ينبغي للمسلم أن يكون بحالة، إذا دعي لم يستجب له»(١) .

وهذه كلمة جامعة من أقوال الإمام البخاري يطول شرحها، وملخصه أنه ينبغي للإنسان أن يكون ماله حلالاً، وكلامه صدقًا، وقلبه مليئًا من مخافة الله مخلصًا محبًا له، ولا يصح أن يغفل عن هذا .

ولقد كان من طبيعته تحمل المشاق، والمثابرة في العمل، وكان لا يحب أبدًا أن يكلف أحداً بعمل يستطيع هو أن يعمله بيده .

قال الوراق : «كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد، فكنت أراه يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري ناراً بيده ويسرج، ويخرج أحاديث، فيعلم عليها ثم يضع رأسه، فقلت له : إنك تحمل علىٰ نفسك كل هذا ولا توقظني، قال : أنت شاب فلا أريد أن أفسد عليك نومك» .

تعففه عن الذهاب للأمراء في قصورهم :

كان خالد بن أحمد الذهلي واليًا علىٰ بخارىٰ من قبل الطاهريين، ولما جلس الإمام البخاري في بخارىٰ واتجه إليه طلبة الحديث أفواجا طالبين الاستفادة من ينابيعه، وطار صيته في أرجاء العالم، طلب منه خالد بن أحمد الذهلي أن يأتي إليه في قصره لكي يدرسه وأبناءه صحيح البخاري والتاريخ، ولكن الإمام البخاري رفض هذا الطلب وقال للرسول : «**إني لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين**» .

فطلب الأمير مرة أخرىٰ بأنه إن كان لا يحب أن يأتي إلىٰ القصر الأميري فليعين وقتًا خاصًا للأمراء لا يشترك فيه بقية الناس، ولكن الإمام البخاري أبىٰ ذلك؛ لأن العلم ميراث النبي ﷺ، وطلب منه أن يحضر دروسه في الدار، أو في

(١) سيرة الإمام البخاري لعبد السلام المباركفوري، ص١٤٢ ـ ١٤٤ .

المسجد إن كانت له حاجة إليه : «فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من المجلس ؛ ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة أني لا أكتم العلم» .

وبعد هذا الجواب الصريح لم يكن من أمير بخارىٰ إلا أن غضب غضباً شديداً وحاول إخراجه من البلد ، إلا أن البخاري كان يملك قلوب المسلمين وحبهم ، فلم يستطع أن يخرجه بقوة الحكم والإمارة فأوعز إلىٰ أناس ليتهموه بتهمة تغضب عامة الناس ، فافتروا عليه فرية فأمر بعد ذلك أن يترك البلد .

قلت : هل أدرك المسلمون مكان ومقام البخاري وفضله، أم كانوا كبعض أهل عصرنا لا يحتفون إلا بأهل الفن ونجوم الطرب، وكواكب الشرق الغنائية، ومضحكات وملهيات التلفاز ؟!

قالوا : ليس الأمر علىٰ ما قلت يا بن ياسين ، إن أهل عصرنا ليسوا كأهل عصركم ، وشتان ما بين العصرين إنه بون ما بين الثرىٰ والثريا . . !![1]

كان الإمام البخاري كلما حل مدينة أو نزل أرضاً كان المسلمون يزدحمون حوله ازدحاماً يفوق الوصف والبيان .

وكان الناس بعد ما سمعوا تلك الأوصاف الخارقة التي وهبها الله لهذا الإمام الجليل من فقه عديم النظير ، وذاكرة خارقة وتبحر في العلم كانوا يتمنون رؤيته ، فإذا نزل مكاناً تجمعوا حوله بحيث لا يكاد يوجد موضع قدم .

ولما رجع الإمام إلى بخارى عائداً من رحلته الدراسية نصبت له القباب علىٰ فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد حتىٰ لم يبق مذكور ، ونثر عليه الدراهم والدنانير ، وجرىٰ معه مثل هذا في نيسابور .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : «لما قدم محمد بن إسماعيل نيسابور ما رأيت واليًا ولا عالـماً فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به ، استقبلوه من مرحلتين من البلد أو ثلاث» ، قال محمد بن منصور : «كان في الموكب أربعة آلاف خيالة وأما ركاب البغال والحمير والمشاة فلا يسعهم الحصر والعد» .

---

(١) سيرة الإمام البخاري لعبد السلام المباركفوري ، ص١٥٣ ـ ١٥٥ .

مناظرات البخاري مع أهل البصرة :

إلىٰ بغداد عاصمة بني العباس ومركز العلوم الإسلامية ذهب الإمام في إحدىٰ رحلاته، وكان صيته وذكره قد سبقاه إليهم، فاجتمع أهل بغداد وأعدوا برنامجًا خاصًا لاختبار ذكائه ومواهبه العلمية وذاكرته الخارقة .

أما البصرة فقد ارتجت وخرج إليه الألوف من أهلها لما علموا قدومه إليها .

قال يوسف بن موسى المروزي: «كنت بالبصرة في جامعها إذ سمعت مناديًا ينادي يا أهل العلم، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري، فقاموا إليه وكنت معهم، فرأينا رجلاً شابًا ليس في لحيته بياض فصلىٰ خلف الأسطوانة . فلما فرغ أحدقوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلسًا للإملاء فأجابهم علىٰ ذلك» .

«فقام المنادي ثانيًا في جامع البصرة، فقال : يا أهل العلم، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري فسألناه أن يعقد مجلس الإملاء، فأجاب بأن يجلس غدًا في موضع كذا، فلما كان الغد حضر المحدثون والحفاظ والفقهاء والنظارة حتىٰ اجتمع قريب من كذا كذا ألف نفس» .

فجلس أبو عبد الله للإملاء، فقال قبل أن يأخذ في الإملاء : يا أهل البصرة، أنا شاب، وقد سألتموني أن أحدثكم، وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها - يعني ليست عندكم، قال : فتعجب الناس من قوله، فأخذ في الإملاء فقال : حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبي رواد العتكي ببلدكم، قال حدثني أبي، عن شعبة، عن منصور وغيره، عن سالم بن أبي الجعد، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أعرابيًا جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، الرجل يحب القوم . . . الحديث .

ثم قال : هذا ليس عندكم عن منصور، إنما هو عندكم عن غير منصور .

قال يوسف بن موسىٰ : «فأملىٰ عليهم مجلسًا من هذا النسق، يقول في كل حديث روىٰ فلان هذا الحديث عندكم كذا، فأما من رواية فلان يعني التي يسوقها فليست عندكم» .

قلت : حدثوني أيها السادة عن مناقب وفضائل وخصائص ذلك الإمام الهمام، شيخ الإسلام، وإمام أئمة الحديث الأعلام.

قالوا: أما الرأي والتدبير والعقل والفراسة والذاكرة والاستحضار والذكاء فمن صفات الإمام البخاري التي اعترف بها كل مؤيد ومعاند(١).

قال قتيبة بن سعيد: «جالست الفقهاء والزهاد والعباد، فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل، وهو في زمانه كعمر في الصحابة».

وكانت ذاكرته القوية يضرب بها المثل بحيث كلما ذكر البخاري ذكرت معه هذه الصفة من أوصافه، وقد ترجم له الإمام الذهبي في تذكرة الحفاظ ترجمة مختصرة جداً، ولكن مع ذلك لم يفته أن يقول: «وكان رأسًا في الذكاء، رأسًا في العلم، ورأسًا في الورع والعبادة».

سعة علمه وعلو قدره:

ويعتبر الجمع بين المعقول والمنقول ومقارنة القوانين الشرعية والقوانين الوضعية من أعلىٰ درجات الكمال في أيامنا هذه، ونرىٰ أناسًا يتخصصون فيه ويشتغلون به، وقد ألف الإمام ابن تيمية والإمام ابن حزم مؤلفات خاصة في هذا الموضوع، والمجلات الإسلامية تهتم به كل الاهتمام وكأنها قد اختصت به وحق لها ذلك، فإن هذا الموضوع هو روح علم الكلام.

ومن مزايا ومحاسن الإسلام أن شريعته لا تخالف العقل السليم أبداً، ولكن الإمام البخاري قد سبقهم بالتفكير في هذا الموضوع منذ ألف سنة أو أكثر.

قال الشاه ولي الله في شرح تراجم أبواب البخاري: «وكثيراً ما يخرج الآداب المفهومة بالقول من الكتاب والسنة بنحو من الاستدلال والعادات الكائنة في زمانه عليه السلام، ومثل هذا لا يدرك حسنه إلا من مارس كتب الآداب، وأجال عقله في ميدان آداب قومه ثم طلب لها أصلاً من السنة».

قوة حفظه:

قال حاشد بن إسماعيل: «كان البخاري يختلف معنا إلىٰ شيوخ البصرة وهو غلام فلا يكتب، حتىٰ أتىٰ علىٰ ذلك أيام، فلمناه بعد ستة عشر يوماً، فقال:

---

(١) سيرة الإمام البخاري لعبد السلام المباركفوري، ص١٥٧، ١٥٨، ١٦٠ ـ ١٦٢.

«قد أكثرتم عليَّ فاعرضوا عليَّ ما كتبتم، فأخرجناه فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه».

وقال محمد بن الأزهر السجستاني: «كنت في مجلس سليمان بن حرب والبخاري معنا يسمع ولا يكتب، فقيل لبعضهم: ما له لا يكتب؟ فقال: يرجع إلى بخارى ويكتب من حفظه».

قلت: لله ما جاءنا من خبر عجيب فريد أن شيوخ البخاري قد أخذوا عنه فانقلب التلميذ شيخًا والشيخ تلميذًا، وتلك ـ لعمري ـ إحدى المناقب العظيمات، والآيات الكبريات على علو فضله، وثبات قدمه في الفكر والفضل والعلم، والبحث والفتيا.

البخاري وتلاميذه:

قالوا: أما عن تلاميذ البخاري فلا يكاد يحصيهم عد، إذ سمع منه صحيحه ما يقارب تسعون ألف رجل(١)، وإنما الآن يعلو الفضل للبخاري، ويحلو الذكر بالحديث عن أولئك الشيوخ الذين أخذوا على يديه، وكثير من شيوخه، كانوا يأتون إليه ويدرسون عليه ويكتبون منه ما يملي عليهم من الفوائد والعلوم، وقد جمع المؤرخون والمحدثون أسماء شيوخه الذين أخذوا عنه واستفادوا منه وكانوا يحضرون مجالس درسه ويلازمون، منهم عبد الله بن محمد المسندي، وعبد الله بن منير، وإسحاق بن أحمد السرماري، ومحمد بن خلف بن قتيبة، وغيرهم، وهؤلاء من أولي الفضل والكمال، ومع ذلك لم يسعهم إلا أن يكتبوا عن البخاري، ويستفيدوا منه نكاته الحديثية واستنباطاته الفقهية الدقيقة.

ومن الأئمة الذين كانوا يسامون إمام المحدثين وهم من أقرانه إلا أنهم حضروا مجالس درسه اعترافًا بفضله وكماله: الإمام أبو زرعة الرازي، وأبو حاتم الرازي، وإبراهيم الحربي، وأبو بكر بن أبي عاصم، وموسى بن هارون الحمال، ومحمد بن عبد الله مطين، وإسحاق بن أحمد زيرك الفارسي، وأبو بكر محمد

---

(١) سيرة الإمام البخاري لعبد السلام المباركفوري، ص١٧٨، ١٨٠، ١٨١

ابن إسحاق بن خزيمة، والقاسم بن زكريا، ومحمد بن عبدالله الحضرمي، وصاحب المعارف محمد بن قتيبة، وأبو بكر الأعين، وأمثاله. وهؤلاء من أئمة علوم الرجال والتاريخ والحديث والجرح والتعديل، وقد ترجمهم العلامة الذهبي، وكلهم كانوا من المولعين بتحقيقات الإمام البخاري، ويحضرون مجالس درسه ويكتبون عنه.

الإمام مسلم، أعظم التلاميذ ..

ومن تلامذة إمام المحدثين، الذين بلغوا أوج الشرف وقمة الشهرة وهم من أركان العلوم الإسلامية : الإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح، والإمام أبو عبد الرحمن النسائي صاحب السنن، والإمام أبو عيسى الترمذي صاحب الجامع، والإمام محمد بن نصر المروزي صاحب التأليفات، والإمام الدارمي، والإمام ابن خزيمة الفقيه صاحب الصحيح، وكل هؤلاء التلامذة من كبار المحدثين والفقهاء.

وكان الإمام البخاري قد اضطر على الإفتاء منذ أيام طلبه حتى إن أساتذته كانوا يتحرجون من الإفتاء أمامه ويشيرون إليه، وإنه منذ جلس للتدريس في بخارى بعد التحصيل أصبح يفتي الناس ويدرس إلا أن تلامذته لم يلتزموا بجمع فتاويه التي كان يصدرها بين حين وآخر.

البخاري والبلاء:

قلت : إن أصحاب التراجم قالوا قديماً وصدقوا في مقالاتهم :

إنَّ الأُسُودَ تَرَاهَا ذَا محسَّدَةً   ولن تَرى لِلِئَامِ النَّاسِ حُسَّادا

وقالوا :(١)

حَسَدُوا الفَتَى إذ لم يَنَالُوا سَعْيَهُ   فَالكُلُّ أعْدَاءٌ لَهُ وَخُصُومُ

فماذا حاق بإمام أئمة الإسلام البخاري من الكيد والمكر، وماذا كان موقفه لله دره من صابر غير مكابر، ومن محتسب لله وفي الله؟!

(١) سيرة الإمام البخاري لعبدالسلام المباركفوري، ص١٨٢، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧ .

صراحة الإمام وقوته في الحق :

لقد تقـدم أكثر من مرة أن أهل الرأي كـانـوا قد سيطروا علىٰ جمـيع مناطق خراسان وعراق العجم قبل أن يجلس البخاري للتدريس والإفتاء، وكانوا متشددين جامدين علىٰ أقوال شيوخهم وأقيستهم، ولم يكونوا يبالون بأحد أمام شيوخهم، وكانت مدينة بخارىٰ وغيرها تحت نفوذ قوي لأهل الرأي بحيث كان من الصعب أن يرفع أحد صوته خلافهم، ولكن الإمام لم يعد له أي اهتمام؛ لأنه كان مطبوعًا علىٰ الصراحة والجهر بالحق، ولا تخفىٰ تلك التعريضات التي توجد في صحيح البخاري بأهل الرأي.

أعداء الإمام وحربهم عليه :

قالوا : ثم كانت الفتنة الثانية؛ حيث وشىٰ به المخالفون والحاسدون ونسبوه إلىٰ القول بأن القرآن مخلوق إثمًا وزوراً.

فِريه خلق القرآن :

قلت : بالله يا أهل التراجم، فصلوا لي طرفًا من هذه الفتنة حتى نقتدي بصبر أئمتنا وسادة شريعتنا ولنتبصر أقوالنا، ولنرقب أعداءنا ولنتجنب مواردهم وسوء مقاصدهم.

قالوا: قال الحاكم أبو عبد الله في تاريخة قدم البخاري نيسابور سنة خمسين ومئتين فأقام بها مدة يحدث علىٰ الدوام. وقال حاتم بن أحمد بن محمد: سمعت مسلم بن الحجاج يقول: لما قدم محمد بن إسماعيل نيسابور ما رأيت واليًا ولا عالمًا فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به، استقبلوه من مرحلتين من البلد أو ثلاث. وقال محمد بن يحيىٰ الذهلي في مجلسه: من أراد أن يستقبل محمد بن إسماعيل غداً فليستقبله فإني مستقبله، فدخل البلد فنزل دا رالبخاريين، فقال لنا محمد بن يحيىٰ: لا تسألوه عن شيء من الكلام فإنه إن أجاب بخلاف ما نحن عليه وقع بيننا وبينه وشمت بنا كل ناصبي ورافضي وجهمي ومرجئ بخراسان قال: فازدحم الناس علىٰ محمد بن إسماعيل حتىٰ امتلأت الدار والسطوح، فلما كان اليوم التالي أو الثالث من يوم قدومه قام إليه رجل فسأله عن اللفظ بالقرآن، فقال: أفعالنا

مخلوقة وألفاظنا من أفعالنا، قال: فوقع بين الناس اختلاف، فقال بعضهم: قال لفظي القرآن مخلوق، وقال بعضهم: لم يقل، فوقع بينهم في ذلك اختلاف.

وسألوا الإمام البخاري مرة ثانية وألحوا عليه فقال البخاري: «القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة».

فشغب الرجل وقال: «قد قال: لفظي بالقرآن مخلوق».

قال الإمام البخاري: أفعال العباد مخلوقة، فقد حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا أبو مالك، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة قال: رسول الله ﷺ: «**إن الله يصنع كل صانع وصنعته**»(١).

قال البخاري وسمعت عبيد الله بن سعيد ـ يعني أبا قدامة السرخسي ـ يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: «إن أفعال العباد مخلوقة»، قال محمد بن إسماعيل: حركاتهم وأصواتهم وأكسابهم وكتاباتهم مخلوقة، فأما القرآن المبين المثبت في المصاحف الموعىٰ في القلوب، فهو كلام الله غير مخلوق، قال الله تعالىٰ: ﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾(٢).

قال: وقال إسحاق بن راهويه: أما الأوعية فمن يشك أنها مخلوقة، وقال أبو حامد بن الشرقي سمعت محمد بن يحيىٰ الذهلي يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم، ومن ذهب بعد هذا إلىٰ محمد بن إسماعيل فاتهمه فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان علىٰ مذهبه.

وقال الحاكم: ولما وقع بين البخاري وبين الذهلي في مسألة اللفظ انقطع الناس عن البخاري إلا مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة، قال الذهلي: إلا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا، فأخذ مسلم رداءه فوق عمامته وقام علىٰ رؤوس الناس فبعث إلىٰ الذهلي جميع ما كان كتبه علىٰ ظهر حمال.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣١) عن حذيفة رضي الله عنه، قال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٧): «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن عبد الله أبو الحسن بن الكردي وهو ثقة».

(٢) العنكبوت: ٤٩.

وقال الحاكم أبو عبدالله : سمعت محمد بن صالح بن هانئ يقول : سمعت أحمد بن سلمة النيسابوري يقول : دخلت على البخاري فقلت : يا أبا عبدالله، إن هذا رجل مقبول بخراسان خصوصًا في هذه المدينة، وقد لج في هذا الأمر حتى لايقدر أحد منا أن يكلمه فيه فما ترى قال : فقبض على لحيته، ثم قال : وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد، اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشراً ولا بطراً ولا طلبًا للرياسة، وإنما أبت عليّ نفسي الرجوع إلى الوطن لغلبة المخالفين، وقد قصدني هذا الرجل حسداً لما آتاني الله لا غير» .

ثم قال لي : «يا أحمد إني خارج غداً لتخلصوا من حديثه لأجلي» .

وقال الحاكم أيضًا عن الحافظ أبي عبدالله بن الأخرم قال: لما قام مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة من مجلس محمد بن يحيى بسبب البخاري، قال الذهلي : لا يساكنني هذا الرجل في البلد فخشي البخاري وسافر، وقال غنجار في تاريخ بخارى : حدثنا خلف بن محمد قال : سمعت أبا عمرو أحمد بن نصر : النيسابوري الخفاف بنيسابور يقول : كنا يومًا عند أبي إسحاق القرشي ومعنا محمد ابن نصر المروزي فجرى ذكر محمد بن إسماعيل، فقال محمد بن نصر : سمعته يقول : من زعم أني قلت : لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقله . فقلت له : يا أبا عبد الله، قد خاض الناس في هذا فأكثروا، فقال : «ليس إلا ما أقول لك» .

قال أبو عمرو : فأتيت البخاري فذاكرته بشيء من الحديث حتى طابت نفسه .

فقلت : يا أبا عبد الله هاهنا من يحكي عنك أنك تقول : لفظي بالقرآن مخلوق .

فقال : «يا أبا عمرو، احفظ عني : من زعم من أهل نيسابور وسمى غيرها من البلدان بلاداً كثيرة أنني قلت : لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقله، إلا أنني قلت : أفعال العباد مخلوقة» .

رغبة البخاري بجوار ربه:

قال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت غالب بن جبريل، وهو الذي نزل عليه البخاري بخرتنك ـ يقول : «إنه أقام أيامًا فمرض حتى وجه إليه رسول من أهل سمرقند يلتمسون منه الخروج إليهم فأجاب» .

ولكنه لما علم أن الفتنة التي أثيرت في بخارىٰ قد اشتعلت نيرانها في سمرقند أيضًا، وانقسم الناس إلىٰ فريقين كما كان الحال في بيكند، أحدهما: موافق ومؤيد، والثاني: مخالف ومعاد، فدعا الله: «اللهم قد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت فاقبضني إليك».

وبعد خلاف في أول الأمر اتفق أهل سمرقند علىٰ أنها فرية مكذوبة، وألحوا عليه بالقدوم إلىٰ سمرقند فرضي بالذهاب.

وكما قال غالب بن جبريل: «وتهيأ للركوب ولبس خفيه وتعمم، فلما مشىٰ قدر عشرين خطوة أو نحوها إلىٰ الدابة ليركبها وأنا آخذ بعضده، ورجل آخر معي يقوده إلىٰ الدابة. قال: «أرسلوني فقد ضعفت»، فأرسلناه فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضىٰ ثم سال منه عرق كثير.

وكانت وفاته ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦هـ بعد ما عاش اثنين وستين عامًا، إلا ثلاثة عشر يومًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومازال عرقه يخرج ويسيل حتىٰ غسل وكفن، وحاول بعض الناس أن يحملوه إلىٰ سمرقند، واختلفوا أين يدفنوه، ثم اتفقوا علىٰ أن يدفن في قرية خرتنك التي توفي فيها، فدفن يوم عيد الفطر بعد صلاة الظهر.

البخاري والشعر:

قلت: سمعنا أن الإمام البخاري قد لهج بالشعر، فهل كان شاعرا، أو أثرت عنه بعض أبيات قليلات، وهو لا يزيده الشعر فضلاً، ولا ينقصه رتبة؛ إذ إنه بلغ ذروة ذرى الفضل بفضل حديث رسول الله ﷺ، فماذا عن ذاك الخبر؟!

قالوا: لم يكن الإمام البخاري شاعراً، ولكنه كان يتلذذ أحياناً بالكلام الموزون، ويصدر منه كلام موزون في النصائح والآداب، وهذا لا يسمىٰ شعراً، فالرسول ﷺ نفسه قد صدرت منه كلمات موزونة رويت في الأحاديث.

قال الإمام أبو عبدالله الحاكم: «إنه رأىٰ بخط المستملي من أشعار الإمام البخاري[1]:

(١) سيرة الإمام البخاري، لعبد السلام المباركفوري، ص ٢٠٠، ٢٠١.

اغتنم فـي الفـراغ فَضْلَ ركوعٍ فعسـى أن يكـونَ موتـك بغتــهْ

كم صحيحٍ رأيتُ من غيرِ سقم ذهبت نفْسُه الصحيحة فلتـهْ

أبيات حكيمة للبخاري :

ولما نعي إليه تلميذه الحافظ الإمام عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، صاحب السنن، أنشد هذا البيت وأطرق رأسه مليًا :

إن عشتَ تُفْجَعُ بالأحبةِ كلهم وبقاءُ نفسك لا أبا لَكَ أفجـعُ

ومن أبياته المليئة بالحكمة والعبرة :

مثل البهائمِ لا تـرى آجالهـا حتى تُساقَ إلى المجازِرِ تُنْحَـرُ

ومن أبيات الحكمة أيضًا :

خـالقِ النـاسَ بِخُلْـقٍ واسـع ولا تكن كلبًا على الناس تَهِرْ

وهذه الأبيات ذكرها العلاَّمة تاج الدين السبكي في الطبقات الكبرىٰ، وإني سائلكم :

قلت : يا سادة العلماء والكبراء، لست بسائلكم عن شهادة التلاميذ عن أستاذهم فهذا جد معروف، ولكن عن شهادة الشيوخ عن تلميذهم البخاري، ماذا ترون من مكانة للبخاري في نظر شيوخه الأجلاء؟!

قالوا: إن رأي الشيخ في تلميذه يكون أصدق وأصح من رأي غيره من الأقران والمعاصرين والتلاميذ؛ لأن الشيخ يكون علىٰ علم كامل من ذكاء التلميذ وفهمه وسيلان ذهنه وجهده وشوقه وتحمله، والأستاذ كثيراً ما يجد فرصًا لاختبار الطالب ومعرفة مواهبه المكتسبة والفطرية؛ لأنه يحيط علمًا بالتلميذ أثناء إلقاء دروسه، ولذلك رأينا أن ننقل آراء شيوخ الإمام البخاري لمعرفة ما كان يتمتع به من مواهب طبيعية ومكتسبة(١) .

---

(١) سيرة الإمام البخاري، عبد السلام المباركفوري ص ٢٠٣ ـ ٢١٠ .

١ ـ سليمان بن حرب :

الذي قال عن الإمام البخاري : «بَيِّنَ لنا غَلَطَ شُعْبَةَ» وَطَلَبُ سليمان هذا مع مكانته العليا في هذا الشأن، ومع كونه من شيوخ الإمام البخاري يدل دلالة واضحة علىٰ تبحر الإمام في هذا العلم.

٢ ـ إسماعيل بن أبي أويس :

من تلامذة الإمام مالك، ومن شيوخ الإمام البخاري ومسلم، توفي سنة ٢٢٠هـ. وكان الإمام البخاري ينتخب الأحاديث الصحيحة من كتابه، وكان يقول باعتزاز : «هذه الأحاديث انتخبها محمد بن إسماعيل من حديثي»، وقال للإمام ذات يوم : «انظر في كتبي وجميع ما أملك لك، وأنا شاكر لك أبداً ما دمت حيًا».

واجتمع أصحاب الحديث يوماً فسألوا الإمام البخاري أن يكلم لهم إسماعيل ابن أبي أويس ليزيدهم في القراءة، وذلك لأن ابن أبي أويس كان يحترم الإمام البخاري أشد الاحترام ـ فحقق الإمام ما أرادوا، وتقديراً لهذه الشفاعة دعا الشيخ الجارية فأمرها أن تخرج صرة دنانير، وقال : يا أبا عبد الله فرقها عليهم.

قال : فقلت : إنما أرادوا الحديث.

قال : أجبتك إلىٰ ما طلبوا من الزيادة غير أني أحب أن يضم هذا إلىٰ ذاك.

٣ ـ أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري :

من تلامذة الإمام مالك، قال الذهبي : كان إماماً في السنة والأحكام. وقال الزبير بن بكار : هو فقيه أهل المدينة غير مدافع، ومن شيوخ أصحاب الستة، توفي سنة ٢٤٢هـ، وكان يقول : «محمد بن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر بالحديث من أحمد ابن حنبل».

فقال له رجل من جلسائه : «جاوزت الحد».

فقال له أبو مصعب : «لو أدركت مالكاً ونظرت إلىٰ ووجه، وجه محمد بن إسماعيل لقلت : كلاهما واحد في الحديث والفقه».

مكانة البخاري بين معاصريه :

قلت : فماذا عن مكانة البخاري في نظر أقرانه ومعاصريه ممن آل إليهم العلم، وانتهت إليهم رئاسته، وهم أتراب، أنداد، ذوو فضل ومجد وإن كانوا دون قرينهم البخاري؟ «والمعاصرة سبب المنافرة» على ما يقولون.

قالوا :استمع إلىٰ هؤلاء (١) :

١ - **قال أبو حاتم الرازي :** «لم تخرج خراسان قط أحفظ من محمد بن إسماعيل، ولا قدم منها إلىٰ العراق أعلم منه».

٢ - **وقال الحسين بن محمد المعروف بعبيد العجل :** «ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، ومسلم حافظ، ولكنه لم يبلغ مبلغ محمد بن إسماعيل» وقال : «رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يستمعان إليه، وكان أمة من الأمم دينًا فاضلاً يحسن كل شيء، وكان أعلم من محمد بن يحيىٰ الذهلي بكذا وكذا».

٣ - **عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي صاحب السنن قال :** «قد رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراق، فما رأيت فيهم أجمع من محمد بن إسماعيل»، وقال أيضًا : «هو أعلمنا وأفقهنا وأكثرنا طلبًا».

وسئل الدارمي عن حديث، وقيل له : إن البخاري صححه فقال : «محمد بن إسماعيل أبصر مني وهو أكيس خلق الله، عقل عن الله ما أمر به ونهىٰ عنه في كتابه وعلىٰ لسان نبيه ﷺ، إذا قرأ محمد القرآن شغل قلبه وبصره وسمعه، وتفكر في أمثاله، وعرف حلاله من حرامه».

٤ - **وقال أبو الطيب حاتم بن منصور :**«كان محمد بن إسماعيل آيةً من آيات الله في بصره ونفاذه في العلم».

٥ - **وقال أبو سهل محمود بن النضر الفقيه :**«دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة، ورأيت علماءنا، فكلما جرىٰ ذكر محمد بن إسماعيل فضلوه علىٰ

---

(١) سيرة الإمام البخاري، عبد السلام المباركوري ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧ .

أنفسهم»، وقال أيضًا: «سمعت أكثر من ثلاثين عالـمًا من علماء مصر يقولون: حاجتنا في الدنيا النظر إلىٰ محمد بن إسماعيل».

٦ ـ **ولما عقد الإمام البخاري مجلس الإملاء** في عاصمة العلم بغداد كان صالح بن محمد هذا يستملي له فقال: «بلغ من حضر المجلس عشرين ألفًا».

٧ ـ **وقال الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة**: «ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل».

٨ ـ **وقال أبو عمرو الخفاف**: «هو أعلم بالحديث من أحمد وإسحاق وغيرهما بعشرين درجة».

وقال أيضاً: «لو دخل من هذا الباب وأنا أحدث لملئت منه رعبًا».

٩ ـ **وقال عبدالله بن حماد الآمدي**: «وددت أني كنت شعرة في جسد محمد بن إسماعيل».

١٠ ـ **وقال سليم بن مجاهد**: «ما رأيت منذ ستين سنة أحداً أفقه ولا أورع من محمد ابن إسماعيل».

١١ ـ **وقال موسى بن هارون الحمَّال الحافظ البغدادي**: «لو أن أهل الإسلام اجتمعوا علىٰ أن ينصبوا آخر مثل محمد بن إسماعيل لما قدروا عليه».

وهذا غيض من فيض من أقوال مشاهير العلماء الذين اعترف الناس بفضلهم وعلمهم، والذين يفتخر بهم المسلمون في العلم والتحقيق، وقد حاولت فيه الاختصار من تقييد المهمل، ومقدمة فتح الباري، ولاتسع هذه العجالة لأكثر من هذا، فمن أراد التوسع فليرجع إلى طبقات الشافعية الكبرى والفوائد الدراري ومقدمة فتح الباري.

ꕤ : يا خليفة البخاري في عصرك المتأخر، أيها الحافظ الأكبر، والمؤلف المكثر والمحقق الصائب، والمؤرخ الأوحد، يا بن حجر العسقلاني، ماذا تقول ياصاحب فتح الباري في مقاله وثناء المتأخرين على البخاري فيه، وأنت أعلم الناس به وبهم؟!

جَلالَةُ قَدْرُ الإمام البُخاري :

قال : يا بن ياسين : «لو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس ونفدت الأنفاس، فذاك بحر لا ساحل له، وإنما ذكر كلام ابن عقدة وأبي أحمد عنواناً لذلك، وبعد ما تقدم من ثناء كبار شيوخه عليه لا يحتاج الأمر إلىٰ حكاية من تأخر؛ لأن أولئك إنما أثنوا بما شاهدوا، ووصفوا ما علموا بخلاف من بعدهم، فإن ثناءهم ووصفهم مبني علىٰ الاعتماد علىٰ ما نقل إليهم، وبين المقامين فرق ظاهر، وليس العيان كالخبر»(١).

وقد اتفق علماء الشرق والغرب على أنه ليس بعد كتاب الله تعالى أصح من صحيحي البخاري ومسلم، فقد أجمع الثقات على علو همته وقوة حفظه .

وقال أيضاً : «قد أطبق علىٰ قبوله بلا خلاف علماء الأسلاف والأخلاف».

وقال العلامة ابن عابدين الشامي صاحب رد المحتار شرح الدر المختار : «الإمام البخاري معجزة للرسول البشير النذير، حيث وجد في أمته مثل هذا الفرد العديم النظير، الذي كان وجوده من النعم الكبرىٰ علىٰ العالم، فهو أمير المؤمنين في الحديث، وأحد سلاطين الإسلام الإمام المجتهد».

وقال أيضاً عن صحيح البخاري : « وكتابه أصح الكتب بعد كتاب الله ذي الجلال، وأصح من صحيح مسلم علىٰ أصح الأقوال».

وقال الشيخ نور الحق بن الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي الحنفي : «هو (الإمام البخاري) ما كان له مثيل في عصره في حفظ الأحاديث وإتقانها وفهم معاني الكتاب والسنة، وحدة الذهن، وجودة القريحة، ووفور الفقه، وكمال الزهد، وغاية الورع، وكثرة الاطلاع علىٰ طرق الحديث وعللها، ودقة النظر، وقوة الاجتهاد، واستنباط الفروع من الأصول».

ولقد صدق الإمام السبكي إذ قال :

عَلاَ عَنِ المَدْحِ حَتَّى مَا يُزَانُ بِهِ ... كَأَنَّمَا المَدْحُ مِنْ مِقْدَارِهِ يَضَعُ

---

(١) سيرة الإمام البخاري، عبد السلام الباركفوري ص٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١ .

قلت: يا معاشر المترجمين، هلا حدثتموني عن تلك التواليف الحسان التي تركها إمام أئمة المحدثين البخاري، وقد علمت أن خيرها وفاضلها وقمتها وسيدها، بل سيد التواليف والكتب وأهمها مطلقاً بعد كتاب الله هو صحيح إمام الأئمة البخاري.

قالوا: دونك سرد لأسماء كتبه التي ألفها (١) :

١ ـ التاريخ الكبير:

هذا هو التاريخ الذي ألفه الإمام البخاري حينما كان في الثامنة عشرة من عمره، وذلك في الليالي المقمرة في المسجد النبوي بين قبر الرسول ﷺ ومنبره، وهو الذي لما رآه الإمام إسحاق بن راهويه قدمه من شدة الفرح إلىٰ الأمير عبدالله ابن طاهر الخراساني، وقال له: «ألا أريك سحراً». وهو الذي قال عنه ابن عقدة: «لو أن رجلاً كتب ثلاثين ألف حديث لما استغنىٰ عن تاريخ محمد بن إسماعيل»، وهو كتاب فرد في كتب أسماء الرجال من حيث الشمول والجمع، قد روىٰ هذا التاريخ عن البخاري أبو أحمد محمد بن سليمان بن فارس، وأبو الحسن محمد ابن سهل الفسوي، وغيرهما من المحدثين.

١ ـ التاريخ الأوسط.

٢ ـ التاريخ الصغير(٢).

٣ ـ الجامع الكبير.

٤ ـ خلق أفعال العباد.

٥ ـ كتاب الضعفاء الصغير.

٦، ٧ ـ المسند الكبير والتفسير الكبير.

توجهت في ذلك نحو ابن خلدون خاصة، سيد علماء الاجتماع ورائدهم

---

(١) سيرة الإمام البخاري ص٢٨٠، ٢٨١.

(٢) وهو أيضًا كتاب منقطع النظير في التاريخ من كتب الإمام البخاري، وإن علاقة علم الرجال بعلم الحديث كالعلاقة بين الروح والجسد، ولذلك كان للإمام البخاري ـ رحمه الله ـ شغف خاص بهذا العلم.

بشهادة الغرب قبل الشرق :

قلت : يا إمام التاريخ والاجتماع، يا من فتن الأوربيين بعلمه وتراجمه، يا من وقف على طبائع العمران، وحاجيات بني الإنسان، ماذا تقول في كتاب صحيح الجامع لإمام أئمة الخليقة محمد بن إسماعيل البخاري؟

الجامع الصحيح أعظم كتبه على الإطلاق :

قال : أستشهد ببيت لأئمة هذا الشأن من أمثال السبكي فأقول :(١)

لَهُ الكِتَابُ الَّذي يَتْلُو الكِتَابَ هُدَىً هَذِي السِّيَادَةُ طَوْدٌ لَيْسَ يَنْصَدِعُ

إن الجامع الصحيح للإمام البخاري، وهو المعروف بصحيح البخاري، له أهمية خاصة تميزه من بين مؤلفاته، ولا يوجد مكان على وجه الأرض وصل إليه الإسلام إلا وتجد صحيح البخاري فيه .

وهذا الكتاب المبارك من أهم وأبرز الأمور التي دعت الأمة الإسلامية إلى تلقيب الإمام البخاري بـ «إمام المحدثين» و «أمير المؤمنين في الحديث».

ولم يحصل قط وعلى امتداد التاريخ الإسلامي أن نال أي مصنف لأي محدث، أو أي مؤلف لأي إمام أو فقيه من المتقدمين أو المتأخرين ما ناله هذا الكتاب من الفضل، والشرف، والقبول لدى الأمة .

والجامع الصحيح هو كتاب لو حاولنا تأليف تاريخه، وإشباع الكلام فيه من كل ناحية لاحتجنا إلى مجلدات ضخمة، قال العلامة ابن خلدون في مقدمته الشهيرة (التي قد أودعها الأصول الحكمية لعلم التاريخ، والنكت الفلسفية، وأصول التمدن والعمران) : «ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا ـ رحمهم الله ـ يقولون : شرح كتاب البخاري دين على الأمة» .

ولم يؤلف أحد من علماء المسلمين شرحًا يفي بهذا الدين، ويبرئ الأمة

(١) سيرة الإمام البخاري ص٣١٧ ـ ٣١٨ .

الإسلامية من عهدته على الرغم من أن شروحًا عدة قد ألفت، إلا أن أحدًا منها لم يستوعب تلك النكات الفقهية الي أودعها الإمام البخاري في تراجم أبوابه، ولا تلك الجواهر العلمية والدقائق الحديثية والتاريخية التي أودعها في تكرار الأحاديث وتعليقها ووقفها ووصلها.

وقال أيضًا، وهو يعلق على أسباب تأليف صحيح البخاري وأبوابه الفقهية:
«فأما صحيح البخاري وهو أعلاها رتبة، فاستصعب الناس شرحه، واستغلقوا منحاه من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق، ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم، وكذلك يحتاج إلى إمعان النظر في التفقه في التراجم؛ لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق، ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب، وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرر الحديث في أبواب متفرقة بحسب معانيه واختلافها، «ومن شرحه ولم يستوف هذا كله فيه، فلم يوف حق الشرح كابن بطال، وابن المهلب، وابن التين ونحوهم».

أهمية صحيح البخاري وتوالي الشروح عليه عبر القرون:

والعلامة ابن خلدون من مؤرخي القرن الثامن، وقد توفي في أوائل القرن التاسع وأكمل المقدمة في سنة ٧٧٩هـ وإلى ذلك الحين كانت ظهرت شروح كثيرة لصحيح البخاري، فقد اتجه العلماء على شرح هذا الكتاب من بعد القرن الثالث، ولكن يرى هذا المؤرخ الفاضل بعد التتبع والاستقراء والتحقيق أنه لم يؤلف شرح يوضح تلك النكات الفقهية والتحقيقات الحديثية والتاريخية الدقيقة التي توجد في صحيح البخاري توضيحًا كاملاً، والظاهر أن شروح صحيح البخاري قد بلغت المئات إلى هذه الأيام، ولم يغفل أهل العلم موضوعًا لم يبحثوا فيه، فبعضهم قد بحث التحقيقات النحوية، وآخرون ألفوا في تراجم الأبواب فقط، وبحث بعضهم في اللغات فقط، وبعضهم وصل المعلقات، بينما بحث الآخرون عن المتابعات، وأناس ألفوا المستخرجات والمستدركات، وآخرون في النقد، ولكن قليلاً منهم من

نجح في الوصول إلىٰ أفكاره الدقيقة، واستدلالاته اللطيفة(١) .

قلت : فما قول السادة الأكابر من علماء الأمصار وفروع الدين في كتاب البخاري؟ وما قول أجناس المسلمين فيه؟ وما قول أصحاب المذاهب المتبوعة فيه؟ هلموا فاشهدوا على كتاب البخاري وكفى بالله عليكم وعليه شهيداً.

قالوا : يا بن ياسين، إن مجموع علماء الأمة في كل الفنون وفي جميع العلوم والحرف والصنوف كلهم أجمعون أبضعون أكتعون مجمعون علىٰ الاعتراف بأن كتاب البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله، ويتساوىٰ في ذلك العربي والعجمي، والحجازي والشامي، والعراقي والهندي، والتركي والكابلي، والبربري والإفريقي، والرومي والروسي، والبدوي والحضري، والمحدث والفقيه، والمتكلم والصوفي، فلله الحمد في الأولىٰ والآخرة، والله أكبر ولله الحمد(٢) .

شهادة العلماء الأفاضل في قدر البخاري وصحيحه :

قلت : فانبذوا لي بطرف من أقوال بعض العلماء عن مكانة أهمية كتاب البخاري وجلالته من قديمهم وحديثهم ومن أهل الغرب، لنبصر ماذا يقولون؟

قالوا : اسمع طرفاً من شهادات العلماء اللاحقين من غير المشهورين واسمع ماذا رؤوا :(٣)

قال الفِرَبْرِيُّ : سمعت محمد بن أبي حاتم، ورَّاق البخاري يقول: «رأيت البخاري في المنام خلف النبي ﷺ، والنبي ﷺ يمشي فكلما رفع النبي ﷺ قدمه، وضع أبو عبد الله البخاري قدمه في ذلك الموضع».

وقال النجم بن فضيل : «رأيت النبي ﷺ في المنام خرج من قرية، والبخاري

(١) انظر مؤلفنا: «فتح الفتوح» وقد حاولنا فيه جمع ما تفرق من هذه الخدمات ليسهل على الباحث والقارئ العادي أن يجدها في مؤلف واحد.
(٢) سيرة الإمام البخاري للعلامة المباركفوري، ص٣٢٠، ٣٢١ .
(٣) المرجع السابق، ص٣٢٢ ـ ٣٢٤ .

يمشي خلفه، فكان النبي ﷺ إذا خطا خطوة يخطو محمد ـ يعني البخاري ـ ويضع قدمه على خطوة النبي ﷺ».

وزيادة على ما ذكر من الرؤى قال أبو سهل المروزي: سمعت أبا زيد المروزي يقول: كنت نائمًا بين الركن والمقام، فرأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: «**يا أبا زيد إلى متى تدرس كتاب الشافعي، ولا تدرس كتابي؟**» فقلت: يا رسول الله، وما كتابك؟ قال ﷺ: «**جامع محمد بن إسماعيل**».

آراء المستشرقين في البخاري وصحيحه:

قال (توماس وليام بيل) في (أورنتيل بيوكريفيكل ذكشنري ط لندن ١٨٩٠م): «صحيح الإمام البخاري يحترم أكثر من أي كتاب بعد القرآن، ويعتمد عليه في الأمور الروحانية والدنيوية».

ثم يقول بعد قليل: «هذا الكتاب لا يجمع الوحي الذي نزل على محمد، إلهاماته وأفعاله وأقواله فحسب، بل ذكر فيه أيضًا تفسير أكثر المواضع المُشْكَلَةِ في القرآن».

قلت: فماذا عن أسباب تأليف الكتاب وزمان تأليفه وكم قطع من الوقت في كتابته؟ وكيف كان يؤلفه؟

قالوا: اسمع ما قاله البخاري نفسه حيث يقول: «كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: لو جمعتم كتابًا مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ، قال: فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح»(١).

وهناك سبب آخر كما ذكره الإمام البخاري حيث قال: «رأيت النبي ﷺ وكأنني واقف بين يديه، وبيدي مروحة أذب بها عنه»، فسألت بعض المعبرين، فقال لي: «أنت تذب عنه الكذب، فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح».

وقد ورد في الحديث: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من**

---

(١) سيرة الإمام البخاري للعلامة المباركفوري ص٣٣١ ـ ٣٣٦.

النبوة»(١) ، ومن رأىٰ النبي ﷺ في المنام، فقد رأىٰ الحق، وهذه الرؤيا المباركة قد زادت الإمام البخاري شوقًا إلىٰ شوق، فأكب علىٰ جمع الجامع الصحيح.

مدة التأليف وطريقته:

قلت: متى ألف البخاري الجامع الصحيح؟ وكم استغرق ذلك؟ وكيف كان يؤلف؟

قالوا: كل هذه الموضوعات لا تحتمل أن تبحث بحثًا وافيًا في هذه العجالة المختصرة، كما هو دأب أكثر شراح الصحيح، ولكن ليس من المناسب أيضًا أن نتغاضىٰ عنها كل التغاضي.

فلقد ذكر الوراق قول الإمام البخاري: «صنفت الجامع من ست مئة ألف حديث في ست عشرة سنة».

وقال البخاري أيضًا: «صنفت ثلاث مرات»، ولا منافاة بينهما، فإن كل مُصَنِّفٍ يرتب ويهذب تأليفَه أكثر من مرة.

قال أبو الهيثم الكشميهني: سمعت محمد بن يوسف الفِرَبْرِيِّ يقول: قال البخاري: «وماوضعت في كتاب الصحيح حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين».

وفي رواية أخرى (عن عمر بن محمد بن بجير البُجَيرِيِّ) قال: سمعت محمد ابن إسماعيل يقول: صنفتُ كتابي الجامع في المسجد الحرام، وما أدخلت فيه حديثًا حتىٰ استخرت الله تعالىٰ، وصليت ركعتين وتيقنت صحته».

وقال أيضًا: «صنفت الجامع من ست مئة ألف حديث في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله».

ونقل ابن عدي عن جماعة من الشيوخ: «أن البخاري حوَّل تراجم جامعه بين

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٩)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٢٢٦٣)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قبر الرسول ﷺ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين».

وقد ذكر الوراق أنه كان مع البخاري ذات مرة حينما كان يؤلف كتاب التفسير، فكان يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة إلىٰ عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة بيده ويسرج، ويخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه.

قلت: لله در البخاري في استنباطاته واستدلالاته ودقائق فهمه، فضلاً عن فنه وحذقه الحديثي، تري أين يستبين فهم البخاري ودرايته للحديث ومذهبه في شرحه؟

جمع البخاري بين الفقه والحديث:

قالوا: يستبين ذلك يا بن ياسين في تلك التراجم العلية التي تنبئ بعلو كعبه وقوة سبقه(١)، لقد راعىٰ الإمام البخاري في تراجم أبواب صحيحه مقاصد عالية رفيعة، وأهدافًا سامية نبيلة، ففي بعض الأحيان يشير إلىٰ النكات الفقهية الدقيقة، وأحيانا أخرىٰ يبين الأصول الحديثية، وعللها الغامضة التي تحتاج إلىٰ نظر ثاقب، وفهم صائب، وفطنة خارقة، وذكاء موهوب مع سعة وكثرة الاطلاع.

أما الطبائع المعكوسة الزائغة، والعقول القاصرة، والأنظار الضيقة، أو أولئك الذين يتقيدون بالأصول الموروثة، أو تفريعات أهل الرأي، فقد حرموا من الوصول إلىٰ دقائق تراجم الإمام البخاري، ولذلك تراهم تارة يطعنون في تراجم صحيح البخاري، وتارة أخرىٰ يعترضون بعدم المناسبة بين التراجم والأحاديث المذكورة فيها.

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا ... وآفته من الفَهْمِ السَّقيمِ

مع أن حكم الفقهاء والمحدثين في شأن تراجمه أصبح مضربًا للمثل، وهو قولهم «فِقْهُ البخاري في تراجمه»، وتتبين أهمية تراجم أبواب الجامع الصحيح من أن كثيراً من جلة المحدثين وفحول المصنفين قد ألفوا تأليفات مستقلة لبيان مقاصد تراجمه الجليلة، والإشارات الخفية الغامضة.

قلت: ومن أولئك من علماء وأكابر فضلاء الفقهاء انتبه إلى تلك التراجم

(١) سيرة الإمام البخاري ص٣٤٠.

وعلق عليها، واستخرج جواهرها، ونبه على دررها؟!

قالوا: إنهم فحول من علماء تنوعوا من شبه القارة الهندية إلىٰ أرض الكنانة حتىٰ الإسكندرية حتىٰ هناك أقصىٰ المغرب وهاك نبذة عنهم:[1]

١ ـ لقد ألف العلامة ناصر الدين أحمد بن المنير خطيب الإسكندرية، ت٦٨٣هـ، كتابًا مستقلاً مفصلاً في تراجم أبوابه وسماه: «**المتواري على تراجم البخاري**»، وقد اختار فيه أربع مئة ترجمة من تراجم صحيح البخاري تحتاج إلىٰ دقة وإمعان، ثم شرحها في بحوث مبسطة.

٢ ـ وألف العلامة محمد بن منصور بن الحمامة، المغربي السجلماسي أيضًا كتابًا خاصًا في هذا الموضوع، وسماه: «**فك أغراض البخاري المبهمة في الجمع بين الحديث والترجمة**».

٣ ـ العلامة أبو عبدالله بن رشيد السبتي، (ت٧٢١هـ) وله كتاب ضخم ومبسوط في تراجم أبواب صحيح البخاري، وسماه «ترجمان التراجم» ولكن للأسف أن هذا الكتاب المفيد والعزيز لم يقدر له التمام، وقد جاء في مجلد ضخم وصل فيه إلىٰ أبواب الصوم فقط، ومع عدم كمال هذا الكتاب القيم استفاد منه الدارسون لصحيح البخاري فوائد عظيمة.

٤ ـ وقد ألف العلامة زين الدين علي بن المنير ٦٩٥هـ، أيضًا مصنفًا مستقلاً في التراجم، ذكره الحافظ ابن حجر في هدي الساري.

٥ ـ شرح تراجم أبواب صحيح البخاري: وهي رسالة جامعة ومهمة ألفها الشاه ولي الله الدهلوي، وطبعت في مطبعة دائرة المعارف بحيدرآباد، وكانت طبعت قبل ذلك علىٰ هامش تيسير القاري شرح صحيح البخاري بالفارسية، وقد ذكر في أولها قواعد مهمة في بحوث جامعة ومختصرة، ثم تكلم في أكثر من أربع مئة ترجمة، واحدة بعد أخرىٰ، ولكن بإيجاز تام، وأودع نكات مهمة جداً في بعض المواضع تدل علىٰ

(١) سيرة الإمام البخاري ص٣٤١ ـ ٣٤٤.

تبحره في العلم وصفاء ذهنه، واستحقاقه للقب «حكيم الأمة».

وزيادة على هذه المصنفات المستقلة كلها، فإن هذه التراجم تبحث بحثًا مفصلاً في شروح البخاري، وكل شارح يبين غزارة علمه وفهمه حسب اطلاعه وسعة معرفته، وقد أسهم فيه شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر بحظ وافر، ومن بعده العلامة العيني.

قلت: وماذا عن منهج البخاري في وضع تلك التراجم؟ أفصحوا لنا ياعلماء الحديث عن تلك المقاصد وهاتيك المآرب.

فانتهض إليَّ العلامة المباركفوري..

وقال: دونك مبتغاك يا بن ياسين(١)، إن تراجم الأبواب في صحيح البخاري تختلف صورها، وتتنوع أغراضها:

١ ـ أحيانًا يذكر الإمام البخاري في التراجم أحاديث ليست على شرطه، ثم يورد في الباب أحاديث تصح على شرطه، وتشهد لصحة الحديث المذكور في الترجمة، ويقصد من هذا تصحيح وتأييد الحديث المشار إليه في ترجمة الباب.

٢ ـ يذكر أحيانًا في ترجمة الباب مسألة استنبطها عن أحاديثَ صحيحةٍ على شرطه، سواء كانت من صريح النص، أو إشارة النص أو الاقتضاء، ثم يورد في الباب أحاديث أو آيات تكون دليلاً للمسألة المذكورة في ترجمة الباب، ولكن ليس بوسع كل واحد أن يدرك وجه الاستدلال إدراكًا كاملاً.

٣ ـ أحياناً يذكر في ترجمة الباب مسألة قال بها جماعة من المسلمين من قبل، ثم ثبت لديه حسب تحقيقه واجتهاده ما يدل عليه، أو يشهد له، أو يرجحه، وفي مثل هذه المواضع يقول الإمام البخاري في ترجمة الباب «باب من قال كذا».

٤ ـ أحياناً يذكر في ترجمة الباب مسألة وردت فيها أحاديث مختلفة، فيجمع

---

(١) سيرة الإمام البخاري ص٣٤٥ ـ ٣٤٧.

في الباب تلك الأحاديث المختلفة، ويقصد من هذا التسهيل في الجمع بينهما، أو الترجيح، والاستنباط.

٥ ـ أحياناً تكون الأدلة متعارضة في مسألة ما، كما سبق، وتترجح عند الإمام البخاري أو تتحقق صورة التوفيق، فيذكر الجمع بينهما في ترجمة الباب، ثم يورد تلك الأدلة المتعارضة، لكي تنشأ في المتعلم قوة الجمع والتوفيق بين تلك الأدلة التي ظاهرها التعارض.

٦ ـ أحياناً يذكر عدة أحاديث في إثبات ترجمة الباب، ويرى في تلك الأحاديث من الفوائد المهمة والضرورية التي يجب التنويه بها، فمثل هذه المواضع يكتب فيها «باب» بدلاً من «فائدة» أو «التنبيه» ويظن القارئ أنه بدأ مسألة جديدة، مع أنه ليس في الحقيقة باباً جديداً، بل هو كما جرت عادة المؤلفين بأنهم يذكرون في مثل هذه المواضع «فائدة» أو «التنبيه»، ولكن الإمام البخاري لا يحب غير كلمة باب، ولا مشاحة في الاصطلاح، وذلك كما ورد في كتاب بدأ الخلق ترجمة: باب قول الله عز وجل ﴿ **وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ** ﴾(١)، فذكر فيها حديثاً يوافق هذه الترجمة، ثم قال: «**باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال**».

٧ ـ وأحياناً يذكر كلمة «باب» بدلاً من حاء التحويل، أو قولهم «وبهذا الإسناد» كما فعل في كتاب بدأ الخلق هذا «باب ذكر الملائكة» فأورد أولاً عدة أحاديث في إثبات ترجمة الباب، وذكر حديث «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار**»(٢)، ثم قال: «باب» وذكر حديث: «**إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين**..»(٣)... الحديث، والمراد منه أن بهذا الإسناد الحديث الآتي أيضاً.

٨ ـ أحياناً يذكر تحت ترجمة الباب حديثاً لا يدل على الترجمة، وليست له

---

(١) البقرة: ١٦٤.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٢٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) البخاري قبل حديث (٣٢٢٤).

علاقة بالترجمة حسب الظاهر من ألفاظ الحديث المذكور، ولكن للحديث طرقًا مختلفة، وألفاظ بعض الطرق تدل على الترجمة، ويقصد من ذكر هذا أن لهذه الترجمة أصلاً، وليست بدون أصل تمامًا.

٩ ـ أحيانًا يذكر في ترجمة الباب رأيًا ذهب إليه بعض الناس، أو يمكن أن يقول به أحد في المستقبل، ولكنه لا يرى صحة ذلك.

١٠ ـ وهكذا قد يورد في ترجمة الباب حديثًا ليس بصحيح عند الإمام البخاري، ويورد في الباب أحاديث صحيحة، ويقصد منها الرد على ذلك المذهب، أو ذلك الحديث المذكور في الترجمة.

١١ ـ أحيانًا يذكر بعد ترجمة الباب أثرًا لصحابي أو تابعي.

قلت : فماذا يا سادة العلماء عن شروط الإمام البخاري في كتابه الفذ الذي سبق فيه الدنيا، واستحق به تلك المكانة السامية والدرجة العليا ؟!

قالوا : لقد ادعى الإمام أبو عبدالله الحاكم أن الإمام الترمذي يشترط الأحاديث المسندة من صحيحه ـ وهي أصل موضوع الكتاب ـ أن يروي عن كل صحابي تابعيان مشهوران، وأن يروي عن كل تابع راويان ثقتان عدلان ضابطان جامعان لشروط الصحة، وهكذا تستمر الرواية في كل طبقة حتى يصل الحديث إلى الإمام البخاري، وانتقده العلامة أبو المعمر المبارك بن أحمد، ورأى أن هذا الادعاء من الحاكم منتقض عليه في كثير من أحاديث صحيح البخاري، وقد رواها تابعي مشهور واحد عن الصحابي(١).

وأقول : إن هذا النقد من المبارك بن أحمد، وإن كان صحيحًا في تعميم الحاكم؛ فإنه لا يسلم في بعض التابعين الذين أخذوا من الصحابي، ولكن لا شك في أن هذا الشرط موجود في الرواة الذين هم بعد التابعين، ولذلك لم يدع المحدثون الآخرون مثل ما ادعى الحاكم، **ولكنهم ذكروا الشروط الآتية للبخاري :**

١ ـ أن يكون جميع رواة الحديث ثقاتًا إلى الصحابي، أي: أن يكون كل

---

(١) سيرة الإمام البخاري ص٣٤٩ ـ ٣٥١.

واحد منهم مسلمًا، صادقًا، غير مدلس ولا مختلط، متصفًا بصفات العدالة، ضابطًا، متيقظًا، سليم الذهن، قليل الوهم، سليم الاعتقاد، وتكون هذه الصفات من الدرجة العليا.

٢ ـ ألاَّ يكون في السند انقطاع.

٣ ـ إن كانت الرواية بالعنعنة، فيجب أن يثبت لقاء الراوي بشيخه.

٤ ـ أن يتفق على صحة الحديث المحدثون من قبل الإمام البخاري، أو المعاصرون له.

٥ ـ أن يكون خاليًا من العلة والشذوذ.

دقة البخاري في روايته للحديث:

ومع كل هذه الصفات التي ذكرت للرواة يجب أن يكونوا من الطبقة العليا، ولا يكفي أن يكونوا من الوسطى أو الأدنى، ويكفي أن نسرد هنا ما مثل به الحافظ ابن حجر لبيان طبقات الرواة، فيقول: «اعلم أن أصحاب الزهري مثلاً على خمس طبقات، ولكل طبقة منها مزية على التي تليها، فمن كان في **الطبقة الأولى** فهو الغاية في الصحة، وهو مقصد البخاري».

والطبقة الثانية شاركت الأولى في التثبت إلا أن الأولى جمعت بين الحفظ والإتقان، وبين طول الملازمة للزهري حتى كان فيهم من يلازمه في السفر، ويلازمه في الحضر، والطبقة الثانية لم يلازم الزهري إلا مدة يسيرة، فلم تمارس حديثه، فكانوا في الإتقان دون الأولى، وهو شرط مسلم.

أفضلية صحيح البخاري، على كتب الحديث:

قلت: أخبروني أعزكم الله ودفع عنكم الشكوى والآه، ما موقع صحيح مسلم من صحيح البخاري؟ وما منزلته منه؟ وما القول الفصل في ذلكم؟!

فانتهض إليَّ سادة علماء الرواية والدراية؛ كابن الصلاح في مقدمته، والسيوطي في تدريب الراوي، وغيرهما.

وقالوا :هذه هي الأسباب التي جعلت المسلمين يتفقون، وأصبحت المسألة من الأصول بأن صحيح البخاري له أفضلية على صحيح مسلم، وبقية كتب الحديث قاطبة سواء من حيث الصحة، أو جودة الفقه، بل من كل ناحية.

قال السيوطي في تدريب الراوي : «والبخاري أصحهما وأكثرهما فوائد، وقيل: مسلم أصح، والصواب الأول».

وكيف لا يكون وقد بنى الإمام مسلم صحيحه على صحيح البخاري، وزاد فيه زيادات، ولكن مع ذلك لم يبلغ كتابه مرتبة البخاري، وكان تلميذ الإمام البخاري، ويشهد له بتفرده في هذا المضمار من كل الوجوه، وكان يلقبه بسيد المحدثين.

قال الحاكم أبو أحمد النيسابوري : «رحم الله محمد بن إسماعيل، فإنه ألَّف الأصول - يعني أصول الأحكام - من الأحاديث، وبيَّن للناس، وكل من عمل بعده فإنما أخذه من كتابه كمسلم بن الحجاج... إلخ».

وقال الدارقطني لما ذُكِرَ عنده الصحيحان : «لولا البخاري لما ذهب مسلم ولا جاء».

وقال مرة أخرى : «وأي شيء صنع مسلم، إنما أخذ كتاب البخاري، فعمل عليه مستخرجًا، وزاد فيه زيادات».

وقد رجح بعض المغاربة صحيح مسلم على صحيح البخاري، ولكن العلماء من المتقدمين والمتأخرين خالفوا هذا الرأي وأولوا قولهم بأنه يمكن أن يرجح صحيح مسلم على صحيح البخاري نظرًا إلى سهولة تناوله؛ لأنه خال من تلك الدقائق الفقهية والنكات الأصولية، وتشعب الأساليب وتنوعها، والإشارات الخفية وغيرها التي ألفت لشرحها مئات الكتب، ومع ذلك يرى العلامة ابن خلدون : أن شرحه مازال دينًا على الأمة.

ولقد حكم الحافظ عبدالرحمن بن علي بن الديبع فقال :

تَنَازَعَ قَوْمٌ في البُخَاري ومُسْلِمٍ ... لَدَيَّ وَقَالوا أَيُّ هَذَا مُقَدَّمُ
فَقُلْتُ: لَقَدْ فَازَ البُخَاري صِحَّةً ... كَمَا فَاقَ في حُسْنِ الصِّنَاعَةِ مُسْلِمُ

ولكن هذا الحكم من ابن الديبع يبين أن البخاري أرجح من مسلم في الصحة فقط، والواقع أنه يرجحه في الصحة، وفي غيرها من النكات الفقهية التي هي كالفص على الخاتم.

قلت : فماذا عن تلكم الشروح والحواش والتعليقات والهوامش التي وضعت على صحيح البخاري، أهي وفاء لما قاله ابن خلدون «إن شرح الجامع الصحيح دين في عنق الأمة»؟، فانتهض إلى العلامة المباركفوري.

وقال : يا بن ياسين أنا أتحفك بعناوين مئة وستة وأربعين كتاباً بعضها يبلغ عشرات المجلدات في شرح ذلك الكتاب فارجع إلى مؤلفي عن سيرة البخاري في جزئه الأول من ١/ ٣٦٣ـ ٤٥٨ في قرابة مئة ورقة، وهذا جهدي وما خفي عني أكثر مما وقع بيدي، ومن بحث وجد، فصحيح الجامع جمة فوائده، عذبة موارده، لايشبع منه عاب ولا ناهل(١).

(١) سيرة الإمام البخاري ص٣٥٣ـ ٣٥٥.

١٢ ـ مسلم بن الحجاج النيسابوري

(٢٠٤ ـ ٢٦١ هـ / ٨٢٠ ـ ٨٧٥ م)

وقفت مدهوشًا أمام ذلك العالم الشامخ والعقل الفذ، أمام خادم من خدام السنة، وسادن من سدنة أسانيدها، وناقد جهبذ من جهابذ رجالات الجرح والتعديل، وصنديد من صناديد النقد، وبطل من أبطال الرواية، ونحرير من سادة علم الدراية، تلمذ للأكابر، وترك نهج الأصاغر، وراح يبحث عن النجوم، ويقتفي أثر العلوم حتى أصاب من الخير وبله، وطرق منه معاقد سبله، وخرج علينا ـ لا بكثير كتب ـ ولابوفير قراطيس، وإنما بدرة فريدة، وجوهرة وحيدة، هي يتيمة دهرها، هي سيدة عصرها، وأقصد بها تلك الطائفة من الأحاديث التي أودعها كتابه الفذ الأشهر «صحيح مسلم».

فالله الله في كتابه، الله الله في سعيه ومنهجه، والله الله في صحة أحاديثه، والله الله في رجالات سنده، والله الله في عدالتهم وضبطهم، بل في تمام ضبطهم، ولله هو في اتصال أسانيده!!

قلت : يا علماء التراجم، من كل رائح وقادم، هلا أعلمتموني، وهل حدثتموني عن ذلكم الإمام الهمام، إمام الفضل ونجم العلم، الإمام مسلم، ماذا عن نسبه ومولده.

فانتفض إمام الفتح والنقد، ووارث علم سابقيه من المحدثين، أعني ابن حجر العسقلاني .

وقال : هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كرشان، وهو من بني العربان صليبة، ينتمي إلىٰ قبيلة بني قشير، ونيسابوري موطنًا .

أما عن تاريخ مولده، فقد اختلفوا فيه؛ إذ ذكروا أن مولده كان بعد المئتين، إما في سنة ٢٠٤هـ، أو قيل : سنة ٢٠٦هـ[١] .

(١) تهذيب التهذيب ، لابن حجر ١٠/ ١٢٦، ووفيات الأعيان، لابن خلكان ٢/ ٥٢٧ .

قلت : فماذا عن نشأته وهو الإمام الهمام، كيف كانت بيئته؟!

قال ابن حجر: ولد الإمام مسلم في نيسابور، وهي مدينة كما يقول عنها ياقوت: «عظيمة، ذات فضائل جسيمة، معدن الفضلاء، ومنبع العلماء» وقد أخرجت عدداً لا يحصىٰ من الأئمة والعلماء.

وقال بعضهم :

ليسَ في الأرضِ مثلَ نيسابورُ بلـــدٌ طيِّــبٌ وربٌّ غَفُــــورُ(١)

ولم نقف علىٰ تفصيل لحياته ونشأته، ولعله كان علىٰ طريقة أهل عصره يبتدئ بحفظ القرآن، ثم يطلب الحديث وسماعه(٢).

قلت : يا بن حجر، أنالك الله الظفر، وقفاك في الحسن كل أثر، هلا أخبرتنا عن صفاته الجسمانية والخلقية.

قال : «لقد كان ـ رحمه الله ـ تام القامة، أبيض اللحية، يرخي طرف عمامته بين كتفيه».

وقال آخرون : «كان شيخًا أبيض الرأس واللحية، حسن الوجه، حسن الثياب، عليه رداء حسن، وعلىٰ رأسه عمامة قد أرخاها بين كتفيه»، وهو وصف يتناسب علىٰ كل حال مع مكانة مسلم ويساره، وما تركه وقاره ورزانته في نفوس الناس.

وكان إمامًا ثقة، جليل القدر، صدوقًا وفيًا، من كبار العلماء وأوعية العلم، وروىٰ تلميذه أبو عمرو المستملي، قال: أملىٰ علينا إسحاق بن منصور سنة إحدىٰ وخمسين، ومسلم ينتخب عليه، وأنا أستملي، فنظر إسحاق بن منصور إلىٰ مسلم فقال: لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين.

وقد تتساءل : هل كان مسلم يمتهن حرفة إلى جانب طلبه العلم؟

وهنا نجد الجواب صريحًا يقينًا: «لقد كان بزازًا» وكان صاحب تجارة بخان بحمس بنيسابور وله أملاك وثروة».

---

(١) تهذيب التهذيب.

(٢) ترجمة الإمام مسلم: حياته وصحيحه، لمحمود فاخوري، ط. دار السلام، بيروت، ص١٩.

وإذا يحق لنا أن نقول: إن مسلمًا كان من ذوي الغنىٰ واليسار في حياته المادية، مما ساعده علىٰ أن يتوفر علىٰ طلب العلم وسماع الحديث إلىٰ جانب عمله ومهنته، وأن يسافر ويرحل في طلب الحديث من الأساتذة الشيوخ الذين تناثروا في مختلف الأمصار والأصقاع، التي كانت تعج بالمتضلعين من كل علم وفن.

قلت: فماذا عن ترحاله لطلاب العلم، وأي بلاد الله ضرب إليها، وخب فيها ووضع، ولأي الشيوخ استمع، وبمن تخرج وبه برع ؟!

رحلاته أسفاره وشيوخه:

لقد قام مسلم برحلات كثيرة إلىٰ مختلف البلدان (العراق، والحجاز، والشام، ومصر) في سبيل طلب الحديث ولقاء الشيوخ، وكان هذا اللقاء ضروريًا للتمكن من علوم الحديث ولأن «حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوىٰ رسوخًا»، ولعل مسلمًا لم يرحل إلا بعد أن اكتملت فتوته، وصلب عوده، ونضج علمه شيئًا، واستنفد ما في بلدته وما لدىٰ علمائها، ثم إن الرحلة ـ كما مر بنا ـ كانت من لوازم طلب الحديث وسماعه، وكانت الرحلات عامة في بلاد الإسلام لا يستأثر بها غني دون فقير، بل كانت من نصيب كل طالب للعلم راغب فيه، متىٰ وجد رغيفًا يتزود به، أما الراحلة فقلما يبالون بها إذا آنسوا من أنفسهم قوة وجلدا.

ولعل في قول حجاج بن الشاعر خير مثال علىٰ هذا حيث يقول: «جمعت لي أمي مئة رغيف فجعلتها في جراب، وانحدرت إلىٰ (شبابة) بالمدائن، فأقمت ببابه مئة يوم، كل يوم أجيء برغيف فأغمسه في دجلة فآكله، فلما نفدت خرجت»، فلاعجب أن يكون مسلم من الرحالين في طلب الحديث إلىٰ أئمة الأقطار والبلدان، وأن يلقىٰ عددًا كبيراً من الشيوخ والمحدثين، وأن يحضر مجالس العلم، وقد تهيأ له المال والنفقات اللازمة فقام برحلاته في طلب العلم وهي علىٰ هذا النحو:

١ ـ فقد تنقل في مدن خراسان وسمع قتيبة بن سعيد، ويحيىٰ بن يحيىٰ النيسابوري، وإسحاق بن راهويه، وبشر بن الحكم.

٢ ـ وسمع في الري : محمد بن مهران الجمال، وإبراهيم بن موسىٰ الفراء، وزنيجا (وهو لقب الحافظ أبي غسان، محمد بن عمرو الرازي).

٣ ـ ورحل إلىٰ العراق (بغداد، الكوفة، البصرة)، وهناك سمع أحمد بن حنبل، وعبيد الله القواريري، وخلف بن هشام البزار (٢٢٩هـ)، وعبدالله بن عون الخراز، وسريج بن يونس، وسعيد بن محمد الحرمي، وعبدالله بن مسلمة القعنبي، وأبا الربيع الزهراني، وعمر بن حفص بن غياث، وأبا غسان مالك ابن إسماعيل، وأحمد بن عبدالله بن يونس.

٤ ـ وذهب إلىٰ الشام، وسمع هناك محمد بن خالد السكسكي، والوليد بن مسلم.

٥ ـ ورحل إلىٰ الحجاز (المدينة، مكة) وهناك سمع إسماعيل بن أبي أويس (٢٢٧هـ) وأبا مصعب الزهري، وسعيد بن منصور، ومحمد بن يحيىٰ بن أبي عمر، وعبدالجبار بن العلاء.

٦ ـ وسافر أيضًا إلىٰ مصر، وسمع هناك من محمد بن رمح، وعيسىٰ بن حماد، وحرملة بن يحيىٰ . . . إلخ.

قلت: إذن فأخبروني يا جهابذة التراجم عن صلة إمام نيسابور مسلم بإمام الدنيا، وسيد علمائها في الرواية والدراية محمد بن إسماعيل البخاري، وهوالبحر الذي لا تتناهي حدوده، ولا تنضب فيوضه، وقد سمعنا أن مسلمًا تلمذ له وأخذ عنه ونهل وعل وشذى من معينه..!!

قالوا: لقد أصبت يا جاسم في السؤال، وأحسنت في التعليق، ولقد اختلف مسلم إلىٰ البخاري كثيراً، ولازمه وأخذ عنه، ووفىٰ له عندما ابتلي بحسد الذهلي عليه، ولقد اتصل مسلم بالبخاري وتلقىٰ عنه، ويظهر أن ذلك كان سنة (٢٥٠هـ) عندما قدم البخاري نيسابور، وحدث بها مدة من الزمن، أي: بعد أن تجاوز الإمام مسلم العقد الرابع من عمره، هذا إذا لم يكن قد التقاه قبل هذه المرة خلال رحلاته إلىٰ الأمصار الإسلامية، ولعل القول الأول أصح، وهو الذي يطمئن إليه من تتبع أخبار هذين الإمامين، من ذلك مثلاً قول يعقوب الحافظ: «رأيت مسلم بن الحجاج بين يدي البخاري يسأله سؤال الصبي لمعلم».

وكان يحب البخاري ويجله، وقد جاء إليه مرة فقبل بين عينيه وقال له : «دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله».

وقد لازمه طوال مدة وجوده في نيسابور، وأدام الاختلاف إليه، ولما استطارت شهرته هناك وقصده الناس وطلاب العلم يسمعون منه، حسده بعض شيوخ ذلك العصر ولا سيما محمد بن يحيىٰ الذهلي ـ محدث نيسابور ـ الذي رأىٰ الناس ينفضون عن مجلسه، ويقصدون مجلس البخاري، فاتهموه بأنه يقول: «لفظي بالقرآن مخلوق» وشغبوا عليه، وهنا يتجلىٰ وفاء مسلم له وفاء يدعو إلىٰ الإعجاب والإكبار، فقد وقف إلىٰ جانبه ودافع عنه، حتىٰ أنه قال له يومًا : «مايبغضك إلا حاسد، وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك»، فقام مسلم وخرج من المجلس، وانقطع عن زيارة الذهلي، ولم يكتف بذلك بل «جمع كل ما كان كتب بعث به علىٰ ظهر حمال إلىٰ باب محمد بن يحيىٰ، فاستحكمت بذلك الوحشة، وتخلف عنه وعن زيارته».

وإن دل هذا علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ وفاء مسلم للبخاري أولاً. كما أن خروجه من المجلس يدل علىٰ أنه لم يكن يحب الخوض في مسألة «اللفظ» لا أنه كان يقول بذلك.

قلت معلقا : لله درك يا مسلم ما أوفاك لشيخك ورفيق دربك البخاري، ليت طلاب العلم يعوا هذا، ويفوا لشيوخهم، لا كما نرىٰ تدابر وتقاطع، وتناكب وتطاعن، وتمزقت رحم العلماء والطلاب إلا من رحم ربك، ويا ويح حركات الإسلام، تكاد تتناطح وبل تكاد تتفاضح وتتساعىٰ في دس الكيد والمكر بعضها لبعض إلا من رحم الله، فلله فئة كانت كمسلم مع أختها وفاء وعطاء وفضلاً. وصدق الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ **وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ (١). وقال سبحانه: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾(٢).

قلت : يا أصحاب التراجم، ماذا عن آثار الإمام مسلم العلمية، هلا حدثتمونا عنها، وعن أهمها وأعظمها؟!

---

(١) الأنفال : ٤٦ .	(٢) آل عمران : ١٠٣ .

قالوا : يابن ياسين ليست كثرة التواليف بعلامة لعلو الكعب، وسبق القصب في ميدان العلم، وإنما العبرة بقيمة التأليف وسبقه في بابه، وتميزه في منهجه، وانتفاع الأمة به، وإلا كانت الكثرة تردداً ذا ملالة، وباعثاً على السآمة!!

أما عن الإمام المعظم، حامي ذمار الحديث الأكرم عن النبي الأعظم، فهو ممن قلَّت تآليفه. . غير أنها لا مثيل لها، ولا يجرىٰ في مضمارها، فمنها إجمالاً مطبوع وغير مطبوع، ومنها موجود ومفقود وهاك بياناً موجزاً عن كل ذلك :

أما عن كتبه المطبوعة والمخطوطة فهي :

الكتاب الصحيح وهو ذلك الدرة اليتيمة (صحيح مسلم) طبع مراراً، والمنفردات والوحدان (في رواة الحديث) ط في الهند، (وكتاب الكنىٰ والأسماء)، مطبوع، وكتاب (التمييز)، و(رجال عروة بن الزبير) (١) ، وكتاب (الطبقات) ويتناول فيه معاصري رسول الله ﷺ.

أما عن كتبه المفقودة فمنها :

(الأفراد وأفراد الشاميين والأقران) و(الانتفاع بأهب السباع)، و(أولاد الصحابة فمن بعدهم من المحدثين) و(العلل وسؤالات أحمد بن حنبل)، و(المخضرمون)، و(المسند الكبير).

قلت : لله القائل كل الصيد في جوف الفرا، وهذا صحيح مسلم حوى وجمع فأوعى، وأنار الدنيا وجعل علم الرواية صحيحًا في العلا، فما منزلة صحيح مسلم وميزاته، وبماذا استحق علو المكانة..؟!

قال المترجمون وعلماء الحديث : نبتدئ ذكر صحيح مسلم بتلك الإشارة العابرة أنه يلي صحيح البخاري صحة وسنداً وإن فاقه سياقا للروايات، وقد عرف المحدثون لهذا الكتاب منزلته الكبرىٰ.

فقال الحافظ أبو علي النيسابوري - أستاذ الحاكم - : «ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث».

---

(١) تاريخ الأدب العربي، بروكلمان ٣/ ١٨٥ .

ووافقه على ذلك بعض شيوخ المغرب الذين أكبوا على صحيح مسلم وكثرت عنايتهم به، فنال شهرة عظيمة، وحظًا مفرطًا لم يحصل لكتاب مثله.

وتجاوز ذلك إلى الحلم، فقد رئي بعضهم يمشي في شارع الحيرة وبيده جزء من كتاب مسلم فقيل له: ما فعل الله بك؟ أو بم نجوت؟ قال: «نجوت بهذا»، وأشار إلى ذلك الجزء، وقد دل هذا الكتاب على إمامة مسلم وحذقه وتضلعه من علم الحديث، ويظهر أنه كان معتداً بكتابه حين قال: «لو أن أهل الحديث يكتبون مئتي سنة الحديث، فمدارهم على هذا المسند»، يعني: صحيحه.

واجتمع قوم من أصحاب الحديث إلى سعيد بن السكن وقالوا له: «إن الكتب في الحديث كثرت علينا، فليدلنا الشيخ على شيء يقتصر عليه منها»، فدخل إلى بيته فأخرج أربع رزم وضع بعضها فوق بعض وقال: «هذه قواعد الإسلام: كتاب مسلم، وكتاب البخاري، وكتاب أبي داود، وكتاب النسائي».

وقد امتاز صحيح مسلم بمزايا وخصائص كثيرة يصعب حصرها، أكتفي منها بما يلي، دون أن أكرر ما سبقت الإشارة إليه خلال الأبحاث الماضية:

١ ـ سهولة تناوله، من حيث إنه جعل لكل حديث موضعًا واحداً يليق به، جمع فيه طرقه التي ارتضاها واختار ذكرها، وأورد فيه أسانيده المتعددة، وألفاظه المختلفة ولم يفرقه في الأبواب، فيسهل على الباحث النظر في وجوهه واستثمارها والإفادة منها، وتحصل له الثقة بجميع ما أورده مسلم من طرقه.

٢ ـ صنفه الإمام مسلم في بلده بحضور أصوله، في حياة كثير من شيوخه، فكان يتحرز في الألفاظ، ويتحرى في السياق، ولا يتصدى لما تصدى له البخاري من استنباط الأحكام ليبوب عليها.

٣ ـ لم يضع أحد مثل صحيح مسلم في حسن الوضع وجودة الترتيب.

٤ ـ وقد بلغ مسلم في صنعة الإسناد مبلغًا يدهش العقول، لما فيه من الإتقان والاحتياط، وشدة التحري والتدقيق في الألفاظ، مع الاختصار البليغ والإيجاز التام، فلا يعرف أحد شاركه في هذه النفائس من دقائق علم الإسناد، وهذا أبرز ما يميزه من صحيح البخاري.

٥ ـ خلوص «الصحيح» للحديث دون غيره، فليست فيه استنتاجات فقهية أو أصولية، أو تفريعات علمية في أي مجال.

٦ ـ رسم مسلم خطة كتابه في المقدمة، وبين منهجه العلمي الذي أقام كتابه عليه، وبهذا كان صحيحه عبارة عن منهج وتطبيق لهذا المنهج، وهذا يدل على مستوىٰ رفيع في التأليف، وما فيه من دقة ووعي وإحكام.

٧ ـ ومن احتياط مسلم وإتقانه: تحريه في رواية أحاديث من صحيفة همام بن منبه، فكلما روىٰ منها حديثًا ذكر هذا الإسناد بتمامه، مع أنها كلها مروية بإسناد واحد ذكر في أولها فحسب، ولكن مسلمًا يجدد الإسناد كلما روىٰ حديثًا من هذه الصحيفة، فيقول: «حدثنا محمد بن نافع، قال: حدثنا عبدالرزاق، قال: حدثنا معمر عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ، فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ..».

٨ ـ أضف إلىٰ ذلك ما مر بنا من خصائص أخرىٰ، عامة أو خاصة، منها: عدم استيعاب صحيحه لكل الأحاديث الصحيحة، وأنه لم يضع عناوين لأبواب كتابه ولم يفصل بينها، وإن كان في الحقيقة قد رتبها بحسب الموضوعات، وأنه قدم لكتابه بمقدمة طويلة حوت أفكاراً وآراء ثمينة في علم الحديث، إلىٰ غير ذلك من الخصائص والمزايا.

قلت: يا أهل الأخبار، ويا سادة المترجمين، وخزان الآثار حدثوني عن شروح صحيح مسلم، ما بين مشارق الأرض ومغاربها، واثبتوا لي بتعدادها فضل ذلك الكتاب وعظم منزلته، وعز مكانته، وكيف شاع في جميع الأقطار والأمصار أجمع؟!

قالوا: لقد سألت يسيراً، ونلت جوابًا أثيراً، فدونك تعداد موجز لأهم هذه الشروح:

١ ـ شرح صحيح مسلم للإمام النووي.

٢ ـ تفسير غريب الصحيحين.

٣ ـ المفهم في شرح غريب مسلم.

٤ ـ الإيجاز والبيان لشرح خطبة كتاب مسلم مع كتاب الإيمان .

٥ ـ شرح الإمام أبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصفهاني الحافظ .

٦ ـ المعلم في فوائد مسلم .

٧ ـ إكمال المعلم (بفوائد مسلم) .

٨ ـ شرح عماد الدين عبدالرحمن بن عبدالعلي المصري .

٩ ـ صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط ، وحمايته من الإسقاط والسقط .

١٠ ـ المفصح المفهم ، والموضح الملهم لمعاني صحيح مسلم .

١١ ـ شرح شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قز أوغلي سبط ابن الجوزي .

١٢ ـ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم .

١٣ ـ منهاج المحدثين وسبيل تلبية المحققين (أو : المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج) .

١٤ ـ شرح كتاب «مختصر صحيح مسلم» للحافظ المنذري .

١٥ ـ إكمال الإكمال .

١٦ ـ شرح ابن المهندس .

١٧ ـ شرح محمد بن محمود البابرتي .

١٨ ـ شرح الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف القونوي الحنفي .

١٩ ـ شرح زوائد مسلم على البخاري .

٢٠ ـ إكمال الإكمال (أو : إكمال إكمال المعلم) .

٢١ ـ فضل المنعم في شرح صحيح مسلم .

٢٢ ـ شرح الشيخ تقي الدين أبي بكر بن محمد الحصني الدمشقي الشافعي .

٢٣ـ مكمل إكمال الإكمال .

٢٤ ـ غنية المحتاج في ختم صحيح مسلم بن الحجاج .

٢٥ ـ الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج .

٢٦ ـ منهاج الابتهاج بشرح مسلم بن الحجاج .

٢٧ ـ شرح خطبة مسلم بن الحجاج .

٢٨ ـ شرح القاضي زيد الدين زكريا بن محمد الأنصاري الشافعي .

٢٩ ـ ختم صحيح مسلم .

٣٠ـ بغية القارئ والمتفهم .

٣١ ـ شرح لشهاب الدين أحمد بن عبدالحق .

٣٢ ـ شرح مولانا علي القاري الهروي .

٣٣ ـ شرح صحيح مسلم لإبراهيم بن محمد العجمي الحلبي .

٣٤ ـ شرح صحيح مسلم لعبدالرؤوف المناوي .

٣٥ ـ حاشية أبي الحسن بن عبدالهادي السندي .

٣٦ ـ عناية المنعم لشرح صحيح مسلم .

٣٨ ـ حاشية شرح مسلم .

٣٧ ـ وشي الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج .

٣٩ ـ السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج .

٤٠ ـ فتح الملهم بشرح صحيح مسلم .

هذا ولم يقتصر طبع صحيح مسلم وشروحه على اللغة العربية، بل تجاوز ذلك إلى لغات أخرى، ذكرها بروكلمان :

١ ـ فقد طبع مع ترجمة إلى اللغة الهندستانية .

٢ ـ وترجم صحيح مسلم أيضاً مع شرح إلى اللغة البنجابية .

٣ ـ وله شرح باللغة الفارسية .

Ж : يا علماء الحديث، من أهل الجرح والتعديل، وسادة الرواية والدراية

حدثوني عن «صحيح مسلم» ذلك الكتاب المعظم، متى ألف مسلم الكتاب؟ وهل استوعب الصحيح كله؟ وكم عدد أحاديث صحيح مسلم ؟

قالوا : دونك ما طلبت، وإليك ما رغبت، أما الزمن الذي ألف فيه مسلم صحيحه فلا يمكن تحديده تحديداً صحيحًا مضبوطًا؛ لأنه لا يعقل أن يؤلفه في مدة قريبة، ومثل هذا العمل يحتاج إلىٰ سنوات عديدة تساعده علىٰ التحقيق من كل حديث يرويه، ومن كل راو يروي له، وقد يحتاج الأمر السفر إلىٰ مدينة أخرىٰ في سبيل ذلك، أما استيعابه فقد ذكر بعضهم أنه : «قلما يفوت البخاري ومسلمًا مايثبت من الحديث».

والحق أن صحيح مسلم لم يستوعب كل الأحاديث الصحيحة، ويكفي في الدلالة على ذلك قول مسلم نفسه : «ليس كل شيء عندي صحيح وضعته ههنا ـ يعني في كتابه ـ إنما وضعت ههنا ما أجمعوا عليه».

وقال أيضًا : «إنما أخرجت هذا الكتاب وقلت : هو صحاح ـ أو صحيح ـ ولم أقل : إن ما لم أخرج من الحديث في هذا الكتاب فهو ضعيف، وإنما أخرجت هذا الحديث من الصحيح ليكون مجموعًا عندي وعند من يكتبه عني، ولا يرتاب في صحته».

وأما عدد الأحاديث فنحن لا نعلم بالضبط عدد أحاديث هذا الصحيح، ولم يهتم بها العلماء اهتمامهم بإحصاء أحاديث صحيح البخاري مثلاً، وقد روي عن أبي قريش الحافظ ـ وهو ممن عاصر مسلمًا ـ أن أحاديث كتابه تبلغ أربعة آلاف حديث، وهو يعني بذلك الأحاديث الأصول مجردة عن الأحاديث المكررة.

أما عدد كل ما يحتويه صحيح مسلم من الأحاديث ـ مكررة وغير مكررة ـ فليس هناك سوىٰ قول واحد عن أحد تلاميذ مسلم يقول : « إنها اثنا عشر ألف حديث»، ومع أن النووي اهتم بصحيح مسلم أكثر من غيره، فإنه لم يشر إلىٰ ذلك.

ومما يجدر ذكره هنا أيضًا : أن عدد أحاديث «الصحيح» في الطبعة التي نشرها محمد فؤاد عبدالباقي في خمسة مجلدات، قد بلغ (٣٠٣٣) حديثًا، بإسقاط ما كرر متنه وتعددت أسانيده.

وهكذا لم يعرف عدد الأحاديث على وجه اليقين والجزم، حتى اليوم، والعلة واضحة وهي اختلاف وجهات النظر فيما كرر متنه، تبعًا لنسبة ما في المكرر من زيادة على الأصل أو نقصان.

قلت: فماذا عن منهج الإمام مسلم في تأليف صحيحه وما شرطه؟ وماذا عن اهتمامه بالسند ومتن الحديث؟ هلا أخبرتمونا عن لمحات من ذلك.

قالوا: دونك نبذًا وملحًا من تلك القواعد التي تمثل منهج مسلم في إعداد صحيحه، أما عن شرطه فهو من البديهي أن مسلمًا لم يدون ما جمعه من الأحاديث بلا تثبت أو تحقيق، بل وضع شرطًا ليكون الحديث مقبولاً عنده، واصطلحوا على تسمية ذلك بـ «شرط مسلم»، وللبخاري كذلك شرط خاص به.

وشرط مسلم في كتابه هو أن يكون الحديث الذي يخرجه، متفقًا على ثقة ناقليه ورواته جميعاً، وأن يكون متصل الإسناد ـ غير منقطع ـ من أوله إلى منتهاه، وسالمًا من الشذوذ والعلة.

والمراد بالثقة ما هو كذلك عند مسلم، وإن لم يكن ثقة عند غيره، فكم من حديث صحيح على شرط مسلم، وليس بصحيح على شرط البخاري مثلاً، لكون الرواة عند مسلم ممن اجتمعت فيهم الشروط المعتبرة، ولم يثبت عند البخاري ذلك فيهم[1].

أما عن المتن والسند عنده فكالآتي:

أولا: الإسناد:

أشير إلى بعض الظواهر التي تبدت لي في صحيح مسلم، مما له صلة بالإسناد:

١ ـ **تتردد في الإسناد أنواع كثيرة من طرق تحمل الحديث ونقله:** «حدثني، حدثنا، أخبرني، أخبرنا، سمعت، قرأ علي فلان..»، والذي يهمنا منها أن مسلمًا يفرق بين كلمة (حدثني) فيطلقها على ما سمعه وحده من لفظ الشيخ،

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١/ ١٥، ١٦.

وكلمة (حدثنا) فيقولها فيما سمعه مع غيره من لفظ الشيخ . كما يفرق أيضًا بين كلمة (أخبرني) : فيقولها فيما قرأه وحده على الشيخ ، وكلمة (أخبرنا) : فيقولها فيما قرئ بحضرته في جماعة على الشيخ .

٢ ـ **إذا كان راوي الحديث أكثر من واحد**، وبين روايتهم تفاوت في اللفظ والمعنى واحد ، جمع مسلم بينهم في الإسناد ، ثم ساق الحديث على لفظ واحد منهم ، أو ألف بين رواياتهم ، وقد يشير إلى هذا بعد رواية الحديث ، وإن لم يكن هناك اختلاف في اللفظ لم يشر إلى ذلك ، وله في هذا ألفاظ خاصة تدل على دقته وتحريه ، وإلى القارئ أمثلة من ذلك : «حدثنا أحمد بن حنبل وزهير بن حرب ، واللفظ لزهير ـ قالا : حدثنا يحيى ، وهو القطان ، عن عبيد الله» .

٣ ـ **إذا كان أحد رواة الحديث لم يعرف من روى عنه تعريفًا كافيًا** ، عرفه مسلم ليزيل غموضه ، ولكي لا يلتبس بغيره ، ولكنه يأتي بهذا التعريف مفصولاً مميزًا لئلا يحسبه القارئ من زيادة الراوي نفسه ، وهذا إما أن يأتي خلال الإسناد ، أو بعد الانتهاء من رواية الحديث .

٤ ـ **كثرة الأسانيد للحديث الواحد أو مقاربة**، في المكان الواحد ، وكل ذلك من باب الاهتمام بالسند ورجاله ، ولا أحتاج إلى أن أدلل على هذا فهو أكثر من أن يحصى في صحيح مسلم .

٥ ـ **عدد رجال الإسناد** :إن عدد رجال الإسناد بين مسلم والنبي ﷺ يتراوح بين أربعة رجال وتسعة ، ومن الملاحظ قلة عدد الأحاديث التي تكون نسبة رجال الإسناد فيها أكثر ، إلى حد أن الأحاديث التي بلغ عدد رواتها تسعة لا تتجاوز سبعة أحاديث في كل صحيح مسلم .

٦ ـ **التحويل** : إذا كان للحديث إسنادان أو أكثر ، وجمع مسلم بينهما في متن واحد ، فإنه يضع عند الانتقال من إسناد إلى آخر حرف (ح) ، ويسمى (حاء التحويل) ـ ثم يسوق الحديث لأحد هذه الأسانيد أو بعضها أو كلها .

ثانيًا: المتن:

قد يطول متن الحديث حتىٰ يبلغ بضع صفحات، وقد يقصر حتىٰ يكون كلمتين، كقوله عليه الصلاة والسلام: «**العين حق**»(١).

١- **متن الحديث يأتي عقب الإسناد وهو ملازم له،** ولم يرد في صحيح مسلم سوىٰ حديث واحد بلا إسناد، إلا أن هذا الحديث جاء في مقدمة الصحيح، وهو قول مسلم: «وقد ذكر عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ **أن ننزل الناس منازلهم**»(٢).

٢- **ويهتم مسلم بالمحافظة على متن الحديث كما روي تمامًا،** ويبين الفروق بين متن وآخر ولو كانت يسيرة في نظر القارئ، وإذا اتفق حديثان ذوا إسنادين مختلفين في قسم من عباراتهما واختلفا في قسم آخر، ذكر الأول بنصه ثم ذكر ما اختلف فيه الحديث الثاني عنه، وأحال إلىٰ الحديث الأول فيما اتفقا فيه، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة ومتنوعة.

٣- **وقد يستغني مسلم عن ذكر المتن ويكتفي بذكر الإسناد،** إذا سبق أن ذكر للحديث نفسه إسنادًا ومتنًا آخرين، ويشير فقط إلىٰ أن بين الروايتين بعض الفرق، كقوله: «**حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلب...إلخ**»(٣).

٤- **من عادة مسلم أن يذكر الحديث المنسوخ أولا** ثم يأتي بالحديث الناسخ.

٥- **قد يدرج في المتن ما ليس منه،** كالصلاة علىٰ النبي، وشرح بعض الكلمات: حدثنا يحيىٰ بن يحيىٰ، أن رسول الله ﷺ قال: « **ثلاثة**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧)، وأبو داود (٣٨٧٩)، وابن ماجه (٣٥٠٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ٤)، معلقًا عن عائشة -رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٢).

يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجـران..»(١).

٦ ـ **يذكر الإمام مسلم جميع طرق الحديث في مكان واحد**، وعلىٰ هذا فإن متن الحديث يأتي ـ تبعا لذلك ـ أيضاً في نفس المكان، وإذا كان الحديث يتضمن عدة أفكار، وضعه مسلم في باب يتعلق بإحدىٰ هذه الأفكار، ولا يضعه إلا في مكان واحد، علىٰ أنه قد يذكر متن الحديث نفسه في مكان آخر مع إسناده نفسه، أو بإسناد آخر، وهذا نادر جداً.

قلت: يا معاشر النقاد من أهل الرواية والدراية إنما يتناهى النقد، ويتبدد التعليق عند كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهل توجه إلى صحيح الإمام مسلم على جلالته وفضله وسبقه أي نقد؟!

قالوا: صدقت يابن الياسين، إنما العصمة لله سبحانه وهي الكائنة لكتابه وكلامه، وما سوىٰ ذلك فإنه يعتريه ما يعتري البشر من سهو وسبق بصر، فما الانتقاد الذي انتقد فيها صحيح مسلم، مع إردافها بما يرد عنها إنصافًا وإحقاقًا؟

والجواب عن ذلك أن هذا الكتاب لم يسلم، علىٰ جلالته وعظم قدر مؤلفه ـ من النقد والتعليق، وإن فيه أحاديث مخالفة لشرط الصحيح، وسنرىٰ أن كل ما أخذ عليه أمكن تأويله أو الرد عليه، وبقي هذا الكتاب العظيم «صحيحًا» سالـمًا من المطاعن، نقيًا من الجرح.

وسأفصل فيما يلي القول في ذلك كله، مع ذكر ما أورده المصنفون من حجج وإيضاحات في الدفاع عن هذا الكتاب:

١ ـ هل كل ما في صحيح مسلم من الأحاديث قد حكم بصحتها؟

لقد حكم بذلك ابن الصلاح فقال: «جميع ما حكم مسلم ـ رحمه الله ـ بصحته في هذا الكتاب فهو مقطوع بصحته، والعلم النظري حاصل بصحته في

(١) أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤)، والترمذي (١١١٦)، والنسائي (٦/ ١١٥)، وأحمد (٤/ ٤٠٥)، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

نفس الأمر، وهكذا جميع ما حكم البخاري بصحته في كتابه، وذلك لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول، سوىٰ من لا يعتد بخلافه ووفاقه في الإجماع»، وقد مر بنا أن مسلمًا عرض كتابه علىٰ أبي زرعة، فكل ما أشار أبو زرعة إلىٰ أن له علة تركه مسلم، ولعلنا نذكر أيضاً قول مسلم نفسه من أنه لم يضع في صحيحه إلا ما أجمعوا عليه، وأنه ما وضع شيئًا في كتابه إلا بحجة، وما أسقط منه شيئا إلا بحجة.

علىٰ أن ابن الصلاح يذكر أن مسلماً وضع في كتابه أحاديث كثيرة مختلفًا في صحتها، لكون العلماء اختلفوا في مدىٰ اجتماع شرط الحديث الصحيح في رواة هذا الحديث، وأجاب عن ذلك بأن مسلماً، بما وضعه لنفسه من مقاييس خاصة في معرفة الصحيح ـ كان يرىٰ أن هذه الأحاديث صحيحة، وهذا القول صحيح، فقد يكون راوي الحديث ثقة عند مسلم، ولا يكون كذلك عند غيره.

٢ ـ ومما أخذ على مسلم أنه روى في صحيحه عن جماعة من الرواة الضعفاء والمتوسطين الذين لا ينطبق عليهم شرط الحديث الصحيح..

وقد فند ابن الصلاح هذا الزعم، ورد عليه بما خلاصته:

أ ـ أن يكون ذلك فيمن هو ضعيف عند غير مسلم، ولكنه ثقة عند مسلم نفسه، ومن المعلوم أنه لا يقبل الجرح ما لم يفسر سببه.

ب ـ أن يكون ذلك واقعًا في المتابعات والشواهد، لا في الأصول، وذلك بأن يذكر مسلم الحديث أولا بإسناد نظيف، رجاله ثقات ويجعله أصلاً، ثم يتبعه بإسناد آخر أو أسانيد تدعم الحديث الأصلي بالمتابعة، أو يكون فيها فائدة جديدة، وحينئذ لا تضر الراوية عن الضعفاء ما دام للحديث نفسه أصل صحيح موثوق به.

جـ ـ أن يكون الراوي الضعيف قد طرأ عليه الضعف بعد أخذ مسلم عنه، فهذا لا يقدح فيما رواه من قبل في زمن استقامته.

د ـ أن يكون الحديث الذي رواه الشخص الضعيف، عالي الإسناد، ويكون هذا الحديث نفسه مروياً عند مسلم عن طريق الثقات ولكن بإسناد نازل، فيقتصر علىٰ العالي، ولا يضيف إليه الإسناد النازل خشية الإطالة،

مكتفياً بمعرفة أهل الشأن في ذلك، وقد صرح مسلم نفسه بهذا، وكأن ذلك وقع منه على حسب حضور باعث النشاط وغيبته؛ لأن عادة مسلم أن يروي عن الثقات أولاً، ثم يأتي بمن هم دونهم، متابعة. . . وهناك أخيراً حقيقة يجب ألا تغيب عن أذهاننا، وهي أن الرَّاوية الضعيف قد يصلح لأن يروى عنه، ولهذا نرى الدارقطني وغيره حين يتكلمون على الرُّواة الضعفاء يقولون: «فلان يعتبر به، وفلان لا يعتبر به» فجهات الضعف متباينة متعددة، ولو كان ضعف رُواة مسلم قادحًا فيهم، أو ثابتًا عنده، لما خرج أحاديثهم.

٣ ـ ويذكرون أن مسلمًا روى في صحيحه الحديث: «لا تسبوا أصحابي..» عن: «يحيى ابن يحيى، وأبي بكر، وأبي كريب ـ ثلاثتهم ـ عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة».

ويقولون: إن مسلمًا قد وهم في إسناد هذا الحديث، وإنما، هؤلاء الثلاثة الحديث عن «أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد»، وكذلك رواه عنهم الناس، وكذلك أيضاً رواه ابن ماجه عن أبي كريب، أحد شيوخ مسلم في هذا الحديث، ويقول السيوطي: إن هذا الوهم قد وقع من مسلم وهو يكتب الحديث، وليس وهماً في حفظ مسلم نفسه.

٤ ـ ووقع في صحيح مسلم حديث مقلوب ..

جاء القلب في متنه، وهو حديث السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة: «**ورجل تصدق بصدقة أخفاها، حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله**» (١)، فهذا ما انقلب على أحد الرُّواة، وإنما هو ـ كما في صحيح البخاري ـ: «**حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه**»(٢).

٥ ـ اختلف أئمة الحديث في قبول روايات أصحاب البدع غير المكفرة، ولهم في ذلك تفصيلات:

وقد احتج الإمام مسلم بعبد الحميد بن عبد الرحمن الحماني، وكان داعية إلى

(١) أخرجه مسلم (١٠٣١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإرجاء (من المرجئة) ولكن مسلما لم يخرج له شيئًا في كتابه، وإنما أخرج له في المقدمة فحسب، وقد وثقه ابن معين، على أن العلماء يفرقون عادة بين من روىٰ لهم مسلم في الصحيح نفسه، ومن روىٰ لهم في المقدمة.

٦ - لقد تلقت الأمة صحيح مسلم بالقبول، سوى بعض أحاديث يسيرة ضعفها بعض الأئمة أو نقدوها ...

ومما ضعفوه من ذلك حديث جاء في «الصحيح معللا»، في متنه علة - وهو الذي انفرد مسلم وحده بإخراجه في صحيحه في حديث أنس من اللفظ المصرح بنفي قراءة البسملة، وقد رواه مسلم عن أنس بن مالك قال: «**صليت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لايذكرون ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ في أول قراءة ولا في آخرها**»(١).

وقد ضعَّف قوم هذا الحديث و «عللوا» رواية العبارة الأخيرة فيه - أي التصريح بنفي قراءة البسملة - لأن أكثر رواة هذا الحديث لم يتعرضوا لذكر البسملة، وهذا ما اتفق عليه البخاري و مسلم في صحيحيهما، وأن الذي رواه باللفظ المذكور إنما رواه بالمعنىٰ الذي وقع له، حيث فهم من عبارة «كانوا يستفتحون بالحمد لله» أنهم كانوا لا يبسملون، فروىٰ الحديث علىٰ ما فهم، وإنما القصد بأن «السورة» التي كانوا يفتتحون بها من السور هي «الفاتحة» فجاء التعبير عنها بالآية الأولىٰ منها بدلاً من أن يعبر عنها باسمها، أضف إلىٰ ذلك أن أنسا نفسه سئل عن الافتتاح بالتسمية - أي جهراً - فذكر أنه لا يحفظ فيه شيئًا عن رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٩).

١٣ - الإمام الترمذي

(٢٠٩ - ٢٧٩ هـ / ٨٢٤ - ٨٩٢ م)

محطتنا الثالثة من محطات المحدثين، مع علم الأعلام وجهبذ همام، إنه الإمام الترمذي، شيخ الرواية والدراية في عصره، وقبلة الطلاب والعلماء على السواء في زمانه، وكعادتي توجهت نحو مؤرخي الرجال..

وقلت : حدثوني يا علماء الحديث عن ذلكم الإمام النابغ والطود الشامخ، شيخ الرواية والدراية خليفة البخاري ومسلم وتاليهما في الفضل والمجد أعني الإمام الترمذي.

قالوا : هو محمد بن عيسىٰ بن سورة بن موسىٰ بن الضحاك، أبو عيسىٰ، اسمه، ونسبه: السلمي الضرير البوغي الترمذي، والسلمي - بضم السين: نسبة إلىٰ بني سُليم مصغراً، قبيلة من قيس عيلان، وأما البوغي فنسبة إلىٰ بوغ : قرية من قرىٰ ترمذ، نسب إليها أبو عيسىٰ لوفاته فيها.

لكنه اشتهر وعرف بين الخاص والعام بالترمذي نسبة إلىٰ ترمذ : مدينته التي نشأ فيها، وهي تقع علىٰ الضفة الشمالية لنهر جيحون (أموداريا) شمالي إيران، وهي بفتح التاء وكسر الميم - كما هو لسان أهلها - علىٰ ما ذكر السمعاني، لكن المشهور المتداول كسر التاء والميم جميعاً، نص علىٰ ذلك الحافظ الذهبي، وقالت دائرة المعارف الإسلامية: «وسمع الضباط الروس الناس في عام ١٨٨٩ م ينطقون باسمها ترمز، وتعرف المدينة رسمياً الآن باسم تِرمِز» ا. هـ، يعني بالكسر فيهما.

قلت : ماذا عن ترحاله في طلب العلم ؟ وماذا عن سعيه ودأبه في سبيل تحصيل علم الحديث؟ وماذا عن شيوخه وأساتذته في ذلك الفن المجيد؟

قالوا : إن الترمذي بعد أن شب عن الطوق، طلب العلم من الشيوخ في بلدته وشيوخ خراسان، كإسحاق بن راهويه نزيل نيسابور، ومحمد بن عمرو السواق، وم البث أن رحل إلىٰ العراق، فسمع شيوخ الحديث وحفاظه في ذلك القطر، ثم دخل الحجاز فسمع من العلماء الحجازيين، ورحل إلىٰ غير ذلك من البلاد.

ومما أفاد **الترمذي** الرسوخ في علم الحديث عنايته بلقي الأئمة الكبار الذين إليهم المنتهىٰ في حفظ الحديث ودرايته، وأخذه عنهم، فأكمل تحصيله وتعمقه، وبرز نبوغه، فتقدم إلىٰ محراب الإمام في الحديث غير منازع ولا مدافع.

لقي الإمام مسلم بن الحجاج وأخذ عنه، لكنه لم يُخَرِّجْ عنه إلا حديثًا واحدًا هو حديث أبي هريرة: «**أحصوا هلال شعبان لرمضان**».

ولقي أيضًا الإمام أبا داود سليمان بن الأشعث السجستاني وروىٰ له في جامعه، وأفاد في علل الحديث والرجال وفنون الحديث من الإمام عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، وأبي زرعة الرازي، كما ذكر في آخر جامعه.

لكن التأثر الكبير والإفادة العظيمة تمت للترمذي علىٰ أمير المؤمنين وفي الحديث محمد بن إسماعيل البخاري، فقد لازمه الترمذي طويلاً، وأخذ عنه العلم الكثير، حتىٰ تخرج علىٰ يديه وعرف به.

قال ابن خلكان: «وهو تلميذ أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري وشاركه في بعض شيوخه» ا.هـ، وقال الصلاح الصفدي: «وأخذ علم الحديث عن أبي عبدالله البخاري».

ولم تقتصر إفادته علىٰ الحديث وعلومه، بل إنه أفاد منه فقه الحديث، كما قال الذهبي «وتفقه في الحديث بالبخاري» ا.هـ، وحسبك بالبخاري إمامًا فقيهًا في الحديث غواصًا علىٰ خفايا فقهه والاستنباط منه.

وكان الترمذي في ذلك الوقت قد لقي الشيوخ وحفظ الحديث، فعرف للبخاري قدره ووجد فيه أمنيته، فأكب يناظره ويباحثه في علل الحديث والجرح والتعديل والرجال، ويغوص معه في هذه المعارف التي لا يجودها إلا الأفذاذ. فصقلت مواهبه ونمت، واكتمل تحصيله العلمي، وأشرب عبقرية شيخه الإمام البخاري، وأصبح خريجه.

ومن شيوخه ـ أيضًا ـ ما ذكره علماء التراجم كالذهبي وغيره، كالآتي:

١ ـ محمد بن بشار بندار، المتوفىٰ سنة (٢٥٢هـ).

٢ ـ محمد بن المثنىٰ أبو موسىٰ (٢٥٢ هـ) .

٣ ـ زياد بن يحيىٰ الحساني (٢٥٤هـ) .

٤ ـ عباس بن عبد العظيم العنبري (٢٤٦هـ) .

٥ ـ أبو سعيد الأشح عبدالله بن سعيد الكندي (٢٥٧هـ) .

٦ ـ أبو حفص عمرو بن علي الفلاس (٢٤٩هـ) .

٥ ـ يعقوب بن إبراهيم الدورقي (٢٥٢هـ) .

٦ ـ محمد بن معمر القيسي البحراني (٢٥٦هـ) .

٧ ـ نصر بن علي الجهضمي (٢٥٠هـ) .

قلت : وماذا عن علاقة الترمذي بإمام الأئمة وسيد علماء الأمة في علم حديث رسول الله ﷺ الإمام البخاري؟

قالوا : لقي الترمذي البخاري ضمن باقي الشيوخ ، ثم تبصر فعرف للبخاري قدره وفضله ووجد فيه أمنيته فأكب يناظره ويباحثه في علل الحديث والجرح والتعديل والرجال فصقلت مواهبه ونمت ، وأشرب عبقرية شيخه البخاري وأصبح خريجه .

والحقيقة أنه خير من خَلَفَ البخاري في حمل علمه وفضله، وقد ظل معتزاً به ، يظهر علمه وفضله للناس ، وهذه كتبه ملأىٰ بالنقل عنه ، وقد صرح في آخر كتاب «الجامع» بأن أكثر ما ذكره فيه من العلل والكلام في الرجال والتاريخ فإنه مما ناظر به محمد بن إسماعيل ، كما اعترف له بالفضل وشهد له بالتفوق علىٰ أئمة العصر فقال : «ولم أر بالعراق ولا بخراسان في معنىٰ العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد كثيراً أحداً أعلم من محمد بن إسماعيل» ا . هـ .

وكذلك كان شعور البخاري نحو أبي عيسىٰ تقديراً وإكباراً لعلمه وذكائه ، وقد ألحقه بشيوخه ومفيديه ، علىٰ حين كانت تخضع له العلماء وتصغر عنده الأئمة ، فأخذ عن الترمذي بعض الأحاديث وسمع منه ، كحديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال لعلي :

«**لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك**» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وقال: «سمع مني محمد بن إسماعيل هذا الحديث»، وفي ذلك تكريم للترمذي ودلالة على سعة علمه وحفظه، حتى يسمع منه البخاري ويجد لديه في العلم مفيداً له، وجديداً، وقد صرح هو بما يفيد ذلك فقال للترمذي كما نقل عنه الترمذي نفسه: «ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بي»، وفي هذا دليل على مكانة الترمذي العلمية العظيمة، وأي مكانة كانت له رحمه الله.

قلت: لله در الإمام الترمذي في رواية الحديث سنداً وجرحاً وتعديلاً، فماذا عنه في درايته وماذا عن شيوخ الدراية والفقه الذين أخذ عنهم وتخرج بهم؟

قالوا: مبتدئ الأمر يابن ياسين، أن الترمذي على ما أسلفنا هو إمام الرواية والدراية، وأما الرواية فقد حازها على ما سبق، أما الدراية فتلك هي الغاية، وما ادخر الترمذي جهداً في طلبها وتعمقها من خلال تفقهه بشيوخ عصره الكبار.

واسمع طرفاً من ذلك على عجالة: «حيث ضم الترمذي لعلم الرواية الفقه فراح يتفقه فيه، وفي معرفة مذاهب العلماء، وكان له في البخاري المرشد الحاذق في فقه الحديث، واستنباط دقائق المعاني، ولطائف الإشارات، وهو الإمام الفطن الغوَّاص، فتكونت ملكة الترمذي في فقه الحديث على البخاري، كما قال الحافظ الذهبي: «وتفقه في الحديث بالبخاري».

وفي عصره دب التقليد في الأمة، وانتشر العمل بالمذاهب الفقهية، فاستوعب الترمذي المذاهب المشهورة في عصره، وأحاط بها، واطلع على فقه أهل الرأي، أهل الكوفة كأبي حنيفة وأصحابه، وابن أبي ليلى، وغيرهم من فقهاء الرأي، وأخذ فقه أهل الحجاز فتلقى فقه الإمام مالك عن إسحاق بن موسى الأنصاري، وعن أبي مصعب الزهري تلميذ مالك وغيرهما، وتلقى عن الحسن بن محمد الزعفراني تلميذ الشافعي مذهب الشافعي في القديم، وأخذ قوله الجديد عن الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي، وكذلك عني بآراء المحدثين الفقهية، فدرس أقوال أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وسفيان الثوري وغيرهم، واطلع عليها اطلاعاً عظيماً فجمع بذلك الفقه في

الحديث، والأقوال والمذاهب المتعددة المشارب، جمعًا لا نظير له، فكان علامة الفقه الإسلامي، كما كان علامة في الحديث وعلله وأسانيده وسائر فنونه.

وقد ذُكِرَ أنه ألَّف في الفقه كتابًا أشار إليه في آخر الجامع، ولكن لم نعثر على هذا الكتاب، وعلى كل حال، فإن كتابه الجامع دليل كاف على تفقه الترمذي في الحديث، واطلاعه على المذاهب، فقد أورد فيه عقب حديث كل باب من أقوال العلماء والترجيح ما يدهش القارئ ويحيره، حتى لا يسع أحداً إلا أن يشهد له بالأمانة في الفقه، كما أنه إمام في الحديث.

قلت: يا أعلام التراجم، يا سدنة التأريخ، حدثوني عن خلائق وشمائل وصفات ذلكم الإمام الأرشد إمام الحديث وسيده بعد الشيخين؟! كيف كانت، وماذا عنها؟!

قالوا: دونك مرادك، عن خلائق وصفات الإمام الترمذي: كان للإمام الترمذي من الصفات والأخلاق ما كان له أثر كبير في إقامته وتقدمه، فقد كان قوي الحافظة، حاضر الذهن، يضرب به المثل في الحفظ والضبط، حدث عن نفسه أن أحد الشيوخ ألقى عليه أربعين حديثاً من غرائب حديثه امتحانًا له، قال الترمذي: فقرأت عليه من أوله إلى آخره كما قرأ ما أخطأت في حرف، فقال لي: «ما رأيت مثلك»، وحقًا إنه لحفظ عزيز نادر أوتيه أبو عيسى، وهو ألزم ما يكون لعالم الحديث، وبه يتفاضلون.

وكان الترمذي في مرتبة عالية من الورع والاحتياط لدينه، يبتعد عن أدنى شبهة ويستبرئ لدينه وعرضه من أدنى شائبة، وكذلك كان زاهداً في حطام الدنيا، معرضًا عنها، مقبلاً على الآخرة، حريصًا على بث العلم ونشره، امتلأت نفسه خشوعًا وخشية ومهابة من الله ـ عز وجل ـ فكان كثير البكاء، أوابًا متعبداً منيبًا.

وهكذا كان أسلافنا ـ رحمهم الله ـ وإنهم لنعم القدوة والأسوة لنا نحن حفدتهم وحملة رسالتهم، والترمذي في ذلك كله صورة لأستاذه الإمام البخاري، وقد كان النهاية التي يبلغها إنسان في عصره في هذه الفضائل والصفات، فخلفه الترمذي في فضله، كما خلفه في علمه.

وما أحسن قول الحافظ عمر بن عِلْكٍ: «مات البخاري فلم يخلف بخراسان

مثـل أبي عيسىٰ في العلم والحفظ والورع والزهد، بكىٰ حتىٰ عمي وبقي ضريراً سنين».

قلت: وماذا عن شهادات العلماء بفضل ومجد الترمذي هلا شنفتم أسماعنا، وعطرتم أنوفنا، وأقررتم أعيننا ببعض من تلك الشهادات الصادقات على الإمام الترمذي.

قالوا: تعدد ثناء العلماء علىٰ الترمذي وكيف لا وهو الجدير بها أجمع، وإن ما نذكره لا يفي بقليل من فضل ومجد ذلك الأستاذ المتحدث الإمام الهمام أبي عيسىٰ الترمذي، ثم لم يزل الإمام أبو عيسىٰ الترمذي ـ في كل الأزمان ـ علماً يقتدىٰ به، وإماماً ينتفع بعلمه وكتبه، أجمع العلماء علىٰ إكباره، والثناء عليه، وشهدوا له بالتقدم في العلم والحفظ والإتقان.

قال الحافظ العالم أبو سعيد الإدريسي: «أحد الأئمة الذين يقتدىٰ بهم في علم الحديث، صنف الجامع، والتواريخ، والعلل، تصنيف رجل عالم متقن، كان يضرب به المثل في الحفظ».

وقال علي بن محمد بن الأثير المؤرخ: «أحد الأئمة الذي يقتدىٰ بهم في علم الحديث».

وقال الحافظ المزي: «أحد الأئمة الحفاظ المبرزين، ومن نفع الله به المسلمين».

وقال الذهبي: «محمد بن عيسىٰ بن سورة الحافظ الْعَلَم، أبو عيسىٰ الترمذي، صاحب الجامع، ثقة مجمع عليه».

وقال مبارك بن الأثير في جامع الأصول وطاش كبرى في مفتاح السعادة: «وهو أحد العلماء الحفاظ الأعلام، وله في الفقه يد صالحة» اهـ... وغير ذلك كثير من ثنائهم عليه وتعظيمه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قلت: يا علماء الحديث، انبذوا لي بطرفٍ عن اسم ومضامين ذلك الكتاب العظيم كتاب الإمام الترمذي، فلله هو من كتاب، ولله ما أعظمه وأجله!

قالوا: أما عن اسمه، فقد أطلقت عليه عدة تسميات منها:

١ ـ صحيح الترمذي، وهو إطلاق الخطيب كما ذكر السيوطي.

٢ ـ الجامع الصحيح، وهو إطلاق الحاكم، ونحن نجد بعض حديثه صحيحا، وبعضه حسناً ومنه دون ذلك، وهو ينص على هذه الدرجات صراحة، إذن ففي كل من هاتين التسميتين ضرب من التجوز.

٣ ـ الجامع الكبير، ذكره الكتاني في الرسالة المستطرفة، وهو قليل الاستعمال.

٤ ـ السنن، وهو اسم مشهور للكتاب، ويكثر نسبته إلى مؤلفه، فيقال: سنن الترمذي، تمييزاً له من بقية السنن، ووجه هذه التسمية: اشتماله على أحاديث الأحكام، مرتبة على ترتيب أبواب الفقه، وما كان كذلك يسمى سننًا، ففي هذه التسمية تجوُّز بتسمية الكل ببعض أجزائه.

٥ ـ الجامع، وهو أشهر وأكثر استعمالاً، واشتهر إطلاقه منسوبًا إلى مؤلفه، فيقال «جامع الترمذي»، ووجه تسميته بذلك: أن الجامع عن المحدثين ما كان مستوعبًا لنماذج فنون الحديث الثمانية، وهي هذه: السير، والآداب، والتفسير، والعقائد، والفتن، والأحكام، والأشراط، والمناقب، فسمي الكتاب جامعًا لوجود هذه الأبواب فيه، وهذا الاسم «الجامع» أو «جامع الترمذي» يدل على الكتاب بالمطابقة وذلك:

أ ـ لاشتماله على هذه الفنون الثمانية.

ب ـ لأنه مطلق عن قيد الصحة، فتطابق حال الكتاب وواقعه، فهو إذن أولى الأسماء بالإطلاق على كتاب الإمام الترمذي.

فاستحسن أن يسمى الكتاب ويطبع بعنوان «الجامع»، فأما من طبع الكتاب بعنوان الصحة مثل «صحيح الترمذي»، أو «الجامع الصحيح» فهذا عمل قد أخطأ صاحبه التوفيق، لما ذكرنا ما فيه من التساهل، ولأنا نخشى أن يقع في اللبس بسببه من لا دراية عنده، فيظن كل أحاديث الكتاب صحيحة، وهو خلاف الواقع.

ثم قالوا: أما عن مضامين الكتاب فهذا بيان عاجل بذلك: نتصفح كتاب أبي عيسى الترمذي، الذي هو أحد أصول الحديث النبوي، فنجده قد رتبه على

الأبواب، وأكثر فيه من رواية الأحاديث، الصحيحة وغيرها، وذكر عقب كل حديث درجته من الصحة أو الحسن أو الضعف، فجاء كتابًا حافلاً، مشتملاً على مختلف الموضوعات الهامة، وهي الآتية: الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، الجنائز، النكاح، الرضاع، الطلاق، البيوع، الأحكام «القضاء»، الديات، الحدود، الصيد، الأضاحي، النذور والأيمان، السير، الجهاد، اللباس، الأطعمة، الأشربة، البر والصلة، الطب، الفرائض، الوصايا، الولاء والهبة، القدر، الفتن، الرؤيا، الشهادة، الزهد، صفة الجنة، صفة جهنم، الإيمان، العلم، الاستئذان والآداب، الأمثال، فضائل القرآن، القراءات، التفسير، الدعوات، المناقب، العلل، فالكتاب مشتمل على أحاديث الأحكام وغيرها، ونصف هذه المجموعة تقريباً للأحكام، والباقي لسائر الأبواب.

وقد عني الترمذي عناية خاصة بالمواعظ والآداب، وبالتفسير، وبالمناقب فهذه الأبواب لم يتوسع فيها مصنفو كتب السنة مثلما توسع أبو عيسى، وقد أشاد بها الكاتبون عن الكتاب، وأثنوا على عناية الترمذي بها.

وهذه العناوين المجملة يندرج تحت كل عنوان منها أبواب كثيرة العدد، وكل باب منها يحمل عنوان المسألة أو الحكم الذي روى الترمذي الحديث أو الأحاديث من أجله، ويطلق المحدثون على العنوان اسم ترجمة.

وتنقسم التراجم في كتاب الترمذي إلى قسمين:

الأول: تراجم عامة: تشمل أحاديثه مسائل متعددة، وأبوابًا كثيرة تشترك في نوع موضوعها كمسائل الصلاة، أو الزكاة، ويُعَنْوِن لها أبو عيسى بلفظ «أبواب» مستعملاً هذه الصيغة (أبواب الطهارة عن رسول الله ﷺ) و (أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ) و (أبواب الزكاة عن رسول الله ﷺ) وهكذا.

الثاني: تراجم جزئية: توضع لمسألة معينة، يخرج الترمذي حديثًا أو أحاديث تدل عليها، ويستعمل لها كلمة (باب) فيقول: باب كذا مثل (باب ما جاء إن مفتاح الصلاة الطهور) و (باب الحكم في الدماء)، وغير ذلك.

قلت : ذكر الشراح والمحدثون والعارفون بالجامع الصحيح فوائد شتى لهذا الكتاب، ومزايا قلما توجد في غيره، فهلا أطلعتمونا على طرف من تلك الفوائد والمزايا، علَّ طلاب العلم ينتبهوا إليها، وييمموا شطرها.

فانتهض إلي ابن رشيد، وابن العربي من خلال عارضة الأحوذي والسيوطي في كتابه قوت المعتدي.

قالوا : نعم، كما بيَّن مذاهب العلماء وأبدىٰ رأيه في أقوالهم، أمثال هـذه الفوائد وغيرها كثير في كتابه، وتلك مزايا عظيمة لكتابه، وأهمها ما يتعلق بالعلل، فإنه علم صعب عويص، وقد أتىٰ به الترمذي بأوضح أسلوب فأتم وضوح مراده وكثرة علومه وفوائده، حتىٰ أنه ليقرب العلم ويدني مائدته لقارئه، فهو لطالب الحديث أستاذ ومعلم، وللعالم مبصر ومذكر، وقد عدد العلماء فوائده وبينوا مقاصده.

فقال ابن رشيد : «إن كتاب الترمذي تضمن الحديث مصنفًا علىٰ الأبواب، وهو علم برأسه، والفقه وهو علم ثان، وعلل الحديث ويشتمل علىٰ بيان الصحيح من السقيم وما بينهما من المراتب، وهو علم ثالث، والأسماء والكنىٰ، وهو علم رابع، والتعليل والتجريح وهو علم خامس، ومن أدرك النبي ﷺ ومن لم يدركه ممن أسند عنه في كتابه وهو علم سادس، وتعديد من روىٰ ذلك الحديث، وهو علم سابع، هذه علومه المجملة ، وأما التفصيلية فمتعددة، وبالجملة فمنفعته كثيرة وفوائده غزيرة»، انتهىٰ بتصرف يسير.

وقال الإمام أبو بكر بن العربي في شرحه «عارضة الأحوذي» في فصل نفيس عقده لبيان فوائد الكتاب : «وليس فيها ـ يعني في كتب الحديث ـ مثل كتاب أبي عيسىٰ حلاوة مقطع، ونفاسة منزع، وعذوبة مشرع، وفيه أربعة عشر علمًا، فهو قد صنف، وأسند، وصحح، وأسقم، وعدد الطريق، وجرح وعدل، وأسمىٰ، وأكنىٰ، ووصل، وقطع، وأوضح المعمول به، والمتروك، وبين اختلاف العلماء في الرد والقبول لآثاره، وذكر اختلافهم في تأويله، وكل علم من هذه العلوم أصل في بابه وفرد في نصابه، فالقارئ له لا يزال في رياض مونقة، وعلوم متفقة متسقة»، انتهىٰ بتصرف يسير.

قلت : يا سادة العلوم، هلا أجبتموني عن علاقة صحيح الترمذي بكل من صحيحي الشيخين الإمامين العَالِمَيْن البخاري ومسلم؟! وكيف نهل من معينيهما، وعب من محيط علميهما ؟!

قالوا : وقد قدمنا في المقدمة غرض كل من البخاري ومسلم في صحيحيهما وببيان مقاصد الترمذي وأغراضه في كتابه، وبتحديد موضوعه، نجده قد جمع بين أغراض الصحيحين وموضوعيهما، وما يستتبعه ذلك من الأخذ بطريقة كل في كتابه.

فالبخاري بنى كتابه على الأبواب الفقهية، واستنتاج الفوائد والنكت من الحديث، وأودع ذلك في تراجمه، وأتى فيها بالنصوص من القرآن، والأحاديث وأقوال العلماء، قصدا لبيان الفقه في المسألة.

وأما مسلم فإنه، كما ذكرنا في المقدمة قسم الأحاديث والرجال ثلاثة أصناف، فأعرض عن الطبقة الثالثة، وأخرج حديث الطبقة الأولى حديث الحفاظ المتقنين أصولا، ثم يتبعها بحديث الطبقة الثانية، وهم دونهم في الحفظ والإتقان، فيخرج حديثهم شواهد ومتابعات، فجمع أحاديث الباب وطرقها في مكان واحد، وأتى بها مختصرة بطرقه البديعة في الاختصار، فيظهر بذلك ما في الحديث من لفظة شاذة، أو زيادة أو وقت، أو علة.

فأتى من بعدهما الترمذي ـ وقد تلمذ لهما ـ فوضع كتابه، بعد أن تقدم، وبلغ رتبة الإمامة، وقد نقل ابن حجر عن الترمذي أنه أنهى كتابه «في يوم الأضحى من سنة سبعين ومئتين».

وإذا علمنا أنه ولد سنة تسع ومئتين تبينا ما كان عليه الترمذي وقت تأليف كتابه من الرسوخ العلمي، وكان في ذلك الوقت قد سُبِقَ بالصحيحين فجمع فوائدهما في كتابه، وأضاف من مجهوده، ما جعل صبغته الخاصة به، التي تميز بها عن غيره.

قلت : يا سادة العلماء، ما قولكم جملة في صحيح الترمذي، اشهدوا عليه، والله عليكم شهيد، ونبهوني نحن بني الألفية الثالثة ألفية المعابث والمخابث إلا ما رحم ربي.

فانتبه إليَّ **الدكتور نور الدين عتر** وهو دارس فذ للترمذي، وصورني إلىٰ ابن كثير وابن الأثير وغيرهما . .

وقالوا : اسمع يابن الألفية الثالثة، إن لإتقان الترمذي كتابه، وما ضمنه من الفوائد العظيمة التي سبق أن تحدثنا عنها لقي كتابه «الجامع» القبول والحظوة، لدىٰ العلماء كافة منذ عصر مصنفه إلىٰ اليوم، وقد قال الترمذي نفسه : «صنفت هذا الكتاب، فعرضته علىٰ علماء الحجاز فرضوا به، وعرضته علىٰ علماء العراق فرضوا به، وعرضته علىٰ علماء خراسان فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي يتكلم»، ثم لم يزل في سائر العصور موضع ثناء العلماء، وإشادة الأئمة بمحاسنه وفوائده .

قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي في شروط الأئمة الستة : سمعت الإمام أبا إسماعيل عبدالله بن محمد الأنصاري بهراة، وجرىٰ بين يديه ذكر أبي عيسىٰ الترمذي وكتابه، فقال : «كتابه عندي أنفع من كتاب البخاري ومسلم؛ لأن كتابي البخاري ومسلم لا يقف علىٰ الفائدة منهما إلا المتبحر العالم، وكتاب أبي عيسىٰ قد شرح أحاديثه وبينها فيصل إلىٰ فائدته كل أحد من الناس» .

وقال ابن الأثير (٦٠٦هـ) في جامع الأصول : «كتابه الصحيح أحسن الكتب، وأكثرها فائدة، وأقلها تكراراً، وفيه ما ليس في غيره من ذكر المذاهب، ووجوه الاستدلال، وتبيين أنواع الحديث من الصحيح والحسن والغريب، وفيه جرح وتعديل، وفي آخره كتاب العلل، قد جمع فيه فوائد حسنة لا يخفىٰ قدرها علىٰ من وقف عليها» .

ويرحم الله الشيخ إبراهيم الباجوري (١٢٧٧هـ) حيث قال في شرحه على الشمائل : «وناهيك بجامعه الصحيح، الجامع للفوائد الحديثية، والفقهية، والمذاهب السلفية والخلفية، فهو كاف للمجتهد، مغن للمقلد» .

قلت : يا دارسي الترمذي، من كل دان وقاصي لن أطيل عليكم السؤال، غير أني أريد أن أقف وقفة متثبت من موقع كتاب الترمذي من كتاب صحيح البخاري وهل قلد الترمذي البخاري أو تابعه وأبدع وعلى أصول الشيخ فرع؟!

فانتهض إليَّ ثانياً فضيلة الدكتور نور الدين عتر . .

وقال: اسمع يا شيخ الكويت، هذا بيان مستقصٍ عما سألت، وشفاء لما في نفسك مما سألت موازنة بين الترمذي والبخاري: إن من صنيع الترمذي في كتابه، أن يتعرض لفقه الحديث لدى العلماء من الصحابة ومن بعدهم، ويعني بمذاهب الأئمة المتبوعين، في المسألة التي خرج لها الحديث، وعملهم به على النحو الذي وصفنا.

أما البخاري فإنه يتعرض للفقه في عنوان الباب، فيترجم للباب بما يدل على مقصوده، ثم كثيراً ما ينقل الآثار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ويجعلها بنصها في الترجمة أيضاً، بينما الترمذي يبين المذاهب، وقلما ينقل عباراتهم نفسها، كما هو ظاهر من الأمثلة السابقة.

وخلاصة القول:

أ - إن الإمام محمد بن عيسى الترمذي قد تأثر بشيخه محمد بن إسماعيل في الطريقة العامة حيث جعل الفقه من موضوع كتابه، فاشتركا في ذلك، كما أنهما اعتنيا بالنقل عن العلماء من الصحابة فمن بعدهم.

ب - تظهر لنا شخصية الترمذي الإمام واستقلال فكره المنهجي في أنه لم يقلد أستاذه أبا عبدالله البخاري في تفاصيل مقاصده وطريقته، بل أبدع في تأليف جامعه، فقصد لأغراض جليلة عظيمة، افترق فيها عن مقاصد شيخه وطريقته في صحيحه وهي:

١ - أن الفقه في كتاب الترمذي بيان لعمل الأمة، ومذاهب علمائها في المسائل التي ترجم لها في كتابه، وخرج أدلتها من السنة النبوية، أما البخاري فالفقه في كتابه هو فقهه الشخصي واجتهاده.

٢ - ويقصد الترمذي بالنقل عن العلماء بيان مذاهبهم في المسألة غالباً، وليس الاستشهاد بهم لمذهب ما ليقويه، أو يشير إلى رجحانه، بينما البخاري يقصد الاستدلال بها والاستئناس لرجحان ما يراه في الأمر، والإشارة لمختاره في المسألة.

٣ ـ يتفرع على ذلك ما نجده في البخاري من ذكر أنواع الأدلة : الكتاب والسنة وذكر أقوال الصحابة، والاستنباطات الدقيقة، وغير ذلك من العلم حتى أصبحت تراجمه في جملتها تضم فقهًا بأدلته، أما الترمذي فقد اقتصر على السنة، ولم يعرض للقرآن إلا نادراً.

٤ ـ أن الترمذي واضح في الإبانة عن الحكم في كتابه، أما البخاري فيكثر من سلوك طريق الإشارة والرمز.

وبعد هذه الفروق التي وجدناها بين الكتابين في بيان الأحكام المستفادة من الحديث والنقل عن الأئمة والفقهاء، تظهر لنا شخصية الإمام الترمذي عظيمة قوية، في تأليفه، فقد أفاد العلم في كتابه من الفوائد ما ليس في كتاب شيخه، فقهًا وحديثًا.

حقًا إن البخاري أعمق في الفقه لسلوكه طريق الاجتهاد، ولكنا لا نستطيع الوقوف على مقاصده إلا بالجهد، مع وجود الاحتمالات في النتائج في كثير من الأحيان.

أما الترمذي : فقد وجدناه واضحًا صريحًا في بيان الفقه، حيث يبين الآراء في المسألة وأصحاب المذاهب القائلين بها، فهو كتاب حديث وأصل عظيم من أصول السنة للأدلة الفقهية، يبين فيه الترمذي المذاهب وأدلتها، ولم يقتصر على اختياره الخاص؛ وذلك أنفع للقارئ، وألزم للباحث في الفقه والحديث، مع ما سبق ذكره من فضله الكبير في حفظ فقه الصحابة والتابعين والمذاهب المنتشرة، فتلك ثروة عظيمة، لها قدرها ومنزلتها عند أولي العلم والعرفان.

ثم قلت : حدثوني يا خزان علوم السنة عن أهم كتب الترمذي في السنة بعد صحيحه وأظنه الشمائل، فما تلك الشمائل؟ وما موضوع الكتاب؟

قالوا: هذا كتاب موضوع للحديث عن أشرف الخلق محمد بن عبد الله ﷺ، ويتناول هذا الكتاب ركنًا من الأركان الموضوعية للحديث النبوي، فقد قالوا في تعريف الحديث: «إنه ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف».

فكتاب الشمائل يتناول الركن الرابع، وهو وصف رسول الله ﷺ، يتألف الكتاب من ستة وخمسين باباً، قد ترجم كل باب منها بعنوان واضح الدلالة على مضمونه، وقد لفت نظري دقة الإمام الترمذي في حسن ترتيب هذه الأبواب وعمق نظره، واسترعى انتباهي تدرجه في الانتقال من موضوع لآخر تدرجًا منطقيًا متسلسلاً.

استهل أبو عيسى الترمذي الكتاب بهذا الباب (باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ) تناول فيه وفي أبواب تلته صفة النبي ﷺ البدنية، ثم انتقل بعد ذلك لما يتعلق بالمظهر العام، فقسم الأحاديث على أبواب تناولت كل ما يتعلق بالمظهر العام، من الملبس، والدرع، والسيف، والنعل.

ثم أتى بأبواب متتالية تصف بدقة حياته اليومية ﷺ من أكل، وشرب، ووضوء، ووصف عاداته في المسائل الفردية الدائبة التكرار والتي تعبر عن دلائل لها قيمتها في التعريف بصاحبها وبشخصيته كالعادات في المشي، والنوم، واليقظة، والجلوس، وما إلى ذلك.

وتعرض بعد ذلك لعاداته ﷺ المتعلقة بالمظهر الشخصي الاجتماعي في التطيب، والكلام، والمزاح وغيرها.

وهذه المظاهر تدل على ما اتصف به ﷺ من الخلق العظيم، لذلك نجد الترمذي عقبها بأبواب في الجانب الأخلاقي السامي، الذي أثنى به المولى على رسوله ﷺ بقوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (١).

وبهذا لم يبق جانب ولا زاوية لم تشملها أبواب الكتاب، فختم الترمذي كتاب الشمائل ختامًا منطقيًا، فجاء بهذه الأبواب الثلاثة على التوالي في خاتمة الكتاب:

١ ـ باب ما جاء في وفاة رسول الله ﷺ.

٢ ـ باب ما جاء في ميراث رسول الله ﷺ.

---

(١) القلم: ٤.

٣ ـ باب ما جاء في رؤية رسول الله ﷺ.

وحسبنا هذا العرض لترتيب الكتاب، ففيه غناء عن الإطناب في الثناء عليه وإطرائه.

قلت : فما شهادات العلماء في هذا الكتاب، إذ بينا أنه لم يؤلف في بابه مثله، فماذا قال المتخصصون والعارفون؟ وقد قال الشاعر البارع محمد بن محمد الجزري:

خِلاي إنْ شَطَّ الحَبيبُ وَرَبْعُهُ ... وَعَزَّ تَلاقِيهِ ونَاءَتْ مَنَازِلُهْ
وَفَاتَكمْ أَنْ تُبْصِرُوه بعَيْنِكُمْ ... فَمَا فَاتَكُم بِالعَيْنِ فَهذِي شَمَائِلُهْ

قالوا : اسمع مقالة ذوي العلم بالشمائل، من كل جهبذ خبير، عاقل، وبهذه المزايا التي توخاها أبو عيسىٰ لقي كتابه الشمائل تقبل العلماء، وحاز علىٰ ثنائهم المستفيض.

قال الشيخ محمد بن قاسم جسوس في مستهل شرحه للشمائل : « وبعد : فلما كان كتاب الشمائل من أحسن ما ألف في محاسن قطب الوسائل ومنبع الفضائل، وكان الاشتغال به خدمة لشفيع الخلائق الأواخر منهم والأوائل، ووسيلة إلىٰ امتلاء القلوب بتعظيمه ومحبته، وطريقًا إلىٰ اتباع طريقته وسنته، ومعينًا علىٰ الفوز بمشاهدة كريم طلعته، قيدت عليه عند اقرائه وقراءته، فوائد وتحقيقات».

وقال الشيخ عبدالرؤوف المناوي في مطلع شرحه للشمائل أيضًا : « فإن كتاب الشمائل لعلم الرواية وعالم الدراية الإمام الترمذي، جعل الله قبره روضة عَرْفُها أطيب من المسك الشذىٰ، كتابٌ وحيدٌ في بابه، فريد في ترتيبه واستيعابه، لم يأت له أحد بمماثل ولا بمشابه، سلك فيه منهاجًا بديعًا، ورصعه بعيون الأخبار وفنون الآثار ترصيعا، حتىٰ عد ذلك الكتاب من المواهب، وطار المشارق والمغارب».

والحقيقة أن الكتاب بشمول أبوابه كافة ما يتعلق بهذا الموضوع الهام العظيم، إلىٰ جانب ذلك الانتقاء لأحاديثه يلبي شوق القلوب المؤمنة لمعرفة صورة شمس الإشراق المصطفوية، ويبين لمحبي الذات الشريفة صورة صادقة شاملة لهيئته الكاملة المنيفة، ولجوانب شخصيته العظيمة.

وما أحسن قول الشيخ علي القارئ..

في كتابه جميع الوسائل إلى شرح الشمائل :

ومن أحسن ما صنف في شمائله وأخلاقه ﷺ كتاب الترمذي المختصر الجامع في سيره على الوجه الأتم، بحيث إن مُطَالِعَ هذا الكتاب كأنه يطالع طلعة ذلك الجناب، ويرى محاسنه الشريفة في كل باب.

١٤ ـ الإمام النسائي.. أحمد بن علي

(٢١٥ ـ ٣٠٣هـ / ٨٣٠ ـ ٩١٥م)

وهكذا تعددت محطاتنا مع علماء الحديث، ومحطتنا هذه المرة مع عالم همام وبدر في صنعته تمام، إنه الإمام النسائي صاحب التصانيف، وصاحب السنن أبو عبدالرحمن الذي كان يقدم على كل من يذكر في علم الحديث في عصره ومصره.

قلت : لله در أئمة الهدى وأضواء الدجى... حدثوني عن المحدث الفذ، والعلم الرائد في علم الحديث، عن صاحب السنن أبي عبد الرحمن النسائي.

قالوا : إنه صاحب السنن التي بلغت المعالي والقنن أحمد بن علي بن شعيب ابن علي بن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبد الرحمن النسائي صاحب السنن، الإمام في عصره والمقدم على أضرابه وأشكاله وفضلاء دهره، رحل إلى الآفاق، واشتغل بسماع الحديث والاجتماع بالأئمة الحذاق، وشيوخه الذين روى عنهم مشافهة قد ذكرناهم في كتابنا التكميل وترجمناه أيضًا هنالك، وروى عنه خلق كثير، وقد جمع السنن الكبير، وانتخب منه ما هو أقل حجمًا منه بمرات.

قلت : فحدثوني عن مولده متى كان؟ وأين وُلِدَ؟ وعمن أخذ العلم ؟

قالوا : وُلِدَ بنسا في سنة خمس عشرة أو أربع عشرة ومئتين، وطلب العلم في صغره، فارتحل إلى قتيبة بن سعيد في سنة ثلاثين ومئتين فأقام عنده ببلدة اسمها «بغلان» سَنَةً فأكثر عنه.

وسمع من : إسحاق بن راهويه، وهشام بن عمار، ومحمد بن النضر بن مساور، وسويد بن نصر، وعيسى بن حماد، وأحمد بن عبدة الضبي، وأبي الطاهر ابن السرح، وأحمد بن منيع، وإسحاق بن شاهين، وبِشر بن معاذ العقدي، وبشر ابن هلال الصواف، وتميم بن المنتصر، والحارث بن مسكين، وغيرهم الكثير.

وكان من بحور العلم مع الفهم، والإتقان والبصر، ونقد الرجال، وحُسن التأليف، جال في طلب العلم في خراسان والحجاز، ومصر والعراق، والجزيرة

والشام، والثغور، ثم استوطن مصر، ورحل الحفاظ إليه، ولم يبق له نظير في هذا الشأن.

أما تلامذته ومن أخذ عنه فَخَلْقٌ كثير منهم: أبو بشر الدولابي، وأبو جعفر الطحاوي، وأبو علي النيسابوري، وحمزة بن محمد الكناني، وأبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس النحوي، وأبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد الشافعي، وعبد الكريم بن أبي عبد الرحمن النسائي، والحسن بن الخضر الأسيوطي، وأبو بكر أحمد بن محمد بن السني، وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ومحمد بن معاوية بن الأحمر الأندلسي، والحسن بن رشيق، ومحمد بن عبد الله بن حيوية النيسابوري، ومحمد بن موسىٰ المأموني، وأبيض بن محمد بن أبيض، وخلقٌ كثير.

قلت: فماذا قال عنه جلساؤه ومحبوه؟

قالوا: كان شيخنا مهيبًا، مليح الوجه، ظاهر الدم، حسن الشيبة، نضر الوجه مع كبر السن، يؤثر لباس البرود النوبية والخضر.

قال مأمون المصري المحدث: خرجنا إلىٰ طرطوس مع النسائي سنة الفداء، فاجتمع جماعة من الأئمة: عبد الله بن أحمد بن حنبل، ومحمد بن إبراهيم بن مربع، وأبو الأذان وكيلجة (بكسر الكاف، وفتح اللام) محمد بن صالح بن عبدالرحمن البغدادي أبو بكر الأنماطي، ثقة، حافظ، توفي سنة ٢٧١هـ(١) فتشاوروا: من ينتقىٰ لهم علىٰ الشيوخ؟

فأجمعوا علىٰ أبي عبد الرحمن النسائي، وكتبوا كلهم بانتخابه.

وقال عنه ابن الأثير في أول كتابه الجامع: كان شافعيًا، له مناسك علىٰ مذهب الشافعي، وكان ورعًا متحريًا.

قلت: وماذا عن براعته وضلاعته، وقوة صناعته في علم الحديث؟

قالوا: سل عنه تصنيفه الأوحد كتابه السنن، فقد أبان في تصنيفه عن حفظ وإتقان، وصدق وإيمان، وعلم وعرفان.

---

(١) التقريب ٢/ ١٧٠.

قال الحاكم عن الدارقطني : أبو عبد الرحمن النسائي مقدم علىٰ كل من يذكر بهذا العلم من أهل عصره ، وكان يسمي كتابه الصحيح ، ومن ثم فقد تمدحه العلماء ، فقال عنه أبو علي الحافظ : هو الإمام في الحديث بلا مدافعة .

قلت : فماذا عن شرطه في كتابه ؟

قال أبو علي الحافظ : للنسائي شرط في الرجال أشد من شرط مسلم بن الحجاج ، وكان من أئمة المسلمين(١) .

وقال الحافظ ابن طاهر : سألتُ سعد بن علي الزنجاني عن رجل ، فوثقه ، فقلت : قد ضعفه النسائي ، فقال : يا بني ، إن لأبي عبد الرحمن شرطًا في الرجال أشد من شرط البخاري ومسلم .

قلت : صدق فإنه لَيَّن جماعة من رجال صحيحي البخاري ومسلم(٢) .

قلت : لله ما بلغ النسائي في كتابه، ولله ما أدرك من فضل، ويالله لجهلنا بالنسائي وقدره وفضله، أوسعوني يا قوم عنه حديثاً وفضلاً، وماذا عن رأي العلماء فيه؟

قالوا : لك سُؤْلك يا بن ياسين ، اسمع طرفًا من هاتيك المرويات عنه قال أبو الحسين محمد بن مظفر الحافظ : سمعت شيوخنا بمصر يعترفون له بالتقدم والإمامة ، ويصفون من اجتهاده في العبادة بالليل والنهار ومواظبته علىٰ الحج والجهاد .

وقال غيره : «كان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، حسن الوجه ، مشرق اللون» .

وقال الدار قطني: كان أبو بكر بن الحداد كثير الحديث ، ولم يرو عن أحد سوىٰ النسائي ، وقال : «رضيت به حجة فيما بيني وبين الله عز وجل» .

---

(١) انظر : مقدمة الشيخ أبي إسحاق الحويني في كتابه « بذل الإحسان بتقريب سنن النسائي أبو عبد الرحمن» ، ط الأولىٰ ، مصر .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٢٥ ، قلت : وليس هذا قدحًا في البخاري ومسلم ، ولكن اختلاف الزمن جعل النسائي يتشدد لما رآه في زمانه ، أو لشدة احتياطه ، فمن المعلوم أنه لا يأتي علىٰ الناس زمان إلا والذي بعده أشر منه .

وقال ابن يونس : «كان النسائي إمامًا في الحديث ثقة ثبتًا حافظًا، كان خروجه من مصر في سنة ثنتين وثلاث مئة».

وقال ابن عدي : سمعت منصوراً الفقيه وأحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي يقولان : أبو عبد الرحمن النسائي إمام من أئمة المسلمين، وكذلك أثنىٰ عليه غير واحد من الأئمة، وشهدوا له بالفضل والتقدم في هذا الشأن .

قالوا : ودخل إلىٰ دمشق فسأله أهلها أن يحدثهم بشيء من فضائل معاوية فقال : «أما يكفي معاوية أن يذهب رأساً برأس حتىٰ يروىٰ له فضائل؟».

فقاموا إليه حتىٰ أخرجوه من المسجد الجامع، فسار من عندهم إلىٰ مكة.

وقال الدار قطني : كان أفقه شيوخ مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح من السقيم من الآثار، وأعرفهم بالرجال.

قلت : فماذا عن وفاته رحمه الله رحمة واسعة ؟

فقال : اسمع ما قاله الحافظ أبو بكر محمد بن عبد بن نقطة، ووافقه ابن يونس وأبو جعفر الطحاوي : مات أبو عبد الرحمن النسائي بالرملة مدينة فلسطين يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاث مئة، ودفن ببيت المقدس(١) .

---

(١) وهناك روايات كثيرة في سبب قتله عن خلفية رأيه في سيدنا معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن علي وعن الصحب والآل أجمعين، راجع : الوافي بالوفيات ٢/ ٣٦٤ .

١٥ ـ الإمام أبو داود السجستاني

(٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ / ٨١٧ ـ ٨٨٩ م)

لا نزال مع رجالات الحديث، مع حملة سنة رسول الله ﷺ، إنهم أصحاب السند النبوي الذي يتصل آخره بهم وأوله برسول الله ﷺ، فلله هم، ولله ما أعظمهم، ولله ما قال إمامهم وكبيرهم في الرواية والدراية منشداً أو لنفسه :

دِينُ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ أَخْبَارُ خَيْرُ المطيَّةِ لِلْفَتَى آثَارُ

لا تَرْغَبَنَّ عَنِ الحديثِ وآلِهِ فالعِلْمُ لَيْلٌ والحديثُ نَهَارُ

ولله ما قاله سيد الخلق، وحبيب الحق محمد ﷺ : «**نضر الله امرأ سمع منا شيئًا ، فبلغه كما سمعه، فرب مُبَلَّغٍ أوعى من سامع** »(١) .

فهم ذوو الوجوه النضرة، وها هو أحد جهابذتهم، ورجل من كبير رجالاتهم، **إنه الإمام أبو داود** . .

- **الذي قيل فيه** : « أُلين لأبي داود الحديث، كما أُلين لداود عليه السلام الحديد » .
- **وقال الإمام الحاكم** : « أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة» .
- **وقال الحافظ أحمد الهروي** : « كان أبو داود أحد حفاظ الإسلام لحديث رسول الله ﷺ» .
- **وقال الخَلال** : « أبو داود سليمان بن الأشعث، الإمام المقدم في زمانه» .
- **وقال الإمام الذهبي** : «كان رأسًا في الحديث، رأسًا في الفقه، ذا جلالة وحرمة وصلاح وورع » .

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقال : «حديث زيد بن ثابت حديث حسن» .

■ **وقال ابن الجوزي** : « كان عالـمًا عارفًا بعلل الأحاديث ، ذا عفاف وورع ، وكان يشبه بأحمد بن حنبل » .

قلت : يا علماء الآثار، يا حفظة دواوين الرجال، يا خزان سنة رسول الله رواية ودراية متنًا وسندًا، من ذاك الفتى المنضر وجهه، الواسع فضله والذائع علمه، الشائعة سننه والمدعو «أبو داود » ؟ أخبروني عن اسمه ونسبه.

فتصدىٰ لي علم علماء الحديث من السالف المتأخرين ومن بقية السلف الأولين ، ابن حجر العسقلاني ، أمير المؤمنين في رواية ودراية حديث رسول الله ﷺ .

وقال : اسمع يا بن ياسين ، هذا الذكر المبين عن الإمام أبي داود نضر الله وجهه ووجوهنا أجمعين .

ولد الإمام أبو داود سنة اثنتين ومئتين ، وكان أبو داود قد سكن البصرة ، وقدم بغداد غير مرة ، وروىٰ كتابه المصنف في السنن بها ، ونقله عنه أهلها ، وآخر مرة زارها سنة ٢٧١هـ .

قلت : فماذا عن نسبة السجستاني وما معناها وموقعها؟ وماذا عن ولادته ومسقط رأسه ؟ !

قال: ابن خلكان السجستاني : نسبته إلىٰ سجستان ، واختلف العلماء في تعيينه ، قال ابن خلكان : السجستاني بكسر السين المهملة والجيم وسكون السين الثانية وفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون ، هذه النسبة إلىٰ سجستان الإقليم المشهور ، وقيل ؛ بل نسبته إلىٰ سجستان أو سجستانة قرية من قرىٰ البصرة ، والله أعلم .

قلت : فماذا عن طلبه العلم وارتحاله في الآفاق ؟ وماذا عن شيوخه وأساتذته؟ الذين تخرج عليهم ونما بهم وانتهج سيماهم؟ !

قال : طوف أبو داود إلىٰ جوانب العالم الإسلامي يستقصي شيوخه ، ويصل ويعلي أسانيده ، فاتسعت رحلته إلىٰ بلاد خراسان ومصر والحجاز . ولا نعرف إلا الشيء القليل عن بدايته ، ولكنه لما نشأ وترعرع كانت دائرة علم الحديث واسعة ، ولذلك ذهب يطوف مراكز العلم في العالم الإسلامي عدة سنوات ، واتسعت رحلته فعمت بلاد خراسان ومصر والحجاز ، وكتب عنه علماء هذه البلاد .

وقال ابن كثير : « أبو داود السجستاني أحد أئمة الحديث ، الرحالين إلى الآفاق في طلبه(١) وزار طرطوس التي أقام بها عشرين سنة(٢) ودمشق التي سمع الحديث فيها كما يذكر ابن عساكر»(٣) .

شيوخه :

رحل الإمام أبو داود إلى المراكز المهمة التي حوت كبار المحدثين في بلاد المسلمين ، واستفاد من الشيوخ الذين هم محل الثقة والأمانة ، وأخذ الحديث ممن لا يحصى كثرة .

قلت : لله هذا الإمام الهمام خادم سنة خير الأنام في فضله وسعيه، وفي تواليفه وعلمه، وفي سلوكه وتعامله، هلا حدثتموني عن زهده وورعه، ؟

قالوا :كان الإمام أبو داود على درجة عالية من النسك والعفاف والصلاح والورع ، وكان مثالاً يحتذى به في هديه وسمته .

قال أبو حاتم : «كان الإمام أبو داود أحد أئمة الدنيا فقهًا وعلمًا ، وحفظًا ونسكًا ، وورعًا وإتقانًا» .

وقال أبو موسى : « تفقه أبو داود بأحمد بن حنبل ولازمه مدة وبلغنا عن بعض الأئمة أن أبا داود يشبه أحمد بن حنبل في هديه وسمته ودله ، وكان أحمد يُشَبَّهُ بوكيع ، ووكيع بسفيان ، وسفيان بمنصور ، ومنصور بإبراهيم ، وإبراهيم بعلقمة ، وعلقمة بابن مسعود وقال علقمة : كان ابن مسعود يشبه بالنبي ﷺ»(٤) .

جاء سهل بن عبد الله التستري لأبي داود فقال له: « يا أبا داود لي إليك حاجة . قال : وما هي؟ قال : حتى تقول : قضيتها مع الإمكان ، قال : قضيتها مع الإمكان . قال : أخرج لسانك الذي حدثت به عن رسول الله ﷺ حتى أُقبله .

قال : «فأخرج لسانه فقبله»(٥) .

---

(١) البداية والنهاية ١١ / ٥٤ . (٢) تهذيب الأسماء ٢ / ٢٦ .
(٣) تهذيب ابن عساكر ٦ / ٢٤٤ . (٤) البداية والنهاية ١١ / ٥٥ .
(٥) وفيات الأعيان ٢ / ١٣٩ ، وشذرات الذهب ١ / ١٦٧ و ١٦٨ .

وكان له كُمان : كم واسع، وكم ضيق، فسُئِل عن ذلك؟

فقال : «الواسع للكتب، والثاني لا نحتاج إليه».

قلت : فماذا عن شجاعته في الحق ؟ وعلاقته بالأمراء والنبلاء هل تزلَّف إليهم، وداهنهم؟!

قالوا : لقد كان ورعًا تقيًا، قائمًا بالعدل، قائلاً بالحق، واسمع ماذا يقول ابن عساكر والسبكي وغيرهما :

قال أبو بكر بن جابر خادم أبي داود: كنتُ معه ببغداد فصلينا المغرب إذ قرع الباب، ففتحته، فإذا خادم يقول: هذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن، فدخلتُ إلىٰ أبي داود، فأخبرته بمكانه، فأَذِنَ له، فدخل وقعد، ثم أقبل عليه أبو داود وقال: ماجاء بالأمير في مثل هذا الوقت؟

فقال: خلالٌ ثلاث، **فقال: وما هي؟** قال: تنتقل إلىٰ البصرة فتتخذها وطنًا، ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض، فتعمر بك، فإنها خربت، وانقطع عنها الناس، لما جرىٰ عليها من محنة الزنج، فقال: هذه واحدة، هات الثانية.

قال: تروي لأولادي كتب السنن، قال : نعم. هات الثالثة. فقال : تفرد لهم الرواية، فإن أولاد الخلفاء لا يجلسون مع العامة، فقال : أما هذه فلا سبيل إليها، فإن الناس شريفهم ووضيعهم في العلم سواء، قال ابن جابر : فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون، ويضرب بينهم وبين الناس ستر فيسمعون مع العامة[(١)]!!.

قلت : لله دره من إمام همام، يصطف مع أعلام الأعلام... ولقد جاءنا من الأنباء في مدحه الكثير... فهلا أوسعتموني بمقالات المديح فيه، وشهادة معاصريه وذويه، بالعلم والفضل.

قالوا : سألت مجابًا يابن ياسين، فاغترف تلك المقالات الطيبات في مدح وثناء العلماء عليه، وهكذا فليكن العلماء، لا يسعون إلىٰ الملوك والأمراء، وإنما يسعىٰ اليهم الملوك والأمراء، وهكذا فلتكن المساواة في العلم والمعرفة.

---

(١) مقدمة معالم السنن، ص ٢، وتهذيب ابن عساكر ٦ / ٢٤٥، وطبقات الشافعية ٢ / ٢٩٦.

اعترافات الأئمة بفضله وكماله :

كان أبو داود علماً من أعلام الإسلام حفظًا وفقهًا وعلمًا بالأحاديث وعللها، وقد حظى بتقدير العلماء له، ونال اعتراف أهل العلم والفضل بعلمه وفضله في كل عهد وجيل.

- **قال أبو بكر الخلال**(١): « أبو داود سليمان بن الأشعث الإمام المقدم في زمانه، رجل لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم وبصره بمواضعه أحد في زمانه، رجل ورع مقدم»(٢).
- **قال الحافظ موسى بن هارون**(٣) : « خلق أبو داود في الدنيا للحديث وفي الآخرة للجنة، ما رأيت أفضل منه»(٤) .
- **ولما صنف كتابه «السنن» قال إبراهيم الحربي**(٥): «ألين لأبي داود الحديث كما ألين لداود عليه السلام الحديد»(٦) ، وهو تشبيه على فضل الرجل في صنعة الحديث، وأنه يسر له العسير وقرب إليه البعيد وذُلل له الصعب.
- **وقال ابن الجوزي**(٧) : «كان عالمًا عارفًا بعلل الحديث، ذا عفاف وورع، وكان يُشبَّه بأحمد بن حنبل»(٨) .

---

(١) هو أحمد بن محمد بن هارون البغدادي الحنبلي له كتب كثيرة، وقد جمع علم أحمد، توفي سنة ٣١١ هـ، البداية والنهاية ١١ / ١٤٨ .
(٢) تهذيب التهذيب ٤ / ١٧١ .
(٣) هو الحافظ الحجة أبو عمران ابن المحدث أبو موسى الحمال البغدادي البزار، محدث العراق، توفي سنة ٢٩٤ هـ، انظر طبقات الحافظ للسيوطي، ص ٢٩٢ .
(٤) طبقات الشافعية ٢ / ٢٩٥ وتهذيب التهذيب ٤ / ١٧٢ .
(٥) هو إبراهيم بن إسحاق الحربي البغدادي كان حافظًا فقيهاً زاهداً، توفي ببغداد سنة ٢٨٥ هـ، شذرات الذهب ٢ / ١٩٠ ، وتذكرة الحافظ ٥٨٤ .
(٦) معالم السنن ١ / ١٢ والبداية والنهاية ١١ / ٥٥ .
(٧) هو الإمام العلامة الحافظ عالم العراق وواعظ الآفاق جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الحنبلي الواعظ، المعروف بابن الجوزي، صاحب التصانيف السائرة في فنون العلم، توفي سنة (٥٩٧ هـ) انظر ترجمته في : «طبقات السيوطي»، ص ٤٧٨ .
(٨) المنتظم ، ٥ / ٩٧ .

- **وقال الذهبي** (١) : «كان رأسًا في الحديث، رأسًا في الفقه، ذا جلالة وحرمة وصلاح وورع حتى أنه كان يشبه بأحمد»(٢) .
- **وقال النووي** : «واتفق العلماء على الثناء على أبي داود، ووصفه بالحفظ التام، والعلم الوافر، والإتقان والورع والدين والفهم الثاقب في الحديث وغيره»(٣) .

قلت: يا علماء المسلمين، هل أوضحتم لي مذهب أبي داود الفقهي؛ إذ إنه لعلو كعبه وثبات فضله، قد تنازعته المذاهب، فمن قائل هو من مذهبنا، ومن قائل بل هو من طبقات فقهاء مذهبنا، فأبينوا لنا عن مذهبه ونهجه في الفتوى والاستنباط الفقهي، وتخريج الفروع على الأصول ؟!

قالوا : صدقت يا جاسم، إن المذاهب ما تنازعته إلا لعلو كعبه وثبات نسبه في العلم والحديث، وحاصل الخلاف كان بين الشافعية والحنابلة، فقيل: حنبلي. وقيل: شافعي، وعده الشيخ أبو إسحاق الشيرازي «في طبقات الفقهاء» من أصحاب أحمد بن حنبل، وكذلك ذكره القاضي علي بن يعلى في «طبقات الحنابلة» .

قلت : فماذا عن تأليف الإمام أبي داود، وهو خادم الحديث وعلومه، وهل كانت كل مؤلفاته في الحديث، أم كان له غير ذلك من التواليف الحسان التى نفع الله بها أهل الإسلام؟

قالوا : تعددت تآليف أبي داود نوعًا ما، وأهمها فكان في السنة غير أنه كتب في الاعتقاد والزهد، وهذا ثَبْتٌ عن أهم مصنفاته فهي :

مسائل الإمام أحمد : وهي مرتبة علي أبواب الفقه يذكر فيها الإمام أبو داود السؤال الموجه لأحمد وجوابه عليها، وهو كتاب جليل من الناحية الفقهية، ينقل لنا بدقة وأمانة آراء الإمام أحمد بن حنبل، وكتاب الزهد.

---

(١) هو الإمام الحافظ، محدث العصر خاتمة الحفاظ الناقد محمد بن عثمان الذهبي الشافعي الدمشقي، توفى سنة ٧٤٨ هـ، انظر ترجمته في طبقات السيوطي، ص ٥١٧ .

(٢) شذرات الذهب ٢ / ١٦٧ .

(٣) هو الإمام الفقيه الحافظ الأوحد القدوة شيخ الإسلام محيي الدين زكريا يحيي بن شرف النووي، صنف التصانيف النافعة في الحديث والفقه، توفي سنة ٦٧٦ هـ، انظر ترجمته في طبقات السيوطي، ص ٥١٠ .

قلت : ماذا عن كتابه السنن الذي طار في الآفاق ؟ وحفظته الأمصار والأقطار، وصار عمدة في الرواية بل وفي الدراية؟ هلا حدثتموني عنه وعن ثناء العلماء عليه... وعم امتاز واختص واتسم به عن غيره ؟ !

قالوا : رويدك يا بن ياسين اسمع أولاً طرفًا من ثناء العلماء عليه حيث :

قال الخطابي : «اعلموا رحمكم الله أن كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم يصنف في علم الدين كتاب مثله، وقد رزق القبول من الناس كافة، فصار حكمًا بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم فلكل فيه ورد ومنه شرب، وعليه معول أهل العراق وأهل مصر، وبلاد المغرب وكثير من مدن أقطار الأرض، فأما أهل خراسان فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري ومن نحا نحوهما في جمع الصحيح على شرطهما في السبك والانتقاد، إلا أن كتاب أبي دواد أحسن رصفا وأكثر فقهاً» .

وقال شيخ الإسلام محيي الدين أبو زكريا يحيي بن شرف النووي، شارح «صحيح مسلم» وصاحب المؤلفات الكثيرة في قطعة كتبها في شرح أبي داود : «وينبغي للمشتغل بالفقه وغيره الاعتبار بسنن أبي داود وبمعرفته التامة فإن معظم الأحاديث التي يحتج بها فيه مع سهولة تناوله وتلخيص أحاديثه وبراعة مصنفه واعتنائه بتهذيبه » .

وقال الخطابي : «سمعت ابن الأعرابي يقول ونحن نسمع منه هذا الكتاب ـ وأشار إلى النسخة وهي بين يديه : لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذي فيه كتاب الله عز وجل، ثم هذا الكتاب، لم يحتج معهما إلى شيء من العلم» .

وقال زكريا الساجي : «كتاب الله أصل الإسلام، وكتاب أبي داود عهد الإسلام» .

وقال محمد بن مخلد(١) : « كان أبو داود يفي بمذاكرة مئة ألف حديث، فلما صنف كتاب السنن وقرأه على الناس؛ صار كتابه لأصحاب الحديث كالمصحف يتبعونه ولا يخالفونه، وأقر له أهل زمانه بالحفظ »(٢) .

---

(١) هو محمد بن مخلد بن حفص الإمام المفيد الثقة مسند بغداد، أبو عبد الله الدوري العطار الخطيب، مات في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وثلاث مئة عن ثمان وتسعين «طبقات السيوطي»، ص ٣٤٥ .

(٢) الرسالة المستطرفة، ص ١١، وتهذيب الأسماء واللغات ٢ / ٢٢٦ .

وأحسن تعريف بالكتاب يلخصه لنا إمام عصره العلامة ابن قيم الجوزية، فيقول : «كان كتاب السنن لأبي داود بن الأشعث السجستاني ـ رحمه الله ـ من الإسلام بالموضع الذي خصه الله به، بحيث صار حكمًا بين أهل الإسلام، وفصلاً في موارد النزاع والأحكام، ورتبها أحسن نظام مع انتقائها أحسن انتقاء، واطراحه من أحاديث المجروحين والضعفاء» (١) .

قال العلامة المحدث الكبير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: «قد أبدع أبو داود في تنظيم كتابه بالنسبة إلىٰ الأبواب الفقهية والمواضع الشرعية، فهو يبدأ في كتاب الطهارة، وهكذا يتسلسل حسب المواضيع الشرعية».

وقال العلامة الكوثري في هامش شروط الأئمة للحازمي : «أما بين الأئمة الخمسة من القصد : فغرض البخاري تخريج الأحاديث الصحيحة المتصلة، واستنباط الفقه والسيرة والتفسير، فذكر عرضًا الموقوف والمعلق وفتاوىٰ الصحابة والتابعين ـ رضيٰ الله عنهم ـ وآراء الرجال، فتقطع عليه متون الأحاديث وطرقها في أبواب كتابه، وقصد مسلم تجريد الصحاح بدون تعرض للاستنباط علىٰ أجود ترتيب ولم تنقطع عليه الأحاديث، وهمة أبي داود جمع الأحاديث التىٰ استدل بها فقهاء الأمصار، وبنوا عليها الأحكام، فصنف سننه وجمع فيها الصحيح والحسن، واللين والصالح للعمل، وهو يقول : «وما ذكرت في كتابي حديثًا أجمع الناس علىٰ تركه»، وما كان منها ضعيفًا صرح بضعفه، وما كان فيه علة بينهما، وترجم علىٰ كل حديث بما قد استنبط منه عالم، وذهب إليه ذاهب، وما سكت عنه فهو صالح عنده وأحوج ما يكون الفقيه إلىٰ كتابه(٢) .

قلت : **فماذا عن مكانة السنن لأبي داود بين الكتب الستة وما موقعها ومكانتها؟!**

فانتفض لي العلامة الكبير محمد زكريا الكاندهلوي .

وقال : إليك بكاشف الجواب يا بن ياسين . . .

---

(١) تهذيب السنن لابن القيم ١ / ٨ ، وتهذيب التهذيب ٤ / ١٧١ .

(٢) شروط الأئمة للحازمي، ص ٤٩ .

وفي الجملة: إن صحيح البخاري أعلىٰ رتبة في الصحة وغيرها عند الجمهور، ثم الصحيح للإمام مسلم، ثم السنن للإمام أبي داود عند هذا العبد، وبذلك جزم صاحب «مفتاح السعادة» إذا قال: اعلم أن رئيس هؤلاء الطائفة الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ويليه في الرتبة كتاب مسلم، ويليهما أبو داود، ويليهم أبو عيسىٰ الترمذي، ويليهم أبو عبد الرحمن (أي: النسائي).

وبذلك جزم صاحب «نيل الأماني» إذ قال في «شرح قول القسطلاني»: ومنهم من لم يتقيد بذلك كباقي الكتب الستة، قال: وهي سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهم علىٰ هذا الترتيب في الصحة.

قال العلامة المحدث الكبير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: «والأوجه عندي في ترتيب التحصيل أن يقدم المحدثُ الترمذي، ثم أبا داود، ثم البخاري، ثم مسلماً ثم النسائي، ثم ابن ماجه ثم الموطأ؛ لأن طالب الحديث أول ما يحتاج إليه تحقيق المذاهب، وأنواع الحديث، ثم دلائله، ثم طرق الاستنباط، ثم جمع الروايات، ثم التنبيه علىٰ الضعاف، ثم التأييد بالآثار، وهكذا ترتيب وظائف الكتب المذكورة.

قلت: لله ما أشد حظوة كتاب السنن بأبي داود، وما أجل مكانته؛ وعليه فقد تعددت شروحه وعلت أسانيده وعظمت فائدته؟ ترى ما هذه الشروح أو قل أهمها؟!

قال: نعم حظا كتاب أبي داود بشراح عديدين قاموا علىٰ كشف فحواه، وإجلاء معناه، وتذليل سبله. . . وأهم هذه الشروح هي: معالم السنن لأبي سليمان حمد بن إبراهيم الخطابي المتوفىٰ سنة (٣٨٨) هـ، ولا يعزبن عن البال أن الخطابي لم يشرح جميع الأحاديث، بل يأتي إلىٰ الباب الذي تعددت فيه الروايات، فإذا كان المآل فيها واحداً شرح منها حديثاً واحداً، وكأنه بذلك شرح جميع الباب، وإلا شرح أكثر من ذلك علىٰ حسب ما يتراءىٰ له، وإلىٰ ذلك أشار بقوله: ومن باب كذا.

وهو يشرح المفردات الغريبة، والكلمات التي تحتاج إلىٰ الشرح شرحًا واسعًا يدل علىٰ معرفة متبحرة باللغة، وقد يستشهد لشرحه بأبيات، أو جمل مأثورة عن العرب، ويشرح المراد من الجملة ثم يشرح الحديث، ثم يتحدث عن فقه

الحديث، ويذكر آراء العلماء في موضوع الحديث، ويرجح الرأي الذي يرتضيه من هذه الآراء، ثم يذكر ما في الحديث من الفوائد والاستنباطات الأخرىٰ مما قد لا يتصل بالباب(١).

(١) طبع هذا الكتاب في حلب بأربع أجزاء بتحقيق العلامة الشيخ محمد راغب الطباخ سنة ١٩٢٠ ـ ١٩٢٤ـ١٩٣٢ـ١٩٣٤م، ثم طبع مع شرحي المنذري وابن القيم بالقاهرة عام ١٩٥٠م.
ـ عجالة العالم من كتاب المعالم: تلخيص الحافظ شهاب الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم المقدسي المتوفىٰ سنة (٧٦٥ هـ) ٢٣١.
ـ العد المودود في حواشي سنن أبي داود: للحافظ المنذري، المتوفىٰ سنة(٦٥٦ هـ)، وقد ذكر فؤاد سزكين ٢٣١ مكان وجود مخطوطته.
ـ وشرح «السنن» أيضًا شهاب الدين أحمد بن حسين بن أرسلان الرملي المتوفىٰ سنة ٨٤٤هـ ٢٣١، ومخطوطته موجودة في تركيا، وفي مكتبة مظاهر العلوم بسهارنفور الهند.
ـ وشرح «السنن» قطب الدين أبو بكر بن أحمد بن دعين ٢٣١ اليمني الشافعي المتوفىٰ سنة (٧٥٣ هـ) في أربع مجلدات كبار في آخر عمره، ومات عنه وهو مسودة.
ـ وشرح هذا الكتاب أيضًا الحافظ مغلطاي بن قليج، المتوفىٰ سنة (٧٦٢هـ) ولم يكمله ٢٣١.
ـ وشرح هذا الكتاب أيضًا شهاب الدين بن محمد بن إبراهيم بن هلاب المقدسي من أصحاب المزي المتوفىٰ بالقدس سنة (٧٦٥هـ)، ويبدو أنه هو الذي لخص المعالم المذكر آنفًا، وسمىٰ شرحه «انتحاء السنن واقتفاء السنن».

سادساً:
من قادة الدعوة المعاصرين

١٦ ـ الإمام حسن البنا .. مؤسس جماعة الإخوان المسلمين.

١٧ ـ سيد قطب .. شهيد الأمة.

١٨ ـ الإمام أبو الحسن الندوي .

١٦ ـ الإمام حسن البنا
مؤسس جماعة الإخوان المسلمين.. وأول مرشد لها
(١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م)

أراني متقاصراً عن الكلام بين إقدام وإحجام، ألملم أوراقي العتاق، وأسعى للثبات والاستيثاق، وأتلمس مخرجًا لهذا العثار في الكلام عن إمام الدعوة الإسلامية وحامل لوائها في القرن العشرين بلا مدافع ولا منازع، شيخ الدعاة، وإمام الحركيين، ونبراس الداعين، الإمام الذي نحسبه شهيداً مجيداً عند ربه، إنه حسن البنا.

وقد وجدتُ أن أبتدئ بما قاله تلامذته الأُول أهل الفضل والأدب والدعوة والحركة أمثال **الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ـ حفظه الله ـ** حيث يقول في ديوانه: «**نفحات ولفحات**» مادحًا الإمام، فيقول:

يا مرشداً قاد بالإسلام إخوانا ... وهز بالدعوة الغراء أوطانا
يا مرشداً قد سرت في الشرق صيحته ... فقام.. بعد منام طال.. يقظانا
فكان للعرب والإسلام فجر هدى ... وكان للغرب زلزالا وبركانا
ربيت جيلا من الفولاذ معدنه ... يزيده الضغط إسلامًا وإيمانا
أردت تجديد صرح الدين إذ عبثت ... به السنون فهدت منه جدرانا
فقمت تحمل أنقاضاً مقدسة ... وعشت تُعلي لدين الله أركانا
ترسى الأساس على التوحيد في ثقة ... وترفع الصرح في الأخلاق مزدانا
حتى بلغت الأعالي مصلحا بطلا ... تطل من فوقها كالبدر جذلانا
وثلة الهدم في السفلى مواقعهم ... صبوا عليك الأذى بغيا وعدوانا
ترميك بالإفك أقلامٌ وألسنة ... خانت أمانتها، يا بئس من خانا
وتنشر الزور أحزابا مضللة ... تغلي صدورهمو حقدا وكفرانا
كذاك لابد للبناء من حجر ... يصيبه أو يصيب الطين أردانا

ولم نلمهم فهذا شأن ذي حسد والغل يوقد في الأحشاء نيرانا
وانظر ليوسف إذ عاداه إخوته فجرعوه من الإيذاء ألوانا
رأوه شمسا وهم في جنبه سرج رأوا أباهم بهذا النور ولهانا
فدبروها بظلماء مؤامرة ليبعدوا عنه وجها كان فتانا
ألقوه في الجب لم يرعوا طفولته باعوه كالشاة لم يرعوا له شانا

قلت :يا إمام الدعوة وحامل لوائها، ما تشخيصكم للداء والدواء، داء الأمة العضال، ودوائها الذي تناط به الآمال ؟ وهل نسلم باليأس ونركن للإحباط ؟

قال : واصفًا حال الأمة وما آلت إليه وتحدث عن العلاج فقال : «وعلاجها إنما يكون بأمور ثلاثة : معرفة موطن الداء، والصبر على آلام العلاج، والنطاسي الذي يتولى ذلك حتى يحقق الله على يديه الغاية، ويتمم الشفاء والظفر».

وعن وسيلتنا في العلاج، فلها أركان ثلاثة تدور عليها فكرة الإخوان :

أولها : المنهاج الصحيح :وقد وجده الإخوان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وثانيها : العاملون المؤمنون : ولهذا أخذ الإخوان أنفسهم بتطبيق ما فهموه من دين الله تطبيقًا لا هوادة فيه ولا لين.

وثالثها : القيادة الحازمة الموثوق بها : وقد وجدها الإخوان المسلمون كذلك فهم لها مطيعون وتحت لوائها يعملون(١) .

وكان رضي الله عنه **يحارب اليأس ويدعو إلى الأمل فيقول** : «إننا لسنا يائسين من أنفسنا، وإننا نأمل خيراً كثيراً ونعتقد أنه لا يحول بيننا وبين النجاح إلا هذا اليأس، فإذا قوي الأمل في نفوسنا فسنصل إلى خير كثير إن شاء الله، لهذا نحن لسنا يائسين ولا يتطرق اليأس إلى قلوبنا والحمد لله، وكل ما هو لنا يبشر بالأمل رغم تشاؤم المتشائمين، وهم بحمد الله مؤمنون بفكرتهم، مطمئنون إلى غايتهم، واثقون بتأييد الله إياهم، ما داموا له يعملون، وعلى هدي رسوله ﷺ يسيرون»(٢) .

(١ ، ٢) رسالة دعوتنا، من رسائل الإمام حسن البنا ـ رحمه الله.

قلت :يا إمام الدعوة، لله جهادك وجهاد أتباعك وتلامذتك في فلسطين، هل أتاك حديث الغاشية، حديث شارون وموفاز ونتنياهو وغيرهم من يمين اليمين اليهودي العنصري الغاصب، وماذا فعلوا ؟ ! وما سوف يفعلون؟! هل أتاك خبر نكبة الأمة وذلتها وإنكسارها وعثارها، فماذا تقول في ذلك ؟

قال :تلحظت يا بن ياسين أن يد الخونة والعملاء تسعى في الخفاء، وخشيت من كيد الغرب واستخذاء الشرق العربي المسلم عن قضاياه وهذا ما كان، ولا حول ولا قوة إلا بالرحيم الرحمن، ووالله لقد سعيت في جهاد الإنجليز حين كان انتدابهم في فلسطين واحتلالهم لمصر وغير مصر، سعياً لرفع راية الإسلام علياء شماء، ودفع العدوان عن كل أرض المسلمين.

واقرأ ما قلت في رسالة المؤتمرين الخامس والسادس والتي بينت فيها، وكشفت لبعض المساعي في مواجهة الاستعمار الخارجي بالنسبة للموقف من تكسير الخمارات وما شابه: «ولكن الإخوان المسلمين أعمق فكراً وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصون في أعماقها، ولا يزينون نتاجها وما يقصد منها وما يراد بها، فهم يعملون أول درجة من درجات القوة : قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك : قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدها قوة الساعد والسلاح، ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوافر لها هذه المعاني جميعًا، وأنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال، مضطربة النظام، ضعيفة العقيدة، خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك»(١) .

في مواجهة قوى الاستعمار :

وتصدى فضيلته لقوى الاستعمار ومخططاتهم في العالم الإسلامي كله، وحدد إستراتيجية الجماعة في هذه المواجهة، فيقول : «ومن هنا يعتقد الإخوان المسلمون أن كل دولة اعتدت وتعتدي على أوطان الإسلام دولة ظالمة لابد أن تكف عدوانها، ولابد أن يعد المسلمون أنفسهم ويعملوا متساندين على التخلص من نيرانها، فـفلسطين دين على إنجلترا للمسلمين لا تهدأ ثائرتهم حتى توفيهم فيه حقهم».

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس.

وكان ذلك قبل قيام الدولة اليهودية، ثم أردف ذلك بإرسال الكتائب والمتطوعين من الإخوان المسلمين عند استيلاء اليهود عليها . مما جعل هذه القوىٰ الاستعمارية تسارع باغتياله والقبض علىٰ المتطوعين والمجاهدين إنقاذًا للدولة اليهودية .

وعن مقاومة الاستعمار الإنجليزي : وضع الإمام الشهيد الأسلوب الصحيح لمقاومته وأعد لذلك إعدادًا محكمًا ، فبدأ بإعداد الشباب وتكوين النظام الخاص ، وتربية أفراد الإخوان التربية العقائدية والفكرية ، وأيقظ في الشعب والمجتمع معانىٰ العزة والكرامة ، وكان يخبرهم أن الحرية ليست حقًا وإنما هي فريضة وواجب لا يمكن التفريط فيه ، وألزم الإخوان ودعا الشعب إلىٰ مقاطعة المنتجات الإنجليزية وعدم التعامل معهم ، ووضع دعاء يقنط به الإخوان في صلاتهم يدعون فيه علىٰ الإنجليز وما شابههم : « اللهم رب العالمين ، وأمان الخائفين ، ومذل المتكبرين ، وقاسم الجبارين ، تقبل دعاءنا ، وأجب نداءنا ، وأنلنا حقنا ، ورد علينا حريتنا واستقلالنا ، اللهم إن هؤلاء الغاصبين البريطانيين قد احتلوا أرضنا ، وجحدوا حقنا ، وطغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، اللهم فرد عنا كيدهم ، وفرق جمعهم ، وخذهم ومن ناصرهم وأعانهم أو هادنهم أخذ عزيز مقتدر ، اللهم واجعل الدائرة عليهم ، وسق الوبال إليهم ، وأذل دولتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولاتدع لهم سبيلاً علىٰ أحد من المؤمنين» .

لقد تصدى الإمام الشهيد لجرائم الإنجليز ليس في مصر وحدها وإنما في كل أنحاء العالم الإسلامي وكذلك لغيره من دول الاستعمار ، وانطلقت كتائب الإخوان التي أعدها حسن البنا ، عندما جاءت اللحظة المناسبة فهاجمت قواعد الإنجليز في القناة فزلزلت قواعدهم وأرعبت حكامهم ، وأيقنوا أنه لا سبيل للبقاء في مصر فسارعوا بالاتفاق مع جمال عبد الناصر ، الاتفاق الذي كان غبنا لمصر وتفريطًا في وادي النيل وحقوق الشعب وتضييعًا لدماء الشهداء ، حيث تنازل عن المطالبة بالسودان كجزء من مصر ، وعارضه الإخوان بشدة فأودعهم السجون والمعتقلات ، وقتل منهم قادة الجهاد والكفاح ضد الإنجليز واليهود .

ويقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أيضًا** : « ولنا حساب بعد ذلك مع إنجلترا في الأقاليم الإسلامية التي تحتلها بغير حق ، والتي يفرض الإسلام علىٰ أهلها وعلينا معًا ، أن نعمل

لإنقاذها وخلاصها». وذكر أيضًا مع إنجلترا وفرنسا وإيطاليا من قوىٰ الاستعمار القديم، ويضاف إليها أيضًا قوىٰ الاستعمار الحديث كأمريكا وروسيا والهند. . . إلخ.

ويقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أيضًا:** «أريد أن استخلص من هذا أن الوطن الإسلامي: جزء واحد لا يتجزأ، وأن العدوان علىٰ جزء من أجزائه عدوان عليه كله، هذه واحدة، والثانية: إن الإسلام فَرَضَ علىٰ المسلمين أن يكونوا أئمة في ديارهم، سادة في أوطانهم، بل ليس ذلك فحسب، بل عليهم أن يحملوا غيرهم علىٰ الدخول في دعوتهم ـ والاهتداء بأنوار الإسلام التي اهتدوا بها من قبل»[١].

قلت: يا إمام الدعوة، يا حامل لوائها طيب الله ثراك وزكاك بالذكر الحسن بين الأحياء، وأعلى في الآخرة درجاتك ومكانتك، هل حدثتنا عن ماذا تريد بدعوتك؟ ووما تلك الأهداف والخطوط العملية لأداء تلك المهمة الإيمانية ؟!

قال: حول أهدافنا والخطوات العملية لأداء مهمتنا:

« **نحن نريد**: الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، لكن نريد قبل ذلك أن تسود الفكرة الإسلامية، حتىٰ تؤثر في كل هذه الأوضاع وتصبغها بصبغة الإسلام وبدون ذلك لن نصل إلىٰ شيء»، (أشار إليها باختصار في رسالة تحت راية القرآن).

« **فنحن نريد**: الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والدولة التي تقود الدول، وتضم الشتات، ثم حمل علم الجهاد والدعوة في العالم كله».

ويُفصل ذلك في رسالة إلى الشباب، نذكرها باختصار:

- **نريد الرجل المسلم:** في تفكيره وعقيدته، خلقًا وعاطفة، عملاً وسلوكًا «التكوين الفردي».
- **ونريد البيت المسلم:** ولهذا نعني بالمرأة عنايتنا بالرجل وبالطفولة والشباب «التكوين الأسري».

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس.

- **نريد بعد ذلك الشعب المسلم** : في أخلاقه، وعواطفه، وتفكيره، وعقيدته، فنعمل علىٰ أن تصل دعوتنا إلىٰ كل بيت، وكل قرية، وكل مكان.
- **نريد بعد ذلك الحكومة المسلمة** التي تقود هذا الشعب، وسنعمل علىٰ إحياء نظام الحكم الإسلامىٰ بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية علىٰ هذا النظام.
- **ثم نضم كل جزء من وطننا الإسلامي**، لإقامة دولة الإسلام العالمية، الخلافة الرشيدة.
- **ثم عودة راية الإسلام للأماكن السليبة ك** : (الأندلس، صقلية، البلقان، جنوب إيطاليا... إلخ.
- **ثم أستاذية العالم ونشر الدعوة للناس جميعًا**، وأن نعم بها آفاق الأرض ونخضع لها كل جبار.

وقد فصَّل فضيلته بعض النقاط التي أجملها فقال : « إن غاية الإخوان تنحصر في تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح يعمل علىٰ صبغه بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها»(١).

قلت : لله درك يا شيخ الدعاة وإمامهم وماذا يترتب على تلك الأهداف الكبيرة وما مراتب العمل ومنظومة القيم الواجب على الداعي الالتزام بها كي تحقق أهداف الدعوة على ما ذكرته آنفاً ؟!

قال :« الغرض الأول الذي ترمي إلية الجماعة : (التربية الصحيحة) تربية الأمة علىٰ النفس الفاضلة، والخلق النبيل السامي، وإيقاظ ذلك الشعور الحي فيها، لتزود عن كرامتها وتسترد مجدها »(٢) .

اذكروا دائمًا أن لكم هدفين أساسين :

١ ـ أن يتحرر الوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي.

---

(١) رسالة : المؤتمر الخامس.

(٢) رسالة : هل نحن قومٌ عمليون ؟

٢ ـ أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة ؛ تعمل بأحكام الإسلام وتطبق نظامه الاجتماعي، وتبلغ دعوته للناس. يشمل ذلك كل أنواع الهيمنة العسكرية، الثقافية، الاقتصادية، الاجتماعية. . . إلخ، ونريد تحقيق ذلك في وادي النيل وبلاد العروبة وكل أرض أسعدها الله بعقيدة الإسلام(١).

ويترتب على هذه الأهداف الكبيرة مراتب العمل المطلوبة من الأخ :

إصلاح نفسه: حتىٰ يكون: قوي الجسم، متين الخلق، مثقف الفكر، قادراً علىٰ الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاهداً لنفسه، حريصاً علىٰ وقته، منظماً في شؤونه، نافعاً لغيره.

تكوين بيت مسلم : يحمل أهله علىٰ احترام فكرته، والمحافظة علىٰ آداب الإسلام في كل مظاهر الحياة، وحسن تربية الأولاد، وتنشئتهم علىٰ مبادئ الإسلام.

إرشاد المجتمع : بنشر دعوة الخير فيه ومحاربة الرذائل، والأمر بالمعروف، والمبادرة إلىٰ فعل الخيرات، وكسب الرأي العام إلىٰ جانب الفكرة الإسلامية، وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائماً، وهذا واجب كل أخ علىٰ حدة، وواجب الجماعة ككل.

تحرير الوطن : بتخليصه من كل سلطان أجنبي، سواء كان سياسياً أو اقتصادياً أو ثقافياً أو عسكرياً.

إصلاح الحكومة : حتىٰ تكون إسلامية حقاً.

إعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية : الخلافة الراشدة.

أستاذية العالم : بنشر الدعوة في ربوعه.

وهذه المراتب الأربعة الأخيرة تجب علىٰ الجماعة متحدة، وعلىٰ كل فرد فيها باعتباره عضواً منها(٢).

---

(١) رسالة: بين الأمس واليوم.

(٢) رسالة التعاليم.

ثم هاهو الإمام حسن يُذكر الإخوان بواجبهم ، ويقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «إنكم روح يسري في قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن ، فنحن دعاة الإسلام» .

ويُذكر الإخوان بواجباتهم فيقول : «آمنوا بالله واعتزوا به وتوكلوا عليه ولاتخافوا غيره ، تخلقوا بالفضائل والأخلاق واعتزوا بذلك ، أقبلوا على القرآن تتدارسونه ، وعلى السنة المطهرة وكونوا عمليين ، تحابوا فيما بينكم ، واحرصوا على رابطتكم ، فهي سر قوتكم ، واثبتوا ، اسمعوا وأطيعوا لقيادتكم في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ؛ فهي رمز جهادكم ، وترقبوا بعد ذلك نصر الله وتأييده»(١) .

قلت :وماذا تقول للمتحمسين من الإخوان ممن يتوثبون إلى النتائج ويتوقون إلى قطف الثمار، ثمار الإيمان والإسلام؟

قال : أقول للمتحمسين من الإخوان، وغيرهم : « إن طريقكم هذا مرسومة خطواته ، موضوعة حدوده ، ولست مخالفًا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول ، أجل قد تكون طريقًا طويلة ولكن ليس هناك غيرها ، إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات ، ومن صبر معي حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة ويحين القطاف فأجره في ذلك على الله ، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة »(٢) .

وأقول أيضًا :« في الوقت الذي يكون فيه منكم ـ معشر الإخوان المسلمين ـ ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها روحيًا بالإيمان والعقيدة ، وفكريًا بالعلم والثقافة ، وجسميًا بالتدريب والرياضة ، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار ، وأقتحم بكم عنان السماء ، وأغزو بكم كل عنيد جبار ، فإني فاعل إن شاء الله ، وصدق رسول الله ﷺ القائل : «**ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة**»(٣) .

---

(١) رسالة : بين الأمس واليوم . (٢) رسالة : المؤتمر الخامس .

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦١١)، والترمذي (١٥٥٥)، وأحمد (١/ ٢٩٤)، والحاكم (١/ ٤٤٣)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وقال الترمذي : «حسنٌ غريب»، وقال الحاكم : «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي .

«وقد تستطيعون ـ معشر الإخوان ـ أن تقصروا هذا الأمل إذا بذلتم همتكم وضاعفتم جهودكم، وقد تهملون فيخطئ هذا الحساب وتختلف النتائج المترتبة عليه فأشعروا أنفسكم العبء، وألفوا الكتائب، وكونوا الفرق وأقبلوا على الدروس، وسارعوا إلى التدريب، وانشروا دعوتكم في الجهات التي لم تصل إليها بعد ولا تضيعوا دقيقة بغير عمل».

وليس الهدف المطلوب مجرد كثرة الأعداد، ووفرة المجهود والنشاط والحركة، ولكنه رضي الله عنه يقصد من هذا التركيز في الإعداد وإلى توضيح أن:

«رجل القول غير رجل العمل، ورجل العمل غير رجل الجهاد، ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المنتج الحكيم، الذي يؤدي إلى أعظم الربح بأقل التضحيات».

« إن ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ ».

ويقول فضيلته للذين ييأسون من طول الطريق : « لكنها هي الطريق الصحيحة التي جاء بها الإسلام، وإن النظرات التاريخية لبناء الأمم والنهضات لتؤكد ذلك، تؤكد أن حقائق اليوم هي أحلام الأمس، وأن بعد المسافة بين الواقع والمطلوب لا يعني عدم التحقيق، طالما هناك الجهد المبذول».

ويقول أيضًا : « مهما كانت النتائج وطول الأمر، فإن العامل يعمل لأداء الواجب أولا، ثم للأجر الأخروي ثانيًا، ثم للإفادة ثالثًا، والثالثة، أي الإفادة، وأمرها إلى الله، فقد تأتي فرصة لم تكن في الحسابات فتجعل العمل ـ بأمر الله ـ يأتي بأبرك الثمرات ».

«وما البديل ؟! إن الإنسان إذا قعد عن العمل في هذا الطريق الطويل فقد لزمه إثم التقصير، وضاع منه أجر الجهاد، وحرم الإفادة قطعًا»(١) .

---

(١) رسالة : إلى أي شيء ندعو الناس ؟

أيها الإخوان : «ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر، وما هي منكم ببعيد»(١) .

قلت : لله تلك دعوة أسسها الإمام الشهيد ـ بإذن الله ـ دعوة خالدة ترتكز على الإسلام مفهومًا ووسيلة وغاية، إذن ماذا عمن يثير شبهات فارغة جوفاء تقول: إن دعوة الإخوان هي رد فعل؟ ماذا تقولون يا تلامذة وتابعي الإمام، حامل راية دعوة الإسلام؟

فانتهض أحدهم، وهو **الأستاذ فؤاد الهجرسي** ، وأنشط للرد على تلك الفرية، وهذا الهراء الذي لا يقوله إلا جاهل بدعوة الإخوان، أو حاقد عليها معادٍ لها، راكب لرأسه وهواه .

وقال: دعوتنا ليست رد فعل :

ودعوة الإخوان ليست مجرد رد فعل، سواء لعوامل سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو حتى رد فعل لتيار التغريب، وإن كانت أهدافها ومناهجها تغطي كل الجوانب وتتصدى لها .

إنه من الأمور اليقينية، أن حركة الإخوان لم تدفع إليها عوامل سياسية تتعلق بقضايا الاستقلال والدستور، أو رفض النظام القائم، ولكن دفع إليها إيمان ركيز بأن الإسلام نظام حياة شامل لا يستقيم ظله إلا بالإيمان بالكتاب كله، والدولة جزء من منهاج الحياة الذي رسمه الإسلام، وليست هناك بدائل عن هذا النظام، كما أنه ليست هناك بدائل عن وسيلة التغيير التي رسمها رسول الله ﷺ.

والقارئ لكلمات الإمام ورسائله يدرك هذا جيداً : شمول ووضوح الأهداف والغايات منذ أول يوم انطلقت فيه الدعوة، وإن كان التنفيذ العملي يقتضي التدرج في الخطوات والإعداد الجيد مثلما فعل رسول الله ﷺ.

---

(١) رسالة : المؤتمر الخامس .

ويرد هذا الافتراء الكاذب بأن الإخوان بدؤوا وليس لهم علاقة بالسياسة ثم تحولوا إليها عندما أحسوا أنهم قوة.

إن الواقع الذي أحاط بالأمة الإسلامية وما تتعرض له من حملات ومؤامرات، كل هذا كان يدركه حسن البنا، فلم تكن خطواته عشوائية، ولم ينهض بدعوته من فراغ، ولم يكن أنموذجا فريدا لفريق الشباب المتدين الرافض لتيار الغرب ـ كما يدعي البعض ـ ولكنه كان نموذجًا فريداً لفريق الشباب الرافض لكل نظام سوىٰ الإسلام، وليس تيار التغريب فحسب، وكانت نقطة البدء عند الإمام البنا تكوين الفرد علىٰ العقيدة الصحيحة والخلق السليم لتفجير طاقته الإيمانية لإيجاد القوة التي يحتاجها المصلحون في تحقيق البناء المنشود.

إن الظروف والأحوال لم تكيف خصائص دعوة الإمام البنا، وإنما استطاع هو أن يصلح الأرض التي تنبت عليها الثمرة لتصح بها وتزكو.

قلت: يا إمام الدعاة، يا شهيد الإخوان الأول ـ بإذن الله ـ هل أخبرتنا عن موقع العقيدة من دعوة الإخوان، وما العلاقة بين الدين والسياسة كما ترونها؟

قال: لله درك يا بن ياسين، هلم واسمع ما قلته عن موقع العقيدة من دعوتنا، ومكانتها في منهاجنا.

فالإخوان المسلمون يعتزون بعقيدتهم ويعملون ويضحون في سبيلها، ابتغاء رضوان الله: ﴿**حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ...**﴾(١)، فهم لايسعون لمنافع دنيوية أو لجاه أو سلطان، وإلا لتخلوا عن ذلك إزاء ما لاقوا من عنت وتعذيب وقتل.

الأعداء يوجهون اتهامًا للإخوان، أنهم أدخلوا السياسة في الدين، وأنهم يريدون الاستيلاء علىٰ الحكم بالقوة، وهذا ادعاء كاذب لا يسانده أي دليل، فالأعداء يريدون عزل الدين عن السياسة، وهذا افتراء علىٰ الدين الإسلامي.

ثم يقول ما نصه: «فحدثوني بربكم أيها الإخوان، إذا كان الإسلام شيئًا غير السياسة وغير الاجتماع وغير الاقتصاد وغير الثقافة، فماذا إذن؟ أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر؟! ألهذا نزل القرآن الكريم نظامًا كاملاً محكمًا مفصلاً؟».

---

(١) الأنفال: ٣٩.

ثم يقول : « الإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية وسماحة وقوة وخلق ومادة وثقافة وقانون، وأن المسلم مطالب ـ بحكم إسلامه ـ أن يعنىٰ بكل شؤون أمته ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

ويقول أيضاً : « أستطيع أن أجهر في صراحة بأن المسلم لن يتم إسلامه إلا إذا كان سياسياً يعيد النظر في شؤون أمته، مهتماً بها غيوراً عليها » .

الإخوان يعملون لصالح شعوبهم، ويسعون لتطبيق شريعة الله التي تحقق الخير ـ كل الخير ـ للناس، وأي حكومة تطبق شرع الله سيكون الإخوان جنوداً لها.

قلت : يا إمام الدعاة وما تلك الخطوط العراض التي تستبين فيها وبها دعوة الإخوان، هل أسمعتنا أو أقرأتنا بعضاً منها ؟

قال :اسمع يا بن الياسين هذا المقال الذي خططته بعنوان : من البنا إلىٰ الذين عرفونا، فعسىٰ أن يفي ببعض ما طلبت، قلت فيه :

من البنا إلى الذين عرفونا :

«والذين عرفونا، منهم من اكتفىٰ بهذه المعرفة فلم يستكملها، ولم يتصل بنا ليتعاون معنا علىٰ ما نحن بصدده من دعوة الناس إلىٰ الخير، فهؤلاء ندعوهم إلىٰ أن يعملوا معنا، ونذكرهم بأنهم آثمون مقصرون إن قعدوا عن الاستجابة، فإن الميدان فسيح يتطلب جهد كل ذي جهد، ويستدعي عملاً متواصلاً من الجميع، فلا حجة له في القعود، ولا عذر لهم بين يدي الله والناس.

هذا قسم، وقسم آخر عرفنا واتصل بنا وتعاون معنا، ولكنه أساء أكثر مما نفع، إذ لصق بالإخوان وعمل علىٰ غير سنتهم وطريقتهم، فكان دعاية سيئة لهم، وكان سبباً في الصد عنهم لا في تقريب الناس منهم، فإلىٰ هؤلاء أتوجه بالرجاء أن يكونوا إخواننا بحق يلتزمون تعاليم الإخوان الصحيحة، أو أن ينصرفوا مشكورين وأمرهم إلىٰ الله، ورجاؤنا إلىٰ جماهير الشعب الإسلامي أن يزن كل منتسب للإخوان بموازين الشريعة السمحة وآداب الإسلام، فمن استمسك بها ونزل علىٰ حكمها فهو منها ونحن إخوته، ومن خالف شيئًا منها أو صدر عنه ما يتنافىٰ معها، فنحن من عمله بُرءاء ولا صلة بيننا وبينه.

إن الإخوان المسلمين لا يقصرون في فرائض الله ، ولا ينتهكون حرماته ، ولايجترئون على معصيته ، فإن قدر لأحدهم العصيان فهو لا يتجاهر به ، ولن يفخر به ، ولن يسكت عن التوبة عنه والندم الشديد عليه ، فمن كان مستهينًا بالصلاة أو مستخفًا بالفرائض ، أو جريئًا على المعاصي ، أو مستهترًا بارتكاب الآثام ، أو ظنيًا في ريبة فليس منا ، وعلى الذين عرفونا أن يجتنبوا ذلك كله .

والإخوان المسلمين مع هذا لا يفرطون في التعبد، ولا يبالغون في التزهد، ولا يظلمون دنياهم على حساب آخرتهم ؛ لأن هذا ليس من سنة نبي الإسلام ﷺ ، فهم يصومون ويفطرون ، ويقومون ويتريضون ، ويمزحون ويجدون ، يجاهدون وينبسطون مع أصدقائهم ومع أهليهم ، ويعملون للآخرة ولا ينسون نصيب الدنيا ، فمن أفرط في تعبده ، أو تظاهر في تزهده ، أو أهمل حقوق عمله ، أو أساء إلى أهله ، أو فرط في جانب من جوانب حياته الدنيوية الصالحة ويدَّعي بذلك أنه يقوم بجوانب الآخرة ، فليس على طريق الإخوان ، ولا هو من العاملين بمبادئهم .

والإخوان المسلمون يعلمون أن الله كتب الإحسان على كل شيء ، حتى من قتل فليحسن القتلة ، ومن ذبح فليحسن الذبحة ، وهم بذلك يعنون بإتقان كل عمل من أعمالهم حتى يبلغ حد الإجادة ، فمن نقص وهو قادر على الكمال أو قصر دون الإجادة والسبق فليس من الإخوان ، و« **إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه** »(١) ، فعلى الذين عرفونا أن يحفظوا ذلك كله وأن يعملوا على غراره ، فعلى الطالب أن يكون أول إخوانه ، وعلى الصانع أن يكون أمهر زملائه ، وعلى التاجر أن يكون أصدق وأبرع أقرانه ، وعلى الموظف أن يكون مثال أداء الواجب من جميع نواحيه ، وعلى كل ذي عمل منا أن يتقنه ، وعلى الناس ألا يعتبروا المقصرين من الإخوان المسلمين ، مهما حملوا من شارات أو ألصقوا بأنفسهم من ألقاب إخوانية .

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٧) ، وأبو يعلى في مسنده (٤٣٨٦) ، والبيهقي في شُعب الإيمان (٥٣١٣ ، ٥٣١٤) ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٩٨) : «رواه أبو يعلى وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة» ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠) .

والإخوان المسلمون يعلمون أن الدين المعاملة ، وأن مطل الغني ظلم ، فهم لهذا يبادرون بتسديد حقوق الله التي تكون بجانبهم ، ويمثلون أشرف ناحية في هذا المعنى ، وأن من تجارهم من لا يزال إلى الآن بعد سنين طويلة يسدد أقساط التجارة قبل موعدها بيوم على الأقل ، حتى يحتفظ الأخ المسلم بشرفه وكرامته ومنزلته ، فمن ماطل فليس منا ، ومن طمع فيما في أيدي الناس فليس منا ، ومن أساء الأداء أو الاقتضاء فليس منا ؛ لأن الدعوة غير هذه السبيل ، فعلى الذين عرفونا أن يكونوا أمثال الأدب في الوفاء والقضاء والإعطاء والاقتضاء .

والإخوان المسلمون بعد ذلك كله يعلمون أن الأخلاق أساس دعوتهم، وأن الله حين أراد أن يمتدح نبيه ، وهو قدوتنا ﷺ امتدحه بالخلق العظيم ، وأنه تعالى رتب على صلاح النفس صلاح الناس وفلاحهم فقال تبارك وتعالى : ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)**﴾ (١) .

فالأخ المسلم لهذا يأخذ نفسه دائماً بالتثقيف والمراقبة والمحاسبة ، حتى تنطبع على أفضل الأخلاق وأحسنها :

- **فهو صادق لايكذب**: ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾(٢) .
- **وهو وَفِيٌّ** لا يغدر ، ولا يُخْلف .
- **وهو حليم** لا يسرع بالغضب ، ولا يفحش بالقول .
- **وهو حَيِّي** لا يجهر بالسوء ، ولا يثبت للمنكر .
- **وهو شجاع يجهر بالحق** ،ولا يخشى فيه لومة لائم .
- **وهو عفيف**،يضع كرامته فوق كل الغايات والأغراض الزائلة .
- **وهو منصف يقدر الحسنة** ، ويزن السيئة ، ويأخذ من كل شيء أحسنه .
- **وهو حسن التصرف** ، يدبر الأمور على وجوهها ، ثم يسلك إليها أفضل طرقاتها .
- **وهو بعد ذلك يعفو ويصفح** ، ويدرأ بالحسنة السيئة ، إلا أن تنتهك محارم الله ، فلا يقوم لغضبه شيء .

---

(١) الشمس : ٧ ـ ١٠ . (٢) النحل : ١٠٥ .

أيها الإخوان المسلمون الذين اتصلتم بنا : كونوا مثال الفضيلة، فإن لم تكونوا كذلك فجاهدوا أنفسكم، فإن أفلحتم فاحمدوا الله، وإلا فأنتم عن تقويم غيركم أشد عجزاً، وفاقد الشيء لا يعطيه.

أيها الإخوان الذين اتصلتم بنا : لا تيأسوا ولكن حاولوا واعملوا فهي مرتبة الصابرين، والله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ..** ﴾(١).

قلت : أيها المؤرخون لرجالات الدعوة، هلا حدثتمونا عن جريمة الاغتيال النكراء، والتي قصد مدبروها بها وأد دعوة الإيمان، وقهر رجالات الإسلام ولكن هيهات، هيهات، ولله القائل :

أَتَظُنُّ دَعْوَتَنَا تَموتُ بِضَرْبَةٍ ... خَابَتْ ظُنُونُكَ فَهْيَ شَرُّ ظُنُونِ

تَالله مَا الدَّعواتُ يَهْزِمُهَا الأَذَى ... يَوْمًا وَفِي التَّاريخِ بَرُّ يَمينـي

ومن كان وراءها، ومن مَهَّدَ لها ؟

قالوا : اسمع يا بن الياسين، بداية هذا الحديث المهين من اغتيال إمام الدين الإمام الشهيد حسن البنا.

ففي ١٠ نوفمبر ١٩٤٨م اجتمع سفراء إنجلترا وأمريكا وفرنسا في فايد وقرروا اتخاذ الإجراءات اللازمة لحل جمعية الإخوان المسلمين، وهذا مثبت بالوثائق، وقد تم إبلاغ النقراشي ـ رئيس وزراء مصر حينها ـ بسرعة حل الإخوان، وإلا فإن القوات البريطانية ستعود لاحتلال القاهرة والإسكندرية (علمًا بأنها كانت تتمركز في منطقة القناة فقط).

ولم تتأخر الحكومة المصرية في تنفيذ المطلوب خاصة أن وجد هوىٰ في نفوس المسؤولين المصرين والملك.

وفي ٤ من ديسمبر ١٩٤٨م أوقفت جريدة الإخوان المسلمون، وفي ٨ من نفس الشهر أصدر قرار حل جمعية الإخوان المسلمين ومصادرة أموالهم وأملاكهم

(١) العنكبوت : ٦٩ .

وشركاتهم ومدارسهم ومستشفياتهم ومصانعهم، وشُنت حملة اعتقالات للإخوان، وقامت بنزع سلاح المتطوعين في فلسطين، ووضعوا في معسكرات اعتقال، ثم أرسلوا مكبلين بالحديد إلىٰ الهايكستب، وحينما حاول الإمام الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ أن يركب السيارة مع إخوانه الذين اقتيدوا للاعتقال رفض رجال البوليس وأنزلوه بالقوة، لماذا ؟! لأنهم كانوا يدبرون له ما هو أكبر من الاعتقال.

لقد سحبوا سلاحه المرخص قبل الاعتقال بشهر، كما اعتقلوا شقيقه ضابط الشرطة عبدالباسط البنا الذي كان يتولىٰ حراسته، وقطعوا الحرارة عن تليفون منزله، وكلفوا من يقوم برصده رصداً دقيقًا، تمهيداً لإتمام عملية الاغتيال بنجاح.

لحظات ما قبل الاغتيال:

بدأ الإعداد لجريمة اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا قبل يوم تنفيذ الجريمة، **مساء السبت ١٢ فبراير ١٩٤٩م**، وكان التدبير دقيقًا؛ حيث اتخذت الحكومة من الخطوات والأعمال التمهيدية ما يضمن تنفيذها، وقامت بالآتي:

- سحبت من المرشد سلاحه المرخص، وهو وسيلته الوحيدة للدفاع عن نفسه.
- ورفضت الحكومة طلبًا تقدم به؛ لكي يعتقل مع أصحابه وإخوانه بعد اعتقال معظمهم من مقر الجماعة.
- ورفضت الحكومة طلبًا بأن ينزل الإمام الشهيد ضيفًا مقيمًا بعزبة أحد الإخوان بالريف، وألقت القبض علىٰ صاحبه بهذه العزبة.
- منعته الحكومة من السفر إلىٰ الخارج، أو التنقل من مكان إلىٰ مكان داخل البلد بغير إذن الحكومة.

وقد كان بالفعل ما أرادت الحكومة؛ حيث أطلق عليه النار أمام جمعية الشبان المسلمين في شارع الملكة نازلي ـ شارع رمسيس حاليًا ـ واستقل الجناة سيارة سوداء، ثبت بعد ذلك أنها سيارة القائمقام محمود عبد المجيد، مدير إدارة المباحث الجنائية بوزارة الداخلية، وقد قُدِّمَ بعد قيام الثورة للمحاكمة هو وعدد من كبار الضباط ورجال المباحث، وبعد إطلاق الرصاص تحامل الإمام البنا علىٰ نفسه، وذهب إلىٰ الإسعاف، ولكن الأوامر كانت مشددة، وهي: **تركه ينزف حتى يموت !**

قلت :فماذا عن أسرة الإمام وذويه ـ إبان استشهاده ـ وماذا فعلت بهم حكومة الخونة والعملاء، من أذناب الإنجليز، واليهود والأمريكان ؟! وماذا عن حالها، وعن أفرادها ؟!

قالوا : اسمع تلك التقدمة الموجزة عن الأسرة الكريمة ثم أتلوها بذكر حالها وقت اغتيال عائلها الإمام الشهيد!

أسرة الإمام الشهيد :

قد تزوج الإمام الشهيد عام ١٩٢٣م وهو بالإسماعيلية من بيت علم ودين «آل الصولي» وهي « لطيفة» ابنة الحاج «حسين الصولي» ، تمت الخطبة في غرة رمضان ، وكان العقد في المسجد من ليلة السابع والعشرين منه ، والزفاف في العاشر من ذي القعدة بعده .

وفي شهر أكتوبر من نفس عام الزواج انتقل الإمام البنا إلى القاهرة وانتقلت معه زوجته لتقيم في بيت صغير بسيط بالقاهرة ، في (٢٤ حارة نافع المتفرعة من حارة عبدالله بك ، إحدىٰ حواري شارع السروجية) ، ثم انتقل بعد ذلك إلىٰ مسكن آخر بحي الحلمية الجديدة .

وعقب اغتيال الإمام الشهيد في ١٩٤٩/٢/١٢م فرضت الحراسة على قبره عدة سنوات، وحوصر البيت حصارًا شديداً ، وقطع عنه خط التليفون الخاص به ، ولم يسمح لأحد من أفراد الأسرة بمغادرة البيت دون تصريح أمني وذلك لمدة عامين ، ولا لأحد من خارج البيت أن يتصل بمن في البيت إلا عن طريق الشرطة ، حتىٰ الأبناء كانوا يذهبون إلىٰ المدرسة ويعودون منها تحت مراقبة البوليس ، بل إنهم احتلوا المدخل الخلفي الذي يطل علىٰ المنزل لمدة عامين .

ثم أوعز الطغاة إلىٰ مصلحة التنظيم بإصدار قرار بأن البيت الذي تسكن الأسرة فيه (وهو في ١ شارع سنجر الخازن بحي الحلمية الجديدة) آيل للسقوط ، ويصدر القرار بالهدم ، **وتطرد الأسرة إلى الشارع** بالإخلاء الإداري رغم أن البيت كان جديداً وبحالة معمارية جيدة .

وبحثت الأسرة عن سكن جديد فما وجدت إلا سكنًا في حي السيدة، إيجاره الشهري عشرة جنيهات بعد أن كانت تسكن في البيت القديم بإيجار ٢١٦ قرشًا مما أثقل كاهل الأسرة المتعبة، وما بين وقت وآخر يتعرض البيت للتفتيش والتخريب والتدمير بأيدي رجال البوليس السياسي . .

وفي ١٩٦٥م يعتقل نجلها الأستاذ سيف الإسلام حسن البنا بتهمة العمل على قلب نظام الحكم، وهو شاب صغير.

وبعد اعتقاله، وبتدخل بعض قادة الجيش لدىٰ عبد الناصر ممن كانوا يمتُّون بصلة قرابة بعيدة، يتم الإفراج عنه.

وظلت حرم الإمام الشهيد تعاني من عدة أمراض لمدة ثلاث سنوات لتلحق بعدها بزوجها في سنة ١٩٦٨م وتركت ولداً وخمس بنات :

- **أما الولد** فهو الأستاذ الأخ : سيف الإسلام.
- **وأما البنات فهن :**

١ - **وفاء**، تزوجها الأخ الدكتور سعيد رمضان، وهي مقيمة في سويسرا مع زوجها مند عام ١٩٥٤م.

٢ - **ثناء**، أستاذة التدبير المنزلي والاقتصاد بكلية البنات.

٣ - **هالة**، مدرسة طب الأطفال، بكلية الطب.

٤ - **رجاء**، التي تخرجت بكلية البنات.

٥ - **استشهاد**، وكانت أمها حاملاً بها وقت استشهاد الإمام.

وكلهن متزوجات، وسعيدات في حياتهن، ولله الحمد.

وقد توفي للإمام الشهيد اثنان من الأبناء في حياته، هما :

١ - **محمد حسام الدين**، تُوفي بمرض التيفود عام ١٩٤٧م، ولم يكن له وقتها علاج فعال.

٢ - **صفاء**، توفيت وهي طفلة صغيرة، وقد قام الإمام بنفسه بدفنها في مقابر الأسرة.

قلت : يا لله على لباقة وثقافة وحسن وتدبير الإمام البنا، لله هو، لله ما أثقفه، لله ما أبلغه، لله ما أقربه للقلوب، لله ما أعظمه، حدثونى يا تلامذة الإمام عن ذلك البطل المقدام، وحسن محاجته وجداله لكل الفئات الاجتماعية في عصره، ومصره .

قالوا : لم تكن هناك دعوة ولا نزعة ولا رسالة ، مما عرف العالم في الشرق أو الغرب ، وفي القديم أو الحديث ، لم يبحثها أو يقرأها أو يدرس أبطالها ، وحظوظها من النجاح أو الفشل ، أو يحمل منها ما يصلح لتجاربه وأعماله .

كان يقول كل شيء ، ولا تحس أنه جرح أو أساء ، وكان يوجه النقد في ثوب الرواية أو المثل ، وكان يضع الخطوط ويترك لأتباعه التفاصيل .

وكان قديرًا علىٰ أن يحدث كلاً بلغته أو في ميدانه وعلىٰ طريقته ، وفي حدود هواه ، وعلىٰ الوتر الذي يحس به ، وعلىٰ «الجرح» الذي يثيره .

ويعرف لغات : الأزهريين ، والجامعيين ، والأطباء ، والمهندسين ، والصوفية ، وأهل السنة ، ويعرف لهجات الأقاليم : في الدلتا ، وفي الصحراء ، وفي مصر الوسطىٰ ، والعليا وتقاليدها ، بل إنه يعرف لهجات : الجزارين والفتوات ، وأهالىٰ بعض أحياء القاهرة الذين تتمثل فيهم صفات معينة بارزة ، وكان في أحاديثه إليهم يروي لهم من القصص ما يتفق مع ذوقهم وفنهم ، بل كان يعرف لغة اللصوص وقاطعي الطرق والقتلة ، وقد ألقىٰ إليهم مرة حديثًا ، وهو يستمد موضوع حديثه ، أثناء سياحته في الأقاليم وفي كل بلد ، من مشاكلها ووقائعها وخلافاتها ، ويربطه في لباقته مع دعوته ومعالمها الكبرىٰ ، فيجيء كلامًا عجيبًا ، يأخذ بالألباب .

كان يقول للفلاحين : (عندنا زرعتان) ، أحدهما سريعة النماء كالقثاء ، والأخرىٰ طويلة كالقطن .

لم يعتمد يومًا على الخطابة، ولا تهويشها ولا إثارة العواطف علىٰ طريقة الصياح والهياج ، ولكنه يعتمد علىٰ الحقائق ، ويستثير العاطفة بإقناع العقل ، ويلهب الروح بالمعنىٰ لا باللفظ ، وبالهدوء لا بالثورة ، وبالحجة لا بالتهويش .

ويعـد « الحـديث » عند بعض الناس آيته الكبـرىٰ، غير أنني علمت من بعض المتصلين به أنها آخر مواهبه ؛ فقد كـانت أبلغ مواهبه القدرة علىٰ الإقنـاع، وكسب «الفرد» بعد « الفرد» فيربطه برباط لا ينفصم، فيراه صاحبه صديقًا خاصًا وتقوم بينه وبين كل فـرد يعرفـه صداقة خـاصة خـالصة، يقـوم معـها في بعض الأحيان منـاجاة، وتنتقل بالتعرف إلىٰ شؤون الوظيفة والعمل والأسرة والأطفال.

وهذه أقـوىٰ مظاهر عظمتـه، فهـو قـد يكسب هؤلاء الأتبـاع فردًا فـردًا، ويصـيب منابع أرواحهم هدفًا هدفًـا، وإن لـم يكسبها جملة ولا علـىٰ صفة جماعيـة، وقد استطاع بحصافته وقـوته أن ينقلها من عقائدها وأفكارها سواء أكانت سياسـية أم دينية إلىٰ مذهبه وفكرته، فتنسىٰ ذلك الماضي، بل وتستغفر الله عنه، وتراه كأنما كان إثمًا أو خطأ.

ومن أبـرز أعـمـال هذا الـرجل، أنـه جـعـل حـب الوطن جـزءًا من العـاطفـة الروحية، فأعلىٰ قدر الوطـن وأعز قيمة الحرية، وجعل بين الغني والفقيـر حقًا وليس إحسانًا، وبين الرئيس والمرؤوس صلة وتعاونـًا وليس سيادة، وبين الحـاكـم والشعب مسؤولية وليس تسلطًا.

وتلك من تـوجيهـات القـرآن، غيـر أنه أعلنهـا هو علىٰ صـورة جـديدة لم تكن واضحة من قبل.

وقـال: ثم اسمع يا بن الياسين مـا كان من تضـحية الإمـام بكل مقـام ومكان في سبيل نشر الدعوة، وإقامة عمادها، ومتابعة مسيرتها، ويسترشد بها العالمون.

بعـد حـادث ٤ فـبـرايـر ١٩٤٢م وبعـد أن تولىٰ مـصطفىٰ النحـاس باشـا مقـاليد الحكم، قام بحل مجلس النواب وأعلن عن إجراء انتخابات جديدة، **ورشح الأستاذ البنا نفسه عن دائرة الإسماعيلية** بناء علىٰ رغبة الإخوان في منطقة القناة.

وسرعان مـا استقبلت المدينة هذا النبأ بالمظاهرات واللافتات والإعلانات والمظاهرات، حتـى كتب الأسـتـاذ مـصطفـى أمين في مـجلـة « الاثنين » كلمـة عن حـسن البـنا، ومـعـركـة الانتخابات في الإسماعيلية، وكيف أن الإخوان والأهـالي قد دفعوا لـه قيمة التأمين، وكيف كان الناس هناك مـتحمسـون يبذلون كل مـا في وسـعهم حتـى يفوز مـرشحهم، وختم كلمـتـه فقال: « إن مستقبـل هذه الجماعـة ليفوق حساب كل متفائـل».

وفي وسط هذا الشعور الجارف وهذه المظاهرات والأفراح دعا الاستاذ البنا إلىٰ مؤتمر عقد بالشارع الثلاثيني بعد صلاة العشاء حضره جمع حاشد، وفي هذا المؤتمر قال حسن البنا بعد الافتتاحية: إنه قد رشح نفسه عن الإسماعيلية بناءً علىٰ طلب الإخوان، ولقد جئت اليوم لأضع أمام الإخوان هذه التطورات الجديدة، فقد دعاني مصطفىٰ النحاس باشا رئيس الحكومة إلىٰ مكتبه، وطلب مني ضرورة أن أتنازل عن ترشيح نفسي عن دائرة الإسماعيلية، فلما سألته عن الأسباب المبررة لهذا الطلب، قال لي: إن البلد في حالة حرب ومصلحة البلد أن تتنازل.

فقلت له: ألا يكفي أن الحكومة قيدت خطواتي، ولا تسمح لي بالسفر خارج القاهرة إلا بإذن من وزارة الداخلية، وأن الدعوة بهذه الصورة لا تجد مجالاً للانطلاق، فيكون التنازل عن الترشيح حجراً علىٰ الدعوة والداعية.

فقال مصطفىٰ النحاس باشا: إنه في حالة قبول التنازل، لا مانع عندي من أن يكون لك حرية الدعوة في كل مكان، وأمام هذا التصريح وافقت علىٰ أن أتنازل عن ترشيح نفسي (١).

فتعالت الهتافات غاضبة في كل مكان.. ولكن الأستاذ المرشد قال: أيها الإخوة المسألة أولاً وأخيراً مسألة دعوة، وليست مسألة أشخاص، ولقد تأسيت في هذا الموقف بموقف رسولنا ﷺ في صلح الحديبية، يوم رأىٰ الصحابة رضوان الله عليهم ألاَّ يعطوا الدنية في دينهم، ورأىٰ رسول الله ﷺ رأيًا يخالف رأيهم، وأثبتت الأيام صحة ما استقر عليه الرسول ﷺ، ونحن لسنا طلاب مراكز، ولم نرد من الترشيح إلا أنْ نجد منبراً نعلن فيه عن دعوتنا، ونقول فيه كلمة الحق، فإذا تيسر لنا ذلك علىٰ أوسع مدىٰ في حدود الظروف التي يتاح لي أن أفصلها لكم حين تسمح الظروف بذلك نكون قد وفقنا إلىٰ أحسن الحلول، وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً: ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾(٢) .

---

(١) حسن البنا. مواقف في الدعوة والتربية لعباس السيسي، ص ١٢٣ ـ ١٢٥، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٧٨م.

(٢) هود: ٨٨.

ثم قال الأستاذ المرشد : أيها الإخوة ، ننتقل إلىٰ معنىٰ آخر ، تعلمون أن هناك حربًا ضروسًا تأكل الأخضر واليابس ، ونحن نعيش علىٰ أطراف هذه الحرب ، واعتقادي أن الله سبحانه وتعالىٰ قد صنع هذه الحرب لصالح العرب والمسلمين ، وأذكر أنني كنت في سفر فرأيت بعض الفلاحين يشعلون النار في أراضيهم الزراعية فلما سألت عن السبب قيل لي : إن هذه الأرض قد شاخت وتعذر زراعتها والحريق يقوم بتجديد تربتها .

قلت : يا شهيد الدعوة ورافع رايتها ماذا تقول في أولئك المحدثين الزاعمين بأننا دعاة تفرقة وطنية، أو عزلة وعنصرية، ويرفعون عقيرتهم بهذا في المجالس والنوادي والإعلام؟

قال : هكذا دأب الظالمين ، يقولون ما لا يعلمون ، ويشوهون الدعاة المخلصين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأنا أقول : « ويخطئ من يظن أن الإخوان المسلمين دعاة تفريق عنصري بين طبقات الأمة ، فنحن نعلم أن الإسلام عنىٰ أدق العناية باحترام الرابطة الإنسانية العامة بين بني الإنسان : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾(١) .

كما أنه جاء لخير الناس جميعًا ورحمة من الله للعالمين ، ودين هذه مهمته أبعد الأديان عن تفريق القلوب وإيغار الصدور ، وقد حرم الإسلام الاعتداء حتىٰ في حالات الغضب والخصومة ، فقال تعالىٰ : ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (٢) .

وأوصى بالبر والإحسان بين المواطنين ، وإن اختلفت عقائدهم وأديانهم : ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ (٣) .

كما أوصى بإنصاف الذميين وحسن معاملتهم فقال : « لهم ما لنا وعليهم ماعلينا » ، نعلم كل هذا فلا ندعوا إلىٰ حركة عنصرية ولا إلىٰ عصبية طائفية ولكننا

---

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) المائدة : ٨ . (٣) المُمتحنة : ٨ .

إلىٰ جانب هذا لا نشتري هذه الوحدة بإيماننا، ولا نساوم في سبيلها علىٰ عقيدتنا، ولانهدر من أجلها مصالح المسلمين، وإنما نشتريها بالحق والإنصاف والعدالة وكفىٰ، فمن حاول غير ذلك أوقفناه عند حده وأبنا له خطأ ما ذهب إليه».

وفي رسالة نحو النور أكد أن الإسلام يحمي الأقليات ويصون حقوقها فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يظن الناس أن التمسك بالإسلام وجعله أساسًا لنظام الحياة ينافي وجود أقليات غير مسلمة في الأمة المسلمة، وينافي الوحدة بين عناصر الأمة».

قلت: يا إمام الدعاة، بماذا توصي تجمعات المسلمين المتوسطة ومجالسهم الفردية والاجتماعية، وما دروب الدعوة التي تراها ناجعة نافعة ـ بإذن الله؟

قال: أوصيكم أيها الدعاة بما يلي:

- **اجمعوا قلوب الناس جميعًا على كتاب الله وتحت لواء محمد** ﷺ أفضل خلق الله أجمعين ورحمة الله للعالمين، فلواؤه لواء الحمد، وشرعته منهاج الرشد وهديه أفضل الهدىٰ، ومن استظل بظله وسار تحت رايته فاز في الدنيا بالنصر: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾(١)، وفاز في الآخرة بالأجر: ﴿ **يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** ﴾(٢).
- **واجعلوا في كل شارع جماعة إخوانية، وفي كل قرية كتيبة قرآنية**، وفي كل مدينة راية محمدية، وفي كل فج من الفجاج أخًا يهتف بمبادئكم وينادي بتعاليمكم، ويعطي كلمتكم، ويبايع بيعتكم، ويجهز نفسه ليظل مكانه في الصف، وإن يوم النداء لقريب.
- **ألفوا الفرق الرياضية بأنواعها في شعبكم؛ فالقوة شعاركم**، ولا قوة في جسم ضعيف ضئيل، ووجهوا عنايتكم إلىٰ «الجوالة»، وليكن في كل شعبة من شعبكم فرقة من شبابها فهو الجهاد في سبيل الله، وهو ذروة سنام الدين، وهو الدرب الذي يضاعف فيه الأجر ويجزل الأجر والمثوبة.
- **كونوا الكتائب؛ فإن جيوش الليل تنزل بالنصر على جيوش النهار:** ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾(٣).

---

(١) الحج: ٤٠.   (٢) التحريم: ٨.   (٣) آل عمران: ١٢٦.

■ **وأنيروا حنادس** (١) **الظلام بآيات الكتاب الكريم**، وناجوا الله والناس نيام يذل لكم أعداؤكم، ويبارك في أعمالكم، ويرزقكم التأييد والمعونة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

■ **اقتصدوا من أموالكم لإيمانكم ومستقبلكم**، فإنكم لا تدرون ما الموقف غداً، ولايصرفكم ذلك عن الثقة بمولاكم، والاعتماد على بارئكم، وإنما هو على حد قول النبي الصالح: ﴿**يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ**﴾ (٢).

ﷺ: يا محبي الإمام، ويا متبعي طريقته وإرشاده في الحق والخير، ألا قافية زاهية أختتم بها مقامي هذا تمتدح الإمام وترثي مقامه، وتذكر مناقبه وتبلل مراقده، وتهيج الذكرى بحراكه وجهاده.

فقام في غير توانٍ ذلك اللسن البليغ والشاعر الضليع الدكتور توفيق علوان، وقال: دونك ما سألت يا بن ياسين، وهاك قصيدة دبجتها بدمعي قبل حبري، ونظمتها من مشاعر الفؤاد الحارة قبل ألفاظ الكلام والعبارة، فاسمع:

ألا كلُّ حي للتراب يعود	**وأمر المنية مبرم وعتيد**
فعش كيفما تهوى فإنك ذاهب	**وإما غشاك الحق لست تحيد**
يأيها الناعي رويدك نبني	**وأرفق فقلبي من أساه يميد**
أحق هوى نجم الدعاة فمن لنا	**على الدرب يهدي خطونا ويقود**
خليلي ما للنائبات تنوبنا	**تباعا وتغشى ربعنا وتصيد**
صروف تهاوى كالقضاء بساحنا	**وكالقدر المحتوم ليس يحيد**
فإن تسألني ما دهاك فإنني	**صبور برغم النائبات عنيد**
خليلي واصبراً فرب مفارق	**تذوب جوى حزنا عليه كبود**
قفا نبك مع دمع العيون توجعا	**على مثله فالدامعات تجود**

(١) **الحندس**: بالكسر: الليل المظلم، انظر: القاموس المحيط، مادة: حندس، والحنادس: ثلاث ليال في أواخر الشهر.

(٢) يوسف: ٦٧.

أيا « حسن البنا » أيا دمعَ مخبت ... ويا من كسا الآلام فهي نشيد
يرددها ملء الفضاء ترنما ... ويطرب أرباب الأسى ويعيد
فيأيها الطير الحزين.. إلى متى ... تنوء شجياً والفؤاد جهيد
فنم بعيون تاق للنوم جفنها ... لكم نامت الدنيا وهن سهود
لأنت سراج في غياهب ليلنا ... وأنت لنا قيثارة ونشيد
وأنت ربيع فوق بيد قلوبنا ... وفجر أتى في الحالكات مجيد
ومقلة أواه غفت حين بغتة ... فمنهم شقي بعده وسعيد
فيا « حسن البنا » لماذا أتيتنا ... فكل مغازينا منًى ووعود
وغاية ما نبديه قول تأسف ... وأكبر ما نعطي بكًا وقصيد
فلا نحن خضنا كالذى أنت خضته ... ولا هبَّ رأي في البلاد سديد
ولا عرفت عين طريق خلاصها ... ولا قام حكم للأنام رشيد
ولا نحن جئنا عشر ما آتيته ... ولا عزمنا يبدي وليس يعيد
فطب بالثرى نفسا ونم فلطالما ... أذابك منا معرض وصدود
فذا مرجف في الجد أنكر دينه ... وذا هارب عند النزال بليد
فأنت منار ذروة المجد دينه ... ونحن خواء كالتراب ودود
تركناك يوم الروع والله شاهد ... وأسياف من قد جلدوك شهود
تصر على الأسنان غصة كاظم ... وتسقي كؤوسا هولهن شديد
كأنك عثمان عشية حتفه ... يروح على جمر الأسى ويعود
ويكتم شجو القلب بين ضلوعه ... سوى ظفرة رغم الضلوع تجود
كأن عليا قام في غمراته ... يكابد وهج الصدر وهو صديد
ويرسل في المحراب حرقة بثه ... فترتج « طه » بالعزاء « وهود »
كأن عذابات « الحسين » تلوكه ... وما من نصير يرتجى فيذود
يقاتل كالصقر الجريح وحوله ... كلاب عدى تغشاه حيث تريد
يضج وما من سامع لصريخه ... طريد والمكان بعيد

فيا « حسن البنا » أذاك نصيبنا ... من الناس موتور عمى وحسود
ويا « حسن البنا » أخط كتابنا ... لهيب وجمر يغتلى ويزيد
ألا إن قوماً أسلموك مكبلا ... لكل أحاجيهم عمى وشرود
ألا إن عصراً ذاك أكرم صنعه ... وأفضل ما يأتى به لكنود
فلا غرو إما قد رموك بخسة ... ولا وصمة في القتل أنت عميد
ويا خيبة الداعي ومن قد أجابه ... ومن قد أغض الطرف وهو شهيد
فلا تذهلن هم جاحد ومباهت ... ولا تجزعن هم مسرف وحقود
وما الأرض إلا مثل حلقة خاتم ... وما الجو إلا ظلمة ورعود
وما الناس إلا حاسد ومبارز ... ومضطغن مر الفؤاد لدود
فيا « حسن البنا » فأين خلاصنا ... وحتام نتلو سفرنا ونعيد
بعصر عنت فيه الوجوه لمن طغى ... فهم ركع ما إن علا وسجود
وخمر ورقص ماجن ودعارة ... وقات وعري فاحش ونهود
وفي الليل أنغام تخب بعارها ... وفي الصبح خزي فاقع ومريد
فما ركبت عاد بمثل الذي أتوا ... ولا قوم لوط إذ عتوا وثمود
فيا » حسن البنا » فذلك عصرنا ... سباع تعاوى ملئه وتسود
وبطش وقطعان تسير ومن أبى ... فنار تلظى بالحشا وحديد
ورعب على الآفاق ينعق هادرًا ... وسوط وسيف صارم ووعيد
فسر خاشعاً بين العبيد وملجماً ... فما الناس إلا سادة وعبيد
وإلا فسحل في النهار جهارة ... وإن تطلبن الموت ذاك بعيد
وسطو على الأعراض خطة قادر ... وذل إلى الأذقان كيف تريد
وصلب على الأخشاب ذاك نكالنا ... فذق ولدينا في العذاب مزيد
فيا «حسن البنا» أصادف قولنا ... من الناس آذانا تعي وتفيد
أيقنع ذئب بالكلام إذا عدا ... ويسمعنا هيهات ذاك بعيد
زرفنا دماء العين ملء زماننا ... وذابت مآق حسرة وخدود

فـمـا رحم الأعـداء نار جـفـوننا ... وأغـراهـمـو وهن بنا وقـعـود
لقـد علمـتنا الحـادثات فـقلبنا ... بصـيـر بما قـد علمت شـهـيـد
فـقـالت طريق الحق حـزن بربوة ... وملء الثنايا فـتـنة وسـدود
ودون شـروق الشـمس ليل مـؤجج ... خـضـيب وغـيـم قـاتم ورعـود
وقـالت ذروا الأحـلام والأمس قـد مـضى ... وهبـوا لهـا شـأن الكمـاة تسـود
فـإمـا حـيـاة كـالنسـور كـريمة ... وإمـا رفـاة في الثـرى ولحـود
ألا الموت بـرء للجـراح جـمـيـعـهـا ... وللمـوت صـرح شـامخ ومـشـيـد
وإلا تكن في الناس بالحق سـيـدا ... فـأنت مـهـيض فـهـيـمـو وطريد
ألا فـاسـمـعن هم طارد ومطارد ... وهم ـ فـاوع قـولي ـ سـيـد ومـسـود
فـلا تصـبـرن للضـيم هونا وذلة ... فـمـا كل صبـر في الكتـاب حـمـيـد
وإمـا أتاك الشـر قـهـرا وعنوة ... ألا فـاركبن للشـر حـيث يريد
ولا تشك إن دهراً رمـاك بحـمله ... ولا تبك إن خـابت خطا وجـدود
فـمـا جـزع في النائبـات بمنقـذ ... ومنجـيك مما أنت منه تحـيـد
ويارب مـطـرود يـطـيـب زمـانه ... ويصـفـو له بعـد الجـفـا فـيـعـود
ويـارب لـيـل دامـس ووراءه ... يُطِلُّ صـبـاح للسـراة مـجـيـد
فـيـا صـاح فـيم اليـأس إن دانت المنى ... لهم فلنا مـسك الخـتـام نشـيـد
عـسى بعـد ليل الهـون نصـر ينوبنا ... وجـمـع مـهـيب خـالد وأبيـد
وتصطك أعـضـاد الرجـال وبينهم ... حـديث هنـيء مـفـعم ومـديد
أهـازيـج فـرح وانفـراج كـآبة ... وفـتـح قـريـب قـادم وورود

قلت : يا رجـال الإخـوان، يا أهل الفـضل والإحـسـان، هل لازال الإخـوان المسلمون على الدرب سائرين، وبنبيهم ﷺ وصحابته مقتدين في الجهاد والبذل؟ وهل يرون من حسن البنا قدوة في طرائق ووسائل دعوته حديثـًا، بين تلك الأخلاط والأوحال التي فرشها الغرب للمسلمين؟

فانتفض إليَّ **الأستاذ رفعت الهجرسي** من علماء الأزهر الشريف .

وقال : هدئ من روعك يا بن الياسين، ولا تحزن، واليوم، وبعد خمسين عامًا على اغتيال الإمام الشهيد، هل حقق القتلة مرادهم ؟

كلا، وألف كلا، فلاتزال دعوة الإخوان المسلمين تواصل عطاءها وتواصل انتشارها في الآفاق، ولئن كانت كتائب المجاهدين المتطوعين من الإخوان من مصر والأردن وسوريا قد أذلت اليهود في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م وكادت أن تقضي على عصاباتهم، لولا خيانة بعض حكام العرب، **فإن دعوة الإخوان اليوم أنبتت كتائب المجاهدين المقيمين داخل فلسطين الحبيبة، أبناء «حماس»** الذين يواصلون مسيرة الجهاد المباركة، وهم الذين تعقد الأمة عليهم الآمال لتحرير فلسطين بعد أن فشلت التسويات السلمية الانهزامية، أما على الأصعدة المحلية فإن « **أبناء حسن البنا** » لازالوا يواصلون العطاء، ويواصلون الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

إن اليهود والأمريكان والإنجليز والفرنسيين الذين تآمروا لقتل حسن البنا، هم أنفسهم الذين قتلوا الشهيد عز الدين القسام، وهم الذين قتلوا الشهيد عمر المختار .... وغيرهم من أئمة الجهاد.

وقد لحق بهم الروس والهندوس، الذين يقتلون المسلمين اليوم قتلاً بطيئًا بالحصار على شعوب : العراق وليبيا والسودان وباكستان، وقتلاً سريعًا بالصواريخ والقنابل كما حدث في السودان وأفغانستان وكشمير والبوسنة وكوسوفا، وأخيرًا في العراق، وما هذا بغريب عليهم؛ فإنهم لا يرقبون في مسلم إلا ولا ذمة.

لكن أبناء البنا سيظلون لهم بالمرصاد مع غيرهم من الشباب الإسلامي والوطنى، حتى يتحقق نصر الله.

إمامنا الشهيد، ها هم أبناؤك على العهد سائرون، وبالدعوة مجاهرون، وبالحق قائمون، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم، فهنيئًا لك جنات الخلد، وتضرعًا إلى الله أن يلحقنا بكم في الصالحين. .

آمين، آمين، آمين.

١٧ ـ سيد قطب .. شهيد الأمة شاهدٌ على أحوال عصره وعصرنا

(١٣٢٤ ـ ١٣٨٧ هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٦٧ م)

بدا لي أن أكتب عن رمز من رموز الصمود في زمن عزّ فيه الصمود، وضحلت فيه معالم التضحية، وأصبحت الأقلام تؤجر، والعقول تنهى وتؤمر، ومقالة الحق تنقلب سحراً على قائلها.

وأصبح من العسر بمكان الإشارة إلىٰ كتّاب عاهدوا ربهم، وأسلموا أقلامهم لدينهم، دفاعاً عن أمتهم حتىٰ لو زجوا في السجون، ولاقوا العنت والشجون!

مرارات، وحسرات تتدافعني حين الكتابة، وتفرض عليّ أن أختار رمزاً صاملاً، عاش في سبيل نصرة دينه ورفعة أمته، وما استخذىٰ، ولااستجدىٰ. . ولا تصاغر ولكنه علا بدينه، واعتز بقلمه، وعاش بمبدئه كالجبال الرواسي صامداً مجاهداً لا يحيد ولا يميد، ولا يبيع شعره بحفنة شعير، ولا يتجر بنثره لنثارة خبز!!

إنه الشهيد ـ بإذن الله ـ والباسل في سبيل الله ،

إنه سيد قطب، وما أدراك ما سيد قطب.

تعال معي في تلك المحاورة التي تخيلت نفسي واقفًا بين يديه متلمسًا من علمه ومستزيداً من فكره عساي أنتفع من نفثاته ونثاراته وأبكار أفكار قريحته، سالكًا في ذلك سبيل السؤال والجواب، قلت، وقال. .

ولا يخفىٰ على الفن ما لذلك من جرد لأفكاره، وقصد لإظهار مثالب عصرنا وقياسها بمثالب عصره، ومحاولة معرفة أسباب السقوط، ومدارج تاريخ الدعوة، عسانا نجتنب موارد الزلل ودركات الانقطاع عن القائلين العاملين أمثال سيد قطب.

سيد قطب ،المنشأ، والتكوين :

قلت : ولد سيد قطب في أسرة ظاهرة الامتياز بقيمها، وكانت مركز إكبار وإجلال؛ حيث مثل والده عائلته كلها، فكان عميد الأسرة الكبيرة.

كما أن سيد قطب استشرب هذه العمادة في الفكر عن والده، كما استقىٰ عنه تدينه وقيامه بأداء فرائض الإسلام علىٰ وجه التمام، ولآل قطب سيرة راسخة في التدين والأصالة والصبر ابتدأت بسيد قطب ثم بإخوانه وأخواته.

فقد عُذبت أخته نفيسة الكبرى وقتل لها ولد في السجن؛ لأنه لم يشهد ضد خاله سيد، وسجن الآخر.

وأمينة أخته نالها نصيبها من العذاب وقتل زوجها السنانيري في السجن سنة ١٩٨١م، وأخوه محمد ـ حفظه الله ـ ناله نصيبٌ من العذاب الأليم في سجون عبدالناصر حتىٰ أفرج عنه في مطلع السبعينيات وهو مدرس الآن في جامعة الملك عبدالعزيز منذ سنة ١٩٧٢م إلىٰ الآن، ولمحمد مع أخيه سيد وشائج ووثائق وصلات فوق النسب في الفكر والحب والخلة والصداقة.

قلت لسيد: حدثني عن طفولتك؟

قال: طفولتي استحالت إلىٰ رجولة مبكرة، فلم أمضِ في دروبها ولم أنعم كأطفال المسلمين في ردهات المدارس الغربية في الغرب أو في بلادنا الإسلامية؛ إذ يغتذون علىٰ مبادئ الغرب ويشربون قيمهم في صغرهم، ويتعلمون كيف يعرون «باربي» وكيف يهيمون بها وفيها، ولم أعرف لعبة «البيكمون» التي تسرب إليها اليهود بألاعيبهم وأفانينهم ليخترقوا أطفالنا ويئدوا فطرة الإسلام والعروبة في نفوسهم!

وإنما نشأت علىٰ الجد الصارم، وجعلتني أتوهم وأنا في العاشرة من عمري أنني بلغت مبالغ الرجال فرحت أتقمص الجد وأدعي الجلد، واستتبع العصامية في كل شيء، وكأني أنشد قول القائل:

لَوْعَدُّوا العُمْرَ لَمَا وَجَدوا قَدْ جَاوَزَ سِنَّا لِلَّعِبِ

قلت: إن في وجهك سمرة بادية..!

قال: نعم سفعتني شمس المحن لا شمس السماء، وعلاني غبار التعذيب وأرهقتني كرابيج الزبانية في الزنازين، وأنهكتني الأمراض لأمتي، لا أعراض علتي!

ثم إنه أشار إلىٰ أخيه محمد ليروي عنه هذا الجواب .

قال محمد قطب : وجدته يشكو كثيراً من الأمراض، ولا طاقة للبدن أبداً، مهماً كان قويًا ـ أن يحتمل النفس الكبيرة :

وَإِذَا كَانَتِ النُّفوسُ كِبَارًا   تَعِبَتْ في مُرَادِهَا الأَجْسَامُ(١)

ولقد وجدته وقد نالت منه الأيام، فبدت آثارها علىٰ وجهه، وفي جبهته أخاديد عميقة، وفي عينيه حمرة، وفي شعره الأسود القاتم شيبًا .

قلت : أيها الشهيد أراك نحيل البدن حقيقًا بما قاله فيك الشيخ علي الطنطاوي «لطيفًا هادئًا، تبدو عليه سيما المسالمة والموادعة والإيناس» فما بالك جاد القول، صريح المهاجمة، صعب المنازلة للباطل، كأنما تحيي في كتاباتك عهود ابن حزم مع مجادليه؟ أتراك واقفًا معه في خندق واحد..؟!

قال : دع عنك نحول جسمي، وموادعة شكلي، فما الناس بأشكالهم وما الحق يوزن بأجسادهم، أما سمعت **القائل وهو عباس بن مرداس :**

تَرَى الرَّجُلَ النَّحيلَ فَتَزْدَريهِ   وَفي أَثْوابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ(٢)

ولتعلم، وتُعلم إخوانك، أن العبرة بالروح التي يحملها الكاتب بين جنبيه .

قلت : التبس على الكثيرين سفرك إلى أمريكا ما بين قائل إنه ذهب ليكرم بسبب محاربته الشديدة العنيفة للاشتراكية والشيوعية، حتى زعم كثير منهم أنك عميل لها، ونبتًا من دوحة فكرها؟!

قال : بخ بخ . . !! لقد أضحكتني بعد استعبار . . !! من لي برفقة وعمالة الأمريكان؟! وكيف ومتىٰ وأين ؟!

إنما كان سفري لأمريكا لإخراجي من بلدي، حيث كنت أعمل مفتشًا فنيًا بوزارة المعارف وأراد القوم مني تحضراً ، وإن شئت فقل تحدراً بالاطلاع علىٰ مناهج

(١) البيت للمتنبي من بحر الخفيف .

(٢) البيت من بحر الوافر .

ونظم التعليم في أمريكا ووافقت مُنْيَتهم مُنْيَتي، وإرادتهم إرادتي مع فارق جوهري، أنهم أرادوني مستغربًا، منسلخًا عن ديني وعروبتي، وأردت أنا أمريكا لأستبصر حقيقة واقعها الاجتماعي وتطورها المادي، ومناهجها التي نبني بها أوطاننا ونحيي بها أمتنا مما يوافق أصولنا وإسلامنا. أرادوا، وأردت، ومكروا، ونجوت، والحمد لله رب العالمين.

بين رحلة سيد قطب، ورحلات أقطاب اليهود، وأسياد اللذة إلى أمريكا وأوربا :

قلت : حدثني عن رحلتك إلى أمريكا ماذا أفدت منها وما عجيب ما نقلت عنها، إذ طالت سفرتك أيامًا بالباخرة، في عباب البحار ماخرة، فجدير أنها بالعجائب زاخرة ؟!

قال : أما عن فوائد سفري فهي عديدة، وقصصها لديّ مديدة وسأحدثك عن أطراف منها وخاصة في طريقي إليها.

قلت : حدثني إذن، فكلي لك أذن !!

قال : أفدت فوائد جمة من **سفري إلى أمريكا** في تاريخ ٣/ ١١/ ١٩٤٨م حيث أقلعت باخرتي، فانتشط ذهني واقتدحت قريحتي ورحت أتأمل في :

١ ـ **نعمة الله على الناس في تسخير البحر** «ما أحسست ما في هذه اللفتة من عمق قدر ما أحسست ونقطة صغيرة في خضم المحيط تحملنا وتجري بنا، والموج المتلاطم والزرقة المطلقة من حولنا، والفلك سابحة متناثرة هنا وهناك، ولا شيء إلا قدرة الله، وإلا رعاية الله، وإلا قانون الكون الذي جعله الله، يحمل تلك النقطة الصغيرة على سطح الأمواج وخضمها الرهيب».

٢ ـ **قلت لنفسي وأنا مسافر** : «أأذهب إلى أمريكا وأسير فيها سير المبتعثين العاديين، الذين يكتفون بالأكل والنوم، أم لابد من التميز بسمات معينة، وهل غير الإسلام والتمسك بآدابه والالتزام بمناهجه في الحياة وسط المعمعان المترف المزود بكل وسائل الشهوة واللذة الحرام؟».

٣ ـ **بعدما قررت اختيار الالتزام بالإسلام**، والدعوة إليه في أمريكا ندت لفتنتي إحدى الأمريكيات على ظهر الباخرة فأعانني الله وحماني من فتنتها، فتجلدت قبل خوض عباب المفاتن في أمريكا، وقبل ولوج شاطئها المغرق بالملذات والشهوات والشبهات.

٤ ـ تحول هذا الاستيلاء على الشهوات والمغريات إلى دعوة إلى الله على ظهر السفينة، حيث أبصرت مبشراً على ظهر السفينة يحاول فتن الناس عن دينهم، فمضيت متوفراً بمشاعر الإيمان إلى القبطان وطلبت منه السماح لكل ركاب الباخرة المسلمين بصلاة الجمعة، وتمت الصلاة وكنت خطيب الصلاة، حتى أعجبت سيدة نصرانية يوغسلافية بمشهد الصلاة العجيب وخاصة لقراءة القرآن!!

سيد قطب يستعلي عن فتن الملذات، ويعتصم عن فتن الشبهات في الغرب:

قلت: وما أقسى ما رأيت في أمريكا من الفتن والمحن؟ وكيف تغلبت عليها؟ عظنا فإن شبابنا هلكى وغرقى في الملذات الأمريكية، وحكامنا طوعى للأمريكان، إلا القليل القليل من الكثير الوفير.

قال: وجدت في أمريكا مفاتن لا تخرج عن كونها شهوات أو شبهات، أما عن فتن الشهوات والملذات فعرضت لي في:

١ ـ متابعة فتيات حسناوات مزهرات متحللات لي رصداً وعمداً، من جامعة لأخرى.

٢ ـ مناقشاتهن المكشوفة الصريحة عن الجنس وأنه عملية بيولوجية جسمانية وليس لها شأن بالدين والأخلاق وهذا أشد فتنًا؛ لأن فيه افتتان بالشهوات وإقناع بالشبهات.

٣ ـ حديث بعض الشباب العربي عن ملذات أمريكا الجنسية ومغامراته مع الأمريكيات، ومحاولته إقناع سيد قطب بخوض ذلك الوحل باسم الغربة وظروفها وطبيعتها، وباسم داعي الشهوة وتحت وطأة الغفلة.

قلت: هذا عن فتن الشهوات فماذا عن فتن الشبهات؟!

قال: أما عن فتن الشبهات فكانت أدهى وأشد، وآكل للقلب، وأقطع لليد، إذ أراد الأمريكان فَتْنِي بالجنس، فما استطاعوا لذلك سبيلاً، فراحوا يرسلون إليّ رجال المخابرات الأمريكية فما أوقعوا عندي شبهة، وما نالوا مني حظًا!!

حتى أن رجل المخابرات الإنجليزي «جون هيوورث دن» كان قد أقام بمصر مدة وادَّعى الإسلام، وتسمى باسم جمال الدين، وأقام في مصر وتزوج مسلمة، وألَّف

كتابه الخطير «**التيارات السياسية والدينية في مصر الحديثة**» وراح يلتف حولي لأعلن ولائي لبريطانيا الاستعمارية الغاصبة لمصر في هذا الوقت، وذلك بالآتي :

١ ـ أخبرني عن عشرات الأسماء الأمريكية البارزة المبشرة، والتي انتظمت في السلك الدبلوماسي لكي يحققوا مآربهم في مصر.

٢ ـ عرض عليّ ترجمة كتابي : «العدالة الاجتماعية في الإسلام» الذي صدر سنة ١٩٤٩م مقابل عشرة آلاف دولار، فرفضت العرض وقدمته إلى المجلس الأمريكي للدراسات الاجتماعية مجانًا.

٣ ـ حدثني عن مستقبل مصر السياسي وعن جماعة الإخوان وشكك فيها، وأنها تريد بمصر السوء، وأن الأمل معقود على المثقفين ليلحقوا مصر بالحضارة الغربية.

٤ ـ ونصحني كثيراً أن أكف عن معاداة بريطانيا ومهاجمتها؛ لأنها إذا خرجت فستحل محلها أمريكا، وهي أشد عداءً منها.

قلت : وما أعجب ما بأمريكا، من موقفهم من الإسلام والمسلمين؟

قال : أعجب شيء هو أنني أقمت في **ولاية كاليفورنيا** مدة طويلة وأقمت في عاصمتها «**سان فرنسيسكو**» غير أن جوها لم يرق لي فمرضت ودخلت مشفاها، وهناك وجدت علامات البشر والسرور بادية على وجوه العاملين بالمستشفى، ولما سألت ما الخطب؟ وما الأمر؟ قالوا : لقد مات الشيخ البنا ـ رحمه الله ـ، فاعجب، إن شئت تعجبًا، واعتبر بما كان، وما هو كائن.

قلت : حدثني عن رحلتك مع الإخوان، فيم، ومتى، كيف ؟!

قال : لقد أعجبت بالإخوان إعجابًا امتلك عليّ عقلي ووجداني وكل مشاعري، حيث أعجبت بالمؤسس الأول **حسن البنا** ـ رحمه الله ـ، وقد عبرت عن ذلك بانضمامي إليهم في مطلع سنة ١٩٥٣م، حيث بنى البنا الإخوان على أسس سليمة فجاء بناؤه روحيًا نفسيًا في نفس كل فرد، وبناءً فكريًا متوازنًا في تصور الأفراد والجماعة، وبناءً تنظيميًا متينًا رفيعًا لدى الأفراد، ولدى الوحدة التنظيمية للجماعة.

ولي مقال عن «**حسن البنا ، وعبقرية البناء**» قلت فيه : « لقد عرفت العقيدة الإسلامية كثيراً من الدعاة، ولكن الداعية غير البنّاء، وما كل داعية يملك أن يكون بنّاءً ـ مشيراً إلىٰ حسن البنا ، حيث إن اسمه «البنا» أي البناء ـ وما كل بنّاء يوهب هذه العبقرية الضخمة في البناء!! هذا البناء الضخم، الإخوان المسلمون، إنه مظهر هذه العبقرية الضخمة في بناء الجماعات» .

ثم قلت : حيا الله الإخوان المسلمين، لقد تلفتت مصر حين جد الجد، وتحرج الأمر، ولم يعد الجهاد هتافًا وتصفيقًا، بل عملاً وتضحية ، ولم يعد الكفاح دعاية وتهريجًا، بل فداءً واستشهاداً .

قلت : حدثنا عن صفقات النظام معك قبل استشهادك، وفيم ساوموك، ولم أعدموك؟

قال : انضممت إلىٰ الإخوان مطلع عام ١٩٥٣م، ثم مضت بي سنون حتىٰ أصابني لفح لهيب السلطة، فاعتقلت في ٩/ ٨/ ١٩٦٥ ثم حقق معي صلاح نصر، وأوسعني زبانية عبد الناصر سوء العذاب، ثم حاكمني الدجوي، وما رقت السلطة لمرضي، ولا استمعوا لمقالي، ولا اعتبروا بإدانة منظمة العفو الدولية لمحاكمتي، وما، وما . . **وقبل قتلي بأيام أرسلوا إليَّ يساومونني بأن :**

١ ـ أترك التنظيم الإخواني الجديد .

٢ ـ أكتب ولو سطراً واحدًا أو جملة للرئيس عبد الناصر أسترحمه وأستعطفه .

٣ ـ أن أتخلىٰ عن دعوتي، وأعتذر عن عملي مع الله ومقابل ذلك فهناك المال والجلال والرفعة والدنيا قائمة لي وقاعدة، ولما استعليت بالحق عليهم وقطعت رجائي عنهم، تلمظوا، وحكموا عليَّ بما تعلمون .

ظلال سيد قطب ، بين واقعنا المرير وواقعه الكسير :

قلت : هل حدثتني عن ظلالك، في حلك وترحالك، وعن أفانينه ومناسبته، وكيف خططت روائعه، ومتى وأين؟

قال : طلب إليَّ الأستاذ سعيد رمضان أن أشارك بمقال دائم في مجلته «المسلمون» فاخترت أن أكتب تفسيراً للقرآن، وكان ذلك سنة ١٩٥١م، وبهذا

استمرت حلقات التفسير وانتهيت حتى الآية (١٠٣) من سورة البقرة ثم عملت على إظهار أجزاء منه بعيداً عن المجلة وكان ذلك سنة ١٩٥٢م، حيث صدر منه ستة عشر جزءاً ثم أكملت باقيه في السجون حيث حكموا عليّ بخمسة عشر عاماً.

قلت : لقد عددناك عالماً مجدداً في التفسير لما أضفت إليه من أفكار حركية، وتربوية على التفاسير السابقة بما يمكن أن نسميك «رائد مدرسة التفسير الحركي» إذ تناولت فيه قضايا : «العقيدة والدعوة والحركة والجهاد والتشريع والجاهلية».

الفكر الإسلامي الحديث ومستقبله القيادي عند سيد قطب :

يبدأ سيد قطب من إفلاس الديمقراطية الغربية، ومن التنبؤ بإفلاس الاشتراكية الماركسية، وهو ما وقع بعد ذلك بثلاثة عقود من الزمان .

قلت : وما رأيك من قيادة الرجل الغربي للعالم بما فيه عالمنا الإسلامي؟

قال : إن قيادة الرجل الغربي للبشرية قد أوشكت على الزوال؛ لأنه لم يعد يملك رصيداً، من القيم يسمح له بالقيادة، والإسلام وحده هو الذي يملك مقومات هذه القيادة.

قلت : فماذا عن الفن الإسلامي من وجهة نظرك ؟

قال : الفنان المسلم رجل يعيش على الأرض بروح تحلق في السماء، فهو يتفاعل مع الواقع الاجتماعي بعقيدة ربانية ومنهج إلهي؛ ليسمو به إلى غاياته التي يتطلع بها إلى عالم الخلود الذي سوف يستقر به في نهاية المطاف، والذي يعنيه ما سبق أن الفن الإسلامي مذهب مستقل يتباين تماماً عن تلك المذاهب الفنية التي نشأت عن تطور المفاهيم العلمانية في الغرب.

ولكن ذلك لا يعني في نفس الوقت أن الفن الإسلامي مدرسة فنية غير قابلة للتجديد؛ لأن التصور الإسلامي للوجود والذي نعبر عنه هنا بالمثالية العقائدية والقيمية للتصور الإسلامي، والجانب المتغير هو الفاعلية الإنسانية التي يتعامل بها هذا التصور مع الواقع المتغير قابل للتشكل الفني بحسب التوجهات البشرية المختلفة، ومن المزج بين هذا وذاك يتسع المجال لأن تتوالد العديد من المدارس الفنية المتجددة، ولكنه سيلاحظ دائماً أنها تختلف عن تلك المدارس الفنية الأخرى التي تتفاعل على أرضية أيديولوجية فنية مختلفة.

سيد قطب، طليق بفكره وإيمانه :

قلت : يا صاحب الظلال ـ لله درك ـ كيف عشت هذه الأيام العجاف، أيام حكم الطواغيت، وكيف وقفت في وجههم، وأنىَّ لك أن تواجه مكائدهم، وأنت ذو الجسد النحيل، والجسم العليل، والمرض الملازم، أما تراجعت لهم، أما استسغت أن تبري قلمك في مدحهم وتحاول أن تصيب بعضًا من دنياهم، أو حتى تداريهم على مذهب من قال :

إِذَا مَا كُنْتَ ثمةَ في مَعْشَـرٍ قَدْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلى بُغْضِهِم
فَدَارِهِمْ مَا دُمْتَ في دارِهِمْ وَارْضِهِم ما دُمْتَ فـي أَرْضِهِم

قال : يا بن ياسين، عد إلىٰ مقدمة الظلال، وشروح آيات العذاب والوبال، وستجد ما يشفيك ويغنيك عن سؤالك، وإليك نبأ من أخباري ونتفًا من أحوالي وحتىٰ لا يطول بنا المقام لسردها، وتضيق بنا الورقات عن وصفها: «عشتُ في ظلال القرآن هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير، عشت أرىٰ يد الله في كل حادث وفي كل أمر. عشت في كنف الله وفي رعايته، عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالىٰ وفاعليتها»: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ** ﴾(١). ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾(٢). ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾(٣). ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾(٤).

أما عن مواقفي من طواغيت عصري فإنها بادية للعارفين، ومثبتة في كتب الأعداء قبل الأصدقاء، إنها الجلد بالله، والصبر علىٰ قضاء الله، وبالإيمان واجهتهم لقد أفزعت نظراتي محاكمهم الظالمة.

وقد صدر عليَّ الحكم بالإعدام، وفي ليلة التنفيذ ساوموني علىٰ أن أكتب بخطي حرفًا أمتدح فيه طاغوت مصر وفرعونها، فأبيت، وألح حمزة البسيوني ـ مدير السجن الحربي ـ علىٰ أختي حميدة لكي تنجيني بكتابة كليمات معدودات أصبح بها في عداد أقطاب النظام، فأبيت ـ **والكلام لسيد قطب** ـ ولسان حالي يقول:

(١) النمل: ٦٢. (٢) الأنعام: ١٨.
(٣) الطلاق: ٢، ٣. (٤) الطلاق: ٣.

لَعَمْـرُكَ إِنِّي أَرَى مَصْرَعِـي وَلَكِـنْ أغــذ إليـه الخُطَـا

لَعَمْرُكَ هَذَا مَمَاتُ الرِّجَالِ فَمَـنْ رَامَ مَوْتًا شَرِيفًا فَذَا

فاستعليتُ بالله، وصبرت على قضاء الله، ورأيت فكري وقلمي وديني يأبى عليَّ إلا الصمود، عساني ألحق بالصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

قلت: هل جاءك أنباء سقوط قاتلك، وسقوط حصنه الفكري، ومرجعه الأيديولوجي بسقوط الاتحاد السوفيتي وانحلال مبادئه وفشل التجربة الشيوعية، والأيديولوجية الماركسية وسقوط أقنعة كثير من أتباعها الذين حاربوك، وحاربوا التيار الإسلامي وعملوا، على وأده؟! غير أنه ظهر جيل من تلامذة الغرب وأبواقهم يدعون «العلمانيون» يطلبون إلينا التعلمن، وترك الدين للمسجد فقط واستبدال القرآن بشرع نابليون أو بشرع دوركايم وشرع داروين والمدرسة الوضعية الغربية التي تجحد كل وحي وروح ولاتعترف إلا بالمحسوس المادي؟!

قال: إن هناك عصابة من المضللين الخادعين، أعداء البشرية، يضعون لها المنهج الإلهي في كفة والإبداع الإنساني في عالم المادة في كفة أخرى، ثم يقولون لها: اختاري!! اختاري إما المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدعته يد الإنسان في عالم المادة، وإما الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلي عن منهج الله!! وهذا خداع لئيم خبيث، فوضع المسألة ليس هكذا أبداً، إن المنهج الإلهي ليس عدواً للإبداع الإنساني، إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة، وذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض!!

أمة الإسلام، بين عبث العابثين وقضاء رب العالمين:

قلتُ: أيا شهيد الفكر، ماذا ترى في حالنا، وذلنا، وتأخر أمتنا وذلة حضارتنا، واستخذائنا أمام أعدائنا أتلك مصادفة، أم عن تقصير، أم عن خيانة، أم وأم؟!

قال: «في ظلال القرآن» تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة، ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾(١)، ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾(٢)، وكل أمر لحكمة.

(١) القمر: ٤٩. (٢) الفرقان: ٢.

قلت : **فما حكمة ما حاق بأمتنا ؟ وماذا عن أسباب ذلتها وقهرها ؟!**

قال : «حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة : ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾(١) ، ﴿ ... **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾(٢) ، والأسباب التي تعارف إليها الناس قد تتبعها أثارها وقد لا تتبعها ، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها ، ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنتج الآثار والنتائج ، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء» .

قلت : **طال ظلام أمتنا، وكثر عسارها، وقام أعداؤها، واجتمعوا على أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وعلى نحر الإسلام ووأد الإيمان، فمتى نصر الله؟!**

التفت سيد قطب مشفقًا من سؤالي، ومترفقًا بحالي كأنما يُهدئ من روعي، ويخفف من لوعتي في ثبات العلماء وعلم الأثبات.

قال : «تعلمت أن يد الله تعمل ، ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة ، وأنه ليس لنا أن نستعملها ، ولا أن نقترح على الله شيئًا ، فالمنهج الإلهي موضوع ليعمل في كل بيئة ، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية ، وفي كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة ، وهو موضوع لهذا الإنسان الذي يعيش في هذه الأرض آخذًا في الاعتبار فطرة هذا الإنسان وطاقاته ، واستعداداته ، وقوته وضعفه ، وحالاته المتغيرة التي تعتريه ، والمنهج الإلهي موضوع للمدى الطويل الذي يعلمه خالق هذا الإنسان ، ومنزل هذا القرآن ، ومن ثم لم يكن متعسفًا ولا عجولاً في تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج» .

قلت : **إذن سينتصر دين الله ويحق الحق وتعز الأمة ويعود الإسلام عاليًا خفاقًا بنا أو بغيرنا !**

قال : الإسلام يسير هينًا لينًا مع الفطرة يدفعها من هنا ويردعها من هناك ، ويقومها حين تميل ، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها ، إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة ، والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية والثالثة أو

(١) النساء : ١٩ . (٢) البقرة : ٢١٦ .

العاشرة أو المائة أو الألف، فالزمان ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلىٰ الهدف الكبير طويل .

ثم شبَّه سيد قطب وأحسن التشبيه فقال : «وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك، وكذلك ينبت الإسلام، ويمتد في بطء وعلىٰ هينة وفي طمأنينة» .

شريعة الإسلام ، في عالم العولمة ، ومنظومة الفكر المادي :

قلت : فماذا ترى في إعمال شريعة الإسلام في الألفية الثالثة، أنتريث في المطالبة بها، أم نغفل عن ذلك في ظل ظروفنا، وسوء أحوالنا؟!

قال : إن الاحتكام إلىٰ منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعًا ولا موضع اختيار، إنما هو الإيمان، أو فلا إيمان : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾(١) . ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاتَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾(٢)، الأمر إذن جد، إنه أمر العقيدة من أساسها .

قلت : وكيف نقنع العقلاء بأهمية الشريعة، وأنها مفتاح الخير والسعادة للمسلمين فضلاً عن البشرية جمعاء، كيف وبم؟!

قال : إن هذه البشرية ـ وهي من صنع الله ـ لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده ـ سبحانه ـ وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل داء : ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾(٣) . ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾(٤) . ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية المسكينة الحائرة، البشرية التي لن تجد الرشد، ولن تجد الهدىٰ، ولن تجد الراحة ولن تجد السعادة، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلىٰ صانعها الكبير، كما يرد الجهاز الزهيد إلىٰ صانعه الصغير . . !

قلت : فماذا ترى في تلك المناهج المادية، والبهارج الحضارية الوافدة من الغرب

(١) الأحزاب : ٣٦ . (٢) الجاثية : ١٨ .
(٣) الإسراء : ٩ . (٤) الإسراء : ٨٢ .

والتي تسعى لاستلاب المسلمين، وردهم عن دينهم وفتنتهم عن حضارتهم وتراثهم؟!

قال سيد قطب : لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعدما فسدت الأرض، وأَسِنَتْ الحياة، وتعفنت القيادات، وذاقت البشرية الويلات، تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن وبالشريعة المستمدة من هذا التصور فكان ذلك مولداً جديداً للإنسان، أعظم من المولد الذي كانت بعد نشأته، ثم وقعت تلك النكبة القاصمة، ونحىٰ الإسلام عن القيادة لتتولاها الجاهلية مرة أخرىٰ، في صورة من صورها الكثيرة صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم.

ثم إن أولئك الذين يصنعون المنهج الإلهي في كفة والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرىٰ، فهم سيئو النية، شريرون يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال، وهمت أن تسمع صوت الحادي الناصح، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة، وأن تطمئن إلىٰ كنف الله.

سنن الله ماضية في الأمم الإباحية، ولو بعد حين :

قلت : يا صاحب الظلال، ما ردك على من يقول : «إن الأمم المتحضرة تنتشر فيها الفواحش والانحلالات، ولا يقيمون شرع الله، ومع ذلك فهي سبيلنا للتحضر، وقدوتنا للتمدن، وأن علينا أن نسلك نهجهم، ونتبع دربهم لكي ننال منالهم في التقدم والرقي»، وهؤلاء هم أدعياء الانحلال والتعلمن والتفسخ، فماذا نقول وماذا عن ظلالك الوارفة، وأفكارك العارفة، في دحر مقالاتهم، ودحض نظرياتهم ؟!

قال : «ما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلىٰ انحلال منذ التاريخ القديم إلىٰ العصر الحديث، وقد يغر بعضهم أن أوروبا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو الفاحشة فيهما! ولكن آثار هذا الانحلال في الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لا شك فيها، أما الأمم الفتية كأمريكا فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب، واتساع موارده كالشاب الذي يسرف في شهواته فلا يظهر أثر الإسراف في بنيته وهو شاب ولكنه سرعان ما يتحطم عندما يدلف إلىٰ الكهولة، فلا يقوىٰ علىٰ احتمال آثار السن، كما يقوىٰ عليها المعتدلون من أنداده»، ولا يجوز لنا أن تخدعنا ظواهر كاذبة، في فترات موقوتة؛ إذ نرىٰ أممًا لا تؤمن ولا تتقي، ولا تقيم منهج الله في حياتها وهي موفورة الخيرات، كثيرة الإنتاج، عظيمة الرخاء، إنه رخاء موقوت، حتىٰ

تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت، وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني، وتظهر بعض هذه الآثار في صور شتى.

مجازر الهندوس في المسلمين .. بين واقعنا وواقع سيد قطب :

قلت : هل جاءتك أنباء عن صنيع الهندوس المجرمين بالمسلمين، وأنهم هدموا أقدم مساجد الهند «بابري» وأرادوا أن يشيدوا بيتًا لعبادة إلههم، بل بقرتهم المزعومة رام؟! وهل علمت ماذا يصنع بكشمير المسلمة من فظائع وجرائم؟!

قال : إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن هذه الصورة، يشير إلى وقائع التتار وتدميرهم للمسلمين - إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمن البعيد، إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند تحت وطأة التعذيب والهجمات البربرية عليهم قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط، أما الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق، طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة، فذبحتهم كالخراف على طول الطريق، وتركت جثثهم نهبًا للطير والوحش بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة. . !!

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل خمسين ألف موظف مسلم إلى باكستان، حيث دخل القطار نفقًا بين الحدود الهندية الباكستانية وخرج من الناحية الأخرى ليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار، فقد خرجت عليه العصابات الهندية الوثنية المدربة وجعلته دماء وأشلاء، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً** ﴾(١) ، كيف وما تزال المذابح تتكرر بصور شتى(٢) .

مذابح الأمة، وإباحة دمائها ، بين الروس والصرب والبوذيين :

قلت : وماذا عن تدمير الروس للشيشان وإبادة شعبها المسلم، وتعيين حكومة عميلة لتصفية البقية المجاهدة من الشيشان، وماذا عن أفاعيل الصين الشيوعية وما تمارسه في حق المسلمين من إجرام وترحيل، وعذاب وتنكيل في حق ٩٠ مليون مسلم في تركستان.

قال : إنهم خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية، لقد أبادوا من

(١) التوبة : ٨ . (٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٠٩) بتصرف يسير .

المسلمين في خلال ربع قرن ستة وعشرين مليونًا بمعدل مليون في السنة، وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق، غير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لهولها الأبدان.

ثم التفت إليّ قطب كأنما يريد أن يذكر بمثال على هول ما يلاقيه المسلمون إذ سرد قصة عذاب أحدهم بقوله:

«لقد جيء بأحد الزعماء المسلمين، فحفرت له حفرة في الطريق العام، وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب، أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية، فيلقون بها على الزعيم المسلم في حفرته، وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق في الحفرة حتى مات» (١).

قلت: وهل جاءك نبأ ما صنع السولاف من اليوغسلاف في المسلمين، إذ ذبحوا المسلمين عيانًا بيانًا، جهارًا نهارًا في قلب أوربا وهتكوا أعراضهم، ودمروا بيوتهم، وسلبوا أرضهم، حتى رق الغرب المتواطئ وأخذ في التدخل ومحاكمة ميلسوفتش بعدما أباد المسلمين في البوسنة والهرسك، وبعدما ذبح مسلمي كوسوفا، هذا بعض عن حالنا، فماذا كان عن حالهم في وقتك، وفي عصرك؟!

قال: كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها، أبادت منهم مليونًا منذ الفترة التي صارت في شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية، وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشي التي من أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالاً ونساءً في مفارم اللحوم التي تصنع لحوم (البولوبيف) ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظم والدماء، وما يجري في يوغسلافيا يجري في جميع الدول الشيوعية والوثنية الآن في هذا الزمان، ويصدق قول الله سبحانه: ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً** ﴾(٢).

طامة المسلمين الكبرى، باليهود، عدوهم اللدود:

قلت: يا صاحب الظلال هل لليهود سلام؟ وهل هم أهل عهد وإيمان؟وهل يكفوا عن الفساد، وهل يصحٌ لنا أن نُطَبِّعَ معهم؟ ونعترف بوجودهم، ونعاشر أحبارهم ورهبانهم فهم كما يطنطن الزعماء، وكما تنشره علينا قنوات الفضاء؟

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٠٩، ١٦١٠) بتصرف يسير. (٢) التوبة: ٨.

قال : إن اليهود لا عهد لهم ولا ذمة، ولا سلام عندهم ولا أمان، وهذا ما حكىٰ الله عنهم «ولقد عادوا إلىٰ الإفساد في عهد المسلمين فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها، ثم عادوا إلىٰ الإفساد فسلط عليهم (هتلر)، ولقد عادوا إلىٰ الإفساد في صورة (إسرائيل) التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات، وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقًا لوعد الله القاطع، ووفقًا لسنته التي لا تتخلف، وإن غداً لناظره قريب(١) .

قلت : يا مفكر الشهداء لقد استأسد علينا اليهود، ورفعوا لمواجهتنا بروتوكولاتهم والتلمود..!! فما سبيل دفعهم، وكيف لنا أن ندحرهم، كما تفيأت ذلك في ظلال القرآن؟!

قال : يوم تفيء الأمة المسلمة إلىٰ الإسلام، وتؤمن به علىٰ حقيقته وتقيم حياتها كلها علىٰ منهجه وشريعته، يومئذ يحق وعد الله علىٰ شر خلق الله، واليهود يعرفون هذا (٢) .

قلت : لقد كثر فسادهم، وعم تخريبهم، وهذا مخيم جنين بعد دير ياسين شاهد على فظائعهم!!

قال : هم يسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد، ويصبون كل ما في أيديهم من بطش وفتك علىٰ طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض ويضربون ـ لا بأيديهم ـ ولكن بأيدي عملائهم ضربات وحشية منكرة، لا ترعىٰ في العصبة المؤمنة إلا ولا ذمة، ولكن الله غالب علىٰ أمره، ووعد الله لابد أن يتحقق.

إن هذا الشر والفساد الذي تمثله يهود لابد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه، فالله لا يحب الفساد في الأرض، وما لا يحبه الله لابد أن يبعث عليه من عباده من يزيله ويقضي عليه : ﴿ **وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ (٣) ، (٤) ا. هـ.

---

(١) في ظلال القرآن (٤ / ٢٢١٦).
(٢) في ظلال القرآن (٢ / ٩٣٠).
(٣) المائدة : ٦٤ .
(٤) في ظلال القرآن (٢ / ٩٣١).

١٨ ـ أبـو الحسـن النـدوي

(١٣٣١ ـ ١٤٢٠ هـ / ١٩١٣ ـ ١٩٩٩م)

محطتنا هذه سنُشَّرق فيها إلى أبعد حد ؛ إلى حيث شبه القارة الهندية، لنلحظ آثار الإسلام على رجالات تلك المنطقة ، وليثبت الإسلام في كل حين أنه خير مقوم للإنسانية، فهذا هو علامة الهند الإمام أبو الحسن الندوي ، وقد توجهت كعادتي صوب المترجمين أسائلهم عما في جعبتهم وقلت : يا أيها المترجمون، حدثوني عن إمام القارة الهندية وعالمها وإمامها.

من هو أبو الحسن الندوي؟

قالوا : عالم رباني، وداعية مجاهد، وأديب تميز بجمال الأسلوب وصدق الكلمات، إنه الداعية الكبير ورباني الأمة الشيخ أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ صاحب أشهر مُؤلَّف في المكتبة الإسلامية في هذا القرن وهو كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

وقالوا : الشيخ أبو الحسن الندوي عرفه الناس من خلال مؤلفاته الرائدة التي تعد من المصابيح التي أضاءت الطريق أمام طلاب العلم من جيله والأجيال التي تلته، ونذكر هنا سطوراً ومواقف لا تنسى من حياته.

قلت : فماذا عن ميلاده الميمون وسيرته العلمية المباركة؟

قالوا : ولد بقرية تكية، مديرية رائي بريلي الهندية عام ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٣م.

تَعَلَّمَ في دار العلوم بالهند (ندوة العلماء)، والتحق بمدرسة الشيخ أحمد علي في لاهور، حيث تخصص في علم التفسير، ومن يوم تخرجه أصبح شعلة للنشاط الإسلامي سواء في الهند أو خارجها، وقد شارك ـ رحمه الله ـ في عدد من المؤسسات والجمعيات الإسلامية، ومنها تأسيس المجمع العلمي بالهند، وتأسيس رابطة الأدب الإسلامي، كما أنه : عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضو المجلس التنفيذي لمعهد ديوبند، ورئيس مجلس أبناء مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية.

قلت : وماذا له من المؤلفات غير كتابه الفذ «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ؟

قالوا : يعد من أشهر العلماء المسلمين في الهند، وله كتابات وإسهامات عديدة في الفكر الإسلامي، فله من الكتب : موقف الإسلام من الحضارة الغربية، السيرة النبوية، من روائع إقبال، نظرات في الأدب، من رجالات الدعوة، قصص النبيين للأطفال، وبلغ مجموع مؤلفاته وترجماته ٧٠٠ عنوان، منها ١٧٧ عنوانًا بالعربية، وقد تُرْجِمَ عدد من مؤلفاته إلى الإنجليزية والفرنسية والتركية والبنغالية والإندونيسية وغيرها من لغات الشعوب الإسلامية الأخرى.

كان سماحة الشيخ كثير السفر إلى مختلف أنحاء العالم لنصرة قضايا المسلمين والدعوة للإسلام وشرح مبادئه، وإلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العلمية والمؤتمرات، تولى منصب رئيس ندوة العلماء منذ عام ١٩٦١م وظل فيه حتى وفاته، وقد منح عدداً من الجوائز العالمية منها جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام.

قلت :ألا لله أنت يا أبا الحسن الندوي، ويا إمام عصرك فضلاً وعلمًا ومجداً رحمك الله رحمة واسعة، ثم انتبهت وقلت.. حدثوني أيها المترجمون عن مقالات ومقولات من ثناء أئمة الهدى عليه.

قالوا : اسمع يا بن ياسين. قال عنه الشيخ الغزالي - رحمه الله : هذا الإسلام لا يخدمه إلا نفس شاعرة محلقة، أما النفوس البليدة المطموسة فلا حظ لها فيه، لقد وجدنا في رسائل الشيخ الندوي لغة جديدة، وروحًا جديدة، والتفاتًا إلى أشياء لم نكن نلتفت إليها.

إن رسائل الشيخ هي التي لفتت النظر إلى موقف ربعي بن عامر رضي الله عنه بين رستم قائد الفرس وكلماته البليغة له، التي لخصت فلسفة الإسلام في كلمات قلائل، وعبرت عن أهدافه بوضوح بليغ، وإيجاز رائع :

« إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» .

أبو الحسن الندوي ـ فيما أعلم ـ هو أول من نبهنا إلىٰ قيمة هذا الموقف وهذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت»(١) .

وقد أصدر الدكتور يوسف القرضاوي بيانا من الدوحة نعىٰ فيه العالم الكبير الشيخ أبا الحسن، مؤكدا أن الشيخ أبا الحسن الندوي كان يمثل نسيجا مميزا من العلماء المسلمين ينضم إلىٰ العلماء الكبار الذين فقدتهم الأمة الإسلامية خلال العام الأخير من القرن العشرين.

قلت : وبم امتاز الشيخ أبو الحسن الندوي عن غيره من علماء الأمة ـ رحمه الله **كل رحمة وطيب ثراه جعل الجنة مثواه؟**

قالوا : اسمع ما قاله معاصروك في هذا. .

قال الشيخ القرضاوي في نعيه: إن الشيخ الندوي كان يتمتع بخمس صفات تميزه عن غيره من العلماء فهو: إمام رباني، إسلامي، قرآني، محمدي، عالمي.

فأما أنه رباني فلأن سلف الأمة قد أجمعوا علىٰ أن الرباني هو من يعلم ويعمل ويعلِّم، وهي الصفات الثلاثة التي كان يتحلىٰ بها الشيخ، وأما أنه إسلامي فلأن الإسلام كان محور حياته ومرجعه في كل القضايا، والدافع الذي يدفعه إلىٰ الحركة والعمل والسفر والكتابة والجهاد، ساعيًا لأن يقوي الجبهة الداخلية الإسلامية في مواجهة الغزوة الخارجية عن طريق تربية الفرد باعتباره اللبنة الأساسية في بناء الجماعة المسلمة، وأما أنه قرآني فلأن القرآن هو مصدره الأول الذي يستمد منه ويعتمد عليه ويرجع إليه ويستمتع به ويعيش في رحابه ويستخرج منه اللآلئ والجواهر.

وأما أنه محمدي فليس لمجرد أنه من نسل الإمام الحسن حفيد الرسول ﷺ فكم من حسنيين وحسينيين تناقض أعمالهم أنسابهم ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، بل لأنه جعل من الرسول الكريم ﷺ أسوته في هديه وسلوكه وحياته كلها، واتخذ سيرته نبراسًا له في تعبده وزهده وإعراضه عن زخارف الدنيا وزينتها، فهو يعيش في الخلف عيشة السلف.

---

(١) انظر : موقع الإيمان علىٰ الإنترنت.

قلت :هلا حدثتموني عن بعض مآثر الشيخ الشخصية والأخلاقية.

قالوا :اسمع حديثًا عذبًا، ومقالاً صادقًا من حبٍّ للندوي وصاحب مقرب منه **قال الدكتور يوسف القرضاوي** : الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي أحد أعلام الدعاة إلىٰ الإسلام في عصرنا، بلا ريب ولا جدال، عبَّرت عن ذلك : كتبه ورسائله ومحاضراته التي شرقت وغربت، وقرأها العرب والعجم، وانتفع بها الخاص والعام.

كما أنبأت عن ذلك رحلاته وأنشطته المتعددة المتنوعة في مختلف المجالس والمؤسسات، وبعض كتبه قد رزقها الله القبول، فطبعت مثنىٰ وثلاث ورباع، وأكثر من ذلك، وترجمت إلىٰ لغات عدة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

والحق أن الشيخ ـ رحمه الله ـ قد آتاه الله من المواهب والقدرات، ومنحه من المؤهلات والأدوات ما يمكنه من احتلال هذه المكانة الرفيعة في عالم الدعوة والدعاة.

فقد آتاه الله العقل والحكمة: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾(١).

والحكمة أولىٰ وسائل الداعية إلىٰ الله تعالىٰ، كما قال عز وجل : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾(٢) .

ولهذا نجده يقول الكلمة الملائمة في موضعها الملائم، وفي زمانها الملائم، يشتد حيث تلزم الشدة، حتىٰ يكون كالسيل المتدفق، ويلين حيث ينبغي اللين، حتىٰ يكون كالماء المغدق، وهذا ما عرف به منذ شبابه الباكر إلىٰ اليوم.

قلت : فما معين الندوي في علومه؟ وكيف طبقت الآفاق متميزاً عن غيره من علماء عصره؟، وما سره الدفين في إحاطاته وجمعه بين القديم والحديث؟

قالوا :إليك سؤلك يا بن ياسين حيث يوضح **الدكتور القرضاوي** أن الثقافة الواسعة هي أهم جوانب حياة **الشيخ الندوي** فقد آتاه الله : الثقافة التي هي زاد الداعية الضروري في إبلاغ رسالته، وسلاحه الأساسي في مواجهة خصومه، وقد

(١) البقرة : ٢٦٩ . (٢) النحل : ١٢٥ .

تزوَّد الشيخ بأنواع الثقافة الستة التي يحتاجها كل داعية وهي : الثقافة الدينية، واللغوية، والتاريخية، والإنسانية، والعلمية، والواقعية، بل إن له قدمًا راسخة وتبريزاً واضحًا في بعض هذه الثقافات، مثل الثقافة التاريخية، كما برز ذلك في أول كتاب دخل به ميدان التصنيف، وهو الكتاب الذي كان رسوله الأول إلىٰ العالم العربي قبل أن يزوره ويتعرف إليه، وهو كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» الذي نفع الله به الكثيرين من الكبار والصغار، ولم يكد يوجد داعية إلا واستفاد منه.

وقد ساعده على ذلك : تكوينه العلمي المتين، الذي جمع بين القديم والحديث، ومعرفته باللغة الإنجليزية إلىٰ جوار العربية والأردية والهندية والفارسية، ونشأته في بيئة علمية أصيلة، خاصة وعامة.

فوالده العلامة عبد الحي الحسني صاحب موسوعة «نزهة الخواطر» في تراجم رجال الهند وعلمائها، ووالدته التي كانت من النساء الفضليات المتميزات فكانت تحفظ القرآن، وتنشئ الشعر، وتكتب وتؤلف، ولها بعض المؤلفات، ومجموع شعري، كما نشأ في رحاب «ندوة العلماء» ودار علومها، التي كانت جسراً بين التراث الغابر، والواقع الحاضر، والتي أخذت من القديم أنفعه، ومن الجديد أصلحه، ووفقت بين العقل والنقل، وبين الدين والدنيا، وبين العلم والإيمان، وبين الثبات والتطور، وبين الأصالة والمعاصرة.

قلت :قد سمعنا عن دماثة خلقه وطيب معاشرته، وعارضة فضله، فهلاحدثتموني عن أطراف منها كقطر الندى تبل الصدا.

قالوا : إليك حديثًا غضًا نديًا عن حسن أخلاقه ورائع فعاله، وجميل خصاله إذ آتاه الله الخلق الكريم والسلوك القويم.

وقد قال بعض السلف : « التصوف هو الخُلق، فمن زاد عليك في الخُلق فقد زاد عليك في التصوف! ».

وعلَّق على ذلك الإمام ابن القيم في «مدارج السالكين» فقال : «بل الدين كله هو الخلق، فمن زاد عليك في الخُلق فقد زاد عليك في الدين».

ومن عاشر الشيخ ـ ولو قليلاً ـ لمس فيه هذا الخلق الرضي، ووجده مثالاً مجسداً لما يدعو إليه، فسلوكه مرآة لدعوته، وهو رجل باطنه كظاهره، وسريرته كعلانيته، نحسبه كذلك، والله حسيبه، ولا نزكيه على الله ـ عز وجل.

ومن هذه الأخلاق الندوية: الرقة، والسماحة والسخاء والشجاعة، والرفق، والحلم، والصبر، والاعتدال، والتواضع، والزهد، والجد، والصدق مع الله ومع الناس، والإخلاص، والبعد عن الغرور والعجب، والأمل والثقة والتوكل واليقين والخشية والمراقبة، وغيرها من الفضائل والأخلاق الربانية والإنسانية، وهذا من بركات النشأة الصالحة في بيئة صالحة.

قلت: فماذا عن عقيدة الشيخ إذْ إن كثيرًا ما يجهل الناس عقيدة إخواننا في شبه القارة الهندية ويلتبس عليهم فهمها؟

قالوا: اسمع خبيرًا عن ذلك، حيث يتناول الدكتور القرضاوي جانب العقيدة في حياة الندوي فيقول: **آتاه الله قبل ذلك كله: العقيدة السليمة**: عقيدة أهل السنة والجماعة، سليمة من الشركيات والقبوريات والأباطيل، التي انتشرت في الهند، وكان لها سوق نافقة، وجماعات مروجة تغدو بها وتروح، تأثروا بالهندوس ومعتقداتهم وأباطيلهم، كما هو الحال عند جماعة «البريليوين» الذين انتسبوا إلى التصوف اسمًا ورسمًا، والتصوف الحق براء منهم، وقد حفلت عقائدهم بالخرافات، وعباداتهم بالمبتدعات، وأفكارهم بالترهات، وأخلاقهم بالسلبيات.

ولكن الشيخ تربى على عقائد مدرسة «ديوبند» التي قام عليها منذ نشأتها علماء ربانيون، طاردوا الشرك بالتوحيد، والأباطيل بالحقائق، والبدع بالسنن، والسلبيات بالإيجابيات، وأكدت ذلك مدرسة الندوة ـ ندوة العلماء ـ وأضافت إليها روحاً جديدة، وسلفية حية حقيقية، لا سلفية شكلية جدلية.

إن العقيدة السلفية عند الشيخ هي: توحيد خالص لله تعالى لا يشوبه شرك، ويقين عميق بالآخرة لا يعتريه شك، وإيمان جازم بالنبوة لا يداخله تردد ولا وهم، وثقة مطلقة بالقرآن والسنة، مصدرين للعقائد والشرائع والأخلاق والسلوك.

قلت : **فماذا عن المشروع الفكري والدعوي للعلامة أبي الحسن الندوي، وما أصوله وأركانه ؟**

قالوا : لتسمع الإجابة من خبير عارف بهذا؛ حيث يلخص العلامة القرضاوي أهم جوانب المشروع الفكري والدعوي للعلامة الندوي في ركائز وأسس تبلغ العشرين، منها انطلق، وإليها يستند، وعليها يعتمد، نجملها فيما يلي :

١ـ تعميق الإيمان في مواجهة المادية :

وقد تخللت هذه الركيزة الفكرية المحورية معظم رسائله وكتبه؛ وخصوصًا : الصراع بين الإيمان والمادية، ماذا خسر العالم، الصراع بين الفكر الإسلامي والفكرة الغربية.

٢ ـ إعلاء الوحي على العقل :

بمعنىٰ اعتبار الوحي هو المصدر المعصوم، الذي تؤخذ منه حقائق الدين وأحكامه، من العقائد والشرائع والأخلاق، واعتبار نور النبوة فوق نور العقل، فلا أمان للعقل من العثار إذا سار في هذا الطريق وحده، ولا أمان للفلسفات المختلفة في الوصول إلىٰ تصور صحيح عن الألوهية والكون والإنسان والحياة، حتىٰ الفلسفة الدينية أو علم الكلام حين خاضا هذه اللجة غرقا فيها.

٣ ـ توثيق الصلة بالقرآن الكريم :

باعتباره كتاب الخلود، ودستور الإسلام وعمدة الملة، وينبوع العقيدة، وأساس الشريعة، وهو يوجب اتباع القواعد المقررة في تفسيره وعدم الإلحاد في آيه، وتأويلها وفق الأهواء والمذاهب المنحولة.

٤ ـ توثيق الصلة بالسنة والسيرة النبوية :

وذلك أن السنة مبينة القرآن وشارحته نظريًا، والسيرة هي التطبيق العملي للقرآن، وفيها يتجلىٰ القرآن مجسداً في بشر كان خلقه القرآن، وتتجلي الأسوة الحسنة التي نصبها الله للناس عامة، وللمؤمنين خاصة، لهذا كان من المهم العيش

في رحاب هذه السيرة، والاهتداء بهديها والتخلق بأخلاقها، لا مجرد الحديث عنها، باللسان أو بالقلم.

وقد بيَّنَ الشيخ أثر الحديث في الحياة الإسلامية، كما أبدع في كتابة السيرة للكبار وللأطفال، وهو هنا يجمع بين عقل الباحث المدقق، وقلب المحب العاشق، وهذا يكاد يكون مبثوثًا في عامة كتبه.

٥ ـ إشعال الجذوة الروحية (الربانية الإيجابية):

إنه إشعال للجذوة الروحية في حنايا المسلم، وإعلاء «نفخة الروح» على قبضة الطين والحمأ المسنون في كيانه، وإبراز هذا الجانب الأساسي في الحياة الإسلامية التي سماها الشيخ «ربانية لا رهبانية» وهو عنوان لأحد كتبه الشهيرة، وقد سماه بهذا الاسم لسببين:

السبب الأول: أن يتجنب اسم التصوف لما علق به من شوائب، وما ألصق به من زوائد، على مر العصور.

والسبب الثاني: إبراز العنصر الإيجابي في هذه الحياة الروحية المنشودة، فهي روحية اجتماعية، وهي ربانية إيجابية تعمل للحياة ولا تعتزلها، ولا تعبدها، وتجعل منها مزرعة للحياة الأخرى: حياة الخلود والبقاء. كما وضح الشيخ الندوي الجانب التعبدي الشعائري في حياة المسلم في كتابه المعروف «الأركان الأربعة» وهو يمثل نظرة جديدة في عبادات الإسلام الكبرى: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وآثارها في النفس والحياة.

٦ ـ البناء لا الهدم:

والجمع لا التفريق فالشيخ الندوي ـ رحمه الله ـ جعل همه في البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق وأنا أشبهه هنا بالإمام حسن البنا ـ رحمه الله، الذي كان حريصاً على هذا الاتجاه الذي شعاره: نبني ولا نهدم، ونجمع ولا نفرق، ونُقرّب ولا نباعد، ولهذا تبنى قاعدة المنار الذهبية:

«نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه».

٧ ـ إحياء روح الجهاد في سبيل الله :

وتعبئة قوىٰ الأمة النفسية للدفاع عن ذاتيتها ووجودها، وإيقاد شعلة الحماسة للدين في صدور الأمة، التي حاولت القوىٰ المعادية للإسلام إخمادها، ومقاومة روح البطالة والقعود، والوهن النفسي، الذي هو حب الدنيا وكراهية الموت، وهذا واضح في كتابه «ماذا خسر العالم» وفي كتابه «إذا هبت ريح الإيمان» ومنذ رسائله الأولىٰ وهو ينفخ في هذه الروح، ويهيب بالأمة أن تنتفض للذود عن حماها، وتقوم بواجب الجهاد بكل مراتبه ومستوياته حتىٰ تكون كلمة الله هي العليا.

٨ ـ استيحاء التاريخ الإسلامي وبطولاته :

والركيزة الثامنة: استيحاء التاريخ ـ ولا سيما تاريخنا الإسلامي ـ لاستنهاض الأمة من كبوتها، فالتاريخ هو ذاكرة الأمة، ومخزن عبرها، ومستودع بطولاتها.

والشيخ يملك حساً تاريخيًا فريداً، ووعيًا نادراً بأحداثه، والدروس المستفادة منها، كما تجلىٰ ذلك في رسالته المبكرة «**المد والجزر في تاريخ الإسلام**» وفي كتابه: «**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟**» وفي غيره، والتاريخ عنده ليس هو تاريخ الملوك والأمراء وحدهم، بل تاريخ الشعوب والعلماء والمصلحين والربانيين، ليس هو التاريخ السياسي فقط، بل السياسي والاجتماعي والثقافي والإيماني والجهادي.

ولهذا يستنطق التاريخ بمعناه الواسع، ولا يكتفي بمصادر التاريخ الرسمية، بل يضم إليها كتب الدين، والأدب، والطبقات المختلفة، وغيرها.

٩ ـ نقد الفكرة الغربية والحضارة المادية أو الجاهلية الحديثة :

ورؤيته في هذا واضحة كل الوضوح لحقيقة الحضارة الغربية وخصائصها، واستمدادها من الحضارتين: الرومانية واليونانية، وما فيهما من غلبة الوثنية، والنزعة المادية الحسية والعصبية القومية، وهو واع تمامًا للصراع القائم بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية وخصوصاً في ميادين التعليم والتربية والثقافة والقيم والتقاليد.

وقد أنكر الشيخ موقف الفريق المستسلم للغرب، المقلد له تقليداً أعمى في الخير والشر، ومثله : موقف الفريق الرافض للغرب كله، المعتزل لحضارته بمادياتها ومعنوياتها، ونوه الشيخ بموقف الفريق الثالث، الذي لا يعتبر الغرب خيراً محضاً، ولا شراً محضًا، فيأخذ من الغرب وسائله لا غاياته، وآلياته لا منهج حياته، فهو ينتخب من حضارته ما يلائم عقائده وقيمه، ويرفض ما لا يلائمه.

١٠ ـ نقد الفكرة القومية والعصبيات الجاهلية :

لذا وقف في وجه «القومية العربية» العلمانية المعادية للإسلام، المفرقة بين المسلمين، والتي اعتبرها بعضهم «نبوة جديدة» أو «ديانة جديدة» تجمع العرب علىٰ معتقدات ومفاهيم وقيم غير ما جاء به محمد ﷺ الذي هدىٰ الله به أمة العرب، وجمعهم به من فرقة، وأخرجهم من الظلمات إلىٰ النور.

١١ ـ مقاومة الردة الفكرية :

هي مقاومة الردة الفكرية التي تفاقم خطرها بين العرب والمسلمين عامة، والمثقفين منهم خاصة، فكما قاوم الشيخ الردة الدينية التي تمثلت في القاديانية، التي أصر علماء المسلمين كافة في باكستان علىٰ اعتبارهم أقلية غير مسلمة، لم يألُ جهداً في محاربة هذه الردة العقلية والثقافية.

١٢ ـ تأكيد دور الأمة المسلمة واستمرارها في التاريخ نبراس هداية للبشرية.

١٣ ـ بيان فضل الصحابة ومنزلتهم في الدين :

أي : بيان فضل الجيل المثالي الأول في هذه الأمة، وهو جيل الصحابة رضوان الله عليهم، أبر الناس قلوبًا، وأعمقهم علمًا، وأقلهم تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه، ونصرة دينه، وأنزل عليهم ملائكته في بدر والخندق وحنين، وهم الذين أثنىٰ عليهم الله تعالىٰ في كتابه في عدد من سوره، وأثنىٰ عليهم رسوله في عدد من أحاديثه المستفيضة، وأكد ذلك تاريخهم وسيرتهم ومآثرهم، فهم الذين حفظوا القرآن، والذين رووا السنة، والذين فتحوا الفتوح، ونشروا الإسلام في الأمم، وهم تلاميذ المدرسة المحمدية، وثمار غرس التربية النبوية.

١٤ ـ التنويه بقضية فلسطين وتحريرها :

فقضية فلسطين ليست قضية الفلسطينيين وحدهم، ولا العرب وحدهم، بل هي قضية المسلمين جميعاً، فلابد من إيقاظ الأمة لخطرها، وتنبيهها على ضرورة التكاتف لتحريرها، واتخاذ الأسباب، ومراعاة السنن المطلوبة لاستعادتها.

١٥ ـ العناية بالتربية الإسلامية الحرة التي لا تستمد فلسفتها من الغرب ولا من الشرق :

إنما تستمد فلسفتها من الإسلام عقيدة وشريعة وقيمًا وأخلاقًا، في حين تقتبس وسائلها وآلياتها من حيث شاءت، في إطار أصولها المرعية، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، وهو ينكر على التعليم القديم طرائقه في العناية بالألفاظ والجدليات، كما ينكر على التعليم الحديث إغفاله للروح وأهداف الحياة.

١٦ ـ العناية بالطفولة والنشء والكتابة للأطفال والناشئين بوصفهم رجال الغد وصناع تاريخ الأمم.

١٧ ـ إعداد العلماء والدعاة الربانيين.

١٨ ـ ترشيد الصحوة والحركات الإسلامية التي يشهدها العالم الإسلامي.

قلت : حدثوني ـ أيها الفضلاء، وأذيعوا ما لم أحب أن أسمع وقد كان عن وفاة الشيخ ـ رحمه الله.

قالوا : لقد أهجت كامنًا وأيقظت شعوراً كان نائمًا، وأعدت الحسرة على الفقدان بسؤلك عن ممات الإمام الندوي فاسمع :

كان الشيخ أبو الحسن الندوي قد توفاه الله في يوم مبارك وهو يوم الجمعة، وفي شهر رمضان المبارك أثناء اعتكافه بمسجد قريته «تكية» بمديرية «راي باريلي» في شمال الهند وجرى دفنه مساء نفس اليوم في مقبرة أسرته بالقرية في حضور الأقارب والأهالي، وبعض مسؤولي ندوة العلماء التي ظل مرتبطًا بها طيلة حياته الحافلة بالجهاد والدعوة طوال ٨٦ عاماً هي عمر الفقيد ـ رحمه الله.

وقد عم الحزن الأوساط الإسلامية في الهند جمعاء، وصدرت بيانات عن كل الجمعيات والمنظمات والمؤسسات الإسلامية الكبرىٰ تنعي وفاته، وتعتبرها خسارة لا تعوض لمسلمي الهند والعالم الإسلامي، ويصعب تعويضها في المستقبل القريب.

وقال رئيس الوزراء الأسبق (في. بي. سينغ): « إن وفاة الشيخ أبي الحسن خسارة شخصية له ».

وقد توالت التعازي من مختلف أنحاء الهند والعالم في الفقيد الكبير، وأقيمت له صلاة الغائب والترحم في مختلف المناطق.

رحمه الله رحمة واسعة.

سابعاً : من أعمدة الدعوة والفقه والحديث المعاصرين

١٩ ـ الإمام الفقيه سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز .

٢٠ ـ سماحة الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني .

١٩ ـ العلاَّمة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز فقيه الأمة المُعاصرة

(١٣٣٠ ـ ١٤٢٠هـ / ١٩١٢ ـ ١٩٩٩م)

محطتنا ما قبل الأخيرة مع علامة الحجاز، ورجل من العلماء الأفذاذ، إنه العلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز، من إذا تحدث في الفقه قلت كأنه لا يعلم شيئًا سوى الفقه، وإن تحدث في الحديث ظننته لا يعلم شيئًا سوى علوم الحديث.

وكعادتي توجهت إلىٰ أصحاب الأقلام السامية والهمم العالية .

قلت : هلا نبأتموني خبرًا عن عالم الجزيرة وفقيهها، وعن من وضع له القبول بين الناس، وهو الذي حقيق بقول القائل: «كاد من شهرة اسمه لا يسمى».

قالوا : لقد سألت عن معلوم ، واستوضحت عن إمام همام يشار إليه في المحافل بالبنان ، وهو **العلاَّمة الداعية الفقيه عبد العزيز بن عبد الله بن باز** أشهر علماء وفقهاء الجزيرة العربية ، هو : الإمام الصالح الورع الزاهد أحد الثلة المتقدمين بالعلم الشرعي ، ومرجع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، في الفتوىٰ والعلم ، وبقية السلف الصالح في لزوم الحق والهدىٰ المستقيم ، واتباع السنة الغراء ، الذي تلقىٰ الناس فتاواه ورسائله بالقبول وتتلمذ علىٰ يديه المئات .

قلت :حدثوني يا أهل الفضل عن آله، ونشأته الصالحة وأصله وغصنه الطيبين.

قالوا : اسمع وأنصت وامتع بحديث عن الشيخ رحمه الله رحمة واسعة :

وُلِدَ سماحة الشيخ ابن باز في الرياض عاصمة نجد يوم الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ ، وترعرع فيها وشب وكبر ، ولم يخرج منها إلا ناويًا للحج والعمرة (١) .

(١) آل باز ، أسرة عريقة في العلم والتجارة والزراعة ، معروفة بالفضل والأخلاق ، أصلهم من المدينة المنورة .

نشأ سماحة الشيخ عبد العزيز في بيئة عطرة بأنفاس العلم والهدىٰ والصلاح، بعيدة كل البعد عن مظاهر الدنيا ومفاتنها، وحضاراتها المزيفة؛ إذ الرياض كانت في ذلك الوقت بلدة علم وهدىٰ فيها كبار العلماء، وأئمة الدين، من أئمة هذه الدعوة المباركة التي قامت علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهي دعوة الإمام المجدد محمد ابن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ وفي بيئة غلب عليها الأمن والاستقرار وراحة البال، فهكذا نشأ سماحته في بيئة علمية

قلت : فما سر نشأته الطيبه؟ وما جذور دوحة هذه السيرة البازية العاطرة؟

قالوا : يابن ياسين، هذا مما لا يخفىٰ علىٰ ناظر إنها بركة كتاب الله، ولا ريب أن القرآن العظيم كان ولا يزال ـ ولله الحمد والمنة ـ هو النور الذي يضيء حياته، وهو عنوان الفوز والفلاح، فبالقرآن الكريم بدأ الشيخ دراسته ـ كما هي عادة علماء السلف ـ رحمهم الله ـ إذ يجعلون القرآن الكريم أول المصادر العلمية ـ فيحفظونه ويتدبرونه أشد التدبر، ويعون أحكامه وتفاسيره، ومن ثمَّ ينطلقون إلىٰ العلوم الشرعية الأخرىٰ، فحفظ الشيخ القرآن الكريم عن ظهر قلب قبل أن يبدأ مرحلة البلوغ، فوعاه وأتقن سوره وآياته أشد الإتقان، ثم بعد حفظه لكتاب الله، ابتدأ سماحته في طلب العلم علىٰ يد العلماء بجد وجلد وطول نفس وصبر(١) .

أما عن أسرته فهي أسرة آل باز معروفة بالعلم والفضل، والزهد والورع ويغلب علىٰ بعض أفرادها العناية بالتجارة، وعلىٰ بعضها العناية بالزراعة، كما أن الطابع الغالب علىٰ هذه الأسرة، هو طابع الجد في ممارسة الخير، سعيًا في نشدان الكسب الحلال، والمذاكرة الحيّة في مسائل الدين، مع الالتزام بالفضائل والأخلاق الحميدة .

قلت : هلا أخبرتموني عن السابقين الأولين من أهل العلم والفضل من هذه الأسرة قبل الشيخ .

قالوا : نعم من أبرز علماء هذه الأسرة الشيخ عبد المحسن بن أحمد بن

---

(١) ولقد ذكر سماحته في محاضرته النافعة رحلتي مع الكتاب: أن لوالدته ـ رحمها الله ـ أثرًا بالغًا، ودورًا بارزاً في اتجاهه للعلم الشرعي، وطلبه، والمثابرة عليه، فكانت تحثه وتشد من أزره، وتحضه علىٰ الاستمرار في طلب العلم، والسعي وراءه بكل جد واجتهاد.

عبدالله بن باز ـ رحمه الله ـ المتوفى سنة ١٣٤٢ هـ، كانت له دراية تامة في الفقه، واطلاع واسع على العلوم الشرعية، ومحبة لطلبة العلم والاعتناء بهم، مع حسن الأخلاق، وكريم الشمائل، وطيب التعليم والتدريس.

ومن العلماء البارزين من تلك الأسرة :

ـ الشيخ مبارك بن عبد المحسن بن باز المكنى « بأبي حسين » وهو من كبار حملة العلم المعروفين بالعلم والفضل وحسن السيرة.

ـ وكان والده الشيخ عبد المحسن ـ رحمه الله ـ هو قاضي بلدة الحلوة، فقرأ عليه في بعض العلوم الشرعية في أول طلبه للعلم، ثم لما توفي والده، تولى القضاء بعده، ثم نقل بعد ذلك إلى قضاء عدة بلدان منها بيشة، والأرطاوية، ورنية.

قلت : لله شيخنا الإمام لقد بلغ الفضل وفاق الأقران وهو فاقد لبصره، غير أن الله سبحانه قد أعاضه عنه بصيرة بصراء قوامها النبوغ والاستبصار والاستشراف لكل هذه، فماذا عن تلك الآفة من فقده لبصره أما عوقته عن طلب العلم ؟

قالوا : تعلم يابن ياسين أن سماحة الشيخ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ كان مبصراً في أول حياته، وشاء الله لحكمة بالغة أرادها أن يضعف بصره في عام ١٣٤٦هـ إثر مرض أصيب به في عينيه ثم ذهب جميع بصره في عام ١٣٥٠ هـ، وعمره قريب من العشرين عامًا؛ ولكن ذلك لم يثنه عن طلب العلم، أو يقلل من همته وعزيمته بل استمر في طلب العلم ملازمًا لصفوة فاضلة من العلماء الربانيين والفقهاء الصالحين، فاستفاد منهم أشد الاستفادة، وأثّروا عليه في بداية حياته العلمية، بالرأي السديد، والعلم النافع، والحرص على معالي الأمور، والنشأة الفاضلة، والأخلاق الكريمة، والتربية الحميدة، مما كان له أعظم الأثر، وأكبر النفع في استمراره.

قلت : فهل استفاد الشيخ من فقد بصره وقلب المحنة به إلى منحة ؟

قالوا : صدقت فيما أخبرت، هو كما قلت، فقد استفاد ـ رحمه الله ـ من

فقده لبصره فوائد عدة نذكر على سبيل المثال منها **أربعة أمور** :

■ **الأمر الأول** : حسن الثواب، وعظيم الأجر من الله - سبحانه وتعالى - فقد روى الإمام البخاري في صحيحه في حديث قدسي أن الله تعالى يقول: «**إذا ابتَليتُ عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة**»(١)، يعني عينيه.

■ **الأمر الثاني** : قوة الذاكرة، والذكاء المفرط : فالشيخ - رحمه الله - حافظ العصر في علم الحديث، فإذا سألته عن حديث من الكتب الستة، أو غيرها كمسند الإمام أحمد والكتب الأخرى تجده في غالب أمره مستحضراً للحديث سنداً ومتناً، ومن تكلم فيه، ورجاله وشرحه.

■ **الأمر الثالث** : إغفال مباهج الحياة، وفتنة الدنيا وزينتها، فالشيخ - رحمه الله - كان متزهداً فيها أشد الزهد، وتورع عنها، ووجه قلبه إلى الدار الآخرة، وإلى التواضع والتذلل لله - سبحانه وتعالى.

■ **الأمر الرابع** : استفاد من مركب النقص بالعينين، إذ ألح على نفسه وحطمها بالجد والمثابرة حتى أصبح من العلماء الكبار، المشار إليهم بسعة العلم، وإدراك الفهم، وقوة الاستدلال، وقد أبدله الله عن نور عينيه نوراً في القلب، وحباً للعلم، وسلوكاً للسنة، وسيراً على المحجة، وذكاءً في الفؤاد(٢).

قلت : حدثوني إذن عن بعض من بصيرة الشيخ وقوة ضالعته ؟

قالوا : وكان الشيخ عبد العزيز - رحمه الله - صاحب بصيرة نافذة، وفراسة حادة، يعرف ذلك جيداً من عاشره وخالطه، وأخذ العلم على يديه. ومما يؤكد على فراسته أنه يعرف الرجال وينزلهم منازلهم، فيعرف الجادّ منهم في هدفه ومقصده من الدعاة وطلبة العلم فيكرمهم أشد الإكرام، ويقدمهم على من سواهم، ويخصهم بمزيد من التقدير ويسأل عنهم وعن أحوالهم دائماً، وله فراسة في معرفة

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٣)، وأحمد (٣/ ١٤٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) انظر عن سيرة الشيخ وترجمته: كتاب «الإنجاز في ترجمة الإمام عبدالعزيز بن باز»، موقعه على النت ضمن باقة موقع السلفيين.

رؤساء القبائل والتفريق بين صالحهم وطالحهم، وله فراسة أيضًا في ما يعرض عليه من المسائل العويصة، والمشكلات العلمية؛ فتجده فيها متأملاً متمعنًا لها، تقرأ عليه عدة مرات، حتىٰ يفك عقدتها، ويحل مشكلها، وله فراسة أيضًا في ما يتعلق بالإجابة عن أسئلة المستفتين، فهو دائمًا يرىٰ الإيجاز ووضوح العبارة ووصول المقصد إن كان المستفتي عامياً من أهل البادية، وإن كان المستفتي طالب علم حريصًا علىٰ الترجيح في المسألة، أطال النفس في جوابه مع التعليلات وذكر أقوال أهل العلم، وتقديم الأرجح منها، وبيان الصواب بعبارات جامعة مانعة.

قلت : لله مقالكم العذب هلا حدثتموني عن طرف من أخلاق الشيخ ومثله من كان خلوقًا خلوقًا .

قالوا : لقد سألت عن معروف يدركه ابن الطريق فضلاً عن الآخرين فاسمع :

كانت للشيخ هيبة فيها عزة العلماء مع عظيم مكانتهم وكبير منزلتهم، وهذه الهيبة قذفها الله في قلوب الناس، وهي تنم عن محبة وإجلال وتقدير له، لا من خوف وهلع وجبن معه، بل إن الشيخ ـ رحمه الله ـ قد فرض احترامه علىٰ الناس، بجميل شمائله وكريم أخلاقه، مما جعلهم يهابونه حياء منه، ويقدرونه في أنفسهم أشد التقدير.

ومما زاد هيبته أنه ابتعد عن ساقط القول، ومرذول اللفظ، وما يخدش الحياء أشد الابتعاد، فلا تكاد تجد في مجلسه شيئًا من الضحك إلا نادراً ولمامًا، بل كنت تجد مجالسه عامرة بذكر الله، والتفكر والتأمل في الدار الآخرة.

ومع هذه المكانة العظيمة، والمنزلة السامية، والهيبة، فإنه آية في التواضع، وحسن المعاشرة، وعلو الهمة، وصدق العزيمة، مع عزة في النفس، وإباء في الطبع، بعيد كل البعد عن الصلف والتكلف المذموم كأنه وضع بين نصب عينيه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة ص : ٨٦ .

قلت : فماذا عن الشيخ والدنيا، هل أصابته بشراك، منها أم كان من الزاهدين فيها وعنها ؟

قالوا : اسمع يا بن ياسين، فالشيخ ـ رحمه الله ـ كان مثالاً يحتذىٰ به، وعَلَمًا يُقتدىٰ به، وقدوة في الزهد والورع وإنكار الذات، والهروب من المدائح والثناءات العاطرة، وكم من مرة سمعته في بعض محاضراته، حين يطنب بعض المقدمين في ذكر مناقبه وخصاله الحميدة، وخلاله الرشيدة، يقول : «لقد قصمت ظهر أخيك، وإياكم والتمادح فإنه الذبح، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون» بمثل هذه الكلمات النيرة، والتوجيهات الرشيدة نراه يكره المدح والثناء كرهًا شديداً، وهذا يدل علىٰ زهد في القلب وعفة في الروح، وطهارة في الجوارح، وخشية للمولىٰ ـ جل وعلا .

فصاحته وخطابته :

قلت : سمعنا ورأينا وتحسسنا فصاحة وبلاغة الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ فهو معدود من الفقهاء أرباب الفصاحة، وأساطين اللغة، وخاصة في علم النحو، وفي علوم اللغة العربية كافة، هلا حدثتمونا عن طرائف من ذلك.

قالوا : نعم فلتسمع ولتصغ أما وإنك رأيت الشيخ وسمعت منه فإنه كذلك، تبرز سيماء فصاحته وبلاغته في كتاباته ومحادثاته، وخطبه ومحاضراته وكلماته، فهو ذو بيان مشرق، ونبرات مؤثرة حزينة، وأداء لغوي جميل، ويميل دائمًا إلىٰ الأسلوب النافع الذي كان عليه أكثر أهل العلم وهو الأسلوب المسمىٰ «السهل الممتنع» فتجده ـ رحمه الله ـ من أكثر الناس بعداً عن التعقيد والتنطع في الكلام والتشدق في اللفظ والمعنىٰ، والتكلف والتمتمة، بل هو سهل العبارة، عذب الأسلوب، تتسم عباراته وكتاباته بالإيجاز والإحكام والبيان .

ومن نوافل الأمور أن يقدر القارئ الكريم ثقافة الشيخ ـ رحمه الله ـ في اللغة والأدب وحسن البيان؛ لأن معرفة ذلك وإتقانه من الأسس الرئيسة في فهم آيات الكتاب ونصوص السنة النبوية، ومعرفة مدلولات العلماء، ولهذا كان الشيخ ـ رعاه الله ـ متمكنًا مجيداً للخطابة والكتابة .

والشيخ، رحمه الله. خطيب مصقع، وواعظ بليغ سواء في محاضراته الكثيرة النافعة أو تعقيباته على محاضرات غيره، ومن مميزاته وخصائصه الخطابية قدرته على ترتيب أفكاره حتى لا تتشتت، وضبطه لعواطفه حتى لا تغلب عقله، ثم سلامة أسلوبه، الذي لا يكاد يعتريه اللحن في صغير من القول أو كبير، وأخيراً تحرره من كل أثر للتكلف والتنطع.

قلت : يا تلامذة الشيخ ومحبيه هلا حدثتموني عن ذاكرة الشيخ الدينية، وقد علمنا أنه منح حافظة راصدة ذاكرة واعية .

قالوا : نعم يابن ياسين، أما وإنه من جليل ما تميّز به سماحته ـ رحمه الله ـ قوة الحافظة، وسرعة البديهة، واستحضار مسائل العلم بفهم واسع، ووفرة في العلم، وشدة في الذكاء، وغزارة في المادة العلمية، فهو ـ رعاه الله ـ صاحب ألمعية نادرة، ونجابة ظاهرة.

وإن نعمة الحفظ، وقوة الذاكرة، هما من الأسباب القوية ـ بعد توفيق الله عز وجل ـ على تمكنه من طلبه للعلم، وازدياد ثروته العلمية، المبنية على محفوظاته التي وعتها ذاكرته في مراحل التعلم والتعليم، وقد حباه الله من الذكاء وقوة الحفظ وسرعة الفهم، مما مكنه من إدراك محفوظاته العلمية عن فهم وبصيرة.

ومما يؤكد على ذلك أنه ربما سُئِلَ عن أحاديث منتقدة في الكتب الستة وغيرها من كتب السنة، فيجيب عليها مع تخريجها والتكلم على أسانيدها ورجالها، وذكر أقوال أهل العلم فيها، وهو ممَّن منَّ الله عليه بحفظ الصحيحين واستحضارهما، ولا يكاد يفوته من متونهما شيء.

ومما يؤكد ويبرهن على قوة حافظته وحضور بديهته ، أنه في كلماته ومحاضراته ومواعظه تجده كثير الاستدلال بالنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال أهل العلم الشرعية، يأتي عليها بسياقها ولفظها وتمامها، وهكذا في اجتماعات هيئة كبار العلماء، تجده يذكر المسألة وأقوال أهل العلم فيها مبيناً الجزء والصفحة والكتاب المنقول عنه القول.

وثم أمر آخر يؤكد قوة حافظته. أنه يميز بين أصوات محبيه الذين يقدمون للسلام عليه، مع كثرة عددهم، وقد حدَّثني بعض من عاصر الشيخ قديمًا وحديثًا أنه

قدم للسلام عليه بعد مدة من الزمن طويلة، فبادره بالسلام، فعرفه من أول وهلة، ورد عليه السلام مناديًا باسمه، وهذا دأبه في أغلب من يقدمون عليه للسلام.

وأيضًا مما يؤكد قوة ذاكرته أنك تجده يورد القصص القديمة التي حصلت قبل ستين سنة أو أكثر كأنه مطلع عليها، ينظر إليها ويتأمل في أمرها، وهذا أمر معلوم عند من خالط الشيخ وعرفه تمام المعرفة.

قلت: يرحم الله فقيه الأمة وشيخها الحب المبارك ابن باز، أما وإنه ميت فقد أبقى من العلم والفضل ما هو مبق لذكره وباق أجره، وأما وإنه ذاك العلم الذي ينتفع به من مؤلفاته وآثاره العلمية، فاذكروا لنا عنها طرفًا.

قالوا: لقد أثرىٰ الشيخ ـ رحمه الله ـ المكتبة الإسلامية بمؤلفات عديدة تنوعت بين:

- كتب في العقيدة الإسلامية بأنواعها وأقسامها المختلفة، ونبه إلىٰ البدع والمنكرات.
- وألَّف في الفقه وأصوله وقواعده، وفي العبادات والمعاملات والبيوع المحرمة، وكتب في الحديث وأصوله ومصطلحاته، وفي الأذكار وفوائدها.
- وفي التراجم.
- وعن المرأة المسلمة ودورها في بناء المجتمع، وإنقاذها من براثن الكفر والشبه الضالة.
- وفي التشريع والجهاد في سبيل الله.
- وفي فضل الدعوة إلىٰ الله، ومسؤولية الشباب المسلم، وفي الحض علىٰ الزواج المبكر.
- كما أنه كتب كتبًا تدفع المطاعن والشبهات في الدين، وكتب في الغزو الفكري، والقومية العربية، والحداثة الشعرية.

فهذه الكتب المتنوعة يجمعها: صدق النصيحة، مع صدق العبارة، مع الأسلوب الواضح المفهوم لخاصة الناس وعامتهم، فنفع الله بهذه المؤلفات نفعًا عظيمًا،

حتىٰ أن كثيراً منها قد ترجم لعدة لغات ؛ لكي يستفاد منه ، حتىٰ أنني رأيت بعض كتب سماحته ـ في أدغال أفريقيا ـ وقد وصلت إلىٰ كل بقعة من العالم الإسلامي .

وإليك بعضاً من مؤلفاته رحمه الله :

١ ـ الأدلة الكاشفة لأخطاء بعض الكتاب .

٢ ـ الأدلة النقلية والحسية علىٰ إمكان الصعود إلىٰ الكواكب وعلىٰ جريان الشمس وسكون الأرض .

٣ ـ إقامة البراهين علىٰ حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين .

٤ ـ الإمام محمد بن عبد الوهاب : دعوته وسيرته .

٥ ـ بيان معنىٰ كلمة : «لا إله إلا الله» .

٦ ـ التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة علىٰ ضوء الكتاب والسنة .

٧ ـ تنبيهات هامة علىٰ ما كتبه محمد علي الصابوني في صفات الله عز وجل .

٨ ـ العقيدة الصحيحة وما يضادها .

٩ ـ الدعوة إلىٰ الله .

١٠ ـ تنبيه هام علىٰ كذب الوصية المنسوبة إلىٰ الشيخ أحمد .

١١ ـ وجوب العمل بالسنة وكفر من أنكرها .

١٢ ـ الدعوة إلىٰ الله ـ سبحانه ـ وأخلاق الدعاة .

١٣ ـ الرسائل والفتاوىٰ النسائية : اعتنىٰ بجمعها ونشرها أحمد بن عثمان الشمري .

١٤ ـ الفتاوىٰ .

١٥ ـ فتاوىٰ إسلامية ـ ابن باز ـ ابن عثيمين ـ ابن جبرين .

١٦ ـ فتاوىٰ تتعلق بأحكام الحج والعمرة والزيارة .

١٧ ـ فتاوىٰ المرأة لابن باز واللجنة الدائمة، جمع وترتيب محمد المسند.

١٨ ـ فتاوىٰ مهمة تتعلق بالحج والعمرة.

١٩ ـ فتاوىٰ وتنبيهات ونصائح.

٢٠ ـ الفوائد الجلية في المباحث الفرضية.

٢١ ـ مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة أشرف علىٰ تجميعه وطبعه.

٢٢ ـ مجموعة رسائل في الطهارة والصلاة والوضوء.

٢٣ ـ مجموعة الفتاوىٰ والرسائل النسائية.

٢٤ ـ نقد القومية العربية علىٰ ضوء الإسلام والواقع.

٢٥ ـ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢٦ ـ شرح الأصول الثلاثة.

٢٠ ـ العلاَّمة: محمد ناصر الدين الألباني ناصر السنة .. والذاب عن حديث رسول الله ﷺ

(١٣٣٣ ـ ١٤٢٠ هـ / ١٩١٤ ـ ١٩٩٩ م)

بدأنا محطاتنا هذه بأهل الحديث ونختمها كذلك بأهل الحديث، وهذه المرة مع علم من أعلام المحدثين مع الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ناصر السُنَّة، والذاب عن حديث رسول الله ﷺ وكعادتنا نتجه إلى أهل العلوم والفهوم سائلين عن شيخ العرب والعجم وخليفة بخاري الصحيحين في وقتنا المعاصر.

قلت : أما إن لعصرنا الفخار، أما حقت لألفيتنا الازدهار لوجود بخاري كان منذ قليل حيا بيننا؟؟ أما، وأما؟!

قالوا : أيها الياسيني صدقت، إنه والله بخاري عصره، وسيد مصره، وشيخ أهل زمانه بلا مدافع ولا دافع، إنه الألباني غير أنه في علمه هو البخاري.

قلت : أتحفوني يا أهل عصري بما يقر العين، ويدفع عن جهالتنا الشين، أتحفوني ببليغ قول، وصادح حديث، أو فصيح نظم يوفي للألباني بحقه ؟

قالوا : سألت ما يطاع، فاسمع، وارع سمعك:

ومن الشعر الذي قيل فيه :

إن الذي ينصر شريعة ربنا   يُنصر كما قد قاله الوحيان
ولقد رأينا من محقق عصرنا   أعني المحدث ناصر الألباني
ذاك الذي تسعى حثيثًا ضده   يا ظالمًا فارجع عن العصيان
قام الألى يتعصبون لمذهب   وطريقة وعقيدة الكهان
قام الألى يتعصبون لمذهب   ووظيفة فيها الحطام الفاني
قام الجميع وأعلنوها ثورة   بالسب والتشنيع في البلدان
قامت قيامتهم وقام جميعهم   والشيخ ناصر ثابت الأركان

نشر العلوم بعصرنا يا حبذا — من ناشر لشريعة الرحمن
ترك التعصب للمذاهب كلها — مدح الأئمة شيعة الرحمن
نفع الإله بعلمه رغم الذي — قد قاله ذو الحقد والأضغان
قالوا قريض الشعر قلت أحبه — لا سيما في ناصر الألباني
علم الزمان فلست أزري حقه — شيخ المشايخ ذو النهي الرباني
فهو المجدد للزمان وقد أتى — خبر صحيح ينتهي للداني
في كل آونة يقوم معلم — يدعو لشرعة ربنا الرحمن
فهو الإمام إذا الأئمة عددوا — لا شك عندي والذي سواني
وهو الذي أضحى فريد زمانه — بالفقه والتحديث والقرآن
كم ذب عن سنن النبي محمد — المصطفى المختار من عدنان
كم حارب البدع التي قد شوهت — وجه الشريعة بالأذى الفتان
يدعو إلى التوحيد والتقوى وكم — قال اتبع نبينا العدنان
فرض وحتم لازم لا نهتدي — في غيره إن صح في الميزان

قلت: لله ما قلتم فلقد شنفتم الأسماع، حدثوني إذن عن منشأ الشيخ وبيئته الاجتماعية، وطرفا من سيرته الذاتية.

قالوا: أما عن مولده فقد ولد سماحة العلامة الألباني في مدينة أشقدورة، عاصمة ألبانيا، عام ١٩١٤م، في أسرة فقيرة متدينة، فقد تخرج أبوه نوح نجاتي من المعاهد الشرعية في إستانبول، وبعد أن تولى الملك أحمد زوغو الحكم هاجر أبوه إلى دمشق، بدأ شيخ الإسلام المهاجر دراسته في مدرسة الإسعاف الخيرية الابتدائية بدمشق، استمر على ذلك حتى أشرف على نهاية المرحلة الابتدائية.

قلت: الله الله ياللفخار أفي قلب أوربا يولد هذا العلم، وفي قلب أوربا يولد بخاري العصر، على رغم ما ألم بألبانيا من طمس للهويات، وجناية على قيم الإسلام المشرقات!

قالوا : إن لله في خلقه شؤونًا ، وسبحان من يأتي بنصر دينه ورسوله من هناك .

قلت : فماذا عن سيرته العلمية، هاتوا لي عنها بحديث ؟

قالوا : لاحت في أفق الشرق في سوريا أعاصير الثورة السورية بالفرنسيين الغزاة ، وأصاب المدرسة حريق أتي عليها ، ونظراً لسوء رأي والده في الدراسة النظامية أخرجه من المدرسة ووضع له برنامجًا علميًا مركزا ، فقام بتعليمه القرآن والتجويد والصرف والفقه الحنفي ، كما أنه تلقىٰ بعض العلوم الدينية والعربية علىٰ بعض الشيوخ من أصدقاء والده مثل الشيخ سعيد البرهاني ؛ إذ قرأ عليه كتاب (مراقي الفلاح) وبعض الكتب الحديثة في علوم البلاغة .

قلت : حيا الله أباه وجعل الجنة مثواه، فقد أحسن صنيعا، فماذا عن مشايخه الذين أخذ عنهم الحديث، ونهل عنهم علمه الأول ؟

قالوا : أما عن تعلمه الحديث فقد أخذ الشيخ إجازة فيه من الشيخ راغب الطباخ ، علامة حلب في زمانه ، وذلك إثر مقابلة له بواسطة الأستاذ محمد المبارك الذي ذكر للشيخ الطباخ ما يعرفه من إقبال الفتىٰ علىٰ علوم الحديث وتفوقه فيها ، فلما استوثق من ذلك خصه بإجازته .

وكان قد توجه للحديث وهو في العشرين من عمره متأثراً بالأبحاث التي كان يكتبها محمد رشيد رضا في مجلة المنار .

يقول بخاري عصره الألباني : «أول ما ولعت بمطالعته من الكتب القصص العربية ؛ كالظاهر وعنترة والملك سيف وما إليها ، ثم القصص البوليسية المترجمة كأرسين لوبين وغيرها ، وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدىٰ أحد الباعة جزءاً من مجلة المنار فاطلعت عليه ووقعت فيه علىٰ بحث بقلم السيد رشيد رضا يصف فيه كتاب الإحياء للغزالي ، ويشير إلىٰ محاسنة ومآخذه ، ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي فاجتذبني ذلك إلىٰ مطالعة الجزء كله ثم أمضي لأتابع موضوع تخريج الحافظ العراقي علىٰ الإحياء ورأيتني أسعىٰ لاستئجاره لأني لا أملك ثمنه ، ومن ثم أقبلت علىٰ قراءة الكتب ، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتىٰ صممت علىٰ نسخه» .

قلت : قد سمعنا إن الشيخ عمل في إصلاح الساعات برهة أو حينًا من الدهر فماذا عن حقيقة هذا الخبر ؟

قالوا : وما الخبر يابن ياسين، هل هذا عيب على الشيخ مشين؟، أما وإنه كان يعمل في إصلاح الساعات كاداً جاداً وارثًا ذلك حيث أخذ الشيخ عن والده صناعة إصلاح الساعات حتى صار من أهل الشهرة فيها، وأخذ يكسب رزقه منها، ثم ترك يومين فقط لهذا العمل أما باقي الأيام فكان في المكتبة الظاهرية يدرس وينهمك في المطالعة طوال اليوم.

قلت : فماذا عن منهج الشيخ في تلقي حديث رسول الله ﷺ، هل شاب تلقيه له لوثة ابتداع؟

قالوا : لقد كان لحديث رسول الله ﷺ الأثر الكبير في توجيه الألباني علمًا وعملا، فتوجه نحو المنهج الصحيح، وهو التلقي عن الله ورسوله فقط، مستعينًا بفهم الأئمة الأعلام من السلف الصالح دون تعصب لأحد منهم أو عليه، وإنما كان رائده الحق حيث كان، ولذلك بدأ يخالف مذهبه الحنفي الذي نشأ عليه.

وكان والده ـ رحمه الله ـ يعارضه في مسائل كثيرة في المذهب ، فبين له الشيخ أنه لا يجوز لمسلم أن يترك العمل بحديث رسول الله ﷺ بعد ما ثبت عنه وعمل به بعض الأئمة لقول أحد من الناس، كائناً من كان، ويذكر له أن هذا هو منهج أبي حنيفة وغيره من الأئمة الكرام رحمهم الله.

قلت : رحم الله شيخ السنة، هلا حدثتموني عن بعض تواليفه الحسان التي طبقت الآفاق .

قالوا : أثرى الشيخ الألباني المكتبة الإسلامية بعدد كبير من المؤلفات على رأسها سلسلة الأحاديث الصحيحة وسلسلة الأحاديث الضعيفة وكتاب «صفة صلاة النبي ﷺ» والذي لقي رواجًا كبيراً بين شباب الصحوة الإسلامية.

وحين تمكن الإمام من العلم بدأ يتصل بالناس ينشر الدعوة، فقد رفع الإمام راية التوحيد والسنة وزار الكثيرين من الشيوخ في دمشق، وحين تم تأسيس الجامعة الإسلامية في المدينة وقع اختيار سماحة الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ

رئيس هيئة كبار العلماء ورئيس الجامعة آنذاك ـ علىٰ شيخ الإسلام ليتولىٰ تدريس الحديث وعلومه، ومن آثار الإمام الألباني ـ رحمه الله ـ علىٰ الجامعة أنه وضع القاعدة لمادة الإسناد، وسبق كل الجامعات الموجودة بذلك.

قلت : فماذا عن رحلات الشيخ، ولقاءاته مع العلماء الأعلام المعاصرين له، وماذا عن طرائفه معهم ؟

قالوا : هاجر شيخ الإسلام حفظه الله من دمشق إلىٰ عمان في رمضان عام ١٤٠٠هـ، ثم اضطر للخروج منها عائدا إلىٰ دمشق، ومن هناك إلىٰ بيروت، ثم هاجر إلىٰ الإمارات حيث استقبله محبوه من أهل السنة والجماعة، وحل ضيفًا علىٰ جمعية دار البر، فكانت أيامهم معه أيام علم ونصح وإرشاد وإنهماك في العلم.

وإبان إقامة الشيخ في الإمارات تمكن من السفر إلى الدول الخليجية المجاورة والتقى في قطر بالشيخ محمد الغزالي، والشيخ يوسف القرضاوي، ثم عاد إلىٰ دمشق، وكانت آخر زيارة له لدولة الإمارات في عام ١٩٨٩م، وحين نزل ضيفًا علىٰ جمعية دار البر ألقىٰ الدروس في مزرعة رئيس الجمعية، وسمي المسجد التابع للمزرعة مسجد الإمام الألباني، تخليداً لذكرىٰ زيارته.

قلت : وماذا عن مناقب الشيخ وفضائله، ومكرماته العامرة ؟

قالوا : حدث عن ذلك ولا حرج إذ كان الشيخ ـ رحمه الله ـ متبعًا لمنهج السلف متخلقًا بأخلاقهم وجعل نصب عينيه قول الله ورسوله في كل شيء، فكان لايستحي من الحق، يعلنها في كتبه ومحاضراته، وهذه خصلة حميدة طيبة، كقول أبي حنيفة رحمه الله : «نحن قوم نقول القول اليوم ونرجع فيه غدا، ونقوله غدا ونرجع فيه بعد غد كلنا خطاء إلا صاحب هذا القبر»، وهذا مما جعل لشيخ الإسلام الألباني محبين في كل مكان من عالمنا الإسلامي الكبير، وحسده كثير من جانب آخر.

قلت : قد فرح المسلمون بإعطاء شيخ الإسلام جائزة الملك فيصل ، وهذا تقدير وعرفان من المملكة العربية السعودية لما قام به الشيخ من خدمة للإسلام والمسلمين، فلتحدثونني عن شيء من ثناء العلماء عليه .

قالوا : قد أجيبَ طلبك، فانصت، ودونك عقوداً نضيدات في ثناء العلماء علىٰ بخاري عصره رحمه الله.

١ ـ **قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله** : «ما رأيت تحت أديم السماء عالـماً بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني» .

٢ ـ **وقال الفقيه العلامة الإمام محمد صالح العثيمين** : «إنه حريص جدا على العمل بالسنة، ومحاربة البدعة سواء كانت في العقيدة أم في العمل، ومن متابعتك لمؤلفاته تعرف عنه ذلك، وأنه ذو علم جم في الحديث والرواية والدراية، وأن الله تعالىٰ قد نفع بما كتبه كثيراً من الناس من حيث العلم، ومن حيث المنهاج والاتجاه إلىٰ علم الحديث، وهذه ثمرة كبيرة للمسلمين ولله الحمد» .

٣ ـ **وقال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق** : « عالم من علماء المسلمين، وعلم من أعلام الدعوة إلىٰ الله، وشيخ المحدثين وإمامهم في العصر الراهن، ألا وهو أستاذي محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه الله وبارك فيه» .

٤ ـ **وقال الشيخ محمد إبراهيم شقرة شيخ المسجد الأقصى** : « لو أن شهادات أهل العصر من شيوخ السنة وأعلام الحديث والأثر اجتمعت، فصيغ منها شهادة واحدة، ثم وضعت علىٰ منضدة تاريخ العلماء فإني أحب أن تكون شهادة صادقة في عالم الحديث الأوحد، أستاذ العلماء، وشيخ الفقهاء، ورأس المجتهدين في هذا الزمان، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني أكرمه الله في الدارين» .

٥ ـ **وقال الشيخ مقبل الوادعي** : «والذي أعتقده وأدين الله به أن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني حفظه الله من المجددين الذين يصدق عليهم قول الرسول ﷺ : «**إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها**»(١) .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، والحاكم (٤/ ٥٢٢، ٥٢٣)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني . .

الخاتمة

انتهت حواراتنا مع الكبار، وما انتهى الكبار، **فهم** في كل زمن علامة فاصلة بين العلم والجهل، بين الحركة والسكون، بين التضحية بالنفس والمال في سبيل الله وبين الركون إلى الدنيا بملذاتها وشهواتها، والناظر في تراثنا المكتبي العلمي يجد عشرات من الكتب، بل المئات التي جعلت موضوعها ومجال بحثها عن هؤلاء الكبار، تؤرخ حياتهم وتظهر إنجازاتهم وإسهاماتهم معلنة لكل قارئ ومطلع.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرجال فلاح

فكان من ذلك: «**سير أعلام النبلاء**» وكان «**الإصابة في معرفة الصحابة**» وكان كتاب «**الكمال في معرفة الرجال**»، وكان «**تذكرة الحفاظ**»، وكانت كذلك **الموسوعات العلمية الحديثة** التي تناولت الكبار تعريفًا بهم ونشراً لإسهاماتهم، ونحن بهذه المحاورات نحاول أن نسلك الدرب، ولكن بأسلوبنا الذي أخذ شكل المحاورة بيننا وبين صاحب الترجمة حيث استنطقنا مؤلفاته وتلامذته ومحبيه لتخرج في النهاية حوارات تنبض بالحياة.

اكتفينا في حواراتنا بعشرين من الكبار، لا لأن الكبار عشرون فقط، ولكن اخترناهم اجتهاداً منا لكي نعطي كل شخصية حقها، ونظهر أدق تفصيلات حياتها، وإسهاماتها، ونحن بذلك ما ادعينا العصمة، فالخطأ والنسيان طبع أصيل في بني الإنسان.

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الحوارات والمناقشات كل قارئ ودارس ومطلع، والله تعالى ولي التوفيق.

المؤلف

فهرس



هــذا الكتــاب

الكبـار في كل عـصـر عـلامـة فـاصلة، بـين العلم والجـهل، بـين الحـركـة والسكون، بين التضحية بالنفس والمال في سبيل الله وبين الركون إلى الدنيا بملذاتها وشهواتها، والناظر في تراثنا المكتبي يجد عشرات من الكتب بل المئات التي جعلت موضوعها ومجال بحثها هؤلاء الكبار؛ تؤرخ حياتهم، وتظهر إنجازاتهم وإسهاماتهم.

ونحن في هذا الكتاب نحاول أن نقفو الأثر، ونسلك نفس الدرب، ولكن بأسلوبنا الذي أخذ شكل المحاورة بيننا وبين صاحب الترجمة، حيث استنطقنا مؤلفاته وتلامذته ومحبيه لنتعرف إليه عن قرب، ونعيش معه آلامه وآماله.

فاحرص أخي على هذه المحاورات ففيها نفع إن شاء الله.

والله ولي التوفيق .

المؤلف

يوضع على الغلاف الخلفي لكتاب «العشرون الكبار» .

هذا الكتاب

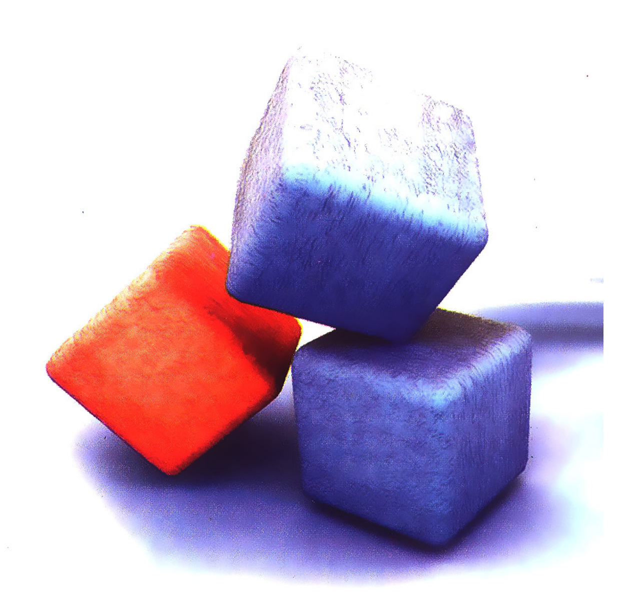
الكبار في كل عصر علامة فاصلة بين العلم والجهل، بين الحركة والسكون، بين التضحية بالنفس والمال في سبيل الله وبين الركون إلى الدنيا بملذاتها وشهواتها ، والناظر في تراثنا المكتبي يجد عشرات من الكتب بل المئات التي جعلت موضوعها ومجال بحثها هؤلاء الكبار تؤرخ حياتهم وتظهر إنجازاتهم وإسهاماتهم .

ونحن في هذا الكتاب نحاول أن نقفو الأثر ونسلك نفس الدرب ولكن بأسلوبنا الذي أخذ شكل المحاورة بيننا وبين صاحب الترجمة حيث استنطقنا مؤلفاته وتلامذته ومحبيه لنتعرف عليه عن قرب ونعيش معه آلامه وآماله .

فاحرص أخي على هذه المحاورات ففيها نفع إن شاء الله .

والله ولي التوفيق

المؤلف





مؤسسة شروق للنشر والتوزيع
المنصورة - ش جيهان أمام مستشفى الطوارئ
تليفون وفاكس :٠٥٠٢٢٥٢٨٦٠ ٠٢
بريد اللكتروني : elshroq2006@yahoo.com